بوريس مورافييف

المعرفة الباطنيّة

دراسة وتعليق
على التقليد الباطنيّ للأرثوذكسيّة الشرقيّة

المجلد الأول

الدورة الخارجية

تعريب وتقديم وتعليق

فؤاد رامز

الناشر

مكتبة مدبولى



بوريس مورافييف
المؤلف

إن الغنوصيّة هي المعرفة الباطنيّة، صادرة عن الحكمة السرّية والمحجوبة ، تبعاً للكتب المقدسة ، وبواسطة تقليد شفهيّ يحيي الحرف. إن الأرثوذكسيّة الشرقية قد حفظت هذا التقليد متكاملا ، في مخبأ قاعدة الاستغلاق . إذا كانت هذه القاعدة قد نجحت، في كل مرة ، منذ آلاف السنين في الحماية والحفاظ فإن الظروف قد تغيرت حالياً. لقد أزيح الستار جزئيًا عن التقليد في المنحنى التاريخي الذي نحن فيه، كما كان قد حدث عند مجيء المسيح . وبالتالي، فقد سُهلت أبحاث جميع الذين يحاولون بكل ما لديهم من قوى أن يتفهموا المعنى الحقيقي للحياة ، والذين يريدون أن يفهموا مهمة الإنسان المفروضة عليه في العصر الذي نحن على عتبته .

قال الرب : "أنا الألفا والأوميجا" البداية والنهاية .

يشغل الإنسان مركزا متوسطا بين هذه الحدود . فهو يبدأ من الألفا ، الحب الذاتي الزائل . وهذا هو الغرض من المعرفة الباطنيّة أن تشير – تبعاً لذلك التقليد – إلى الطريق الذي يقود الإنسان إلى الأوميجا التي ترمز إلى الحب الموضوعيّ الخالد الذي لا يفنى والمنتصر على الموت .

المعرفة الباطنيّة

هذا العمل ترجمة لكتاب

BORIS MOURAVIEFF

GNÔSIS

ÉTUDE ET COMMENTAIRES

SUR LA

TRADITION ÉSOTÉRIQUE DE L'ORTHODOXIE ORIENTALE

TOME PREMIER

(CYCLE EXOTÉRIQUE)

Schémas exécutés par Michel Droin

A LA BACONNIERE

الكتاب : المعرفة الباطنية

التأليف : بوريس مورافييف

الترجمة : فؤاد رامز

الطبعة : الأولى باللغة العربية عام ٢٠٠٤

الناشر : مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤

الجمع التصويرى والتنسيق الداخلى تم بمعرفة المترجم

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٨٦٦٠

الترقيم الدولى : ISBN: 977-208-453-8

بوريس موراڤييف

المعرفة الباطنيّة

دراسة وتعليق
على التقليد الباطنيّ للأرثوذكسيّة الشرقيّة

المجلد الأول

الدورة الخارجية

تعريب وتقديم وتعليق

فؤاد رامز

الناشر

مكتبة مدبولي



" إنما هي حكمة نبشّر بها بين الكاملين ، حكمة لم تكن من هذا العصر ، ولا من رؤساء هذا العصر الذين مصيرهم في العدم . إننا لنبشر بالحكمة الإلهية السريّة والمحجوبة ، التي قد سبق أن خصصها الله من قبل العصور من أجل مجدنا نحن ، بالحكمة التي لم يكن لأحد من رؤساء هذا العصر أن يعرفها ".[١]

(١ إلى أهل كورنثوس، ٢: ٦ إلى ٨)

١- يوجد في النصّ الأصلي: ولا من أعرق أسياد هذه الحقبة : العهد الجديد باليونانية واللاتينيّة. النصّ اليوناني المحقّق المصحّح، ونص الفولجات اللاتيني. الطبعة الثالثة مصحّحة ومنقّحة الخ. الفريدريك براندشيد، فريبورج، ١٩٠٧، الجزء الثاني صفحة ٢٥٨.

هذا الكتاب

هو الترجمة العربية لكتاب

Gnosis, Etude et Commentaires sur La Tradition Ésotérique de L'Orthodoxie Orientale par Boris Mouravieff. Volume 1

والمعـرّب قـد قـام علـى مـدى حـياته بالبحث والدراسات في العلوم الباطنية المسيحية والإسـلامية وقـام بـترجمة النص بموافقة المؤلف واعتماده شخصيا لتأكده من كفاءة ودقة الترجمة تبعاً للمعاني والمفاهيم وروح النص الفرنسي الأصلي .

للوصـول إلـى أدق ترجمة إلى اللغة العربية ، اللغة الحيّة الغنية بالمعاني والمصطلحات ، وللمحافظـة علـى المعـنى وروح الـنص الفرنسي قام المترجم بإضافة مرادفات ومعاني للكلمـات التـي تحتاج شرح ، أو تحتاجها الجملة العربية لتوضيحها للقارئ الكريم ، وتأكيد توصـيل المعنى إليه . وقد دوّن إضافاته بين قوسين في سياق الجملة أو في ملحوظة له في أسفل الصفحات .

وقـد قام بترجمة الكلمات المكتوبة في النص الأصلي بالخط المائل إلى معناها بالعربية وتم تسـطيرها لتوضيح غرض المؤلف من بيان أهمية هذه الكلمات وتنويها عن استخدامه الخط المائل. ومثال لذلك فقد ترجم كلمة **l'homme** إلى "<u>الإنسان</u>" بينما ترجم كلمة **homme** إلى "الإنسان" .

أمـا عن كيفية ترجمة الكلمات ذات الأحـرف الأولى الكبيرة في اللغة الفرنسية مثل **la Vie** التـي ترجمـت إلى "<u>الحياة</u>" أما نفس الكلمة **la vie** عند كتابتها بالأحرف الصغيرة فترجمت إلـى "الحـياة" . وقد استخدم المعرّب هذا التنويه ليتمكن من توضيح دقة الكلمات والمفاهيم الموجـودة فـي النص الفرنسي والتدقيق على رغبة المؤلف في التفريق بين مفهوم ومعنى نفـس الكلمة عند كتابتهـا بطريقتين مختلفتين . حيث لكل منهما معناه المقصود أي تشـير **la Vie** إلى الحياة الحقة الأبدية بينما تشير **la vie** إلى الحياة بمعناها الدارج للكلمة .

وقد قام المترجم أيضا بإضافة تعليقات وتفسيرات إلى الطبعة العربية مما يسهل على القارئ فهـم "المعـرفة الباطنـية" ويقـربها إلى مفهوم القارئ العربي . وقد أضاف أيضا بموافقة المؤلـف المعانـي والمـرادفات للكلمات والمفاهيم المسيحية الباطنية والموجودة في الإسلام الروحاني إيمانا منه بتقارب الدينين الموحدين في الطريق إلى ملكوت السماوات .

والله الموفق لنا جميعا في نشر المعرفة إلى القارئ العربي في كافة أركان العالم .

الناشـر

مقدمة الترجمة العربية للكتاب

المقدمة التي كتبها المؤلف خصّيصا لطبعة كتابه "المعرفة الباطنيّة" الصادرة باللغة العربيّة.
(كتبت في سنة ١٩٦٤)

سوء التفاهم التاريخيّ الموجود بين الأرثوذكسيّة والإسلام، والذي يجب تبديده

-١-

النظرة التاريخية

إنّ هناك سوء تفاهم مفجعا يضغط ضغطا ثقيلا منذ قرون طويلة على الشرق، ويسمّم العلاقات بين العالم الأرثوذكسي والعالم الإسلامي. ويبدو سوء التفاهم هذا مجردا من كل معنى، وذلك لأن المسلمين والأرثوذكس كانوا ولا زالوا مطالبين بالمعيش جنبا إلى جنب على مدى امتداد العالم الهلينستيّ القديم الذي ازداد اتساعا مع مرور الزمن، فأصبح الآن يمتدّ من القطب الشماليّ حتّى الأدرياتي، ومن ثمَّ إلى أقصى حدود التركستان الصيني وأفغانستان والهند - بما في ذلك مصر والشرق الأدنى. وإنّنا لنستطيع أن نرى سوء التفاهم القديم هذا، والذي لا يقوم في حدّ ذاته على أيّ مبرّر صحيح، وقد تفاقم اليوم في جزيرة قبرص، واتّخذ الشكل القاتل الذي كان يظهر به قديما، والذي أضاف إلى انهار الدم التي أُريقَتْ على مدى القرون، روافد جديدة.

إنّنا لنستطيع أن نؤكد - بالرغم من المظاهر وبالرغم من التصريحات الطنانه التي تُركّز على عامل التعارض الديني - أنّ المصادر الحقيقيّة للعداوات التي كانت تستثير كلاّ من هذين العالمين على الوقوف ضدّ الآخر كانت دائما تتعلق تعلقا كليا بالأحوال السياسيّة والاقتصاديّة، وذلك نظرا لأنّ الحروب قديما - وحتى العصر القبل الذرّى - كانت مشروعات استثماريّة مربحة.

لم يكن لغَزو التتار لروسيا ولاستيلائهم عليها في القرن الثالث عشر الميلادي إلا هدف واحد وهو الحصول على الجزية. فلمّا زال استعبادهم للبلاد نهائيّا في سنة ١٤٨٠، وكان قد ارتج ارتجاجاً شديداً قبل هذا التاريخ بمائة سنة عند انهزامهم على ساحة القتال في كوليكوفو - كان التتار، وهم الغزاة القدامى للبلاد، قد انتشروا في أراضي روسيا كلها، وأصبحوا يكوّنون جزءا متكاملا من شعبها ومحبّبا إليه. وذلك إلى حدٍّ يجعل الكلام اليوم عن وجود أيّة عداوة بين الروس والتتار كلاماً يثير الضحك. وذلك أنّ هناك ما يربو على ثلاثين مليونا من المسلمين الذين يعيشون في سلام ووئام جنبا إلى جنب مع الملايين المكتلة من الأرثوذكس في الاتحاد السوفيتي، والجميع يتمتعون بالمساواة في الحقوق. بل والجميع يتبادلون الثقة والتعاطف.

كانت الحروب الصليبيّة من أعمال الغرب بدفع من بابا روما، ولم يشارك الأرثوذكس فيها - كما هو معلوم جيّدا - مشاركة ايجابيّة، إذ إنّ الأرثوذكسيّة لم تفكّر أبدا في إقامة جمعيّات دينيّة من الفرسان. بل إنّها على العكس قد كانت من ضحايا هذه الجمعيّات. فإنّ الحملة الصليبيّة الرابعة، وكان يقودها انريكو داندولو حاكم مدينة البندقيّة - بدأت في سنة ١٢٠٤ في عهد البابا إنُوسِنْتْ الثالث - وكان اليونانيون قد أبيدوا أو كادوا على أيدي الغربيّين، فقامت بالاستيلاء على مدينة القسطنطينيّة، ثمّ

نهبتها ودمّرتها، وأسّست أخيرا فيها "إمبراطورية لاتينيّة" دامت لمدّة ٥٧ سنة. وفي سنة ١٢٤٠ - أي في نفس الحقبة التاريخيّة تقريبا - وفي نفس الوقت الذي كان التّتار يغزون فيه الإمارات الروسيّة الواحدة تلو الأخرى بصفة منظمة، والذي دمّرت فيه مدينة كييف بقسوة - وهجم الجيش السويدي، ثم هجمت الجمعيّة التوتونيّة التي سحبها البابا غِرِيغُرْيُوس التاسع من فلسطين خِصّيصا لهذا الهدف، وهجم هؤلاء جميعا على الروس على شكل حملة صليبيّة تهتف بشعار: إذلال السلاف! ولكن الأمير القدّيس اسكندر نِفسْكِي أطاح بهم جميعا.

لم يكن للحروب التي قامت بين الأتراك وروسيا وأوربا أي دافع دينيّ، كما أنّه لم يكن هناك أيّ دافع دينيّ وراء غزو الأتراك للإمبراطورية البيزنطيّة، وهى في النزع الأخير لها. ولمّا كان هؤلاء الأتراك جنودا ومحاربين ليس لهم ثقافة خاصّة بهم، فقد تحوّلوا بسرعة إلى بيادق (في خدمة الغير) على لوحة شطرنج السياسة الأوربيّة. ولقد نجح الغربيّون أكثر من مرّة أثناء محاربتهم لروسيا - في "القذف" بهم ضدّها. ولم يكن هناك أيّة دوافع دينيّة - أي بعبارة أخرى أيّ صراع بين الأرثوذكس والمسلمين يمكن التعلل به. ويكفينا للتأكد من صحّة ما سبق أن نلقى نظرة واحدة على معاهدات الصلح التي كانت تختم هذه الحروب المدمّرة التي زعزعت في النهاية نفوذ الإمبراطوريّة العثمانيّة. فإنّنا نجد دائما في هذه المعاهدات بندا ينظّم أثناء فترة السلام (بين البلدين) الوضع القانوني لرعايا الإمبراطوريّتين الذين اعتنقوا عندما كانوا أسرى حرب، الأرثوذكسيّة بالنسبة للمسلمين، والإسلام بالنسبة للأرثوذكس. وها نحن نقدّم النصّ الكامل للشروط الموجودة في واحد من هذه البنود التي كانت مطابقة لبعضها في جميع المعاهدات، وقد اخترنا بند معاهدة اندرينوبوليس التي أنهت في سنة ١٨٢٨ حرب تحرير اليونان:

> البند الرابع عشر: يجب - بعد تبادل التصديق على المعاهدة الحاليّة - أن يُحرّرَ فورا وأن يُرد بدون أيّة دية أو أيّ مبلغ آخر كلّ أسرى الحرب- بغضّ النظر عن أوطانهم أو أوضاعهم أو جنسهم، والذين يوجدون (الآن) في كلّ من الإمبراطوريتين الاثنتين. يستثنى منهم المسيحيّون الذين اعتنقوا بمحض إرادتهم الدين المحمّديّ في دول الباب العالي - والمسلمون الذين اعتنقوا أيضا بمحض إرادتهم الدين المسيحيّ في دول الإمبراطوريّة[1].

فإذا رجعنا، بالإضافة إلى البند السابق بشروطه، إلى الفرمانين اللذين أصدرتهما الإمبراطورة إليزابيث الأولى ابنة الإمبراطور بطرس الأكبر، واللذين منعت بواقعهما بثّ التبشير بالكاثوليكيّة وبثّ التبشير بالبروتستنتينيّة في وسط الشعوب الإسلاميّة التي تسكن الإمبراطوريّة الروسيّة - (علما بأنّ الكنيسة الأرثوذكسيّة لم تقُم منذ أن نشأت بأيّ تبشير، بل ظلّت معادية لجميع أشكال الدعاية) - إذا راجعنا ذلك كلّه - لأدركنا عندئذ مدى خطورة سوء التفاهم المفجع (الموجود حاليّا) وكيف أنّه لَمْ يكن سوى ثمرة السياسة التي حفرت - ما بين المؤمنين المنتمين إلى هاتين الديانتين المُوَحِّدَتَين الكبيرتين - حفرة (فصلت بينهم) على مدى القرون المتتالية.

يجب أن نتذكر من جهة أخرى، أنّ النبيّ كان يتكلم عن حملاته وعن الجهاد في (غزواته) فيميّز بعناية بين نوعين اثنين منه: النوع الأوّل (ويخص الجهاد) الخارجيّ، تحت شعار: إمّا السيف أو الإسلام (باللغة العربية المكتوبة بالحروف الفرنسيّة في النصّ الأصلي) - والنوع الثاني (ويخصّ الجهاد) الداخليّ[2] (وهو نفس الجهاد) الذي أطلقت عليه الأرثوذكسيّة اسم الجهاد الغير مرئي، والذي

---

[1] جبرائيل أفندي نورادنجيان، المستشار القانوني لدى الباب العثماني - مجموعة الوثائق الدوليّة للإمبراطورية العثمانيّة، في أربعة مجلدات باريس - كوتيلون، ١٨٩٧ - ١٩٠٢، المجلد الثاني صفحة ١٧٢. يوجد نفس هذا الترتيب في معاهدة بوخارست (١٨١٢)، ومعاهدة ياسى (١٧٩٢) وأخيرا في معاهدة كوتشوك - كاينارجي (١٧٧٤).

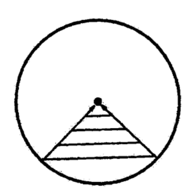
[2] يشهد الحديث المشهور بتضاؤل أهميّة الجهاد الخارجي إذا قورن بالجهاد الداخليّ حيث قال: "رجعنا من الجهاد الأصغر (الخارجي) إلى الجهاد الأكبر (الداخليّ - أي جهاد النفس).

يهدف إلى انتصار المجاهد على نفسه، أي انتصاره على شخصيّته وقد اكتست "بقشرتها" كما لو كانت مكسوّة بدرع[٣].

الاستجابة لنداء الحقّ يوحد بين الأرثوذكس والمسلمين

كلّ شيء يتغيّر مع الزمان إلاّ الحقيقة التي هي "ألفا" و"أوميجا" الخليقة. إلا أنّ مكاشفة (الإنسان) بها لا تتمّ إلا بالتدريج - وذلك بأن ترسل إشعاعها في (شكل وبلسان) هما الأكثر تناسبا مع عقليّة وثقافة الأنماط البشريّة التي يوجّه الله لها كلمته بفم رسله.

إنّ مسيرة المؤمنين الذين يَفِدون من كلّ الآفاق، استجابة للنداء الإلهي، كانت تصوّر في التقليد الأرثوذكسي وكأنّها حركة تبدأ من محيط الدائرة (وتتّجه) نحو مركزها الذي تُوضع الحقيقة فيه رمزيّا. ولقد وضّح لنا الكاهن دوروثي هذه الصورة في شكل تخطيطيّ كالتالي:



وهو يريد أن يجعل الباحثين يتنبّهون إلى أنّ اقتراب كلّ منهم من الحقيقة سالكا إليها طريقه الخاصّ به، سوف يقرّب بين الجميع بالتدريج (مهما تباعدت نقطة البداية عن بعضها)[٤].

ومن الجدير بالملاحظة أنّ ذلك صحيحٌ أيضا على جميع المستويات، بما في ذلك المستوى الماديّ ومستوى التطبيق الفنيّ للعلوم النظريّة: فإنّ توحيد (شكل وموضوع) التعليم (عالميّا)، وكذلك الأبحاث التي تسعى إلى تحقيق نفس الأهداف قد حدّد على هذا المستوى توحيد النتائج الحاصلة، أو التي يُسْعى في الحصول عليها كما حدّد أيضاً ما يتكوّن من منتجات ثانوية قد تكون أحيانا غير متوقعة تماما. فقد تسبّب مثلا التقدّم الرائع في التطبيقات الفنيّة - الذي قرّب الأبعاد ويسّر الفكر مباشرة (عبر المسافات الشاسعة) - تسبّب هذا التقدّم في القضاء على الحروب الكلاسيكيّة (المعهودة) مع ظهور الأسلحة الذريّة التي قد سَلَبَتْ هذه الحروب ما كانت تُدِرّهُ قديما من ربح، فجعلتها بذلك بلا هدف (الآن).

لقد حان الوقت الذي علينا أن نركّز فيه كلّ انتباهنا، ونركّز كلّ جهود الذهن البشري بصفة عامة (لإعادة النظر) في الأسس الأخلاقيّة لوجودنا، وقد ظلّت بلا تغيير منذ قرون طويلة. فلم تعد تقوى على حمل ثقل الحضارة الماديّة المعاصرة التي قد أصبحت من جرّاء ذلك، مهدّدة بالانهيار انهيارا

---

[٣] القشرة - أي ما يكتسبه الإنسان منذ طفولته المبكرة من واقع تربيته وتعليمه وبصفة عامّة من واقع تجربته الشخصيّة.

[٤] دوروتيه الكاهن (القرن السادس والسابع) الذي نال درجة قدّيس، قد عاش في فلسطين بالقرب من مدينة غزة، وهو مؤلف (الكتاب المعروف باسم): "تعليمات للنسّاك الزاهدين" "الفيلوكاليا " الترجمة الروسيّة، موسكو، ١٨٨٤، المجلد الثاني، صفحة ٦٥٩ (نص المقتطفات رقم ٤٢).

سيكون مدويّا. إنّ الافتقار إلى أسس أخلاقيّة متينة تتلاءم تماما وتقدّم التطبيق الفنّي للعلوم قد أصبح أمرا واضحا وضوحا جليّا. فإنه لم يعد لدينا بالفعل سوى قانون الغابة، وفي شكله الأكثر بدائيّة مع الأسف للحفاظ الآن على السلام الذرّي: إنّه توازن الرعب. لقد تجمّعت اليوم جميع العناصر الماديّة اللازمة لإشعال طوفان النار: فإنّه يكفي الضغط على زرار واحد لتفجير هذا الكوكب بأكمله.

يجب على رجل طليعة اليوم - وقد اقترب عصر الروح القدس الذي سوف تسكن الحقيقة فيه [٥] - أن يبذل جهودا كبيرة تنصبّ على نفسه لكي يهيّئ في أعماق قلبه المطهّر والمتأجج بالحياة، مسكنا يليق بالحقيقة التي سوف يستقبلها فيه. فإذا استطاع أن ينفذ ذلك في الميعاد المحدّد، تَسلسَلَ الباقي بالتبعيّة: فسوف تزول الحواجز المنيعة العازلة بين البشر بالتدريج، وتتلاشى الحدود الموضوعة للفصل بين الأمم؛ فيوكل إلى الشعوب حينئذ - بعد آلاف السنين التي ساد فيها الجشع وعدم التفاهم المتبادل الذي هو أصل ومنبع العداوات - يوكل إليها بمهمّة إعادة بناء برج بابل الذي دكّته الصواعق قديما، لكي تشيّده في هذه المرّة رمزا لاسترجاعها الواعي لوحدتها الذهنيّة واللغويّة.

(تمثّل) هيئة الأمم المتّحدة المحاولة الخارجيّة الأولى لتنفيذ كلّ ذلك، فهي أداة مفيدة ولازمة، وإن كانت حتّى الآن محاولة ذات طابع أكثر ميكانيكيّة من المطلوب. فإنّها لازالت تعوزها الروح الدافعة. وهو ما يمكن مشاهدته بكل سهولة: فإنّ مهمتها تتعدّى الإمكانيّات الأخلاقيّة الخاصّة بالإنسان العقلاني الذي تولى في أوربّا منذ عصر النهضة، ثم تولى بعد ذلك في العالم أجمعه مقاليد القيادة.

إنّ سير التاريخ إلى الأمام - الذي لن يستطيع أحد أن يوقفه أو يعرقله - يستلزم استلزاما صارما قدوم الإنسان الجديد.

لقد حاول المؤلف في سلسلة "المعرفة الباطنيّة" أن يعرض بطريقة تناسب العصر الحديث المذهب الباطنيّ الذي يرجع تبعا للتقليد (المتواتر) إلى ما قبل الطوفان - أي إلى عهد شيث الابن الثالث لحوّاء. ثم تممّ يسوع هذه "المعرفة الباطنيّة" وكاشف بها بطرس ويوحنّا ويعقوب، وهي نفس المعرفة الباطنيّة التي حفظتها الأرثوذكسيّة الشرقيّة جيلا بعد جيل في شكل باطني (خفيّ) إلى أن حان الآن الوقت (المناسب) لإزاحة الستار عن سرّيّتها.

لن يكون خلاص الإنسان بالمزيد من روائع التقدم الفني للعلوم، وان كان لا غنى لنا عنها، لضمان قاعدة ماديّة ملائمة للعصر الجديد الذي سوف تتعدّى إمكانيّاته أقصى وأقوى ما يمكن للفنيين المتخصصين أن يتخيلوه.

إن الخلاص يعتمد على نتائج الأبحاث الاستبطانية التي سيجريها الإنسان في أغوار [٦] قلبه ليتعرّف فيه على إنّيته الحقيقيّة التي قد نسيها منذ (عهد) السقطة، ولينطبق عليها.

ينطبق الأرثوذكسيّ - في غمرة الانبهار - على أحاديّة المسيح في أغوار قلبه، المسيح ربّه وابن الله الذي هو النور والروح والحبّ.

كذلك الأمر أيضاً بالنسبة للمسلم الذي عندما يقترب من مركز دائرة الشكل المرسوم أعلاه وقد أتى عبر أفق آخر، وأحس في داخله بنفس المكاشفة فقال:

رأيت ربّى بعَين قلبِ   فقلتُ: "منَ أنت؟" قال: "أنتَ". [٧]

سوف يجد القارئ في المجلد الثالث من كتاب "المعرفة الباطنيّة" وهو آخر مجلدات هذه السلسلة، بيانات جغرافيّة - سياسيّة خاصّة بالمحيط الذي سوف يشعّ منه النور الجديد كما تنطلق النيازك المنقضة من منبثقها. إنّه نفس محيط العالم الهلينستي الذي خلقه الإسكندر الأكبر من صنعه، وأصبح بعد مرور ثلاثة قرون مهد المسيحيّة، وقد اتّسع الآن كثيرا عمّا كان عليه.

تقع على عاتق الأرثوذكس والمسلمين الذين يسكنون اليوم هذا المحيط، وكلاهما ثريّ بما لديه من تقاليد (باطنيّة) - مسئولية ضخمة: فإنّ مصير الكوكب كله يتوقف على مدى تفاهمهم، وعلى ما سوف يقومون ببذله من مجهودات باطنيّة.

إنّ "المعرفة الباطنيّة" لنداء موّجه للجميع بدون أيّ اعتبار للسلالة أو الطبقة أو الجنس أو الديانة، نداء لكي يتحد الجميع (لإنجاز) هذه المهمّة النبيلة، وقد اتجهت أنظارهم جميعا بثبات نحو الحقيقة التي هي وحدة في نفس التنوّع والاختلاف.

بوريس مورافييف
جنيف، في الثاني والعشرين من
شهر أكتوبر لسنة ١٩٦٤
١٩٦٤/١٠/٢٢

---

[٥] ٢ بطرس، ٣: ١٣. (تبعا للنص السلافوني).

[٦] أغوار القلب هي ما يقال عنها في الإسلام: "ذات الصدور".

[٧] ديوان الحسين بن منصور الحلاج. (ترجمة من العربيّة بعد جمعه وتحقيقه لويس ماسينيون، طبعة ١٩٥٥. وقد صدرت له طبعة أخرى في ١٩٨١. والبيت المذكور أعلاه هو واحد من أربعة أبيات جاءت أيضا في كتاب الطواسين للحلاج، الطاسين الخامس: طاسين النقطة: ص. ٣١ من طبعة مكتبة المثنى ببغداد، وهى طبعة معادة بالأوفست لطبعة لويس ماسينيون بباريس سنة ١٩١٣. وها هي الأبيات:

رأيت ربى بعين قلب فقلت من أنت قال أنت
فليس للاين منك أين وليس أين بحيث أنت
وليس للدهر عنك وهم فيعلم الوهم أين أنت
أنت الذي حزت كل أين بنحو لا أين أين أنت

يقول ماسينيون عن هذه الأبيات إنّها تكوّن رباعيّة مشهورة نسبت مع بعض التغيير لابن عربي. كما نسبها ابن عجيبة للإمام عليّ. وقد نالت الكثير من الشروحات والتعليقات كما وردت ثلاثة أبيات منها في تعليق يهودي عربي عن نشيد الأناشيد لسليمان الحكيم. قارن بالديوان ص٦٨ ثمّ ١٤٦ من طبعة ١٩٨١ .- المعرّب -)

تنبيه للقارئ

-١-

لعل بعض المهتمين بالمشاكل الباطنيّة قد قرأوا كتاب بيير أوسبنسكى الذي نشره بعد وفاة مؤلفه أصحاب الحق في ذلك، وأعطوه العنوان التالي:

"شذرات من تعليم باطني مجهول"[١]

Pierre Ouspensky: Fragments d'un Enseignement Inconnu.

ويعرض فيه أوسبنسكى الأفكار التي قد تحصل عليها من 'ج'[٢]. وقد بيّن 'ج' ما يكوّن أساس تعليمه: "إني لأقول لمن لهم دراية مسبقاً أن ما أعلّم هذا بصفة أو أخرى من "المسيحية الباطنيّة"[٣].

فما أعجب العنوان الذي يعين بالرغم من هذه التصريحات تعليما باطنيا مجهولاً! لقد ظل التقليد المسيحي الباطنيّ حيّا على الدوام في بعض الأديرة باليونان وروسيا وغيرهما. وان كانت ولا شك هذه المعرفة قد توارت بالاستغلاق فان وجودها كان معروفا، ولم يُمنع أحد أبدا من النفوذ إليها إذا كان جاداً في اهتمامه بهذه المشاكل.

ونحن لا نشك - حتى إذا كانت بعض الفقرات توحي للقارئ أن (الكتاب) من عدة وجهات معينة، توفيق يؤلف (سطحيا) ما بين عدة تعاليم تقليدية-[٤]. لا شك أن شذرات النظام المعروض في عمل أوسبنسكى (يرجع مصدرها أصلا)، فيما يختص بالأساسي منها، إلى المكاشفة المنحدرة من تلك "الأخوية الباطنيّة الكبرى" التي يلمح القدّيس بولس الرسول إليها في رسالته إلى أهل روما[٥]. لقد استقيت إذن تلك الشذرات من المنهل الحقيقي. ولكن كتاب أوسبنسكى - كما يشير عنوانه إلى ذلك بصدق - لا يحوى سوى شذرات من "تقليد" تناقل حتى عصر قريب العهد بالطريق الشفهي، ولا يسمح إلا إذا درس في مجموعة بالنفوذ إلى المكاشفة المذكورة.

لقد سبق لنا أن تبسطنا في وصف العلاقة التي كانت تربطنا بأوسبنسكى الذي كنا نعرفه جيد المعرفة[٦]. يجب علينا أن نؤكد هاهنا من جديد أن أوسبنسكى - بالرغم من رغبته الشديدة في إصدار هذا الكتاب وهو مازال حيا - ظل على الدوام مترددا في ذلك. فلقد كنا بيّنا له بإلحاح خطورة الإفشاء بأجزاء ضئيلة بسيطة ومتفرقة (من التعليم)، كما كنا قد بيّنا له عدم وضوح العرض فيما يتعلق

---

[١] باريس، ستوك، ١٩٥٠ - [المعرّب: لم يترجم هذا الكتاب إلى العربية على قدر ما أعلم، ولكنه ترجم إلى الإنجليزية حيث طبع عدة طبعات بانجلترا وأمريكا، ولاقى من الرواج ما لاقى مع غيره من مؤلفات الكاتب نفسه. وقد أعطى له العنوان التالي بالإنجليزية: "بحثا عن الظواهر الإعجازية" In Search of The Miraculous أو "شذرات من تعليم باطني مجهول" Fragments of An Unknown Teaching والكتاب متوفر وهو ما دعاني إلى ترجمة هذا التنبيه إلى القارئ بالإضافة إلى ما فيه من معلومات وتلميحات ذات أهمية قصوى. ولقد كان بوريس مورافييف صديقا حميما لبيير أوسبنسكى. كما أنه حرر مقالا وافيا عن علاقته به.

[٢] "الشذرات" صفحة ٢٢ (الطبعة الفرنسيّة المذكورة).

[٣] نفس المصدر السابق صفحة ١٥٤. نبه إلى أهمية الكلمات المسطرة أوسبنسكى نفسه.

[٤] وخاصة صفحة ٣٥ . (من نفس المصدر والطبعة الفرنسية).

[٥] الرسالة إلى أهل روما، ٨: ٢٨ إلى ٣٠.

[٦] العدد ١٤٤ لسنة ١٩٥٧ من مجلة "تجميعات" بروكسيل بلجيكا.الخ..

Ouspensky, Gurdjieff, et les Fragments d'un Enseignement Inconnu. Woluwe-Saint-Lamber, Bruxelles, Ed. Syntheses, no. ١٤٤- ١٩٥٧.

وهو مقال ذو أهمية قصوى. وقد أعاد مورافييف طبعه في عام ١٩٦٤ لنفاذ نسخ المجلة المذكورة وصعوبة الحصول عليها. ومن أخطر ما جاء فيه أن أوسبنسكى ألف كتابه بالروسيّة وأسند ترجمته للفرنسيّة إلى ب. مورافييف والكونتيسة صديقتيهما. ولكن النسخة التي صدرت بالفرنسيّة انحرفت تماما عن النص وعن الترجمة التي كان أوسبنسكى قد صدق عليها.

ببعض النقط الأساسيّة. والذي يؤكد كل ما قررناه هو أن الشذرات قد طبعت بعد وفاة صاحبها ومرور أكثر من عشرين عاما على تحريرها.

-٢-

إن الدراسة التي نقدمها هنا قد أخذت مباشرةً من منابع التقليد المسيحي الشرقي: أي من النصوص المقدسة، والتعليقات عليها، وخاصة تلك التعليقات التي تضمنها ذلك العمل الجامع الشامل الذي أطلق عليه اسم الفيلوكاليا، كذلكّ استقت دراستنا أخيرا من التعليم ومن النظم العملية المنقولة عن الأشخاص الذين خولت لهم رسميًا السلطة في ذلك. إن القارئ إذن سوف يعثر على تشابهات بين مضمون دراستنا هذه وكتاب أوسبنسكى، بما أن المصادر مشتركة جزئيًا. ولكن المقارنة اليقظة (الواعية) سوف تظهر - قبل كل شيء- طابع عدم الاكتمال الذي يتسم به عمل أوسبنسكى. كما أنها سوف تظهر الأخطاء والانحرافات التي يتضمنها كتابه بالنسبة للمذهب. إننا لنعلم جميعا أهمية الأشكال التخطيطيّة القصوى في التقليد الباطنيّ. فإنها قد صممت لكي تسمح بنقل المعرفة عبر الأجيال رغم موت الحضارات.

لقد تعرّضنا بالتفصيل للأخطاء الجذرية التي ارتكبها أوسبنسكى في أحد الأشكال التخطيطيّة ذي الأهمية الخاصّة[٧]، وذلك في المقال المذكور أعلاه من مجلة "تجميعات" (Syntheses).

وماذا يتسنى لنا أيضا أن نقول عن المكان الذي أعطى للإنسان في الشكل التخطيطيّ المسمى: "بالرسم البياني لجميع الأشياء الحية"؟[٨] فإن كتاب أوسبنسكى بعد أن عدّدنا بعدد غير قليل من الاعتبارات التي تبرز عدم أهميّة الإنسان الغير مرتقي باطنيًا، وتبرز المكان الوضيع جداً الذي يشغله في الكون، يعود في هذا الشكل التخطيطيّ المعقد تعقيدا مفتعلا فيضعه على نفس مستوى الملائكة ورؤساء الملائكة. أي داخل ملكوت الله الذي يحتل الكُوس الثلاثيّ العلويّ، بالرغم من تأكيد المسيح تأكيدا قاطعا أن دخول ذلك الملكوت ممنوع على الذين لم يصلوا إلى الولادة الثانية[٩] التي هي القصد والهدف من العمل الباطنيّ. إن مكان الإنسان الخارجيّ، تبعا للإنجيل[١٠] - أي بعبارة أخرى مكان الشخص الذي لم يثمر بعد فيه ذلك العمل، بل بقى عليه أن يطوّر قدراته الكامنة، يوجد في الواقع بين كُوسى الشكل التخطيطيّ المثلثين. حيث إنه يكون الرباط الرابط بين العالم المرئي والعالم الغير مرئي. وما أكثر الأمثلة المشابهة التي نستطيع أن نذكرها.

لكن هناك ما هو اخطر بكثير: فإن مفهوم الإنسان-الآلة (في نفس الكتاب) ينتج عنه عدم مسئوليته[١١]. وهو ما يتناقض تناقضا صريحا مع مذهب الخطيئة والتوبة وبداية (السير نحو) الخلاص، وكلها تكون أساس تعليم المسيح.

إن حسن النية الكامل، و(ذكاء) العقل البشريّ، والإرادة الصادقة لا تكفى جميعها لتفادى الأخطاء والانحرافات في كل ما يمس بمجال المكاشفة ولا يلتزم التزاما مطلقا بها. إن ما بكتاب "شذرات من تعليم باطنيّ مجهول" من أخطاء ومن انحرافات يشهد بأن هذا العمل لم يكتب بناء على أمر "الأخوية الباطنيّة الكبرى" ولا تحت إشرافها.

---

[٧] "الشذرات"، صفحة ٢٨٩ (من نفس المصدر - الطبعة الفرنسيّة).

[٨] نفس المصدر صفحة ٤٥١ (من الطبعة الفرنسيّة).

[٩] يوحنا، ٣: ٣ وباقي الآيات.

[١٠] مرقص، ٤: ١١.

[١١] "الشذرات" صفحة ٤١ (الطبعة الفرنسيّة).

ذلك أن المعطيات التي قد قام عليها هذا الكتاب تتسم بطابع التجزئة والنقص. علما بأن كل معرفة جزئية في المجال الباطنيّ هي أيضا مصدر خطر. إن أعمال القدماء التي وصلتنا، والتي تعرض لبدع الهرطقة في القرون الأولى من عصرنا هذا - كأعمال القدّيس ايريناوس والقدّيس اكليمندوس الاسكندرى والقديس يوسيبيوس القيصري - تشهد كلها بفاعليّة هذا الخطر (الداهم). ويمكننا أن نقرأ فيها مثلا، كيف أن بعض مدارس الغنوصيّة (المنحرفة) - بعد أن أثبتت وقررت افتقار العالم المخلوق إلى الكمال توصلت - لعدم بحثها بجديّة عن أسباب هذا النقص - واتباعها أقصر الطرق في التفكير إلى آراء كضعف الخالق، أو عدم كفاءته، أو شراسته. لقد كان نقصا في (المعرفة) إذن منبع بدع الهرطقة في جميع الحالات. فأنه لا يوجد أمان يضمن عدم الانحراف إلا في الالتزام بما أطلق عليه في التقليد (الباطني) "اسم الملأ العلويّ - أي بعبارة أخرى الاكتمال الذي يتضمن المعرفة الباطنيّة (الغنوصيّة) في مجموعها"[١٢].

---

[١٢] القدّيس بولس، إلى أهل أفسس، ٣: ١٨ و١٩. "تعاليم الرسل" وكتاب اكليمندوس الاسكندرى، "الأغطية المزركشة" أو "منوعات ممتزجة" الخ. (حيث عولج موضوع المعرفة الغنوصيّة في مواضع متفرقة عديدة من العملين المذكورين باكملهما).
Saint Paul, Ephesiens III: ١٨, ١٩; La Didachè passim; Clement D'Alexandrie, Les Stromates passim, etc.

تمهيد

-١-

إن الدراسات الباطنيّة تسمح بالنفوذ إلى معنى الارتقاء الحالي للإنسان وللمجتمع البشريّ. وهو ما يفسّر الاهتمام المتزايد الذي تثيره بين الأوساط المثقفة. إلا أنّ هناك - وهي ظاهرة مفارقة للمتوقع - عدداً غير قليل من الأوروبيين الميالين لمثل هذه الأبحاث يوجهون أنظارهم إلى تقاليد (باطنيّة) غير مسيحيّة: كالهنديّة والبوذيّة والصوفيّة وغيرها. ولا شك انه عمل مثير للحماس أن يقارن الباحث ما بين الفكر الباطنيّ في كلّ من هذه النظم على حدة. فإنّ هناك تقليدا (باطنيّا) واحدا فقط. ولن يعدم من يتابع دراساته بتعمّق أن يدرك بإعجاب هذه الوحدة الأصلية. ولكن المشكلة تبدو في شكل يختلف تماما، بالنسبة للذين يرغبون في تخطى الأبحاث النظرية التجريديّة. فانّ ذلك التقليد (الباطنيّ) الأوحد الأصلي قد ظهر قديما، ولا يزال يظهر في أشكال عديدة، يتناسب كلّ شكل منها تناسباً دقيقا مع عقليّة ومع روح المجموعة البشرية التي تتوجّه إليها كلمته، ومع الرسالة التي يوكل بتنفيذها إلى تلك المجموعة البشرية. إن أسهل وسيلة إذن، أو بالأحرى إن أقل الوسائل صعوبة بالنسبة للعالم المسيحي لكي يحقق هدفه هو أن يتبع المذهب الباطنيّ الذي يقوم على أساس التقليد المسيحي. فإن فكر الشخص المولود والمتكوّن في وسط حضارتنا هذه تشبع بالفعل - إن كان مسيحيّا أو غير مسيحي إن كان مؤمنا بالله أو ملحدا - بعشرين قرن من الثقافة المسيحيّة. لذلك يكون أيسر عليه بكثير أن يشرع في دراساته مرتكزا على معطيات وسطه من أن يبدأ بداية جديدة تتطلب التكيّف بروح وسط يختلف عن وسطه. إذ لا تخلو هذه العملية التي تشبه انتزاع النبات من جذوره في شتى المخاطر كما أنها لا تنتج عامّة إلا نتاجا هجيناً.

يجب علينا أن نضيف التالي: إذا كانت كلّ الديانات الكبيرة النابعة من التقليد الأوحد رسالات (أرسلت) بالحقّ. والمسيحيّة أكّدت منذ البداية مخاطبتها لشعوب الأرض جمعاء (أي طابعها الجامع العامّ). فقد قال يسوع: هذا هو إنجيل الملكوت الذي سوف يبشّر به في العالم أجمعه، ليكون بمثابة شهادة للأمم كلّها[1]. إن ما لنبوّة كلمة الله - أي اللوجوس من قوّة دافعة قد عبّرت عنها هذه الجملة، لتبدو ناصعة بعد مرور عشرين قرن: فلقد انتشرت البشرى الطيّبة التي اقتصر تعليمها في البدء على مجموعة محدودة من التلاميذ، في أنحاء الأرض كلها. ولا شكّ أنه يرجع هذا الانتشار الإعجازيّ إلى أنّ المذهب المسيحي يهدف - في مظهره الكامل - إلى القيامة العامّة، في حين أنّ المذاهب الأخرى - وان كانت بالطبع نابعة من الحقّ - تسعى في الأصل إلى الخلاص الفردي .

وبناء عليه فإنّ التعليم الذي سنقدّمه الآن هو تعليم مسيحي أساسا.

-٢-

ترتكز التقاليد المسيحيّة الباطنيّة على الشرع الكنسيّ، وعلى الطقس، وعلى مجموعة حياة قديسي الكنيسة اليونانيّة مرتّبين تبعا لكلّ يوم من أيّام شهور السنة تباعا - (المينولوج)، وأخيرا على المذهب الذي يتكوّن من مجموع القواعد والأبحاث (أي الرسائل والمقالات) والتعليقات التي كتبها كبار معلمي وملافنة الكنيسة الجامعة العامّة. ولقد جُمع جزء كبير من هذه النصوص في المجموعة

---

[1] متى، ٢٤: ١٤.

المسمّاة بالفيلوكاليا.[٢] يجب أيضا أن نضيف إلى تلك المصادر أعمالا فردية لمؤلفين قدماء وعصريّين، متديّنين وعلمانيين.

لقد حرّرت غالبيّة نصوص الفيلوكاليا من أجل أشخاص سبق لهم أن حصلوا على قدر معيّن من الثقافة الباطنيّة. هذا ما يمكن أيضا أن نطبقه على بعض مظاهر نصوص الشرع الكنسي بما في ذلك الأناجيل. يجب أيضا أن نلاحظ أنّ هذه النصوص - بما أنّها تخاطب الكلّ - لم يكن في إمكانها أن تأخذ في اعتبارها باستعدادات كلّ على حدة. لذلك فقد أكّد الأسقف ثيوفان الناسك بإلحاح في المقدّمة التي كتبها للفيلوكاليا - أنّه لا يمكن لأيّ شخص بدون مساعدة أن يتعمّق في فهم المذهب، وهو السبب الذي دعا العلم الباطنيّ - إلى الاحتفاظ بتقليد شفهيّ ورعايته والعناية به لإحياء حرفية النصوص، إلى جانب باقي المصادر المكتوبة. لقد نجحت الأرثوذكسيّة الشرقيّة في الاحتفاظ بهذا التقليد تاماً كما كان، وذلك خاصّة بتطبيقها القاعدة المطلقة في (الصمت والتستّر) أي قاعدة الاستغلاق. فلقد ظلّت - جيلا بعد جيل - منذ عصر الرسل توصل تلاميذها إلى التجربة الروحانيّة السريّة.

إذا كانت قاعدة الاستغلاق قد نجحت في الحماية والحفاظ لمدة ما يقرب من عشرين قرن فإنه يجب أن نقر أنّ الظروف قد تغيّرت حاليّا. لقد أزيح الستار جزئيّا عن التقليد في المنحنى التاريخي الذي نحن فيه، كما كان قد حدث في عصر مجيء المسيح. وبذلك تكون قد سَنَحَتْ من جديد إمكانية تلقى تلك الحكمة الإلهية، السريّة المحجوبة أمام جميع الذين يريدون أن يتوغّلوا فيما وراء المعرفة الكتبيّة التي لا تتعدّى أبدا مجال الاستعلامات، جميع الذين يحاولون بكلّ ما لديهم من قوى أن يتفهّموا المعنى الحقيقي للحياة، الذين يريدون أن يفهموا مدلول مهمّة المسيحي في العصر الجديد[٣].

-٣-

لقد استعنا بالنصّ السلافوني للأسفار المقدّسة، كلما بدا لنا أنّ المعنى المعطى في النسخ الأخرى يشوبه الغموض. وذلك لسببين اثنين. الأوّل أنّ الترجمة إلى هذه اللغة قد تمّت في عصر كان بعدَ غنيّا بتفاسير وتأويلات الأسفار المقدّسة التي يُعَوّل ويعتمد عليها تماما، وحيث كانت روح النصوص قريبة بعد من معناها الأصلي. والثاني ثبات اللغة: لقد بقيت اللغات السلافيّة الحديثة، وخاصّة اللغة الروسيّة شديدة القرب من السلافونيّة القديمة التي مازالت تستخدم حتّى الآن في شتّى الرتب والشعائر الدينيّة الأرثوذكسيّة للبلاد السلافيّة.

يمكننا أن نقول فيما يتعلّق بقدم النصّ السلافوني ما يلي: يعزى (تحرير) هذا النصّ عامّة إلى قسطنتين الفيلسوف الذي اشتهر باسم القدّيس سيريل، كما يعزى أيضا إلى أخيه القدّيس ميتود، وقد كان الاثنان عالمان يونانيان من سالونيكا يتقنان اللغة السلافونيّة إتقانا تامّا. إلا أنّ القدّيس سيريل عندما وصل إلى شبه جزيرة كريميا (الواقعة على البحر الأسود، والتي انضمّت أخيرا إلى أوكرانيا بجنوب شرق روسيا، وكانت قديما جدّا من المستعمرات الإغريقيّة. كما كانت تحمل اسما آخر Chersonèse Taurique - وجد فيها - وكان ذلك في القرن التاسع الميلادي - الإنجيل مكتوبا بهذه اللغة. ممّا يرجّح ترجيحا شبه مطلق كون هذا الإنجيل قد حرّر باللغة السلافونيّة - في عصر ظلّت حيّة فيه جميع الأشكال التي أدخلها تبشير القدّيس اندراوس الرسول الذي نشر التعليم المسيحيّ في روسيا في القرن الأول من عصرنا هذا[٤].

---

[٢] للفيلوكاليا طبعة باللغة الروسيّة في خمسة مجلدات من الحجم الكبير، نشرها تحت إشراف الأسقف ثيوفان الناسك - دير القدّيس بانتليمون بجبل آثوس.

[٣] ١ إلى أهل كورنثوس، ٢: ٦ إلى ٨.

[٤] إن ذكر النص السلافونى يرد بكثرة في المؤلفات التالية: "الجهاد الغير مرئي" نقله للإنجليزية ا. كادلوبفسكى و ج.ا. هـ. بالمر - لندن فابر

إنّ عدم تغيّر اللغة هو أيضا عنصر هامّ إذا أردنا أن نرجع إلى المعنى الأوّل لأيّ نصّ: فالكل يعلم أن ثبات اللغة القبطيّة قد سمح لشمبليون الذي لجأ في البداية إلى عبارات الطقوس الدينية القبطيّة - أن يبين العلاقة الصحيحة ما بين الكتابات القبطيّة وهيروغليفيات قدماء المصريين. لقد ظلت اللغة السلافونيّة القديمة حيّة لم يطرأ عليها تعديل يذكر: ويشهد على ذلك بصفة خاصة ثبات عبارات الطقوس الدينيّة. هذا هو السبب الذي يضفى على النصّ السلافوني للعهد الجديد ونصوص مؤلفات القدماء التي ترجمت إلى هذه اللغة، قيمة خاصّة بالنسبة للباحث المعاصر.

وفابر، "آباء الكنيسة الأوائل في الفيلوكاليا" و "مقتطفات من الفيلوكاليا" لنفس المترجمين والناشر.

مدخل

-١-

يعيش الإنسان المعاصر - هذا الذي أطلق العلماء عليه اسم الإنسان العارف "Homo Sapiens" مستغرقا في الظروف إلى حدّ أنّه ينسى نفسه وينسى إلى أين هو ذاهب. ومع ذلك فهو يعلم - بدون أن يؤثر فيه ذلك - أنّ الموت سوف يبتر كل شيء.

كيف نستطيع أن نفسر استبعاد المفكر العقلانيّ الذي اكتشف العديد من المكتشفات الرائعة، واستبعاد عالِم التطبيق الفني الذي استغلها، لمشكلة موتنا المحتّم من مجال أبحاثهما المستقصاة؟ كيف نفسّر عدم اكتراث العلم بلغز مشكلة الموت، هذا العلم الذي جَرُؤَ على اقتحام كل المجالات، وادعّى القدرة على تحقيق أيّ شيء؟ كيف نفسّر أنّ العلم قد تمادى في معارضة الدين والتصدي له، وان كان أخاه الأكبر بدلا من مضافرة جهوده مع جهود الدين ليحلا معا مشكلة الكينونة L'Etre (الوجود، الموجوديّة) التي هي في الواقع مشكلة الموت؟

إن وضع البشر لن يتأثر كثيرا أو قليلا إذا مات الإنسان على فراشه أو مات داخل سفينة فضاء.

السعادة؟ ما السعادة؟ أكدت لنا التعاليم أنّ السعادة تدوم على القدر الذي يدوم فيه الوهم... وما الوهم هذا؟ لا أحد يدرى. ولكنه يغشانا بلا شك من كل جانب.

لو استطعنا أن نعرف ما هو الوهم لاستطعنا أيضا أن نعرف المقابل له - أي الحقيقة. ولاعتقتنا تلك الحقيقة من الرقّ[1].

هل أخضع الوهم يوما بوصفه ظاهرة سيكولوچيّة لتحليل نقديّ يستعين فعليّا بأحدث معطيات العلم؟ لا نظن ذلك قد حدث. ومع ذلك لا نستطيع أن نقول إنّ الإنسان كسول لا يبحث (ولا يستقصى). بل هو باحث يتأجج حماساً إلا انه يغفل البحث عن الأصول.

هناك ظاهرة تجتلب الانتباه لأول وهلة، وهى كون الإنسان المعاصر يخلط ما بين التقدّم الخلقيّ والتقدّم الفنّي، وكون العلم يواصل تطوّره في عزلة تنذر بالخطر.

إن التقدّم الضخم الذي أحرزته التطبيقات الفنيّة (للعلوم) لم يغيّر شيئا من ماهيّة الوضع البشرى، ولن يغيّر منها شيئا لأنّه يؤثّر في نطاق ظروف الحياة فقط، ولا يمسّ حياة الإنسان الداخليّة إلا مسّا سطحيّا. بيد أنّه معلوم (للجميع) منذ أبعد العصور أنّ الأصول (الحقّة) ليست خارج الإنسان بل هي في داخله.

-٢-

لقد اتفق الجميع بصفة عامّة في اعتقادهم أنّ البشريّة قد بلغت الآن منحنّى هامّا من منحنيات تاريخها. فإنّ الروح الديكارتيّة - أي روح فلسفة ديكارت العقلانيّة التي أجهزت على الفلسفة المسيحيّة المدرسيّة قد تعديناها اليوم بدورها أيضا. كما استلزم منطق التاريخ ظهور روح جديدة. كذلك فإنّ التنافر الموجود بين المعرفة التقليديّة التي يحتفظ بها الدين، وبين المعرفة المكتسبة التي أثمَرَ العِلم عنها، يتهدّد الحضارة المسيحيّة بالتهدم والغرق، وقد كانت في بدايتها غنيّة بالوعود الباهرة.

---

[1] يوحنا، ٨: ٣٢.

هناك خطأ (جسيم) يتلخص في الاعتقاد أنّ العِلم بطبيعته يتعارض مع التقليد. كذلك يجب أيضا علينا أن نؤكد بكلّ قوّة أنّ التقليد لا يحتوى على أيّ نزعة تتعارض مع العِلم. إنّ الرسل على العكس كانوا يعلمون مسبقا بتطور العلم الحديث المذهل.

لهذا فإنّ عبارة القدّيس بولس الشهيرة: الإيمان والرجاء والحبّ [٢]، تلخّص برنامجا واسعا يتعلق بارتقاء العلم البشريّ. فإننا إذا فحصنا تلك العبارة في إطار النص الذي تقع فيه [٣] تبيّن لنا أنّ الحدّين الأوّلين مؤقتان في حين أن الثالث دائم. فالعبارة كانت - تبعا للرسول - لها معناها وقيمتها في العصر الذي قيلت فيه [٤]، ولكن كان يجب أن يتطور مدلولها بمرور الزمان. وهو ما حدث فعلا وحدث في نفس الاتجاه الذي كان القدّيس بولس يتوقعه. فإنّ العلم [٥] والمعرفة [٦] بصفة عامّة كان عليهما أن يحلاّ محل الإيمان والرجاء اللذين كانا عندئذ أعلى نمط من أنماط الفكر الذي تستطيع إدراكه أذهان العصر الذي كان بولس الرسول يلقى فيه بتعليمه. هذا وقد حقق العلم والمعرفة منذ عصر بولس الرسول حتّى الآن تطوّرا لا مثيل له. بيد أنه يضيف: "عندما أصبحت رجلا، تخلصت ممّا كان طفليّا فيّ [٧]: هذا هو وصفه لكيفيّة الانتقال من الإيمان إلى المعرفة. ويعود فيوضّح القدّيس بولس بعد ذلك أنّ المعرفة وان كانت (مرحلة) لازمة للارتقاء، فهي ليست بالحالة النهائيّة، فإنّه لا يمكن أن يكون لها إلاّ طابع جزئيّ. ليضيف بعد ذلك: إذا ما يحلّ ما هو كامل، اختفي الجزئيّ [٨]. إنّ الكامل هو الحبّ الذي يحتوى في داخله على تحقيق تام لكلّ الفضائل، وكلّ النبوات وكلّ الأسرار وكلّ المعرفة [٩]. يصرّ القدّيس بولس على هذه النقطة بإلحاح ثمّ يختم (تعليمه) فيناشدنا قائلا: اجتهدوا لتدركوا الحبّ [١٠].

لن نستطيع أن ننجز البرنامج الذي خطّط له القدّيس بولس وأن ندرك الحب في شكله المتكامل إلا إذا تضافرت جهود العِلم التقليدي القائم على المكاشفة - أي على الإيمان والرجاء، مع جهود العِلم المكتسب، وهو مجال المعرفة الوضعية.

سيعرض هذا الكتاب مسلمات العلم التقليديّ عرضاً مفصلاً من أجل أن يبيّن بوضوح الروابط التي تربط العِلم التقليدي بالعِلم الوضعيّ.

فإنّ المؤلف مقتنع تماما أنّ الجمع ما بين هذين الفرعين من العلم هو الكفيل الأوحد لحلّ مشكلة الإنسان التي يتوقف على حلها حلّ كلّ المشاكل التي تعرض لنا اليوم.

-٣-

لقد سار الارتقاء البشرى تبعا للتقليد (الباطني) - بعد انقضاء حقبة ما قبل التاريخ الطويلة على (شكل) دورات ثلاث متتابعة: دورة الآب التي لا يعرفها التاريخ إلا معرفة غير كاملة، دورة الابن التي أوشكت أن تنتهي، ودورة الروح القدس التي نحن في صدد الوصول إليها حاليّا.

---

[٢] ١ إلى أهل كورنثوس، ١٣: ١٣. - إنّ الحدّ الثالث من العبارة المذكورة هو الحبّ وليس المحبة. وهو فارق دقيق له أهميّته. فالحبّ قوّة هي الماهيّة التي تحكم الظواهر. في حين أنّ المحبة لا تزيد عن كونها وضعا سلوكيّا ومظهرا واحدا من بين مظاهر الحب العديدة. (المعرّب: كلمة المحبة التي هي ترجمة كلمة Charité تعنى أيضا الإحسان أو معاملة الغير معاملة حسنة الخ. ولا تؤدى ما تؤديه كلمة الحب التي استبدلنا بها كلمة المحبة).

[٣] نفس المصدر السابق، ١٣: ١ إلى ١٢.

[٤] يقول القديس بولس بالنص في الآية ١٣: "الآن".

[٥] نفس المصدر السابق، الآية ٩ وما بعدها.

[٦] نفس المصدر السابق.

[٧] المصدر السابق، الآية ١١.

[٨] المصدر السابق، الآية ٩.

[٩] ١ إلى أهل كورنثوس، ١٣ (بالإضافة لعدّة نصوص متفرقة من الإصحاح بأكمله).

[١٠] ١ إلى أهل كورنثوس، ١٤: ١.

يحدد علم الانثروبولوجيا ظهور الإنسان العارف الحفريّ (أو القديم) Sapiens Fossiles بأربعين ألف سنه من فترتنا الزمنية. وكانت الحياة إذ ذاك تتّسم بنظام سيادة المرأة الذي نبع من نظام الزيجات الجماعية. ثمّ تراجع بالتدريج حكم gens matriarcale التجمع العائلي المبنى على سيادة المرأة ليحلّ محله نظام حكم gens patriarcale التجمع العائلي المبنى على سيادة الرجل الذي يتّسم بتعدّد الزوجات (زواج الرجل بأكثر من امرأة). وقد حدث ذلك منذ حوالي أربعة عشر ألف سنه، عندما ظهر الإنسان العارف الحديث Homo Sapiens Recens . ولقد تم بذلك تقدم أكيد، وإن ظلّ هذا النظام موصوما بالحيوانيّة لتحويل المرأة فيه إلى وضع سلعة حيّة. ولكن النزعات القديمة ظلّت سائدة لفترة طويلة جدّا من الزمن. ولقد شهد بذلك أرسطو عندما وصف لنا سلوك رجال الطبقات المتيسّرة الحال، المعاصرة له بخصوص مشكلة المرأة. إذ قال إنهم كانوا يقتنون نساء شرعيّة لإنجاب مواطنين بما يتّفق مع القانون، وعاهرات للذة، ومحظيّات للاستخدام اليومي. إن مثل هذا التصور لا يترك بالطبع إلا مجالاً ضيقا للحبّ.

لقد أدخل يسوع في العلاقات الإنسانية ما كان مجهولا تماماً قبل مجيئه. فقد استبدل بقانون الغابة: العين بالعين والسنّ بالسنّ [11] الوصيّة الجديدة: أحبّوا بعضكم بعضا [12]. فأحدث ذلك ثورة في العلاقات بين الرجل والمرأة: إذ ادخل الحبّ في الحياة الاجتماعيّة. فحصلت (المرأة) "سلعة" الأمس القريب على حقوق المواطن الحرّ. حقا أنّها لم تحصل عليها في التوّ والحال ولم تحصل عليها متكاملة. إلا أنه كان قد أرسى قاعدة مبدأ الاختيار المتبادل (بين المرأة والرجل) في الحبّ، وبذلك ظهرت (في العالم) قصّة الحبّ (وكثرت كتابتها وذاع تداولها).

إلى أن بلغتْ قصّة الحبّ التي عاش المجتمع المسيحي من خلالها مبدأ الاختيار المتبادل - ذروة مجدها في العصور الوسطى. ولازال ذلك المبدأ هو المثل الأعلى المنشود في مجتمعنا، بالرغم ممّا أصابه من تقهقر بعد العصور الوسطى وبالرغم من النزعة الحاليّة للعودة إلى أشكال هابطة للعلاقات بين الجنسين. لذلك ليس صحيحا أن نقول أنّ قصّة الحبّ قد ماتت. فإنّ هناك ثورة يُعدّ لها في الصمت تهدف إلى استبدال قصّة الحبّ الحرّ علامة العصر المسيحيّ بقصّة الحبّ الأوحد خاصيّة عصر الروح القدس. فسوف تنفذ قصّة حبّ الغد التي تحرّرت من عبوديّة الإنجاب، مهمّة توطيد الوحدة الغير قابلة للانحلال بين كائنين مستقطبين تماما، الوحدة التي سوف تضمن تكاملهما معا في قلب المطلق. ذلك أنّه كما قال القدّيس بولس: في الربّ لن تكون المرأة بدون الرجل، ولا الرجل بدون المرأة[13].

إنّ صورة مثل هذا الحبّ تلاحق أفضل العقول منذ آلاف السنين. كذلك نعثر عليها في الحبّ الأفلاطوني، وهو أساس قصّة الحبّ الأوحد في أساطير الأندروجين، وأرفيُوس ويُوريديس، وبيجماليون وجالاتيه... [14] هذا هو ما يتوق إليه فعلا قلب الإنسان الذي يبكي في السرّ عزلته السحيقة. إن تحقيق قصة حب كهذه هو في الواقع الهدف الأساسي للعمل الباطنيّ. فالأمر يتعلق بالحبّ الذي

---

[11] سفر الخروج، ٢١: ٢٤ - سفر التثنية، ١٩: ٢١ - سفر اللاوى، ٢٤: ٢٠.

[12] يوحنا، ١٣: ٣٤ - نفس المصدر، ١٥: ١٢ - ١ يوحنا، ٣: ١١.

[13] ١ إلى أهل كورنثوس، ١١: ١١.

[14] تترجم كلمة اندروجين عامّة بالرجل الخنثىّ، في محاورة المائدة لأفلاطون مثلا الخ... ولكننا فضلنا تركها على حالها "الأندروجين" لما تعلق بالترجمة الأولى من معان غير لائقة. في حين أنّه يقصد بالأندروجين الإنسان المتكامل الذي تجمع وحدته العليا قوى الرجل والمرأة معا، كما يسمو هو إلى أرقى مستويات الوعي الخ. وسوف يجد القارئ الذي يريد أن يتخطى السطحية كثيرا من المعلومات العميقة، وكثيرا من المراجع عن هذا الموضوع المتسع في العملين التاليين: أسطورة الأندروجين لـ مرسيا الياد؛ سرّ التحام الجنسين (تطابق المتقابلين): يونج.
Mircea Eliade: Le Mythe de L• Androgyne , Les Essais CIII
C. G. Jung : Mysterium Conjunctionis. Vol. XIV of complete works.

سوف يوحّد ما بين الرجل وما بين ذلك الكائن الأوحد بالنسبة له، الأنثى-الأخت التي[١٥] تصبح مجدا للرّجل، كما يصبح هو مجداً لله[١٦]. حتّى إذا ما دخلا معا في نور الثابور، ولم يعد الاثنان إلا واحدا فقط، فانّهما يريان عندئذ الحبّ يتدفق، الحبّ الصحيح الذي يبعث فيهما تغيّرا نورانيّا كما أنّه ينتصر على الموت[١٧].

إنّ الحبّ هو ألفا وأوميجا الحياة[١٨]. أما الباقي فمعناه وأهميته ثانويان. يولد الإنسان مع الألفا، وقد أخذنا على عاتقنا في هذا الكتاب أن نبين للقارئ المسار الذي يوصل إلى الأوميجا.

[١٥] ١ إلى أهل كورنثوس، ٩: ٥.
[١٦] نفس المصدر، ١١: ٧.
[١٧] الثابور، ويسمّى أيضا جبل الطور هو الجبل الذي قيل إنّ الربّ يسوع تجلى نورا فوقه أمام الرسل الثلاثة.
[١٨] الألفا والأوميجا هما الحرفان الأول والأخير من الأبجديّة اليونانيّة.

القسم الأول

الإنسان

الفصل الأول

حياة الإنسان الداخلية - عدم ثبات الإنيّة - الاستبطان منهج للعمل - ما يمكن أن يُعاين بواسطة الاستبطان - تيارات الحياة النفسية الثلاثة - الاحتكاك، الحرارة، الالتحام - قانون الصدفة أو العَرض - تعدد الإنيّة - من هو الإنسان؟ - الجسد والنفس - الشخصيّة - المراكز النفسيةِ الثلاثة -

-١-

إنّ الفلسفة الوضعية تدرس الإنسان بصفة عامّة - أي أنها بعبارة أخرى تدرس إنسانا مجرّدا. أمّا الفلسفة الباطنية فإنها تُعنى بالإنسان العيني الملموس: فانّ الباحث المتعمق فيها يتخذ من نفسه موضوعا لدراساته. وهى تبدأ بالإقرار بواقعة موضوعية: ألا وَهىَ أنّ الإنسان مجهول، ثم تهدف بعد ذلك إلى تعريف الإنسان لنفسه على حالته التي هو عليها وعلى الحالة التي قد يستطيع أن يتحول إليها في ظروف معيّنة.

والعلوم الوضعية تهدف نفس المقصد في الأساس. إلا أنّ اتّجاه الجهود يسير في حالتي العلوم الوضعية والباطنية على مسارين متضادين تماما. فإنّ العلوم الوضعية تبدأ من المركز وتتشعب في جميع الاتجاهات لتتجه مع التخصّص (الدقيق) نحو محيط الدائرة التي يمكن لكلّ نقطة من نقاطه أن تكوّن في نهاية الأمر علما تخصّصيّا منفصلا. أمّا العلوم الباطنية، فإنها تبدأ بالمتعدّد والمتغير اللذين يمكن (ملاحظتهما) ومراقبتهما على الدائرة التي تقع تحت أحاسيسنا، لتتجه نحو المركز. أي أنها تسعى إلى تجميع يزداد عموما وشمولا.

يسير العلم الباطنيّ على نفس المنهج الذي يسير عليه العلم الوضعيّ: أي الرصد والمراقبة، والتحليل النقدي لما رصدته المراقبة، والاستنباط الصارم الدقة بناء على الوقائع المثبتة. ولكن ذلك التشابه في المنهج يتضمن فارقا في التطبيق يرجع إلى الطابع الشخصي - الخاصّ- لجزء كبير من الأعمال الباطنية. الأمر الذي لا يسمح دائما بعرض كلّ التجارب التي يعيشها (الدارس) عرضا علنيّا، أو بمناقشة صحّة أسانيدها بنفس الأسلوب العلني. هذا هو السبب الذي يجعلنا نطبّق هاهنا نفس المنهج بنفس الموضوعيّة الصارمة الدقة، ولكن في الاتجاه العكسيّ. فإنّ العلم الوضعيّ يتقبل افتراضا إن لم يستطع أن ينفي صحّته، في حين أنّ أي افتراض في مجال العلم الباطنيّ مرفوض ومستغلط ما لم يعثر على الوقائع أو الظواهر التي تؤيّد (صحّته).

-٢-

لا تشغل الحياة الداخلية للفرد - بكلّ ما تحتوى عليه من ثراء – وسط الحضارة الغربيّة إلا مكانا في مؤخَرة وجود الفرد. الإنسان الذي التهمته ميكانيكيّة الحياة فتجعله لا يملك الوقت الكافي للتوقف، ولا قوة التنبيه اللازمة لكي يوجّه نظره الذهنيّ نحو نفسه. فيقضى أيّامه مستغرقاً فيما يحيط به من ظروف. ذلك أن الآلة الضخمة التي تجرفه معها وتمنعه من التوقف وإلا طحنته، - آلة تدور بدون توانٍ. فُينهكُ الإنسان قواه – يومُه كأمس والغدُ كاليوم – في سباق يتلاحق بجنون، مندفعا في اتّجاه لا يوصلّه في نهاية الأمر إلى أي غاية محددة. فينقضي عمره كومض سهم النور المسرع، وهو لم يكد يدرك أنّه قد عاش، ثم إذا به - وهو لا زال غائبا عن نفسه - يتهاوى فيلتهم.

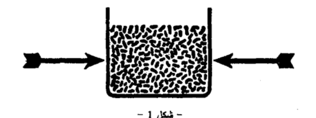
-٣-

إذا طُلب من شخص يعيش تحت ضغط الحياة المعاصرة المستديم، أن يوجه نظره الذهنيّ نحو نفسه فإنّه يجيب عامة بأنّ الوقت الكافي لا يتوفر لديه لكي يقوم بمثل هذا التدريب. وإذا وافق بعد إلحاح فإنّه في غالبية الحالات يقول إنّه لا يرى شيئا. ضباباً. ظلمةً. وقد يفيد المراقب في حالات نادرة أنّه يلمح شيئا لا يستطيع أن يحدده. لأنه شيء يتغير طوال الوقت.

وهى أي النتيجة السابقة نتيجة صحيحة. فإنّ كل شيء فينا يتغير بالفعل، ويتغير من لحظة لأخرى. فإنّه يكفي أن تصيبنا أيّة صدمة من الخارج مستطابة (مستلذّة) كانت أم منفرة، مفرحة أم متعسة لكي يتغير محتوانا الداخلي ليتخذ مظهراً جديدا.

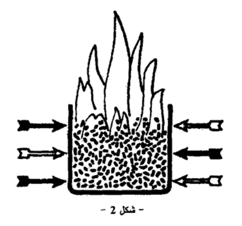
فإذا تابعنا بدون تحيز تلك المراقبة الداخلية، أيْ عملية الاستبطان هذه، نستطيع أن نشاهد بعد فترة وجيزة وبدهشة الغير متوقع، أنّ إنيّتنا التي نحن عادة في غاية الزهو بها إنيّة ليست متّسقة مع نفسها على الدوام: بل هي في تغيّر. ويزداد هذا الانطباع بعدئذ وضوحا. ويزيد إدراكنا تأكيدا أنه لا يعيش في داخلنا رجل واحد فحسب، بل عدّة رجال لكل واحد منهم أذواقه الخاصّة ومآربه الخاصّة كما أنّ كلا منهم يسعى إلى تحقيق أهدافه الخاصة. فنكتشف فجأة في داخلنا عالما بأكمله مليئا بالحياة والألوان، كنّا بالأمس نكاد نجهل كلّ شيء عنه. فإذا ما واصلنا التجربة سرعان ما نتميّز ثلاثة تيّارات في تلك الحياة الدائمة الحركة: الحياة النباتيّة الخاصة بالغرائز، إذا جاز لنا ذلك التعبير، وتيار الحياة الحيوانيّة الخاصّة بالمشاعر، وأخيرا تيّار الحياة الإنسانية بمعنى الكلمة، وطابعها الفكر والكلام. وكأنّما يوجد في داخل كلّ منا ثلاثة رجال. إلا أنّ الأمر كله يتداخل تداخلا منقطع النظير.

عندئذ نقدّر الاستبطان حقّ قدره بوصفه منهجا للممارسة العلميّة يسمح لنا بمعرفة أنفسنا والدخول في ذاتنا. وكلما ازداد تقدُمنا، ازدادت حدّة إدراكنا للموقف الحقيقي الذي نحن فيه. ويمكن تشبيه محتويات الإنسان الداخلية بالقياس - إجمالا للقول – بإناء ملئ ببرادة في حالة خليط من جرّاء فعل ميكانيكيّ. الأمر الذي يجعل كل صدمة يتحملها ذلك الإناء تغير وضع جزيئات البرادة فيه. هذه هي الطريقة التي تضيع الحياة الحقيقية على الكائن البشريّ نظرا للتغيّر الدائب في حياته الداخلية.



- شكل 1 -

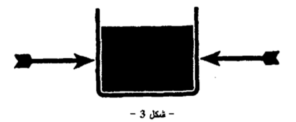
إن ذلك الموقف لا معنى له وخطير، ولكن يمكننا أن نحوله إلى صالحنا كما سنرى ذلك فيما بعد. ولكن الأمر يتطلب عملاً وجهودا واعية ومتماسكة. فإن المواظبة على الاستبطان بلا ملل ينتج عنها ازدياد الحساسيّة الداخلية التي تؤدى بدورها إلى ازدياد سعة وسرعة تردّد الحركات الحادثة عندما تُغَيّرُ جزيئات البرادة أوضاعها. وهكذا تصبح الصدمات التي كانت بالأمس لا تُدْرَكُ، تُثير ردود فعل قوية. بل قد تتسبّب تلك الحركات العديدة، من جرّاء ازدياد سعتها المستمرّ، في إحداث احتكاك بين جزيئات البرادة تصل فينا حدّته إلى درجة من الشدة تمكننا يوماً أن نحس بالنار الداخليّة تشتعل.



- شكل 2 -

إلا أن ذلك الاشتعال لا يجب أن يكون وهيجا يهبّ ويخبو. وكذلك لا يكفي أن تكون النار نارا تسرى في الرماد. بل إنّه إذا اشتعلت نار قويّة ومتقدة يجب أن نحافظ عليها بكل عناية بواسطة الإرادة (التي تعمل على) زيادة إرهاف الحساسيّة.

إذا سارت الأمور على هذا المنوال، يمكن أن تتغير حالتنا:- فإنّه في إمكان حرارة الاشتعال أن تُحدِثَ الالتحام في داخلنا[1].



- شكل 3 -

إن المحتويات الداخلية بعد ذلك لن تشكل كوما من البرادة. بل سوف تعمل بمثابة كتلة صمّاء واحدة. لن تستطيع الصدمات الواقعة أن تحدث في الإنسان تغيّرا داخليّا كما كان الأمر عليه من ذي قبل. فإنّه بوصوله إلى تلك المرحلة يكون قد اكتسب الثبات الكفيل بإبقائه على حاله وسط العواصف التي قد تعرّضه الحياة لها.

هذا هو المجال الذي يتفتح أمام من يدرس العلم الباطنيّ. إلا أنّه يجب من أجل الوصول إلى الحالة التي وصفناها، أن يتخلص الإنسان من كلّ وهم (يحتفظ به) تجاه نفسه مهما كانت أهميته بالنسبة له، فإنّ التغاضي عن وجود وهم كهذا عند البداية، يجعله يتضخّم أثناء التقدّم ممّا يستلزم بعد ذلك عذابا إضافيا ومجهودا إضافية للتخلص منه.

إن الإنسان ما لم يصل إلى حالة الالتحام، يعيش حياة هي في الواقع وجود مفتعل، ما دام أنه يتغير في كل لحظة. وبما أن هذه التغيّرات تحدث تحت تأثير صدمات خارجيّة لا يمكنه في غالبيّة الأحوال أن يتنبأ بها فإنّه يستحيل عليه أيضا بالتالي أن يقدّر نفس تغيّراته الداخلية قبل حدوثها. لذلك فهو يعيش على هوى الحوادث (الجارية) مهتما على الدوام "بالترميم". أي أن (حياته) تسير في الواقع على هوى الصدفة، صوب المجهول. وتُعْرَفُ تلك الحالة (التي تسير عليها أمور الإنسان) في التقليد

[1] مرقص، ٩: ٤٩؛ ١ إلى أهل كورنثوس، ٣: ١١ – ١٣؛ ١ بطرس، ١: ٧، ٤: ١٢.

(الباطنيّ) بقانون الصدفة أو قانون الحادث (العرض)، وهو القانون الأساسيّ الذي يعيش الإنسان وُجُودَه الوهمي تحت سيطرته.

يبيّن لنا العلم الباطنيّ الإمكانيات والوسائل التي (تفيد في) الخروج من سيطرة ذلك القانون، فيساعد على بدء حياة جديدة ومُتَعَقّلة لكي نصبح منطقيين مع أنفسنا، وعلى أن نتحكّم - في نهاية الأمر - تحكّما (كاملا) في ذاتنا.

ألا أنه يجب على الإنسان منذ بداية سيره على هذا الطريق أن يكون واضح الرؤيا فيما يختص بحالته الراهنة. (كثيرا) ما نعثر لدينا في النصوص الدينية القديمة على صورة تمثّل لنا تلك الحالة، وتيسر علينا الاحتفاظ بها حاضرة في أذهاننا: ألا وهى صورة عربة (الخيل).

تمثّل تلك الصورة تركيب الإنسان بواسطة عربة (خيل). حيث يُشَبَّهُ الجسد الطبيعيّ بالهيكل (أو الصندوق)، وتمثّل الجياد الأحاسيس والمشاعر والاندفاعات الشهوانية، والحوذيّ هو مجموع القدرات العقليّة بما في ذلك الفكر ألسنديّ الاستنباطي[٢]. أمّا الشخص الجالس في صندوق العربة فهو السيّد.

يؤدى ذلك النظام بأكمله وظيفته على أتم وجه عندما يكون في الوضع القياسي (المعياري) له: فالحوذيّ يمسك بأعنّة الجياد بحزم في يديه، ويقود الركب كلّه على المسار الذي عيّنه له صاحب الركب. ولكنّ الأمور لا تسير على هذا المنوال في الغالبيّة العظمى من الحالات. فإنما يكون صاحب الركب في بادئ الأمر متغيبا. ويتعيّن على الركب أن يذهب للبحث عنه لكي يضع نفسه تحت تصرفه. كل شيء في حالة سيئة: فالمحاور غير مشحمة وتصدر صريرا عند السير، والعجلات غير مثبتة في مكانها بإحكام، وعريش العربة يتخلخل تخلخلاً خطيراً، أما الجياد - وان كانت من أصل نبيل - فهي قذرة تعانى من سوء التغذية، وعلى ظهر كل منها سراج مستهلكة، أعِنّتهَا (أزمَتهُا) ليست من المتانة في شيء. والحوذي قد راح في النوم. فانزلقت يداه فوق ركبتيه وهما لا تكادان تمسكان بالأعنّة التي قد تفلت من بينهما بين آونة وأخرى.

والعربة تتقدم بالرغم من ذلك كلّه، ولكنها تتقدم بشكل لا ينبئ بأي خير. فهي بالفعل قد خرجت عن المسار، وأخذت تنحدر فوق منزلق حتّى أن أصبحت العربة تدفع بالجياد التي عجزت عن الحدّ من هذا الدفع. أمّا الحوذي وقد استغرق في نوم عميق، فإنه يتأرجح على مقعده ويتهدده السقوط من فوقه في أي لحظة. بئس المصير الذي يترقب - بلا أدنى شك - مثل هذه العربة.

تَعْرِضُ لنا هذه الصورة مماثلة قياسية تتناسب تناسباً كبيراً مع حالة غالبية القوم، وهى لا شكّ جديرة بأن تكون موضوعا للتأمل.

إلا أنّ الخلاص قد يسنح. فقد يمرّ حوذي آخر يتمتع بكامل اليقظة، فوق نفس المسار فيرى موقف الركب الأول البائس. ولعلّه - إن لم يكن على عجلة من أمره - يتوقف لكي ينتشل العربة من محنتها. فيبدأ أولا بمساعدة الجياد لإيقاف انحدار العربة فوق المنزلق. ثم يوقظ بعد ذلك الرجل النائم، ويحاول بمساعدته أن يعيد الركب فوق المسار. فيقرضه غذاء للجياد وكمية من النقود. بل ولعلّه يعطيه بعض النصائح فيما يختصّ بالعناية بالجياد، بعنوان حانة، وعنوان مختص بإصلاح صناديق العربات، ويبيّن له المسار الذي يتعيّن عليه السير فوقه.

---

[٢] نعنى بالتفكير السندىّ الاستنباطي ما تعنيه الفرنسيّة بالكلمة الوحيدة: Raison ويجب أن يكون معنى تلك الكلمة واضحا جدا في أذهاننا: فالمقصود بها هو ذلك التفكير القاصر على دراسة الظواهر في نطاق الزمان والمكان وحدود السببيّة التحليلية التركيبيّة. بدأ به ديكارت، وبلغ كانت به الذروة. ومهما يكن فهو ينكر على العقل قدرة لإدراك الماهيات وراء الظاهريات. وقد أطلق على هذا النوع من الفكر العقلانيّة المؤمنة باللا أدرية: "أجنوستك". أو العقلانية فقط الخ....

ونحن في التعريب نستخدم بنفس هذا المعنى: أمّا التفكير السندى الاستنباطي أم العقلانية المؤمنة باللا أدرية أم العقلانية فقط. على عكس العقل (العقلانية) للعلوي (العلوية) للمستنير بنور القلب والروح إذن. كما سيتضح للقاريء الكريم كل ذلك مع تقدمه في القراءة.

فيؤول بعدئذ إلى الحوذي الذي حظي بهذه المساعدات أن يستفيد بنفسه من العون والتوجيهات التي تلقاها. إذ سوف يتحتم عليه من هذه اللحظة فصاعدا أن يرتب كل شيء بنظام، وأن يواصل التقدّم وهو مفتوح العينين، على المسار الذي كان قد تركه.

سوف يجب عليه خاصّة أن يناضل ضدّ النعاس. فإنّه إذا استسلم للنوم من جديد، وإذا انحرف الركب عن مساره، وتعرّض لنفس الخطر السابق، ليس له أدنى أمل أن يبتسم الحظ له مرّة أخرى، وأن يمرّ حوذي آخر في هذه اللحظة في ذلك المكان، وأن يتولى إسعافه مرّة أخرى.

-٤-

لقد رأينا أن المواظبة على تطبيق الاستبطان تؤدى بنا بعد فترة وجيزة جداً إلى إقرار واقعة ثابتة وموضوعية، وهى أنّ حياتنا الداخليّة تكاد تتغير بين كلّ لحظة وأخرى. ومع ذلك فإنّ الإنسان يدّعى أنّه يفكر تفكيرا متصلا وحداويّا، وأنّه متماسك في تصرّفاته. ذلك أنّ الحياة تتطلب منه أن يُعْطِيَ للناس ذلك الانطباع، وهو أمر لا يمكنه التغاضي عنه إلا بصعوبة. فانّ الإنسان عندما يَعِدُ أو يلتزم بشيء، أو عندما ينذر نذرا يتكبل بالقيود - بالرغم من التغيرات المتواصلة التي استجدّ اكتشافه لها في داخل نفسه تلك التغيرات التي تفسّر له أخيرا السبب العميق لما يتخلل حياته من صعوبات، ومن منازعات داخليّة وخارجية ومن سقطات.

يقاوم الإنسان على قدر استطاعته، ذلك الضغط المستديم للصعوبات والمستوجبات التي تثقل عليه. أمّا فيما يختصّ بالتغيرات الداخليّة، فإنّه يتداركها بصفة عامّة بواسطة ردود فعل غرائزيّة تعويضيّة، فيتخيّر لكلّ ظرف موقفا مناسبا. فهو يريد - مهما كان الثمن - أن يبدو (من الخارج)، وإن لم يكن فعلا ذلك، منطقيا مع نفسه متحكماً في تصرّفاته (وأفعاله). لذلك فهو عندما يسعده الحظ مرّة أو عندما ينال نجاحا لم يكن يتوقعه، يحاول جاهدا أن يقنع المحيطين به، وأن يقنع نفسه بصيغة غير مباشرة، أنّه لم يفاجأ بما حدث له البتّة، بل كان يتنبأ حتمية تسلسل الوقائع التي توالت، على النمط الذي توالت به، وأنّ كلّ شيء كان محسوبا لديه من ذي قبل. أما في حالات الفشل، فهو يعزى فشله إلى الآخرين، إلى الحوادث، وبصفة عامة إلى الظروف.

ذلك أنّ احتكاك البرادة يُحدِثُ فينا إحساسا مؤلما (منّفرا) وأنّنا نشعر بالحاجة للتخلص منه. تتوقف حركة البرادة عندما نجد لنا حلاّ فنتفادى بذلك تأثير الصدمات المتلقاة: ويؤدّى عثورنا على شخص مذنب (بدلا منّا) إلى نفس النتيجة. وهكذا يبدو لنا الإنسان منهمكا على الدوام في عمليّة الترميم الداخليّ هذه التي تتمّ مع مرور الزمن في داخلنا بطريقة تكاد تكون آلية.

-٥-

ولما كان الأمر على ما سبق، فما أحرانا نستطيع أن نتساءل عن كيفيّة تعريف هذه التغيرات الداخليّة؟ ما الذي يتغيّر؟

إذا تكلم الإنسان عن نفسه قال: أنا. ولعلّ تلك الكلمة أغمض كلمة في لغة البشر وأقلّها تحديدا في معناها. إذ أنّ الإنسان بالفعل إذا تحدّث عن جسده يستخدم ضمير الغائب، كما يفعل عندما يتحدث عن شخص غائب: وهو الصواب. إلا أنه إذا تحدث عن نفسه، يستخدم في ذلك أيضا صيغة الكلام عن الغائب. وهو يؤكّد إذّ يَفْعلُ ذلك أنّه ليس بالجسد ولا النفس. هذه هي بلا شكّ القاعدة بالنسبة للأغلبيّة العظمى من الكائنات البشريّة، وإن كان الأمر يبدو لأوّل وهلة مفارقا. وإذا كان الإنسان ليس جسما ولا نفسا، ما هو الإنسان إذن؟ ما هي إنّيته تلك التي يحسّ بها في داخله، والتي يحاول أن يكسوها، ولو بمجرّد مظهر الترابط المنطقيّ؟

أنها بالفعل جزيئات البرادة التي تمثل في مجموعها الإنيّة فينا، مع مراعاة الأوضاع النسبية لهذه الجزيئات التي تتغير في كلّ لحظة. أنها إذن إنيّة ليست بثابتة (ومتصلة)، بل تتخذ عدّة أشكال مختلفة،

ولكنّها بالرغم من كلّ ذلك فهي تلك الإنيّة التي يستطيع الإنسان على الشكل الذي يولد به على الأرض أن يرتقي بواسطتها في الحياة.

إنّ تلك الإنيّة ليست فقط غير متصلة وغير دائمة بل هي أيضا متعدّدة، ذلك أنّ كلّ واحد من الرجال الثلاثة الذين يوجدون معاً في داخل كل منا - كما سبق أن ذكرنا ذلك، هو أيضا متباين في تركيبه. ممّا يجعل إنيّتنا في الواقع، تتكون من مجموع العديد من الإنيّات الصغيرة التي تتمتّع كل منها باستقلال نسبيّ، وتميل كل منها إلى التصرف بطريقتها الخاصة. تلك هي طبيعة إنيّتنا التي هي تبعاً للإنجيل: فرقة[٣].

إذا عدنا إلى سؤال: ما هو الإنسان، نستطيع الآن أن نجيب عليه إجابة محدّدة (ودقيقة): إن الإنسان هو الشخصية. وبعبارة أخرى: إن الإنسان هو (السيد فلان أو علاّن) السيد "س" أو "ص" الذي ينطبق (تماما) على ذلك الجسد الحيّ النفسيّ الذي يقيم في داخله، والذي لا ينطوي على شيء ثابت، أو ينطوي على قليل جدّا من الثبات. فهو يتغيّر تبعا لما يتلقاه من انطباعات مستملحة أو منفرة. بل ويتغير أيضا على هوى الصدمات الطبيعية (الجسدية).

قال يسوع: إذا ضربك أحد على خدك الأيمن، فقدّم له أيضا الآخر[٤]. ولكن مَنْ منّا الذي يستطيع أن يفعل ذلك؟ لا أحد سوى الذي قد سيطر في داخله على ردود الفعل الغرائزية الحيوانيّة فأصبح من جرّاء ذلك متحكِما في التحرك الميكانيكيّ لجزيئات البرادة. فإنّ الأولوية لدى الإنسان البدائي هي العبارة التالية: العين بالعين والسن بالسن[٥]، التي تهدف إلى حماية البرادة من ردود الفعل (الهوجاء). فمن استطاع بعد أن صُفِعَ على خدّه، أن يبقى كما هو، وأن يقدّم لصافعه خدّه الآخر، وهو في حالة من الهدوء الداخليّ الغير قابل للتبدل قد تمكن من فعل ذلك لأنه نجح حقا في التحكم في نفسه. وقد قدّمَتْ لنا الكتب المقدسة العديد من الأمثلة التي تبيّن بوضوح حاجة الإنسان الماسّة أن يتحكم في نفسه.

-٦-

يجب للوصول إلى التحكم (التام) في أنفسنا أن ندرس تركيب شخصيّتنا. فإنّ المعرفة في هذا المجال وفي جميع المجالات الأخرى، تؤدى إلى القدرة (أي إلى التحكم الفعّال).

لِنَعُدْ مرة أخرى إلى صورة الرجال الثلاثة الذين يتواجدون معاً في داخل الإنسان. إنما الأمر يَتَعَلّقُ في الواقع بتيارات حياتنا النفسيّة الثلاثة الكبار: التيّار العقلي، والتيّار الانفعالي، والتيّار الغرائزيّ – الحركيّ، التي تتناسب تقريبا، ولكن بدون تحديد قاطع - ولذلك سبب سوف نراه فيما بعد – أفكارنا ومشاعرنا وحواسّنا وأحاسيسنا.

يوجد مركز الثقل الخاصّ بكل شكل من الأشكال الثلاثة لحياتنا النفسية، الأول في المخ، والثاني في القلب، والثالث في الصلب (المنطقة القطنيّة أو الحقو كما تسمى أيضا): ولكننا لا يجب أن نفهم هذه الألفاظ فهماً مُطلَقَ الحرفية. فإنه في اللحظة التي يستقبل أو يرسل فيها أحد المراكز الثلاثة دَفعَةً ما، يتّخذ المركزان الباقيان عامّة موقفا سلبيّا، وان كانا قد شاركا في الاستقبال أو الإرسال. وبهذه الكيفية يصبح المركز الذي يتولى القيادة في هذه اللحظة، هو المتكلم باسم الشخصية في مجموعها، الممثل للإنسان بأكمله بالتبعيّة.

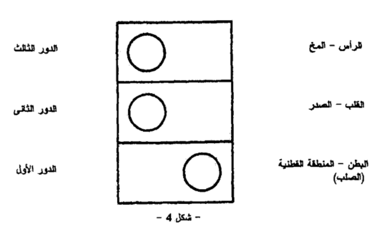
سوف نفحص فيما بعد بالتفصيل هذا الوضع للأمور. ولنكتف الآن بتثبيت الأفكار التي عرضنا لها بوضع شكل تخطيطي لها تكتمل تفاصيله مع التقدم في الدراسة لنستخدمه كآلة سائغة في أثناء العمل.

---

[٣] مرقص، ٥ : ٩ – لوقا، ٨ : ٣٠ .

[٤] متى، ٥: ٣٩ – لوقا، ٦: ٢٩.

[٥] سفر الخروج، ٢١: ٢٤ – سفر التثنية، ١٩: ٢١.



- شكل 4 -

لكلّ من هذه المراكز الثلاثة التي تمثّل التيّارات الثلاثة التي تتركّب حياتنا النفسية منها وظيفة مزدوجة: الاستقبال والإظهار (أيْ ردَ الفعل في الخارج) والنظام إذا نظرنا إليه من وجهة النظر هذه قد صُمِّم تصميما رائعا إذ أنّ كلّ مركز يستَجيب في مجاله (الخاصّ) استجابة كاملة مع حاجات الحياة الداخلية والخارجيّة للإنسان.

ولنُذكِرُ القارئ من جديد أنّ نظريّة وظائف وأماكن تواجد المراكز النفسيّة نظريّة اتفاقيّة، ومعنى ذلك أنّ تلك المراكز مراكزُ ثقل. فإننا نفكّر أساسا بواسطة الرأس، ولكنّ الأمر لا يقتصر على الرأس فقط لا غير. وكذلك فيما يختصّ بالقلب الذي نضع فيه المركز الانفعالي. أما المركز الحركيّ فهو يَرْعَى شئون الحياة الغرائزيّة، وكذلك الخاصّة الحركية والحركات النفسية: بذلك يمتد نشاطه ليعمّ الجسد بأكمله. وقد عُيّن له مكان مع ذلك في الدور الأول الذي يوافق منطقة الصلب القطنيّة والبطن، ولذلك أسباب سوف تتضح فيما بعد.

-٧-

إلا أن الشخصيّة، ذلك المجموع المتحرّك من جزيئات البرادة لم تجعل لتظلّ جامدة (بلا نشاط). بل على العكس، فإنّ ذلك الجسد النفسيّ كيان حي قد صُمِّم من أجل أن يلعب دوراً محدداً، وإن كان لا يستخدم عامة بما يتفق وتلك الغاية. ويرجع السبب في ذلك إلى أننا نستخدمه بدون أن نكون قد درسناه وفهمناه.

تبدأ الدراسات الباطنيّة إذن، بالنسبة لكلّ واحد منّا، بدراسة مضمون (محتوى) شخصيته وتركيبها وتوظيفها.

وها هي الوظائف النفسيّة للمراكز الثلاثة بالتحديد:-

وظائف المركز العقليّ أن يسجّل، ويفكّر، ويحسب، ويركب ويولف، ويتبحّر في البحث، الخ ...؛

مجال المركز الانفعاليّ هو المشاعر والأحاسيس والشهوات القوية ذات الطابع الراقي المرهف؛

أما المركز الحركيّ فهو الموّجه للأحاسيس الخمسة. كما أنه يكدّس الطاقة داخل الكيان ألحى بواسطة وظائفه الغرائزية، ويشرف عن طريق وظائفه الحركيّة على استهلاك تلك الطاقة.

والمركز الحركيّ هو أحسن المراكز الثلاثة تنظيما. فإنّ المركزين الآخرين لا يتمان تكوينهما ولا تنظيميهما إلا مع النمو والتطور التدريجيين للطفل، في حين أنّ المركز الحركيّ يباشر وظائفه منذ

إخصاب البويضة. فهو بالتالي أقدم المراكز وأكثرها نظاما. كما أنه أيضا - إذا جاز ذلك التعبير - أكثرها حكمة، وإن كان يرتكب أحيانا بعض الأخطاء.

أمّا المركزان الآخران فإنّهما مصدران للصعوبات البالغة الخطورة. فإنهما فوضويّان، يتعدّى كلّ منهما على مجال الآخر، وعلى مجال المركز الحركيّ بشكل يجعل نظام الأخير يختل تماماً.

إننا لا نتضمن في الواقع فكرة واحدة نقيّة (خالصة) أو شعورا واحدا نقيّا - كما أنّ أفعالنا أيضا ليست بالنقية. إن كلّ شيء فينا يختلط، أو قل يتداخل (ويتشابك) بواسطة شتى أنواع الاعتبارات في غالبية الأحيان، وقد تنبع إما من المركز العقلي الذي يدنس نقاوة المشاعر بحساباته، وإما من المركز الانفعاليّ الذي يفسد على المركز العقليّ حساباته.

وبهذا يستحيل علينا أن ننظّم حياتنا النفسية، وأن نخرج بها ممّا يعتريها من فوضى مستديمة، ومن انغماس عميق في حياة لا معنى لها قبل أن نكون قد درسنا تركيب شخصيتنا دراسة متعمقة. فإن الباحث سوف يستطيع بفضل تلك الدراسة أن يعمل على تنظيم ذلك الكيان الحيّ وإتمام ضبطه. وليس هناك إلا وسيلة واحدة لبلوغ ذلك ألا وهى إصلاح أنفسنا عمليا، والمراقبة الداخلية.

الفصل الثاني

(الفرق بين) ما هو معلوم وما هو مفهوم - الوعيُ ووظائفه - أربعة مستويات للوعي: الوعي الباطن، وعى الاستيقاظ، الوعي بالإنيّة الحقيقية والوعي (بملء معنى هذه الكلمة) - مشكلة الوجود - المستويات الأربعة للوجود - الحاوي والمحتوى - (العلاقة بين) علم وفهم فن الإنجاز - العلاقة في الإنسان بين ما يعلم وما يفهم وفنه في الإنجاز - تبرير تعريب بعض المصطلحات الهامة[1] -

-١-

أصعب ما يمكن التملك من فهمه فيما يختص بالأفكار المجرّدة هو البسيط منها. فإنها تُفلت منا، بسبب تعقيد أذهاننا الشديد الذي يدفعنا إلى تعقيد كلّ شيء أمامنا. ومع ذلك فإنّ الأفكار المجرّدة البسيطة، وكذلك الصيغ البسيطة هي وحدها التي تنجح في الحياة.

علينا بعد ذلك أن نتناول مسألة العلاقات القائمة بين المفهومين التاليين: ما هو معلوم، وما هو مفهوم.

يستطيع المرء أن يعلم بدون أن يفهم، ولكنّه لا يستطيع أن يفهم بدون أن يَعلم. يُستنتج ممّا سبق أنّ ما هو مفهوم هو ما كان معلوما، ولكن بإضافة شيء له ما لا يمكن تحديده. إنّنا نلمس هنا مشكلة بسيطة ولكنّها، في نفس الوقت صعبة جداً.

ينتقل المرء بالتدريج من ما هو معلوم إلى ما هو مفهوم على قدر استيعابه للمعلوم، وهى طاقة لها حدودها. فهي الدّالة لقدر احتواء الإنسان، وتختلف من شخص إلى آخر.

يتعلق الأمر هاهنا بما يسمى وجود الإنسان. وهو مفهوم (تجريديّ) من المفاهيم الأساسية في العلم الباطنيّ. وله عدّة جوانب. الوجود من الوجهة التي تهمّنا هاهنا، تتجلى (في شكل) طاقة الشخص على الاستيعاب.

إنّ ما يمكن أن نعلمه ينتشر في كلّ مكان. ولكنّه خارج عنّا. أمّا الفَهْمُ (وما يفْهمَ) فهو موجود في داخلنا.

---

[1] تنبيه للقارئ لتعريف بعض المصطلحات الهامة:-

الوجود، الموجود، الكينونة	L'Etre
تواجد، للتواجد	Exister (Ex-sistere), L'existence

وقد كانت تترجم عامة بوجد والوجود كالسابقة، وهى تعنى فلسفيا تواجد الشخص خارج نفسه، كأن يهتم مثلا بالظواهر الخارجية لا بما في داخله، وهو معنى يختلف اختلافا جذرياً عن معنى كلمة الوجود.

كائن حيّ	Un Etre Vivant
كائن بشرى	Un Etre Humain
كيان حيّ	Organisme
الوعيَ	La Conscience
الضمير	La Conscience Moral
الوعيَ الباطن	La Sub Conscience
المعلوم، علم	Le Savoir, Savoir
العلم	La Science
فهم، الفهم	Comprendre, La Comprehension
عَرف، المعرفة	Connaître, La Connaissance
فن الإنجاز بمهارة	Savoir Faire

إذا صببنا محتوى إناء داخل كوب، لن يستطيع ذلك الكوب أن يسع إلا حجم السائل المكافئ لسعته هو بالطبع. وما فاض عن ذلك ينسكب خارج الكوب. هذا هو بالضبط ما يحدث بالنسبة لنا. فأننا لا نستطيع أن نفهم إلا ما يتناسب مع قدر ما يمكن أن يحتويه وجودنا.

قال يسوع لتلاميذه: لدىّ أيضا أشياء أخرى كثيرة أقولها لكم، ولكنكم لن تستطيعوا أن تحتووها الآن[٢].

لكي نستطيع أن نرتقي بالمعنى الباطني لهذا المصطلح، يجب علينا قبل كلّ شيء أن نهتم بزيادة قدرة وجودنا على الاستيعاب.

-٢-

إن الإنجيل لا يستخدم مجموعة من المصطلحات الخاصّة به. وهو سبب من أسباب شهرته (وشعبيّته): فهو في متناول الجميع. وقد احتذى التقليد المسيحيّ الباطنيّ مثال الإنجيل في ذلك، فتجنب بحرص خلق ألفاظ خاصة به، ولو فعل لكان شكل ذلك عقبة جديدة على مسار ليس بالسهل في حدّ ذاته. يرتكز التقليد على المبدأ التالي:- ألا وهو أنه لو كلّف المرء نفسه عناء التفكير بعمق، لاستطاع أن يعبّر عن كل شيء (يريده) بدون اللجوء إلى استخدام ألفاظ من اختلاقه هو. إلا أنّه يتحتّم بعد ذلك علينا أن نوضح معنى الكلمات المستخدمة وضوحاً كاملاً[٣].

يجب علينا، في بادئ الأمر أن نحدّد بدقة ما يعنيه التقليد بكلمة الوعي ومشتقاتها. تعطى معاني مختلفة لتلك الكلمة في اللغة المستخدمة عامة، وفي شتى المؤلفات الفلسفية: كما أنه يلحق بها أحيانا (بعض) الصفات. نجد على سبيل المثال تعبيرات كالتالية: "الوعي العلوي"، "الوعي الفلكي"، الخ...

يُعطى العلم الباطنيّ لهذه الكلمة معناها الأقصى (والأقوى) وهو المعنى الذي يرتبط بالمستوى الإلهي. فقد قال الأنبا ثيوفان الناسك صاحب التعليقات (والشروح) المعتمدة: الطريق نحو الكمال هو الطريق نحو الوعي. يتبين لنا إذن أنه لا يعطى إلى لفظ "الوعي" المعنى الدارج (الضعيف) له.

إننا لا نمتلِك الوعي. وما نطلق عليه اسم الوعي ليس في واقع الأمر إلا أحد مشتقاته، فمشتقاته وحدها هي التي في متناول الإنسان على الحالة التي يولد بها من المرأة[٤].

يوجد أربعة مستويات للوعي فقط لا غير: الوعي – ويقال له (الوعي) المطلق – ومشتقاته الثلاثة:-

الوعى المطلــــق •

الوعى بالأنية الحقيقية •

وعى الصحــو أو الاستيقاظ •

الوعى الباطــن •

- شكل 5 -

(٥)

[٢] يوحنا، ١٦: ١٢ مذكور حسب النصّ السلافوني (لإنجيل يوحنا)

[٣] ذلك ما دعانا بالطبع إلى تثبيت وتحديد معاني مصطلحات التعريب بدقة فائقة، وتوضيح ذلك كله للقارئ عند اللزوم، وتبرير استخدام بعض الألفاظ، وتحرّى عدم إضافة شيء للنصّ على قدر الإمكان، كما سبق أن أشرنا لذلك (المعرّب).

[٤] متى، ١١: ١١.

[٥] وعى الصحو = وعى الاستيقاظ

فإذا بدأنا من أسفل إلى أعلى نجد أولّ ما نجد الوعي الباطن. وهو وعى غسقيّ نستخدمه أثناء النوم مثلا حيث يتحكم بدون أيّ انقطاع على الكيان الحيّ. يمتد أيضا تحكم الوعي الباطن لبعض وظائف الجسد في حالة الاستيقاظ.

للوعي الباطن نطاق واسع جدّا لم يدرس إلا قليلا جدّا. يوضع أحيانا في الوعي الباطن كلّ ما لا يدخل في نطاق وعى الاستيقاظ. فلا يسند له ردود الفعل الانعكاسيّة ووظائف الحياة الغرائزيّة بصفة عامّة فحسب، وهو أمر صحيح، بل يسند إليه أيضا بوارق (النور) التي تأتى من المستويات العلويّة ويشار إليها بألفاظ غير واضحة مثل الحدس، الحسّ السادس، الخ... وهو ما يشكّل خطأ. يرجع السبب فيه إلى اعتبار وعى الاستيقاظ، ويسمّى أيضا الوعي الواضح، قمّة الوعي.

بيد أنّ العلم الباطنيّ يميّز بين وجود مستويين آخرين من الوعي فيما وراء وعى الاستيقاظ. وهذان المستويان لا نملكهما بحقّ الولادة ولا نكتسبهما بواسطة التربية والتعليم العاديّين. وإنّما يمكن بلوغهما نتيجة لجهود خاصّة توجّه توجيها ملائما.

المستوى العلويّ الأوّل للوعي هو مستوى الوعي بالذات (وعي ألذات) أيّ بعبارة أخرى الوعي بالإنيّة الحقيقية. يوجد بعد ذلك في القمّة مستوى الوعي بالمعنى الكامل لهذه الكلمة.

يمكننا إذن بعبارة أخرى أن نحدّد من أسفل إلى أعلى أربعة مستويات على النحو التالي:-

١- الوعي الباطن وهو وعى غسقيّ بالجسد. لا تعتمد قوّته على المستوى الثقافي للفرد. فكثيرا ما يحدث أن يتمتع أفراد من البشريّة - بدائيون أو بسطاء - بوعي بأجسادهم أقوى من الذي يتمتع به أفراد (طبقة المفكّرين) العقلانيين؛

٢- وعي الاستيقاظ هو وعى الشخصية في أثناء النهار. فإذا استبعدنا الحالات المرضيّة، نقول أنّ سعة ذلك الوعي وقوّته تتطوّران بالتطور الثقافي للفرد؛ فهو الوعي الذاتيّ بالإنيّة؛

٣- الوعي بالإنيّة الحقيقية هو الوعي بالفردية أي بعبارة أخرى هو الوعي الموضوعي بالإنيّة الفرديّة[٦]؛

٤- الوعي وهو الوعي المطلق والوعي بالمطلق.

-٣-

سوف نعود فيما بعد إلى مسألة الوعي، عندما نكون قد تزودنا بأسلحة أفضل لكي نحسّ ونفهم المعنى الصحيح لهذا الاصطلاح. أمّا عن الوعي بالإنيّة الحقيقية، فإنّنا نستطيع أن نُكَوّنَ لأنفسنا فكرة بسيطة عنه، حتّى لو اقتصر الأمر على الشكل السلبي له. أننا نعرف أنّه النقطة الوحيدة الثابتة (الدائمة) المتواجدة فينا، والتي تختبئ وراء شخصيّتنا المتغيرة والمجروفة على الدوام مع السيل المتدفق من الأفكار والمشاعر والاندفاعات الشهوانية والأحاسيس التي تعبر من خلالها، وتدفع الإنسان بأكمله إلى فعل أفعال كثيرا ما (يؤنبها) بدون تروٍّ، فيستنكرها أحيانا فيما بعد. هذه النقطة الثابتة (الدائمة) هي الحَكَم الغير متحيّز، والذي يحكم في داخلنا على أفعالنا؛ وهو حكم ذو صوت ضعيف كثيرا ما تطغى عليه الضوضاء الداخلية أو الحوادث. ومهما يكن من ضعف وسلبيّة ذلك الشكل المتلاشي للوعي بالإنيّة الحقيقيّة، إلا أنّه دائما عادل وموضوعيّ.

ولو لم يكن الوعي بالإنيّة الحقيقيّة ينبّهنا (بوجود) خطر، عندما نتعرض لتجربة، لما كان لعقيدة الخطيئة ومسؤوليتنا عن أفعالنا أيّ معنى[٧]. ومن جهة أخرى فإنّ وجود presence في داخلنا هو

---

[٦] كلما كانت كلمة الفرديّة تصف وتنطبق على الإنيّة الحقيقية يجب أن تؤخذ بالمعنى الفرنسي الجذري لها: أي الوحدة التي لا تقبل الانقسام، الوحدة المتحدة اتحادا لا يُتصوّر معه الانفصام، وسبب ذلك سوف يتضح جليا بعد ذلك أمام القارئ.

[٧] هذا هو السبب الذي لا يمكننا أن نقول من أجله، أنّ الإنسان، حتى إن لم يكن قد ارتقى باطنيّا، أي الإنسان الخارجي بريء تماما من

وحده الذي يضمن إمكانية الارتقاء الباطني، هذا الارتقاء الباطني في معناه العميق، كما سبق أن رأينا ذلك، ارتقاء نحو الوعي[8]. ولكن بما أن الإنيّة الحقيقيّة لا تتجلى في الإنسان الذي يبقى على ما ولد عليه إلا في شكل سلبّي، يمتنع ذلك القاضي الداخليّ عن الإدلاء بقراره النهائي إلا إذا عرضت الشخصية بنفسها عليه ليقيّمها.

-٤-

إن الاتصال بالإنيّة الحقيقيّة في (مجرى) الحياة المعتادة (أمر) ذو طابع استثنائيّ. إلا أن الإنسان يدعى انه يعيش على مستوى الوعي المناسب لتلك الإنيّة. (كما يدّعى) أنّه يتحلى بصفات تلك الإنيّة ومنها القدرة على قياس نتائج أفعاله، أو (الاتصاف) بإرادة تظل على ما هي عليه بصيغة متصلة، أو ملكة التصرّف والسلوك الخاصين بكائن منطقيّ مع نفسه.

إلا انه يكفي مع ذلك أن نفحص الوقائع فحصا موضوعيًا، لتكذيب تلك الادعاءات. فلنأخذ على سبيل المثال الحالة التي نتعهّد فيها بالإيفاء بعدد من الالتزامات. من الواضح أنّ هذه الالتزامات لا تستوفي دائما. وإذا أوفي بها، فكثيرا ما يكون ثمن ذلك العديد من الصراعات مع أنفسنا.

ذلك أننا في الواقع لا نعمل على مستوى الوعي بالإنيّة الحقيقية، بل على (مستوى) وعى الاستيقاظ وهو المستوى الخاصّ بإنيّة الشخصية التي تَنْطَبقُ عليها أيا كانت واجهتها[9]. فإنّ عدم ثبات الشخصية هو الذي يتحكم في تشكيل أوضاعنا السلوكية[10]. فإننا نرى في لحظة ما إنيّة أو مجموعة من الإنيّات الصغيرة التي تتركب منها الشخصية، تبتّ في أمر ما، وتلتزم بذلك. ثم إنّ تلك الإنيّة الصغيرة، أو مجموعة الإنيّات الصغيرة تترك مكانها ليحلّ محلها إنيّة صغيرة أخرى من الإنيّات الصغيرة تستنكر العمل الذي بُدِئ بتنفيذه كما تستنكر تبعاته. وقد تكون التغيّرات التي يتسبّب في (إحداثها) دخول مختلف مركّبات الشخصية إلى خشبة المسرح، من الجذرية بحيث يبدو لنا وكأنّ (شخصا) غريبا علينا قد تصرّف وتحرّك بدلا منّا، خاصة إذا كنّا قد تصرّفنا تَحْتَ وطأة شهوة دافقة (passion) أو شعور عنيف، أو بناء على حسابات خاطئة. إننا لا نكاد نعترف أننا هذا الشخص الذي (تصرّف وبتّ) في غالبية مثل هذه القرارات التي نحن في مرّ الندم على اتخاذها.

-٥-

يُوجد إذن بُعْدُ شاسع بين ما يحلى الإنسان به نفسه من صفات، هي (في الحقيقة) الصفات الكيفية الخاصّة بالإنيّة الحقيقية، وبين ما يؤول إليه في الواقع من صفات. إلا أنّ بلوغ مستوى الوعي الذي يتناسب مع هذه الإنيّة الحقيقية أمر في نطاق الممكن، أو في نطاق الرجاء (ما يُرجَى البلوغ إليه) كما قال القديس بولس الرسول. ولكن يجب على الإنسان أن يُنْجِزَ بوعي عملا ضخما على نفسه، قبل أن يحوز بالفعل على ذلك الذي يدّعى أنه في حوزته منذ البدء.

-٦-

يواصل الإنسان حياة لا معنى لها، ولا تتابع منطقيّ فيها ما دام واثقا من نفسه - بالرغم من كلّ الدلائل العكسيّة، وما دامَ - وهو الأدهى - راضيا عن نفسه يعتقد أنّ رغباته وأوهامه هي الواقع. يجب أن يمرّ بالإفلاس وبالانهيار الأخلاقي فيقر موضوعيا بحدوثهما ويتقبلهما بدون أيّ محاولةٍ

المسؤوليّة، كما ورد في كتاب ب. د. أوسبنسكى "شذرات من تعليم مجهول" ص ٤١. (المعرّب: يذكر المؤلف صفحات النسخة الفرنسيّة والكتاب لم يعرّب بعد).

[8] لا يولد شيء من لا شيء. فالحبّة لازمة لكي يولد النبات:- متى، ١٣: ٣١؛ مرقص، ٤: ٣١؛ لوقا، ١٣: ١٩.

[9] ذلك إن للشخصية واجهات متعددة تحل كل منها محل الأخرى بلا نظام ثابت.

[10] لوضاع، أوضاع سلوكية Attitude؛ مجموعه Group؛ تجمع Groupement (المعرب).

للتلصيم. فإنّه سوف يبدأ حينئذ فقط في البحث، وفي اكتشاف الأسباب التي تحتّم عليه العمل على نفسه وفي اكتساب القوى اللازمة لتأدية ذلك العمل. ينطبق ما سبق على جميع الناس. فيما عدا حالة الأبرار الذين يجدون في ذلك العمل سعادتهم. وبما أنّهم أبرار، فليس هناك إفلاس يجب عليهم الإقرار بوقوعه. ولكن من منّا بارّ؟ أو حتّى صادق النيّة؟ إننا جميعا فسدة بصيغة أو بأخرى. والإنسان يعتقد أنّه كائن ذو قدر من الأهمية بالرغم من التجربة اليومية التي تثبت له العكس. وهو اعتقاد ينتج من التخلف (الموجود) في حكمنا (على الأمور). إذ إننا جميعا في نفس الحالة. فانّ المجموع الجبري لخصالنا الحسنة ولعيوبنا، وإن اختلفت هذه الخصال والعيوب من شخص لآخر - يكاد يكون بالنسبة للكلّ متطابقا تقريبا. ولا يجب أن يغمرنا الغرور في هذا الصدد، فإنّ قيمة المجموع ليست بالكبيرة. بل هي كميّة متناهية الصغر تقترب بالتبعيّة من ذلك الصفر الذي هو الموت.

أمّا العمل الذي يقترح العلم الباطنيّ على دارسيه أن يقوموا به فهو أن يخلقوا من هذه القيمة المتناهية الصغر وحْدَةً على أساس من المَلَكَاتِ الكامنة فيهم، والتي يدّعون إنهم يمتلكونها فعلا. فإنّ العلم الباطنيّ يعتبر (جميع دارسيه) في البداية مرضى ينطبق عليهم المبدأ الذي جاهر به يسوع: ليس الأصحاء في حاجة إلى طبيب، بل المرضى[١١].

-٧-

مشكلة تحويل ألذات إلى وحدة، بادئين من لا شيء تقريبا، مشكلة تعود بنا من جديد إلى مسألة الوجود، ولكن من زاوية تختلف شيئا ما. إنّ الأمر يتعلق بما كان الكيمائيون القدماء يسمونه بالانتقال من حالة لأخرى - أي بتحويل تواجدنا من تواجد مفتعل قيمته الوحيدة إمكانية (تحوّله)، إلى تواجد حقيقيّ، وذلك بتحقيق تلك الإمكانيّة. إنّ الأمر يتعلق إذن برفع تدريجيّ لمستوى وجودنا. وهو عمل يتمّ تبعا لبرنامج موضوع ذي عدّة مراحل.

يمكننا أن نميّز بين أربعة مستويات للوجود تقابل المستويات الأربعة للوعي المذكورة آنفا: أي بين مستوى علويّ للوجود يليه ثلاثة مستويات تتدرّج لأسفل.



- شكل 6 -

إنّ المستوى العلويّ للوجود يتعدّى المستويات السفلى كما في حالة الوعي. أما المستوى الأشد سفلا فهو خاص بأي جسم حيّ، ولكن بالطبع تبعا لسلّم كامل من القيم (المختلفة). فإنّ بعض الحيوانات، وخاصّة من بين الثدييات العلويّة، تلامس المستوى الأعلى التالي لها، وهو المستوى البشري. ففي استطاعة معظم الثدييات مثلا أن يكون لها تمثل بل ولها فعلا تَمَثّلٌ للأشياء والظواهر. وهى وظيفة خاصّة بالمستوى السفلى لوعى الاستيقاظ في البشر. ولكنها (أي عُليا الثدييات) لا يمكنها

---

[١١] متى، ٩: ١٢؛ مرقص، ٢: ١٧؛ لوقا، ٥: ٣١.

أن تتعدّى ذلك كما أنها ليس لها مَلَكَةِ التعميم التي يستطيع الإنسان بواسطتها أن يرتفع إلى (وضع) المفاهيم.

أما المستوى الثالث للوجود وهو الذي يناسب مستوى الوعي بالإنيّة الحقيقية، فهو مستوى الذين ارتقوا باطنيا ويمكن حقّا أنْ يُقالَ عنهم الأحياء أي مستوى الذين حَصَلوا على الإنيّة الحقيقية، المستديمة، التي لا تتزحزح. وفي النهاية فإن المستوى الرابع هو مستوى الإنسان الكامل المتحقق - أي مستوى الذي وصل بفضل تطوّره الباطنيّ إلى نهاية الارتقاء الممكن في ظروف كوكبنا هذا.

-٨-

ترتبط مسألة الوجود ارتباطا وثيقا بمشكلة القدرة. لقد سبق أن أشرنا إلى أنّ الإنسان ليس له ولا يمكن أن يكون له ترابط لا في الأفكار المجرّدة ولا في الأفعال، إذ ليس فيه سوى إنيّة غير ثابتة ومتغايرة ومفتعلة (زائفة). لذلك فليس في وسعه ألبتّة أن "يفعل".

لقد سبق لنا أن أقمنا علاقة بين المفهومين التاليين: علم وفهم. وعلينا الآن أن نحدّد العلاقة بين المفهومين التاليين: علم وفن الإنجاز بمهارة. يتيسّر علينا بالرجوع لكلّ ما سبق أن نفهم أنّه لا سبيل للعبور مباشرة من علم إلى فن الإنجاز بمهارة. يُفسَّرَ عامّة الفشل في تلك المحاولة (أي محاولة العبور المباشر من علم إلى فن الإنجاز بمهارة) بنقص الإرادة. وليس ذلك بصحيح. فليس النقص في تلك الحالات نقصا في الإرادة أو بتعبير أدقّ، نقصا في شدّة الرغبة، ولكنّه نقص الوجود بالذات فإنه هو الذي يَسمح أولا بأن نفهم المعلوم المكتسب لكي نحصل بتلك الكيفيّة على القدرة التي تفتح بدورها أمامنا مجال فن الإنجاز بمهارة. فهي سلسلة تتشابك على النحو التالي:

(الصيغة السلبية مسلسلة)[١٢]	(الصيغة الايجابية مسلسلة)[١٣]
علم – الوجود - فهمَ	الوجود – الفهم – فن الإنجاز بمهارة

إن الحصول على ما يتسنى علمه أمر - كما كنا نقول - سهل نسبيا. لكن الحصول على الوجود أمر بلا شكّ أكثر صعوبة. إلا أنّ الوجود هو وحده الذي يستطيع أن يوصلنا إلى الفهم. ومنه إلى فن الإنجاز بمهارة بعد ذلك. وهى سلسلة من الخطوات العملية التي يمكن تطبيقها بلا تغيير في جميع المجالات.

---

[١٢] ترجمة للجملة الفرنسية forme passive.

[١٣] ترجمة للجملة الفرنسية forme active.

الفصل الثالث

الشخصية هي كيان حيّ يتمتع بقدر من الحكم الذاتي - رباطها الوثيق بالجسد - التحكم في الجسد - كيفية جلوس الحكيم - دراسة تركيب الشخصيّة - المراكز النفسيّة الثلاثة: العقلي والانفعالي والحركي وتركيبها - الأنماط (أو النماذج) الأساسيّة الثلاثة للإنسان الخارجي: الإنسان ١، ٢، أو ٣ - مميّزاتهم الخاصة -

-١-

سبق أن حددنا للشخصيّة مكانا ما بين الجسد والروح[1]. وهى وان كانت مربوطة بالأول والثانية، إلا أنّها أكثر ارتباطا بالجسد. كذلك سبق أن شاهدنا أن الإنيّة التي نتحدّث عنها بصفة يوميّة هي الشخصيّة المعرفة بالاسم (الذي يحمله كل منا).

والسؤال التالي خاصا بمعرفة ما هي الشخصية في حدّ نفسها. والحق أنّ كلا منّا يحسّ بها في ذاته. بل ندرك أحوالها (وأوضاعها)، ورغباتها وأفعالها، ولكننا لا نستطيع أن نستحضر لها مثالاً.

إننا بالفعل عندما نفكّر في ذاتنا، نشكل لها صورة معيّنة، صورة جسد يرتدى ثيابه، ووجه يكسوه تعبير وقور أو جذاب. هذه الصورة ليست إلا انعكاسا للشخصية. فإذا أردنا أن نكتشف الشخصيّة بالفعل، يجب علينا أن نذهب إلى ما هو أعمق، فالاستبطان وحده هو الذي يستطيع أن يوضّح لنا وجهها الصحيح. فإنّه بالفعل يوصلنا إلى إدراك أنه يوجد بداخلنا ما يمكننا أن نشبّهه "بسديمية صغيرة"[2] لا وزن لها، أو قل لا يكاد يُدرك لها وزن، ومزوّدة بملكة الإحساس والتفكير وتذوّق المشاعر وإتيان الأفعال. ويسمح لنا الانتباه المسلط والمتصل أن (نقرّر) بالمشاهدة الموضوعيّة أنّ هذه السديميّة - بالإضافة إلى ما سبق - متحرّكة: فهي تكون في المخ تارة، وتارة تنزل إلى القلب، أو في المجمّع العصبيّ الشمسيّ، الخ... وقد تنحدر إلى أسفل، على امتداد الجسد لتصل إلى القدمين، على اثر انطباعات عنيفة أو في حالات الذعر. عندئذ تسير الأمور كلّها وكأنّ الشخصية قد تخلت تماما عن الإدارة العامّة للجسد التي تكون لها عندما ترتكز في المخّ، وهى في هذه الحالات (المذكورة أعلاه) تكتفي بالتصرف على المستوى المحليّ (الضيق)، وذلك بواسطة ردود الفعل الانعكاسية الأكثر بدائيّة فقط لا غير. حتّى إذا ما مرّ الانفعال صعدت تلك "السديميّة" لترتكز معظم الوقت في الجزء الأعلى من الرأس. ويقال حينئذ أنّ الشخص قد عاد إلى صوابه.

لم يعد الإنسان المعاصر يحسّ في نفسه بنبضة الحياة الداخليّة، لأنه مشغول بمشكلة التظاهر (بما ليس فيه) أكثر من انشغاله بمشكلة كينونته (وجوده) الفعلية بكثير، كما أنه يذوب وسط الظروف، فهو غافل على الدوام عن نفسه، أو ملئ في أوقات فراغه بالاكتفاء الذاتي والخمول معاً. يجب على الرجل المعاصر أن يبذل جهوداً ويؤدى تمارين، كما يجب عليه أن يمارس المراقبة الداخليّة، لكي يصل إلى تلك المكتشفات الأولى.

-٢-

تعتمد الشخصية على الجسد الطبيعي بقدر أكبر بكثير من القدر الذي نقرُ به عامّة. فإن الإحساس بألم شديد في مكان ما من الجسد كافٍ لإيداع جميع الأفكار المجرّدة الفيّاضة بالبذل، وجميع المشاعر

---

[1] تستخدم الفرنسيّة عامّة نفس الكلمة للتعبير عن النفس والروح، وشتان ما بينهما النفس: وَنَفس ومَا سَوّاها، والروح: قُل الرُوح من أمْر رَبّى (المعرّب).

[2] "كلوب" Kloube في النصوص الروسيّة للتقاليد المسيحية :متواترة.

المرهفة في المستويات الخلفية من الوعي. أما إذا استطاع شخص - على العكس - أن يتملك من الألم، وأن يستمرّ في تأدية مهمّته بهدوء، يعتبر موقفه هذا موقفا بطوليا لما لذلك من طابع استثنائي.

إنّ اعتماد الشخصية الوثيق على الجسد الطبيعي الذي فيه تعيش ومن خلاله تؤدّى وظيفتها، لأمر يوصلنا منطقيًا إلى الاستنتاج التالي: وهو أننا يجب أن نعمل من خلال ذلك الجسد للوصول إلى الشخصية ودراستها، وأخيرا للتأثير عليها تأثيراً فعّالا. هذا هو السبب الذي من أجله تتطلب جميع التمرينات النفسيّة تدريبا فيزيائيًا (جسديًا). هذا المبدأ مبدأ عامّ، ولكن تطبيقه يختلف، وذلك تبعا لمنهج التعليم الباطنيّ (المتبع). فالتدريب الفيزيائي (الجسدي الطبيعي) في منهجنا هذا، وهو أساسا منهج سيكولوجي، ينحصر في أقلّ حدّ أدنى ممكن، فإنّه يستحيل أن يستغنى كليًا عن هذا التدريب. ولنَكْتَفِ الآن بالإشارات اللازمة والكافية التي ستمكننا - إذا تتبعناها - من حلّ أولى مشاكل التدريب الطبيعي: ألا وهى مشكلة العثور على الوضع الجسدي الأنسب لتأدية التمرينات النفسيّة. وقد أثبتت تجربة عشرات أجيال سالفة أنّ هناك وضعا واحدا فقط يستطيع أن يفي بالمطلب اللازم. يجب في هذا الوضع - مع استقصاء التفاصيل - أن يكون الرأس والعنق والعامود الفقري على خطّ مستقيم واحد، وأن يكون ذلك الخط رأسياً. القاعدة التي يجب أن تُتبع بكلّ دقة في حالتي الجلوس أو الوقوف، باستثناء الحالات الخاصّة التي تتطلب تعليمات دقيقة مختلفة. يجب أن نكون قد عثرنا على هذا الوضع وألِفناه قبل البدء بالتمرينات النفسيّة أو السيكولوجيّة. والأنسب عمليًا بالنسبة للغربيّين الذين يتمرنون في منازلهم، أن يكونوا جالسين على كرسيّ (صلب المقعدة) يتراوح ارتفاعه عن الأرض من ٢٥ إلى ٣٥ سنتيمترا، وأن تكون سيقانهم متقاطعة على أن توضع اليمنى فوق اليسرى وهو الأفضل، وأيديهم مفرودة (مفلطحة) فوق الركبتين. وهو واحد من الأوضاع العديدة المستمدّة مع بعض التغييرات، من ذلك الوضع الذي يسمّى تقليديًا بوضع الحكيم.

وهاك بعض الإشارات التكميليّة: يجب أن تكون العضلات مرتخية تماما، والرأس مرفوعا، والكتفان إلى الخلف بشكل طبيعيّ، والقوام منتصبا بشكل أن يكون العامود الفقري، إذا نظر إليه من أحد الجانبين، ذا تحدّب خفيف يتجه إلى الأمام. يمكن للعينين أن تكونا إمّا مفتوحتين أو مغلقتين، والأفضل في البداية أن تتركا مغمضتين. فإنهما إذا ظلتا مفتوحتين بدون أن نهتم بتدريبها، سرعان ما تكلان وتعوقان التمرين. يجب البحث (بإصرار) عن ذلك الوضع يوميًا وبصيغة منتظمة. فانّ الانتظام في التدريب واختيار ساعة محدّدة للقيام به شرطان لازمان. هناك قانون باطني يقول: ثبات الميول يجعلها تقوى تلقائيا، وآخر يقول: الإيقاع يضاعف النتيجة عشرة مرّات. إلا أنّه يجب علينا ألاّ نسرع أكثر من اللازم. فهناك أيضا قول تقليديّ مأثور آخر ينصّ: على التعجّل رويدا.

تؤدى التمرينات الوضعيّة - بعد الإيفاء بالشروط السابقة - كلّ صباح قبل تناول أيّ طعام لمدّة لا تتجاوز دقيقتين أو ثلاث على الأكثر في البداية. يجب إطالة تلك المدّة ببطء وبصيغة تدريجيّة، على أن يستوفي دائما الشرط الحتميّ التالي: ألا وهو أن يستطيع (مؤدى التمرين) أن يحافظ طوال مدّة التمرين على ثبات كامل، بما في ذلك ثبات العينين. (الامتناع التام عن الحركة)

هنا يعنّ لنا السؤال التالي: ما هي وسيلة التأكد التي تسمح لنا بمعرفة الوقت الصحيح الذي نكون قد عثرنا فيه على وضع الحكيم؟ والردّ عليه واضح: يعرف ذلك بما يختبر من إحساس بالراحة. فإنّ الاستمرار لمدة ربع ساعة في الوضع الصحيح بعد العثور عليه يعطى صاحبه إحساسا بالراحة لا تستطيع أن تعطيه إيّاه عدّة ساعات متواصلة من النوم.

فإذا ما عُثر على الوضع (المنشود)، - وهو أمر قد يستغرق تبعا للحالة عدّة أسابيع أو عدّة أشهر - يُبدأ بأداء التمرينات التي تهدف إلى الإحساس "بالسديميّة" والتي لم يكن ممكنا قبل ذلك القيام بها.

يجب أن ننبّه هاهنا إلى أنّ وحدة قياس الزمن وحدة خاصّة بكلّ فرد على حدة، وأنها تتغيّر، وخاصّة مع تقدم السنّ. تلك الوحدة الأساسيّة هي بالنسبة لكلّ واحد منّا الفترة الفاصلة بين نبضتين

قلبيّتين (متتاليتين)، والجسد في وضع راحة. يجب علينا اكتساب الذاكرة الداخليّة بهذه الوحدة بهذه النبضة، فإنّها الإيقاع الذي تُضبطُ دائما عليه التمرينات الباطنيّة.

تؤدى التمرينات الأولى بالطريقة التالية: شهيق لمدّة أربع نبضات، يحجز النفس لمدّة أربع نبضات، ثمّ زفير لمدّة أربع نبضات كذلك. تؤدّى تلك الحركة (المركّبة) بطريقة متناسقة بلا قفزات فجائيّة. وقد تظهر رعشة، (إلا أنّ) المواظبة على التمرينات في الأيام التالية (سوف) تزيلها. كذلك الأمر إذا ظهر القلق. أما إذا كان (مؤدّى التمرينات) على العكس متوعّكا، حتّى إذا كان الأمر ينحصر في زكام بسيط، أو في ارتفاع طفيف لدرجة الحرارة، فانّه يجب عليه أن يوقف التمرينات.

أمّا عن النتيجة، فإنّ ظهورها يختلف تبعا لكلّ حالة فرديّة (على حدة): فالبعض يكاد يحصل عليها فوراً، والبعض الآخر بعد فترة طويلة من التدريب. لكنّ من يحصل بسهولة على النتيجة قد يفقدها أيضا بنفس السهولة، ومن يتحصّل عليها بعمل متواصل يتملكها تملكا قوياً.

-٣-

يجئ الإحساس الأول "بالسديميّة" عامّة خلال المرحلة الزمنية الثالثة من التمرين - أي في أثناء الزفير. يُحسّ بها وهي مارّة من الحنجرة على طول الغدّة الدرقيّة. وهو إحساس مستطاب (مستحبّ، ملذ). عندما يُحسّ بعد ذلك "بالسديميّة" (وهي تنحدر) من قمّة الرأس إلى القلب، - وما أدناه- للطالب أن يعلم أنّه قد خطا خطوة كبرى إلى الأمام.

-٤-

إن الإحساس "بالسديميّة" في ذاتنا تقدّم لا يستهان به، ولكنّه لا يعدو أن يكون خطوة أولى. لقد قلنا آنفا، مع بعض التحفظات: إن تلك هي الشخصيّة التي تجعل نفسها محسوسة بهذه الكيفية في داخلنا. "السديميّة" على المستوى النفسي تفكر وتحسّ وتعمل وتتغيّر على الدوام، في حين أنّها بالإحساس المباشر تعطينا انطباعا غير جليّ بأنها كتلة ضبابيّة ذات طابع هلاميّ (بلا شكل محدود). وهو انطباع خاطئ.

إنّ الشخصية كيان حيّ، ولها من تلك الوجهة تركيبها. لكّن ذلك التركيب يفتنا، لأنّنا لا نعرفها ولا ندرسها، إذ أنّ الوقائع والحوادث الخارجية تسترعى انتباهنا على الدوام، وكذلك الاستجابات الميكانيكيّة التي تثيرها فينا هذه الوقائع والحوادث الخارجيّة.

لقد أدّت بنا المحاولات الأولى للمراقبة الداخليّة إلى التمييز بين تيارات ثلاثة للحياة النفسيّة، تتمثّل في المراكز الثلاثة (شكل ٤). يجب أن نفهم جيّدا أنّ هذه المراكز الثلاثة ليست نقطا معينة، أو أعضاءً موضوعةً في أماكن محددة من أجسادنا. بل هي في الأرجح مراكز ثقل لكلّ من تيارات حياتنا النفسيّة الثلاثة. إلا أن هذا التعريف، ليس صحيحا على الوجه الأكمل. فإنّ المركز الحركي على سبيل المثال، يساهم مساهمة فعّالة في كلّ حركة طبيعيّة ونفسيّة (تتمّ). وبما أنّ التفكير يتضمّن (في حدّ ذاته) حركة، فإنّ المركز الحركي له وجوده فيها، فهو ينظّم الجزء الحركي من هذه الظاهرة. وهو عين ما يحدث بالنسبة للمشاعر والاندفاعات الشهوانية والأحاسيس الخ... وعليه، فإنّ أيّ اكتشاف يتمّ بواسطة المركز العقلي بمساعدة المركز الحركي، لا يكاد يُبلغ للمركز الحركي إلا وينقله الأخير للمركز الانفعالي ليثير فيه الاستجابات المناسبة. وقد تتمّ (عملية) النقل بنظام مختلف. فقد حدث لأرشميدس، وقد انتشى تماما بفرحة اكتشاف القانون الذي عرف باسمه فيما بعد، أن أخذ يجرى عبر (شوارع) مدينة سيراكوزا صائحا: "وجدتها" ("يوريكا" باليونانية): فكرا وانفعالا وحركة. وهو ما يبيّن أنّ المراكز النفسية الثلاثة التي تشمل وتنظم وتعبّر عن حياة شخصيّتنا كما تشكل أيضا تركيبها، لا تتمتع جميعها بالحكم الذاتي.

تسمح مواصلة الاستبطان بعد ذلك بمشاهدة أنّ كلّ مركز ينقسم إلى جزأين: إيجابي وسلبي. يعمل هذان الجزءان متضامنين معا في الوضع القياسيّ لهما: فإنّهما بالفعل مستقطبان، كما هي الحال بالنسبة لجميع الأعضاء المزدوجة في الجسد، التي تساهم في إتمام نفس الوظائف، أو التي تستطيع أن تشارك في آن واحد معا في تنفيذ عمل واحد كالساعدين الاثنين مثلا. يسمح تقسيم المراكز، وهو يمثّل انعكاس الاستقطاب الكوني (على هذا المستوى)، بعمل مقارنات، والتصدّي لوجهتي المشاكل التي تواجهها، إذ يأخذ الجزء الإيجابي في اعتباره - إذا جاز ذلك التعبير - بواجهة المشاكل، والجزء السلبي بظهرها، في الوقت الذي يعمل فيه المركز ككلّ عمليّة تجميعيّة ويستنتج النتائج التي يستوحيها من مشاهدات (ومعاينات) كلّ جزء (على حدة). هذه هي (الكيفية) التي تتمّ بها مثلا عمليّة التحليل النقدي. إنّنا إذن نخطئ تماما إذا اعتبرنا أنّ تسمية الجزأين الأول بالإيجابي والثاني بالسلبي تمنح الأوّل دورا نافعا (خيّرا) والثاني دورا ضارّا. إنها تسمية للدلالة لا تتضمّن حكما قيميّا، تماما كما يحدث عندما نعاين موضوعيّا وجود شحنات إيجابية أو سلبيّة فوق جزيئات (المادّة) البدائية.

أمّا عن تكوين هذين الجزأين لا ينفصلان أبدا الواحد عن الآخر في تركيبهما كما في عملهما، فإنّنا نستطيع أن ندرك ذلك إذا أخذنا في اعتبارنا بتأدية المركز الحركي لوظيفته. نستطيع أن نقول مع بعض التحفظات، إنّ الجزء الإيجابي من هذا المركز يناسب مجموع الوظائف الغرائزية (الموجودة) في الكيان النفسي-الطبيعيّ للإنسان، كما يناسب الجزء السلبيّ منه، الوظائف الحركيّة. المركز الحركيّ هو إذن بعبارة أخرى، الوكيل المسئول عن جسدنا، بأوسع معاني هذه الكلمة: يجب عليه أن يوازن بين الطاقات التي يكدّسها الجزء الإيجابي منه وبين التي يستهلكها الجزء السلبيّ.

يوجد ذلك التناظر وتلك القطبيّة في المركزين الآخرين.

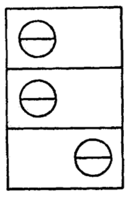
تولد الأفكار المجرّدة البنّاءة الخلاّقة في الجزء الإيجابي من المركز العقلي. ولكن الجزء السلبي هو الجزء الذي يقدّر مدى (وسِعة) الفكرة المجرّدة - أي بعبارة مجازيّة، هو الذي يقوم بقياسها. فيصدر المركز بكليّته حكمه، على أساس هذه القطبيّة الوظيفيّة.

كذلك يناقض الجزء السلبي من المركز الانفعالي في عمله، عمل الجزء الإيجابي، في نفس الوقت الذي يتكامل فيه معه، وبذلك يسمح للمركز أن يميز مثلا ما بين المستلذ (المستحبّ) والمنفر (المرفوض).

لكننا نستطيع أن نسيء استخدام ملكات[٣] الأجزاء السلبيّة، فيشكّل سوء الاستخدام هذا خطرا بالفعل. وهو أمر واضح في حالة المركز الحركي: إلا أنّ الإنهاك الجسدي في هذه الحالة، يعمل منظما لإيقاف الزيادة الباهظة في الطاقة المستهلكة. أمّا فيما يختص بأمر المركزين الآخرين فإنّ سوء استخدام الجزأين السلبيّين يتّخذ فيهما أشكالا يصعب اكتشافها، تجترّ وراءها بالنسبة لنفسيّتنا وبالنسبة لجسدنا أيضا، توابع رهيبة. فإنّ الجزء السلبي من المركز العقلي يغذّى وينمّى الغيرة وسوء النية الخفي والنفاق والتشكّك (في صدق وحسن نوايا الآخرين) والخيانة، الخ... أمّا الجزء السلبي من المركز الانفعالي فهو يستقبل كلّ الانطباعات المنفرة (الغير مستحبة) ويعمل بمثابة حامل للانفعالات السلبية التي تتميّز باتساع مداها وتنوعها جدّا. إذ تبدأ بالحزن والكآبة لتصل إلى المقت الشديد. سوف تسنح لنا فيما بعد الفرصة للتعمّق في مشكلة الانفعالات السلبيّة التي لم يُقدّر دورها الهدّام حقّ قدره بصفة عامّة، في حين أنّه يمثّل بالفعل عائقا من العوائق الأصلية التي (تعترض) الارتقاء الباطني.

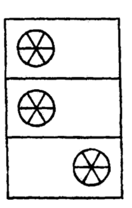
---

[٣] ملكة = Faculté؛ قدرة = pouvoir (المعرّب).



- شكل 7 -

لا يقتصر تركيب المراكز على تقسيمها إلى جزأين فحسب: الإيجابي والسلبي؛ بل يقسّم كلّ نصف بالفعل بعد ذلك إلى ثلاثة قطاعات مخروطيّة أخرى. فيصير الشكل السابق، بعد إكماله بالكيفية المذكورة، على النحو التالي:



- شكل 8 -

يوجد إذن في كلّ مركز من المراكز في الجزء الإيجابي والجزء السلبي منه قطاع له صفات المركز المميّزة في حالة نقية: قطاعان عقليّان نقيّان، قطاع إيجابي وقطاع سلبيّ بالنسبة للمركز العقليّ، قطاعان انفعاليّان نقيّان، قطاع إيجابي وآخر سلبيّ للمركز الانفعالي، قطاعان حركيّان نقيان، قطاع إيجابي وآخر سلبيّ بالنسبة للمركز الحركيّ. يوجد إلى جانب هذه القطاعات النقية قطاعات أخرى مركبة هي بمثابة الممثل للمركزين الآخرين. هذه هي القطاعات المذكورة، في المجموع:-

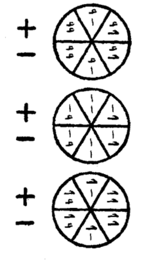
بالنسبة للمركز العقليّ:-

العقلي - النقي
العقلي - الانفعالي إيجابي وسلبي
العقلي - الحركي

بالنسبة للمركز الانفعاليّ:

الانفعاليّ - النقي
الانفعاليّ - العقلي إيجابي وسلبي
الانفعاليّ - الحركيّ

بالنسبة للمركز الحركي:
القسم الغرائزى
الغرائزى - النقي
الغرائزى - العقلي
الغرائزى - الانفعالي
القسم الحركي
الحركي - النقي
الحركي - العقلي
الحركي - الانفعالي



شكل[4] يوضّح أماكن الأقسام المختلفة في كلّ من المراكز النفسيّة الثلاثة.
حيث: ع = عقلي
ا = انفعالي
ح = حركي

هناك إذن ثمانية عشر قطاعا فقط لا غير، تشكّل في مجموعها تركيب الشخصية.
لا يستطيع أيّ واحد من المراكز، بفضل هذا النظام - إذا استبعدنا الحالات المرضيّة (الباثولوجيّة) - أن يعمل بصيغة استقلالية خالصة. ذلك أنّ النظام كلّه يتحرك عن طريق القطاعات التي تمثّل المركزين الآخرين في آن واحد. ولكنّ مشاركة المركزين الآخرين في عمل الأول تتأثر دائما، كما هو مفهوم، بطابع ذلك المركز.
إننا نرى الآن أنّ نظام المراكز نظام معقد، ولكنه يتجاوب تجاوباً تاماً مع الاحتياجات، إذ إنّه يسمح بإدراك كلّ عناصر الكون النفسيّة-الفيزيائيّة، ويسمح بالاستجابة للانطباعات التي تُستقبل بهذه الكيفيّة، وبالتوصّل إلى مفاهيم، والقيام بعمليّات معقدة.

-٥-

تسمح لنا دراستنا للبناء التركيبي للشخصيّة بمواجهة مشكلة تلعب دورا كبيرا في العلم الباطنيّ، وهى مشكلة تصنيف الإنسان إلى نماذج. إذا صحّ القول بأنّ كلّ إنسان يمثّل بشكل ما كونا (كاملا) لا يتكرر، فمن الصحيح أيضا أن نقول إن النماذج الإنسانية تتكرّر. تتكرّر بكثرة، بل أكثر بكثير ممّا

---

[4] إضافة المعرّب وهو الشكل -١٣- من الجزء الثاني لنفس الكتاب. قطر الدائرة ١٨ مم.

نعتقد عادة؛ فإنها بالفعل ليست متعدّدة. إذ إنه لا يوجد سوى ثلاثة نماذج أساسية فقط لا غير. يتميّز كل نموذج برجوح واحد من المراكز الثلاثة النفسيّة للشخصيّة: إنسان عقلي قبل كل شيء يفكر ويحسب ويبحث، أو إنسان هو خير مثال للانفعاليّة شاعريّ وفنّان ورومانسيّ، أو أخيرا إنسان دائب النشاط. وهم يسمّون في العقيدة كما يلي:

الإنسان ١ : هو الذي يكون مركز الثقل النفسي له في المركز الحركي على الدوام؛
الإنسان ٢ : هو الذي يكون مركز الثقل النفسي له في المركز الانفعالي على الدوام؛
الإنسان ٣ : هو الذي يكون مركز الثقل النفسي له في المركز العقلي على الدوام.

يمت الإنسان حتميا في الحالة التي يولد بها على الأرض من المرأة، لواحد من الأنماط الثلاثة التي تنحصر فيها البشريّة جمعاء مهما يكن جنسها أو فئتها[٥] أو طبقتها. إنّ الأمر يتعلق هنا بواحد من قوانين الطبيعة الذي ليس في مقدور البشر أن يتنصّلوا منه، فإنهم لا يملكون أن يتنقلوا تبعا لما يروق لهم، من نموذج إلى آخر.

سوف نرى (بعد ذلك) أنّه يوجد أيضا نماذج أخرى ترقى فوق النماذج الأساسيّة الثلاثة. ألا أنّه - فيما عدا بعض الحالات الاستثنائيّة تماما – لا يمكن لأحد منّا أن ينتمي إلى أيّ من هذه النماذج العليا بمحض حقّ ولادته على الأرض. بل يكون خلق (هذه النماذج) نتيجة لعملية نمو جنيني طويل، وقد كان يسوع يشير إليها عندما قال لنيقوديموس وهو يحادثه إنّه يجب على الإنسان أن يولد من جديد. يجب، من أجل الارتفاع إلى هذه المستويات، أن نبذل جهودا واعية ومتصلة بما يتفق مع القواعد التي وضعها العلم الباطنيّ منذ آلاف السنين.

---

[٥] ويوجد تبعاً لأفلاطون أربع فئات ينقسم إليها كل مجتمع إنساني مهما كان: وهى فئة العاملين والشغالة، وفئة التجار والمهنيين، وفئة الملوك والفرسان، وفئة أسياد العلوم، وهو المقصود هنا بكلمة "فئة".
لقد ترجمنا الثلاث كلمات التاليات على النحو الآتي:
الجنس = Race ؛ فئة = Caste ؛ طبقة = Classe.

الفصل الرابع

إنيات الإنسان الثلاث: إنيّة الجسد "الطبيعي"، إنيّة الشخصيّة "النفسية"، والإنيّة الحقيقيّة "الروحية". علاقاتها ببعضها البعض نظريًا وعمليًا - ألـ ٩٨٧ إنيّة الصغيرة الناتجة من مختلف التباديل الممكنة بين المراكز الثلاثة وبين (جميع) قطاعاتها.

-١-

للإنسان الخارجيّ[١] ثلاث إنيّات: إنيّة الجسد "الطبيعي"، إنيّة الشخصية "النفسية" والإنيّة الحقيقية "الروحية" وهي له بالقوّة (لا بالفعل). على الإنيّة الحقيقية - من الوجهة النظرية - أن تتولى مسؤولية قيادة هذا النظام كله. إلا أنّ الإنيّة الحقيقية قد أصبحت مودعة، منذ سقوط آدم، في المستوى الخلفي من وعي الاستيقاظ على شكل وازع الضمير: تسيطر عليه الإنيّة النفسية للشخصية. إلا أن الأخيرة وقد تولت القيادة بالنيابة، ظلت تفتقر إلى الوحدة. فهي لا تملك إلا أن تعمل بطريقة غير منظّمة، لكونها متغايرة ومتذبذبة ومتعدّدة. الأمر الذي يجعل إنيّة الجسد التي يجب عليها في الوضع القياسي أن تأتمر لأوامر الإنيّة النفسية، تفرض عليها في كثير من الأحيان دوافعها الخاصة. أقرب الأمثلة لهذا النوع من السيطرة نراه كلّ يوم في الزنا الراجع لتجاذب جنسيّ لا يصحبه أي رابط روحي[٢].

إذا استعرضنا في حياتنا مختلف الأمثلة للعلاقات الموجودة بين الإنيّات الثلاث، سوف نستفيد الكثير إذا عاودنا التأمّل في رمز العربة، فهو يعرض أمامنا في هذا المجال العديد من التماثلات القياسية[٣] المليئة بالدروس العميقة.

-٢-

إننا نستخدم إنيّة الشخصيّة في حالة الاستيقاظ، ونفقد في أثناء النوم إدراكنا لتلك الإنيّة: إذ تحلّ إنيّة الجسد حينئذ محلّها[٤]. من المؤكد بلا أدنى شكّ، أنّ الوظائف الفسيولوجيّة المحضة لها طابع الاتصال. الفارق أنّه عندما ننام - أي عندما تكون إنيّة الشخصية قد تلاشت ولم تعد تتدخّل في نشاط إنيّة الجسد، تتصرّف إنيّة الجسد هذه على المستوى الخاصّ بها، بلا قيد وبحسن دراية.

يعمل المركز الحركيّ بمثابة العضو الذي تظهر من خلاله إنيّة الجسد[٥]. - أمّا الإنيّة النفسية – وهي إنيّة شخصيتنا، فهي تعبّر (عن نفسها) عامّة من خلال المركزين الانفعاليّ والعقلي. إلاّ أنّها في غالبية الحالات، تستخدم هذين المركزين بطريقة غير ملائمة، كما أنّها تتدخّل كثيرا في تأدية المركز الحركيّ لوظيفته. إن سير الأمور بهذه الكيفية له نتيجة مباشرة هي لا منطقيّة الحياة النفسيّة: إذ تدخل إنيّة الجسد في تنافس مع إنيّة الشخصية التي كونها متعدّدة، ليس لها، - ولا يمكن أن يكون لها –

---

[١] مرقص، ٤ : ١١ .

[٢] يجب ألا نخلط بين هذه الحالات وبين استغلال التجاذب الجنسي لأغراض وغايات معدّدة بواسطة حسابات المركز العقلي للشخصية.

[٣] يجب التمييز بعناية بين معاني الكلمات الثلاث التالية:
المشابهة وهى تتضمّن وجود أجزاء مطابقة أو شبه مطابقة مشتركة بين الشيئين الخ .. موضوع المقارنة.
المطابقة Identity ويعبَر عنها رياضيًا على النحو التالي: س = س.
التماثل القياسي Analogy ويعبّر عنها رياضيا على النحو التالي: ا/ب = جـ/ د لو ا/ب = ب/جـ.

[٤] يجب ملاحظة أنّ إنيّة الجسد لا ينتابها تلاش تامّ في حالات مثل السبات العميق والبنج أو حتى الغيبوبة.

[٥] سوف نرى فيما يلي انه ليس الوحيد الذي يؤدى تلك الوظيفة.

(تسلسل) منطقيّ متّصل في أفكارها التجريديّة ولا في أفعالها. هكذا يمضي الإنسان حياته من أفعال إلى ردود أفعال، ومن ردود أفعال إلى أفعال[٦]. إن هذا الطابع المهلهل لحياتنا أمر مألوف لنا جميعا، وكثيرا ما يُستخدم كلُحمة النسيج فيما ينتجه مؤلفو القصص والمسرحيات الدرامية. يَستحضر التقليد بهذه المناسبة في كثير من الأحيان، صورة لثلاثة رجال يتواجدون معا في داخل رجل واحد: واحدٌ يفكر وآخرَ يدرك المشاعر وثالثُ يعمل. ويمكن وصف تداخلهم في مجالات ليست بمجالاتهم الأصلية، وهي تداخلات قد تكون تبعاً لكل حالة على حدة طبيعية أو غير طبيعية وصحية أو مضرة. أمّا أنواع التداخل اللا طبيعية، فهي دائما مضرة كما أنّها سبب لجزء كبير من نزاعاتنا الداخلية والخارجية. هذه الأنواع تكون في بعض الأحيان هادئة، ولكنها في أكثر الأحيان عنيفة، وتزداد بالإضافة خطورة أيضا لكون المراكز - وهي تنقسم إلى عدة قطاعات – غير قادرة على التصرف تصرفاً مستقلاً، وان كان كلّ منها يسعى لفرض (سيطرته) على الآخرين. وبناء عليه، فإنّه كلما كان الفعل (المُؤثر) الذي يبدأ به أحد المراكز قويّا، كلّما قوىَ الانجرار الميكانيكيّ الذي يتحمّله المركزان الآخران - باستبعاد الحالات المرضية -.

-٣-

إن إنيّة الشخصية تتركّب من عدد لا يستهان به من الإنيّات الصغيرة التي تشكّل بدورها مجموعات مختلفة تحكم كلّ منها بدورها أوضاعنا السلوكيّة وأفعالنا. فكيف تسنّى لنا أن نوفق بين هذه الحالة الفوضوية وبين (جعل) حياتنا النفسيّة حياة متصلة ولو مظهريا فقط؟

لهذه الحياة المتصلة ولو ظاهريا ثلاثة عناصر قاعدية هي:

الاسم؛

التجربة التي تثبت بواسطة الذاكرة؛

مَلَكَة الكذب على النفس وعلى الآخرين.

فالاسم الذي نحمله يتناسب مع إنيّة الشخصية، أي مع مجموع[٧] جزيئات البرادة مهما كان وضعها المتبادل. كما أنّ الاسم يتناسب أيضا - منذ المراهقة - مع ما يرسمه الإنسان لنفسه في حالة الاستيقاظ. وقد يلصق به الإنسان - في بعض الأحيان - صورة مثاليّة لذاته، صورة لما يتوق أن يكون عليه أو أن يصبحه.

هذا هو السبب الذي يجعل الإنسان يتشبّث بالاسم كما يتشبّث (الغريق) بلوح الخشب. فلكلّ ما يوجد يحمل بالفعل اسماً، إذ لا يتصوّر أي وجود نفسيّ أو فيزيائيّ حقيقيّا كان أم مصطنعا، بدون اسم.

إن اللقب والاسم في حالة الإنسان، يعطيان مجموع ما يمكن أن نعرّفه بالكون الخاص بهذا الإنسان -بما يتضمّنه هذا الكون من عناصر عينيّة ومن عناصر خياليّة- وكثيرا ما تعتبر الخياليّة بالنسبة له وكأنّها حقيقيّة.

الذاكرة هي دالّة كينونة الفرد بصيغة مباشرة. وكلّما كان مستوى الكينونة مرتفعا، كلّما كانت الذاكرة قويّة وسعتها الاحتوائية أكبر. فإن فقدان الذاكرة الذي يتسبّب تبعيّا في فقدان مفهوم الاسم وكلّ المجموع المتعلق به، يحول الإنسان القياسي إلى مجنون: إذ إن اتصال حياة الفرد لا يكون له وجود.

العنصر البنّاء الثالث في حياتنا المصطنعة هو مَلَكَة الكذب التي تساهم بطريقة جوهريّة في إعطاء مثل هذه الحياة مظهر التماسك المتواصل. إننا لنستطيع أن ندرك بدون صعوبة الدور الذي تلعبه مَلَكَة الكذب لو استحضرنا وجودنا وما يكون عليه إذا سُلبنا تلك المَلَكَة. لو حدث ذلك لأصبحت الحياة مستحيلة بسبب الصدمات والتنازعات التي سوف يجب علينا حينئذ أن نواجهها. فإنّ الأكاذيب في هذا

---

[٦] مداخلة المترجم شرح ليس موجودا في النص الأصلي: الإنيّة مصدر إدراكات ووعي؛ الإنيّة الغاضبة تدرك عالما غاضبا.

[٧] Ensemble

الصدد تعمل بمثابة ماص (واقي) للصدمات، بنفس الصيغة التي تعمل بها مواصّ صدمات عربات قطارات السكك الحديديّة على تخفيف الصدمات. وهكذا تجعل ملَكَة الكذب حياتنا أقلّ تلاطما. كما أنها تسهم مساهمة ناجعة في جعل حياتنا تعطينا الانطباع بالاتصال الذي نعيشه. وها نحن نعود مرّة أخرى إلى واقعة أننا نهب أنفسنا ملَكَات لا نملك منها إلا أنها إمكانيّات فينا نستطيع أن نطوّرها: فنحن ندّعي أننا (أهل) صدق (وحقيقة) مع أنّ قول الحقيقة والعيش في الحقيقة إمكانية يمكن أن تصبح حقيقية، ولكن بعد مضيّ وقت طويل، نتيجة لمثابرة متّصلة في العمل على (إصلاح) أنفسنا. وأننا في انتظار أن يتمّ ذلك، لمحكوم علينا بالكذب، فمن أنكر ذلك يشهد بالفعل على الصعوبة التي تواجهنا عندما نريد أن ننظر للحق.

-٤-

يجب علينا أن نُفيض بعض الشيء في مسألة الكذب، فهي مسألة ذات أهمّية كبرى يتحتّم علينا أن نعود إليها أكثر من مرّة. ملَكَة الكذب دالّة للمقدرة على التخيل التي هي ملَكَة خلاقة. فإننا قبل خلق أي شيء، يجب علينا أن نتخيّل ما نريد أن نخلقه. إن تلك الهبة ملك للإنسان وحده. حيث إن الحيوانات ليس لها هذه الملَكَة. وبالتالي تكون لدينا ملَكَة الكذب بفضل هبة التخيّل هذه، وهي هبة إلهية. نحن نكذب من أجل دوافع مختلفة، عامّة للرغبة في تحسين مواقف يبدو لنا أنّها لا تُحتمل أو يستعصى قبولها. فيفتح الكذب عندئذ الطريق لاستخدام الوسائل الميكانيكيّة كالشروح المنطقية المفصلة أو التبريرات، وهي كلها عملاء "الترميم". سوف نرى فيما بعد كيف تتشابك الخطوط السلوكية للأشخاص المحيطة بنا، وكيف تحدث صدمات في العلاقات البشرية فتخلق بذلك مواقف صعبة أو لا حلّ لها أحيانا - أي أنّها عقد غورديّة حقيقية. فنلجأ حينئذ بكلّ سلامة نيّة للكذب.

يقف المذهب الباطنيّ، - نظرا لسير الأمور على ما سبق وصفه - موقفا محدّداً وواقعيّا تجاه الكذب. فهو لا يطالب بالكفّ منذ البداية عن الكذب، إذ أنّه لو فعل، لما استطاع أي شخص أن يوفي بالتزاماته في هذا الصدد. إلاّ أنّ الإنسان إذا كان لا يستطيع أن يكفّ عن الكذب على الآخرين، فالأمر يختلف تماما فيما يتعلق بكذبه على نفسه. لذا يّطلب منه - بصراحة ووضوح – أن يكفّ عن الكذب على نفسه. وهو مطلب صارم متشدّد نستطيع أن نفهم سببه بسهولة. فإنّ القصد من العمل الباطنيّ هو السير نحو الوعي بما معناه نحو الحقيقة ومن أراد أن يقترب من الحقيقة وهو مازال يكذب على نفسه أو يصدّق كذبه فهو بلا شكّ يتناقض فيما يقصد إليه. يجب إذن تحطيم كلّ محاولة للكذب على النفس حيث لا يمكن السكوت على أي حل وسط ولا يُقبَلُ أي عذر في هذا الصدد. ولكننا ما دمنا من الجهة الأخرى لا نستطيع في ظروفنا الراهنة أن نعيش بدون أن نكذب على الآخرين فعلينا أن نظل طول هذه الفترة متيقظين للأكاذيب التي نفوه بها.

إلا أنّ هناك توصيةً يُوصَى بها دائما في هذا المجال. يجب علينا أن نتدرّب على التمييز، - داخل مجموع الأكاذيب التي نكذبها على الآخرين، والتي يُتَسَامحُ فيها باطنيّا -، ما بين الكذب الذي لا غنى عنه والكذب الذي لا يمكن تفاديه، والكذب المفيد وما بين الكذب الذي لا فائدة منه. فإنّ المذهب (الباطنيّ) يطالب من يقومون بدراسته بمكافحة الكذب الذي لا فائدة منه مكافحة جدّ نشطة.

لن نستطيع أن نسيطر تدريجيّا على الميل إلى الكذب المنغرس فينا إلاّ بممارسة تمارين من هذا القبيل. فإنّ كلّ محاولة لاستعجال الأمور، فيما يختصّ بالكذب على الآخرين، محكوم عليها بالفشل مقدّما بالرغم ممّا فيها من نبل: فإننا نعيش في عالم غارق في الكذب ويحرّكه الكذب. من الملحوظ أنّ الوصايا العشر التي تفرض على الإنسان أوامر يمكنه احترامها لا تحرّم الكذب عليه إلاّ في نطاق

قطاع صغير من قطاعات العلاقات الإنسانية وهو قطاع الشهادة بالزور فقط في حالة الإدلاء بها ضدّ القريب[٨].

-٥-

يلزم أيضا أن نحذر كل الحذر من شكل محوّر للعادة المكتسبة عامّة منذ الطفولة في الكذب على النفس. العادة التي يجب أن نناضل ضدها بجميع الوسائل المتوفرة. ولشدّ ما يشيع ذلك الشكل المحوّر لها إذ يبدو لنا لأوّل وهلة وكأنّه وضع ايجابّي. والحقّ أنّ هذا الوضع يتمشى بصفة عامة مع أيّة حالة ما إذا كان ذلك عند تبادل الكلام أم في المكاتبات، في مجرى الأحاديث العامة أم عند تحرير بحث للدكتوراه. ويعبّر عنه على النحو التالي: نعم ولكن.... الذي لا يتضمّن في حد ذاته أي ضرر بالغ. بل هو على العكس مفيد. بل ولا غنى عنه في (مجرى) المناقشات والمنازعات والمرافعات حيث يُلجأ إليه بكثرة. أمّا إذا طبّقنا ذلك التعبير (نعم ولكن...) على أنفسنا وتجاه أنفسنا، بهدف تخفيف صدمة أو استعادة الهدوء الداخليّ بعد ارتكاب معصية، أو من اجل تبرير أفعالنا ومعايبنا، فإنّه (يستقر) ويتبلور في داخلنا ليخلق - مع مرور الزمن - ميكانيكيّة حقيقيّة للتهدئة الذاتيّة. علينا أن ننتبّه إلى أن آثارها لا يمكن أن تقارن في شيء بآثار رباطة الجأش أو حضور البديهة أو غير ذلك من بريق الوعي. بل إنّ الأمر يتعلق هنا على العكس بأداة ميكانيكيّة حقيقيّة للتخدير الذهني الذي يرتكز على قاعدة من الكذب المرهف المقنّع ليغرس في الإنسان (بذور) النفاق تجاه نفسه.

يجب تحطيم ذلك المهدّئ الذاتي، كما يجب تحطيم باقي مواصّ الصدمات الأخرى التي تعمل على المستوى الأخلاقي.

-٦-

لنعد إلى دراسة إنيّة الشخصيّة. لقد سبق أن تأكد لنا أنّ تلك الإنيّة إذا تُركَتْ على ما هي عليه، رمل متحرك. إن صورة الرمل وصورة الفرقة أيضا اللتين استخدمهما الإنجيل[٩] صورتان قريبتان جداً من الواقع. فإنّ ما نعتقد أنّه إنيّتنا هو بالفعل تواجد عدد لا يستهان به من الإنيّات الصغيرة مجاورة لبعضها البعض. تظهر كل إنيّة صغيرة أو كلّ تجمّع يضم عدداً ما من هذه الإنيّات على المسرح في إطار الشخصية تبعا للظروف. ولكثرة التباديل التي (يمكن أن تتكوّن من هذه) الإنيّات وإن كان عددها محدوداً: أي أنّه عدد يمكن إحصاؤه.

لقد رأينا أنّ الإنسان - تبعا للتقليد – له ثلاثة مراكز نفسيّة ينقسم كلّ منها إلى ستة قطاعات مما يرفع عدد أعضاء وعى الشخصية (بعالمها الداخلى والخارجي) إلى ثمانية عشر. أي أنّ كل إنيّة صغيرة ليست سوى وعى كسر (جزئ) من وعى الشخصيّة، بما معناه وعى كسر جزئ من مجموع الإنيّة النفسيّة قد يستطيع لفترة وجيزة أن يفرض نفسه على أنه مجموع الإنيّة النفسيّة. فإذا طبّقنا الحساب الجبريّ على (عدد) التباديل الممكنة الثلاثية والثنائية والأحادية الناتجة عن وجود ثلاثة مراكز وثمانية عشر قطاعا وجدنا أنّ عدد هذه التباديل يصل إلى تسعمائة وسبعة وثمانين. ولا شك أن كسور الوعي الجزئية تناسب تماما حالة التخلف التي توجد الشخصيّة فيها عامّة. ولنؤكد مؤقتا أن نشأة هذه الكسور الجزئية للوعي تترتب ترتيباً طبيعيا على عدد مختلف التباديل الممكنة لِشتّى القطاعات التي تساهم في كل لحظة في استقبال الانطباعات، وفي التعبير عن الرغبات والمشاعر والآراء. تتكوّن عامّة هذه التجمّعات من ثلاثة قطاعات أو من اثنين، حيث يندر أن يساهم قطاع واحد فقط في حالة نفسيّة. وما لم يحدث التحام البرادة تظلّ التباديل التسعمائة وسبعة وثمانون الممكنة ما

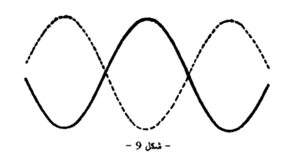
---

[٨] سفر التثنية، ٥ : ٢٠ .

[٩] مرقص، ٥ : ٩ ؛لوقا، ٨ : ٣٠ .

بين المراكز وقطاعاتها تولّد عددا مساويا من كسور الوعي في الشخصيّة، يفرض كل كسر منها نفسه على أنه - بل ويعتقد لتوّه أنه يعبّر عن - الإنيّة بأكملها. وبناء عليه فإننا نستطيع أن نقرّر أنّ تلك هي الإنيّات الصغيرة التي سبق أن ذكرناها مراراً وتكراراً[١٠].

يتكون نسيج حياتنا من تباديل هذه الإنيّات الصغيرة التي تتراكب ثم تنحل بلا هوادة، فلا ينتج عن العملية كلها إلاّ الضرر الوخيم. إن هذه الحياة التي هي كالبرادة في الإناء (شكل ١) تتحور بلا توقف تحوراً أهوجا يسير على هوى الحوادث بدون أن تعترى مجرى هذا التحور خطة مسبقة تهدف للوصول إلى هدف طالما تمنى الإنسان بلوغه. الأمر الذي يذكرنا بظاهرة تصادم الموجات اللاغية لبعضها البعض وغيرها من الظواهر المماثلة التي نستطيع أن نتمثّلها رسماً على شكل خطوط المنحنيات الجيبيّة المتداخلة.



- شكل 9 -

ينتج عن تلك الظاهرة إنهاك لقوى الإنسان يفضى به إلى الموت. سوف نعود فيما بعد لنفس المشكلة من وجهة مختلفة تفسّر بصيغة أوضح، سبب الشيخوخة والموت. إنّ الموت إفلاس من وجهة النظر الباطنية. إن احتكاك البرادة الذي يحدث في الحياة العاديّة ليس من الشدة بحيث يفجّر نارا داخليّة في مستطاعها أن تبدل وجه الموجود كلّه مما يجعله قادراً على الانتصار على الموت. ولكنّه أكثر من كاف لاستنفاذ مخزون القوى الحيوية كليّة ولاجتلاب الموت. هذه هي حالة (مُثلى) من بين عديد الحالات الأخرى التي تنطبق عليها كلمات سفر الرؤيا:

"أنا أعلم أنّك لست باردا ولا حاراً. يا ليتك كنت بارداً أو حاراً! لكن بما أنك فاتر، وأنّك لست حاراً ولا بارداً، لأتقيّأنك من فمي. ذلك أنّك تقول: إنّني غنيّ ولقد ازددت غنى فلم أعد في حاجة لشيء، ولأنّك لا تعلم أنّك شقيّ بائس فقير ضرير وعار أنا أشير عليك أن تبتاع منّى ذهبا خبزته النارُ - من أجل أنّ تصير غنيّا -، وملابس بيضاء من أجل أن تكون مدثّرا، وإلاّ يفتضح عار عريك، وقطرة لتمسح بها على عينيك، من أجل أن تبصر[١١].

---

[١٠] توصّل بعض علماء النفس إلى نتائج موضوعيّة تقارب بصيغة ملحوظة الحساب المذكور أعلاه. فلقد جمع شلدون ومعاونوه عن طريق التجربة ٦٥٠ علامة من العلامات المميّزة للطبع. (انظر للكتاب الفرنسي لمؤلفه: جى دى بلماد: علم الطباع، مطابع فرنسا الجامعيّة، باريس، ١٩٥٣ ص ٩١)

ملحوظة للمعرب:

- طبع وهو بالفرنسية Caractére
- مزاج والجمع أمزجة، وهى الأربعة المشهورة الدموية واللمفاوية والصفراوية والعصبية. بالفرنسية: Temperament.

[١١] سفر الرؤيا، ٣ : ١٥ إلى ١٨ .

الفصل الخامس

الإنيّة الطبيعيّة هي بمثابة وعى الجسد: المجال الذي يمتدّ له فعلها. – الإنيّة النفسيّة هي بمثابة وعى الشخصيّة. – اللا منطقية في حياة الإنسان النفسيّة. – تفسير – النزاعات الداخليّة والخارجيّة – مواصّ الصدمات – الأداة الميكانيكيّة للتهدئة الذاتيّة – حالات متنوعة للالتحام – الحثر المتكتلة – الحالات الباثولوجيّة (المرضيّة) – ازدواج وتحلل الشخصيّة – العدد الثابت للعناصر التي تتركّب الشخصيّة منها – شخصية الطفل – تكوين الطبع.

-١-

لا يتمّ تكوين وتطوّر المراكز النفسيّة الثلاثة للشخصيّة في نفس الوقت معاً.

فانّ المركز الحركي لدى الطفل الحديث الولادة يكون متطورًا جدّا منذ البداية. إذ أن جزأه ألغرائزيّ الإيجابي يتكوّن وينمو والطفل داخل الأم حال حدوث الإخصاب وطوال فترة الحمل، بشكل أن يؤدّى عند الولادة وظيفته بالإيقاع القياسي لها. لن يعترى ذلك الجزء منذ تلك الفترة فصاعدا أيّ تعديل كيفي. أمّا الجزء السلبي الحركي من نفس المركز، فهو يكون على العكس قد تطوّر بنسبة أقلّ بكثير. نستطيع أن نقول إنّه إذا كان الجزء الغرائزيّ يؤدّى لدى الطفل الحديث الولادة وظيفته بما يساوى بالتقريب ٧٥ في المائة من الإنتاج القياسيّ له، فإنّ تلك النسبة المئوية لا تكاد تصل إلى ٢٥ في المائة بالنسبة للجزء السلبي الذي يكاد يختص كليّة بحركات الجسد الداخليّة. يعترى إذن ذلك الجزء من المركز الحركي طوال فترة النموّ، قبل المراهقة وبعدها تطوّر ليس كَميّا فحسب بل هو أيضا كيفي. بالإضافة إلى ما سبق فإن كل ما تكتسبه الإنيّة الطبيعية (الجسديّة) من فن الإنجاز بمهارة[1]، ابتداء بقدرة الطفل على الرضاعة إلى أكثر الحركات تعقيدا، يتطلب قدرا من التطوّر الكيفي الخاصّ بكلّ حالة على حدة. وبناء عليه فإنّ ذلك التطوّر يمتد طوال الحياة.

يتميّز المركز الانفعالي لدى الطفل الحديث الولادة بنقاوته. فإنّه يحتفظ – ما دام لم يتعلّم الكذب بعد – بالملَكَة الرائعة والخاصّة بهذا المركز على التمييز تلقائيّا بين الصحيح والباطل تمييزاً يشمل مقاماً واسعا (من المجالات). يختلّ ذلك المركز على مرور الزمن ومن جرّاء التربية بالإضافة إلى ما يلقنّ للطفل فيفقد تلك الملَكَة التي لا يستطيع أن يستردها من جديد إلا بعد مرور فترة طويلة، بواسطة العمل الباطنيّ والتمرينات المناسبة والمجهودات المتصلة. يجب أيضا أن نلاحظ أنّ المركز الانفعالي في الحالات القياسيّة أقل تطورا بكثير من المركز الحركي لدى الطفل الحديث الولادة. كما أنّه لا يعتريه عامّة - على طول حياة الإنسان ١، ٢، ٣ أي الإنسان الخارجي - تطوّر يمكن مقارنته بالتطوّر الذي يعترى المركزين الباقيين.

يكاد يكون تطوّر الطفل الانفعالي متروكا كليّة للصدفة، في حين أنّ التعليم يشغل مركز اهتمام العائلات والسلطات العامّة. وقد أدّى ذلك في الحضارة المعاصرة إلى فقر لا مثيل له في الحياة الوجدانيّة. ومن قبل كان ألآب بريفو قد كتب يقول في القرن الثامن عشر:

" لا يوجد سوى أشخاص قلائل جدّا يعرفون ما لحركات القلب الخاصّة من قوّة. فإنّ عامة الناس لا تشعر بأكثر من خمسة أو ستّة اندفاعات شهوانيّة تنحصر حياتهم في دائرتها وترتدّ إليها كلّ تخيلاتهم. فانزع عنهم الحبّ والكره واللذة والألم والرجاء والخشية، (تجدهم) لا يشعرون بشيء[2]."

ثمّ يضيف:

---

[1] تم ترجمة كلمتي Savoir faire إلى فن الإنجاز بمهارة (أو المهارة في الإنجاز أو الإنجاز بمهارة) - المعرّب.

[2] ألآب بريفو، قصّة الفارس دي جريو ومانون ليسكو، باريس، بايو، ١٩٢٦، ص ٩٦-٩٧.
Abbé Prévost, *Histoire du chevalier des Grieux et de Manon Lescaut,* Paris, Payot, ١٩٢٦, pp ٩٦ - ٩٧

" ولكنّ الأشخاص الذين يتمتّعون بطبع أنبل يستطيعون أن ينفعلوا بألف شكل مختلف. بل يبدو أنهم يستطيعون أن يستقبلوا أفكارا تجريديّة وأحاسيس تتعدّى المقاييس المألوفة للطبيعة."

إنّ تطوير المركز الانفعالي هو المقصد الرئيسي للثقافة الباطنيّة. ذلك أنّه - كما سوف نرى فيما بعد - لا يمكن للإنسان أن يعثر على المفتاح الذي يفتح له باب المنفذ إلى الحياة العلويّة إلا من خلال ذلك المركز فقط.

أمّا المركز العقليّ، فإنّه لدى الطفل الحديث الولادة، في حالة جنينيّة. ينتابه بعد ذلك تطوّر مكثّف يستمرّ طوال الحياة، وكثيرا ما يتّخذ في حضارتنا هذه أشكالا تتضخّم تضخّما مرضيّا.

إنّ ما يطلق عليه اسم تكوين الإنسان يكاد ينحصر تماما في تكوين مركزه العقلي بواسطة التعليم والخبرة الشخصيّة والعمل التحليليّ، أو البنّاء ما إذا كان ذلك العمل ابتكاراً أو تجميع معلومات (من أعمال مماثلة سابقة).

-٢-

إنّ المركز العقلي عند الطفل كالصفحة البيضاء التي لم يكتب عليها شيء. يمكن مقارنته بنظام اسطوانات فونوغراف لم يسجّل عليها شيء بعد. هذا النظام متّسع ومرتّب ومزوّد بجهاز يعمل كوسيلة للارتباطات (التوارديّة) – يعمل عندما تصل إحدى الأسطوانات إلى نهايتها – على إحلال اسطوانة أخرى بدلا منها يرتبط ما تحتوى عليه بالأسطوانة السابقة، ويتمّ ذلك آليّا. كذلك وبالمثل يمكن لأسطوانة تدور لدى شخص نتحادث معه، أن تدفع فينا تشغيل أسطوانة مناسبة، وذلك عن طريق الارتباط (التواردى) أيضا. هذه هي الطريقة التي ينشأ بها الديالوج، والحديث بصفة عامّة.

إنها عملية ميكانيكيّة. ويمكننا بسهولة أن نتتبّعها بمراقبة مجرى حديث يدور بين عدّة أشخاص لا يعرفون بعضهم البعض معرفة وثيقة. فإنّ مثل هذا الحديث ينحدر إجبارا إلى المستوى البدائي الخاصّ بأكثر المصالح تفاهة: الجوّ والأخبار السياسيّة أو أخبار المدينة. يتسنّى لنا عندئذ أن نستمع للأسطوانات وهي تشتغل وتدور بدون توقف، مارّة من شخص لآخر في حين تظلّ الوجوه جامدة على التواء أتفق عامّة أنّه يعبّر عن وضع كلّه تحابّ وتفاهم.

يمكن لنا من الوجهة العمليّة أن نجرى عددا من التسجيلات لا نهاية له، ذلك أنّ مكتبة الأسطوانات واسعة جدّا وآلة التسجيل حسّاسة جدّا. عندما يتكلّم شخص ما نستطيع أن نميّز بسهولة نسبيّة ما إذا كانت بصفة عامّة تدور فيه اسطوانات مسجّلة من ذي قبل، أم أنّه يتكلّم من أعماق نفسه. فهو في الحالة الأخيرة يستعمل لغة محمّلة بالصور، بسيطة في خشونة، وأحيانا متلبّكة لا رشاقة فيها؛ أمّا إذا كانت أسطوانات، يصير كلامه منغّما. من المهمّ أن نجرى على أنفسنا هذه المراقبات لكي نشاهد عيانا اختلاف لغاتنا. فإنّه في حين، يكون أنا الذي تكلم، ثمّ وبطريقة لا تكاد تلحظ، لا يصبح المتكلّم أنا، بل هي أسطوانة سجّلت من ذي قبل وقد بدأت تدور في داخلي. والأمر العجيب الملفت للنظر أنّه إذا بدأت أسطوانة تدور في داخلنا يكاد يكون من المستحيل إيقافها ما لم تستنفذ ما تحتوى عليه.

هناك أسطوانات يجب المحافظة عليها بعناية، وأخرى يجب العمل على خلقها بواسطة تسجيلات جديدة. وقد تمثّل مجموعة متوالية من الأسطوانات أحيانا فنّ المهنة. فكلّ منّا يخلق في دائرة نشاطه الخاصّ، وبلا وعى منه سلسلة من الأسطوانات يقتنيها ليستخدمها في كلّ ما يحتاج إليه في مهنته.

إلا أنّه – إلى جانب هذه الأسطوانات – توجد اسطوانات أخرى يخلو محتواها من أيّ معنى ولا تناسب أيّ احتياج أو حتّى تتفق مع الوقائع. ينتمي مثلا إلى هذا الصنف أسلوب (سرد) النوادر، و"النكت القصيرة" المليئة بروح الفكاهة، أو التي على الأقلّ تبدو مليئة بروح الفكاهة لمن يقصّها. إننا إذا وجّهنا مراقبتنا الداخليّة نحو تلك الظاهرة نستطيع أن نكتشف برنامجا كاملا يتكوّن من مثل هذه الأسطوانات. وبهذا الاكتشاف، سوف تسنح لنا الفرصة للعمل من أجل السيطرة على (نظام) بدء

تشغيل هذا الصنف من الأسطوانات، ومن أجل محاولة إزالتها تماما. لذلك يجب أوّلا أن نتعلّم كيف نميز بين مثل هذه الأسطوانات وبين الأسطوانات الأخرى المفيدة والتي لها معناها، وذلك بواسطة تحليل محتواها، وبواسطة ما يثيره فينا بدء تشغيلها من "مذاق" مميّز وبواسطة التنغيم المميّز أيضا الذي يتنغّم به الصوت حينئذ. ثمّ يجب بعد ذلك أن ندرس كيف يمكننا أن نستغلّ نفس آونة بدء دوران (مثل هذه الأسطوانات) فإننا نستطيع فقط عند تلك الآونة المحدّدة – سوف نرى سبب ذلك فيما بعد – أن نتمكّن من السيطرة على هذه الأسطوانات وأن نلغي التي لا فائدة منها.

-٣-

تبيّن لنا التجربة بكلّ وضوح أنّ الطفل ينطبق على إنيّة الجسد التي تأتمر الشخصيّة – وتكون حينئذ في مرحلة متأخرة جدّا من تطوّرها – أيضا بأوامرها. إثبات ذلك أنّ الطفل إذا تحدّث عن نفسه فأشار إلى اسمه الذي هو صفة لشخصيّته، يتحدّث عنها (باستخدام) ضمير الغائب، كما أنّ الشخص البالغ الذي ينطبق على شخصيّته، يعتبر الروح كالغائب. ومع ذلك فانّ الروح إذا كان غريبا على الإنسان الخارجيّ كما أنّ الشخصية غريبة على الطفل، لا يمكن أن يكون الأمر سواء بسواء فيما يتعلّق بالجسد، وإن كان يعامله أيضا معاملة الغائب. فانّ إطاعة الشخصيّة بالفعل لإنيّة الجسد تظلّ باقية - وان كانت أقلّ وضوحا – عند كثير من الأشخاص البالغين.

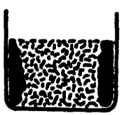
إنّ على من يتكرّس للممارسة الباطنيّة عمليّا، إذا أدرك بوعيه هذا التسلط، أن يجاهد للسيطرة عليه. إلا أنّه قد يحدث أن يلجأ أحيانا إلى وسائل خطرة لبلوغ غايته. وهي الكيفيّة التي يُرتكب بها خطأ الالتجاء إلى (سبل) تقشّفيّة يتعدّى التطرف فيها حدود العقل الراجح، وذلك في بعض الوسائل الفنيّة الباطنيّة المستخدمة في الأرثوذكسيّة والإسلام والهند. إذ يُنسى حينذاك أنّ الجسد هو المطيّة التي لا مناص لنا من ركوبها طوال حياتنا، وأنّه أداة لا بديل لها. حقا يجب علينا ترويضه (وتطبيعه) وإخضاعه للنظام، كما يجب أن يُلزم بالمكوث في مكانه الذي هو الطاعة، إلا أنّه يحقّ بنا أيضا أن نعتني به بالطريقة اللائقة وأن نصونه. والنتيجة التي (يجب أن) يحصل عليها في هذا المجال، هي دائما حالة من الحفاظ على النظام لا تعرّض لأي ضرر كلاّ من الصحّة والنشاط الحيويّ.

يجب أن نعيد الائتلاف إلى الآلة الموسيقيّة التي تصدر أصواتا متنافرة، لا يجب إبطال النشاز الفوضويّ بقطع الأوتار المصدرة له.

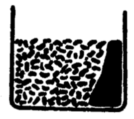
-٤-

يتمّ تكوين الطبع بموازاة نموّ وتطوّر المراكز النفسيّة للإنسان. سبق أن رأينا أنّ الشخصيّة تتكوّن من إنيّات صغيرة، تفرض كلّ واحدة منها (نفسها) بدورها من خلال إحدى التباديل التي يمكن أن (تتآلف) ما بين المراكز وأقسامها. تشكل تلك الإنيّات البرادة التي في مقدورها إذا توافرت لها ظروف معيّنة – الاحتكاك فالنار – أن تتحوّل تحوّلا جذريّا فيما أسميناه بالالتحام: يمكننا فقط عندئذ أن نعتبر أنّ طبع الإنسان قد تكوّن فعليّا. وتكتسب فقط بعدئذ هاتان الصفتان المثاليّتان: الحزم لدى الرجل واللين لدى المرأة. ولا يكون ذلك الكسب مؤقتا – أي حتّى تثور عاصفة جديدة – بل يكون بصفة مستديمة تتلوّن دائما بالفوارق الدقيقة الخاصّة بكلّ شخص على حدة. وما لم يتمّ الالتحام كليّة يمكننا مقارنة ما نسمّيه بالطبع، بخيمة نصبت على رمال شاطئ لا يحميه شيء من الرياح والزوابع. يمثل ذلك الطبع في واقع الأمر – ضمن مجموع الإنيّات الصغيرة – تجمّع عدد معيّن منها، وقد تكوّن ذلك التجمّع تبعا لعوامل كالتالية: استعدادات نولد بها، التربية والتعليم والميول الجذابة الشخصيّة على جميع مستويات الوعي، وبصفة خاصّة مستوى الوعي الباطن، وأخيرا مختلف أنواع التداعي الطارئ. يمكن لمثل تلك التجمّعات أن تتكوّن على أسس متغايرة جدّا. فإنّ درجة صلابة الروابط التي توّحد الإنيّات الصغيرة ببعضها قد تجعلها اتحادا فيدراليّا هشّا (متفككا)، أو على العكس قد تكوّن ما

بينها التحاما جزئيا يمكن أن يحدث بمختلف الطرق: إما على شكل قشرة حلقيّة أو جانبيّة، أو على شكل حثر متكتلة.



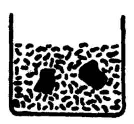
- شكل 10 -



- شكل 11 -

يبدى الطبع في الحالة الأولى قدرا من الثبات، وان كان أميل إلى السطحيّة شكلا ومظهرا. وليست هذه الحالات بنادرة ما بين (الجنسين) الأنجلو- سكسوني والجرماني. لمثل هذه الطبيعة الإنسانيّة مبادئها، وإن كانت في ماهيّتها أميل إلى المذهب المنفعيّ – العمليّ (أي المذهب البراجماتيكيّ). يكون اتّجاه الطبع في الحالة الثانية أكثر ضيقا والتزاما. وهذه الحالات أكثر تواجدا بين التجمّعات البشريّة النابعة من (الرواسخ) الرومانيّة. وقد استدار هذا الطبع متّجها مع مرور الزمن نحو عبادة المنطق الصوري (الشكلي) ونحو تكوين ما سُمّي بالعقليّة الديكارتيّة[٣].

أمّا الحالة الثالثة، فإنّها لا تتميّز بتكوين تجمّع واحد فقط في وسط الإنيّات الصغيرة، بل بتكوين تجمّعين اثنين يتّخذان إذ ذاك مظهر الحثر المتكتّلة المحاطة بكتلة سائلة.



- شكل 12 -

تتواجد مثل هذه الحالات بكثرة نسبيّة ما بين (الشعوب) السلافيّة وفي الشرق الأدنى والأوسط. يتسبّب وجود تجمّعين بدلا من تجمّع واحد، في جعل الشخصيّة أكثر وَهَناً وخاصّة فيما يتعلّق بدفاع الفرد عن مصالحه الشخصيّة. ولكنّ على الجهة الأخرى، فان هذا التركيب يجعله "ذو جانبين"، إذن أكثر موضوعيّة وتبعيّاً أكثر إدراكا (أو فهماً). عند تواجد تجمعين من الحثر المتكتلة، أحدهما مكوّن من إنيّات صغيرة ذات الطابع الانفعالي والأخرى مكوّنه من إنيّات صغيرة ذات طابع عقليّ. إذا حدثت صدمة داخليّة أو خارجيّة، يؤسس تعاون وثيق بين أولئك التجمعين، اللذين لفترة يتصرفان ككتلة واحدة. وحينئذ يصبح الطبع على الأخص حازماً قادرا على اتخاذ القرارات أو التصدي لمعركة بطولية. في الحالات المعتادة، طابع هذه المجاميع الإنسانية، التي لا تشكل لها المنفعة والمغامرة أو البحث عن الربح دفعة كافية لكسر الاتزان بين التجمعين من الحثر المتكتلة والدفع اتجاه الالتحام العام، يجب أن تستقطب مغناطيسياً بواسطة دافع غير ذي منفعة: فكرة مجرّدة، اعتقاد، مذهب، شغف

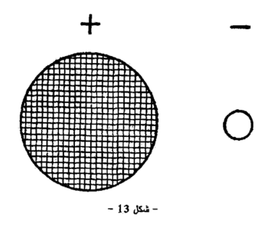
[٣] الاستقلال الفكريّ المنظم المنطقيّ...الخ. الفيلسوف الفرنسيّ رينيه ديكارت (المعرّب)

(ولَمَ)، يقين... الخ. إن تكوين التجمعين من الحثر المتكتلة له من حين لآخر نتائج سلبية خالصة: يصبح الإنسان متردداً، غير قادر على اتخاذ القرار، إذ إنه يجد حججاً ضد وأخرى لصالح الفعل في كل حالة. إن الأدب الروسي يعطى أكثر من مثال لهذا الشكل الإنساني التابع لهذا النوع، على الأخص في قصص دوستوفسكي. إن البلورة المتزامنة في تجمعين من الحثر المتكتلة، في جموع الإنيّات الصغيرة يمكن أن تثير ازدواج الشخصيّة. بل يوجد حالات تتكون من ثلاثة تجمعات من الحثر المتكتلة. ولكنها تتبع فئة الحالات المرضية، التي لا يدخل فحصها بعمق ضمن نطاق هذه الدراسة. إنه من الكافي أن نلاحظ أن تكوّن ثلاثة أو أكثر من الحثر المتكتلة تتطور عامة نحو التحلل الكامل للشخصيّة.

الإمبراطور الروسيّ اسكندر الأول[٤] يعطى مثالاً كلاسيكياً لازدواج الشخصيّة.

-٥-

علينا الآن أن نفحص الوضع الذي تشغله شخصيّة الإنسان البالغ بالنسبة للإنيّة الحقيقيّة، الوازع الداخلي للضمير فينا، ذلك القاضي (ذي السلطة) العليا المنصف الغير متحيّز وإن كان سلبيّا. يمكننا أن نتمثّل ذلك الوضع النسبيّ بواسطة الرسم التخطيطي التالي:



- شكل 13 -

تمثّل الدائرة الموجودة على اليسار إنيّة الشخصيّة - أي مجموع الإنيّات الصغيرة - التي هي في نهاية الأمر "لا- إنيّة". أمّا الدائرة الموجودة على اليمين فهي الإنيّة الحقيقيّة. تسيطر الشخصيّة في حالة الإنسان ١، ٢، أو ٣ - حيث تكون هي صاحبة التصرّف، في حين أنّ الإنيّة الحقيقيّة التي أصبحت منذ سقطة آدم تشغل وضعا يتميّز فوق كل شيء بالسلبيّة، - تتحمّل مسؤوليّة هذه التصرقات. فتوالى الشخصيّة (تحقيق) أهدافها الخاصّة، وتتصرّف كما يتراءى لها، بما يخالف في كثير من

---

[٤] الإمبراطور للثالث من أسرة هولستين-جوتورپ الحاكمة. الابن لرجل نصف مجنون (بول الأوّل المقتول)؛ حفيد لمتخلف (بول الثالث مقتول)؛ حفيد جده الأكبر شارل فرديك، دوق هولستين-جوتورب، سكير، مدمن. تقارير معاصري اسكندر في غاية الغرابه. فقال عنه لاچربورك، وزير السويد: " ان الإمبراطور اسكندر دقيق منظم كالإبرة، حامى كالشفرة وزائف كزبد الأمواج المنكسرة على الشاطئ". ويجب علينا أيضا لن نتذكر كلمات نابليون الشهيرة: "إنه من الصعب ان يكون لدينا عقل انصع من عقل اسكندر، ولكني مقتنع أنه ينقصه جزء منه ومن المستحيل معرفة أي جزء منه هو الناقص". وأخيراً ن.ك. شيلدر كاتب سيرة الإمبراطور قال: " انه من المعتاد ان يكون له طريقتان للتفكير في كل شيء". اسكندر كره كل الناس الذين قد حَزَرَوا حالة شخصيته. إنه بلا شك كان واعيا. لقد فعل هذه الازدواجية لأعلى مستوياتها، ولكن دائماً - كما فعل بالنسبة لأقدس مثله العليا- انتهى بإنحدار ما قد آمن وصرح به مسبقاً.

الأحيان مبادئ ومحكم قواعد (إرشادات) الإنيّة الحقيقية. تسمح لنا مراقبة (هذه الأمور) بتفهّم المعنى العميق لما قاله بولس الرسول:- "أنا لا أفعل ما أريد، وأفعل ما أمقت مقتا".[٥]

هذا هو موقف من يقضي حياته غافلا عن قدراته الكامنة، أي غافلا عن الحياة الحقيقيّة. فانّ الوجود الاصطناعي (الزائف) لمثل هذا الشخص لا يزيد عن كونه دَيْنا: فهو بواقع (كونه دَيْنا) وجود وقتيّ يأتي إلى نهايته بحلول الموت، تبعا للكلمة الإلهية: "فإنك تراب وإلى التراب تعود".[٦]

فما هو معنى وما هو هدف مثل هذا الوجود؟ لن نستطيع أن نجد ردّا واضحا لذلك السؤال إلا إذا تفحّصناه في حدود إطار أوسع: وهو إطار الحياة في الفلك (كله). سوف نفهم عندئذ معنى الحياة البشريّة، والسبب الموضوعيّ لكينونتها، وذلك بالنسبة لاقتصاد الكون. أمّا إذا نظرنا إليه، عوضا عن ذلك من الزاويّة الفرديّة، الذاتيّة، فإنّ ذلك الوجود يبدو بلا معنى. الأمر الذي لم يخف أبدا على كبار الأذهان، ولطالما أفصحوا عنه. فلقد كان بوشكين يقول: أيّتها الهبة الرائعة، أيّتها الهبة التي لا جدوى منك، أيّتها الحياة، لأيّ غرض أنت تعطين لنا؟

بذلك نكون قد وصلنا إلى حافة المشكلة الكبرى: مشكلة الموت. كلما ازداد انطباق الإنسان على شخصيّته كلما تناقص تفكيره في الموت. (وأعجب ما في الأمر) أنه لا يداخله الشعور التلقائيّ بحتميّة موته، والموت يطيح أمام عينيه بكلّ ما يحيط به. فإنّه لا يستطيع أن يتمثّل الموت إلا بصعوبة، حتّى وإن كان قد أوتى مخيّلة خصبة. يجب عليه أن يبذل الجهد لكي يتدرّج به الأمر إلى فكرة تجريديّة عن موته هو، ولكي يخلق لنفسه صورة لذلك الحدث. فإنّ كلّ ما يستطيع أن يتخيّله في هذا المعنى هو أن يستحضر منظر جثّته الهامدة، ولكنّه لن يستطيع أن يستبعد من تمثله هذا، الرقيب الذي يتأمّل تلك الصورة. هذه واقعة معروفة، وقد تبيّن بعض الكتّاب فيها إثباتا لخلودنا. وأنّ في ذلك لجزءا بسيطا من الحقيقة. ذلك أنّ المجهود الذهني في تمثّله لنفس ميتته، ينزع الإنسان بعض الشيء – بلا إدراك منه لذلك – ليس عن انطباقه على جسده فحسب بل أيضا عن انطباقه على شخصيّته، ليجعله عوضا عن ذلك ينطبق – انطباقا جزئيّا حقا ولا يدوم إلا بضع لحظات- على إنيته الحقيقيّة. ماذا وإلاّ تظلّ الأخيرة مهملة ومنسيّة بصفة عامّة حيث تودع بأحد جوانب قاع وعى الاستيقاظ الذي هو الوعي بإنية شخصيّتنا مصحوبا بالوعي بإنية الجسد.

إنّ هذا التدريب تدريب مُجدٍ بل هو أيضا تدريب لازم (لا غنى عنه). فهو يُفرض فرضا، في نطاق الأرثوذكسيّة الباطنيّة على الطلبة (المريدين)، إلى جانب صلاة يسوع، بوصفه تدريبا يوميّا يعرف باسم استذكار الموت. فإنّ الموت هو الحدث الحقيقيّ الوحيد الأوحد الذي يتحتّم بلا مفرّ أن يحدث لكلّ منّا. وبعبارة أخرى فانّ المثابرة على حفظ فكرة الموت الذي يقترب يوما عن يوم منّا فكرة حاضرة في أذهاننا، هي الوسيلة العينيّة (الملموسة) لمواجهة تلك الحقيقة التي لا ترحم، والتي تتضاءل أمامها كلّ مسرّات وكلّ هموم الشخصيّة. هذه هي الطريقة التي نتعلم فعليّا بواسطتها أنّ "كلّ شيء باطل وهمّ للذهن مبرّح".[٧]

-٦-

يظلّ الموقف بلا مخرج ما دام الإنسان – إذ يؤكّد (انطباقه القوى) على الشخصيّة فقط – ينطبق على وعيها النسبيّ، ليجعل أهدافها ومصالحها هي أهدافه ومصالحه. فإنّ هذا لهو عين "المسلك الفسيح الذي يؤدي إلى الضياع".[٨]

---

[٥] الرسالة إلى أهل روما، ٨: ١٥.

[٦] سفر التكوين، ٣: ١٩.

[٧] الواعظ (الجامعة)، ١: ١٤ – ٢: ١٧. مذكور تبعا للنصّ السلافوني.

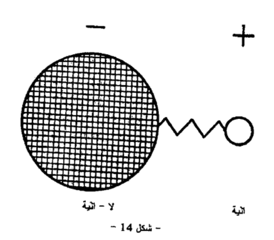
[٨] متى، ٧: ١٣.

أين إذن يكون "الباب الضيّق والمسلك الوعر اللذين يؤدّيان إلى الحياة؟"[٩] يبيّن لنا الفحص المقتضب الذي أجريناه عن العلاقات الموجودة بين الشخصيّة وبين الإنيّة الحقيقيّة – المكان الذي يجب البحث عن الجواب فيه. وعلى تلك النقطة، يجب أن تتركز جهود من يبحث عن مخرج لذلك الوجود الزائف الذي قد استطاع أن يقدّر بطلانه (حقّ قدره). فإنّ في ذلك الأمل، كلّ الأمل.

-٧-

ينظر العلم الباطني للإنسان – اعتبارا بما سبق من المشاهدات (الموضوعيّة) – لا بوصفه معطى (إيجابي)، بل بوصفه (مجرّد) إمكانيّة. فإنّه يسجّل أنّ نموّ وتطوّر الإنسان الخارجيّ البيولوجي والنفسي والأخلاقي يتوقفان تلقائيّا عند مستوى معيّن. حقا إنّ الإنسان يظلّ يزاول العمل، بل إنّه يعمل بصيغة بنّاءة على مستويات وعى الاستيقاظ المرتفعة في جميع المجالات، وخاصّة في المجال المهني؛ فقد يأتي بالاكتشافات، وقد يقدّم للمجتمع خدمات هامّة، ولكنه لن يستطيع – (إذا بقى) على ما هو عليه – أن يرفع مستوى كينونته. ممّا يجعل تقدّم (عمليّة) الانحلال – بالتبعيّة – نافذ المفعول في الحال: إذ تبدأ بالجسد (الطبيعي) الفيزيائي وتقود الإنسان نحو الشيخوخة ثمّ الوفاة.

يقدّم المسلك الوعر الذي يقود إلى الحياة، إمكانيّة حقيقيّة – لقلب الموقف الذي مثّلناه بالشكل التخطيطيّ السابق (شكل ١٣) رأسا على عقب. يتمّ ذلك بإدخال رباط دائم ومتّصل، ما بين الشخصيّة والإنيّة الحقيقيّة السلبيّة التي يصبح حضورها حضورا مستمرّا داخل الحقل الذي تتصرّف الشخصيّة في نطاقه. وعندئذ قد يتغيّر الموقف تغيّرا شاملا كاملا، مع مرور الوقت وتبعا لشدّة الجهود: فإنّه على قدر ما يزداد انغراس الإنيّة الحقيقيّة – شبيهة في ذلك بحبّة الخردل[١٠] - داخل الحياة النفسيّة التي كانت حتّى الآن تسيطر الشخصيّة عليها، تخضع الأخيرة شيئا فشيئا لإرادة القاضي حتّى إذا ما انطبق الإنسان على ذلك (القاضي) عثر من جديد على إنيته الحقيقيّة في تكاملها واستدامتها. وإذ ذاك تفقد الحياة بالنسبة له طابعها الزائف لتصبح منطقيّة لها معناها (واتجاهها الصائب). يمكننا أن نمثّل هذه الحالة المستجدّة بواسطة الشكل التخطيطي التالي الذي يوضّح بالنسبة للشكل التخطيطي السابق تحوّلا جوهريّا:



- شكل 14 -

[٩] نفس المرجع السابق، ١٤.

[١٠] متى، ١٣: ٣١ – مرقص، ٤: ٣١ – لوقا، ١٣: ١٩.

إنّ الرباط المستديم الذي يجب إدخاله بين الشخصيّة والإنيّة الحقيقيّة هو رباط المعرفة الباطنيّة. إذ يمثل التعلم وفن الإنجاز بمهارة اللذين تسمح باكتسابهما حجر الفلاسفة بالنسبة لروحانيّة العصور الوسطى[١١] كما أنهما كفيلان في الإنسان بإحداث تحوّل الجوهر الذي يتوق إليه.[١٢]
تكمن الصعوبة الكبرى – التي تجعل ذلك المسار وعرا ومضنيا – في كون تحوّل الجوهر هذا ينجم عنه بالنسبة للشخصيّة فقدان مكانتها مع سيطرتها: إذ يجب عليها أن ترضخ وتخضع. وما يزيد المشكلة صعوبة، هو أنّ الشخصيّة يجب عليها أن تتقبل هذا الموقف قبل حدوثه. بل الأدهى أنّه يجب عليها أن تتوق لذلك وأن ترغب فيه رغبة متقدة. فإنّ الإنيّة الحقيقيّة كما سبق أن قلنا، تظل لدى الإنسان الخارجي في حالة سلبية. إذ ينجم عن (مجرد) توقع ظهور هذه الإنيّة وحضورها الدائم في الحياة اليومية بالنسبة للشخصيّة فقدان حريّتها في الاختيار، مما يجعلها تستجيب (استجابة) حيوية (جليّة). تكون هذه الاستجابة في أحسن الحالات غير مستمرة، ولكنها تُترجَم إلى (عدّة) استجابات يمكن أن تصبح خطيرة. هذا هو مفعول كبرياء الشخصيّة الذي يريد لها أن تستمر في تأكيد أنها سلطة ما فوقها (سلطة). نستطيع الآن أن نفهم بصيغة أوضح كيف أنه - من أجل أن يشرع بنجاح في السير على المسلك الوعر، أي يشرع في العمل الباطني - يجب على الإنسان-الشخصيّة أن يتقبل مقدما حتميّة إفلاسه. فإنه ما دام راضيا عن نفسه يجب أن يُعتبر غنيا، بمفهوم الإنجيل (لهذه الكلمة). ولقد سبق أن علمنا أنه أسهل على الجمل أن يمر من خلال ثقب الإبرة من أن يدخل غنيا إلى ملكوت الله[١٣].

في اكتشاف ذلك المسلك يكمن المعنى الحقيقي لحياتنا، تلك الهبة الرائعة التي لا جدوى منها بدون ذلك، تبعا لبوشكين. تقدم لنا تلك الهبة إمكانية يدعونا إلى تحقيقها صوت وازع الضمير الداخلي فينا. إلا أنه لكي ننجح يجب أن نعمل بلا توانٍ مخافة ألا ننجح في الميعاد الموقوت. يجب أن نعمل كما قال يسوع "مادام النهار موجودا، سيأتي الليل حيث لا يستطيع احد أن يعمل".[١٤]
لو حافظنا باستمرار على صورة الموت حاضرة في أذهاننا لقدرنا عندئذ بمرير الندم قيمة اليوم الضائع.

---

[١١] ننبّه القارئ إلى أنّ "الروحانيّة" ترجمة كلمة: 'La mystique' و"الباطنيّة" ترجمة كلمة: 'L'Esotérisme'.

[١٢] "تحول الجوهر" من المصطلحات الفنيّة لعلم الكيمياء القديم الذي كان ظاهريّا يبحث في تحويل شتى المواد إلى ذهب، وإن كان باطنيّا يرمز إلى فنّ كيفيّة رفع مستوى كينونة (موجوديّة) الإنسان حتى النهاية المنشودة، وهما ترجمة كلمة واحدة هي: 'Transmutation'.

[١٣] متى، ١٩: ٢٤ – مرقص، ١٠: ٢٥ – لوقا، ١٨: ٢٥.

[١٤] يوحنا، ٩: ٤.

الفصل السادس

شخصيّة الإنسان الناضج. - مُركّباتُها. - المكانة الايجابية والمسيطِرة للشخصيّة في الإنسان الخارجيّ. - تجليّات الإنيّة الحقيقيّة. - الإنسان إذا نُظر له لا بمثابة "معطى" بل بمثابة إمكانيّة. - ملَكَة الارتقاء. - (اعتراض) مقاومة الشخصيّة. - مفهوم الباطنيّة العامّ ودرجاتها الثلاث. - المؤثرات "ا" و"ب". - تكوين مركز رابع يطلق عليه المركز المغناطيسي.

-١-

نتناول الآن (دراسة) مجال الباطنيّة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة. يقول القدّيس بولس الرسول: احذروا من أن يجعل منكم أحدٌ فريسة له بإحدى الفلسفات وبمخادعة باطلة مرتكزا على التقليد البشرى، وفقاً (للأسَطقصَاتّ) للعناصر الأساسيّة للطبيعة وليس وفقا للمسيح[١]. فإنّ فيه يسكن جسديّا مَلأ الألوهيّة كله. كما أنكم تحوزون فيه مليّا على كلّ شيء فإنّه هو رأس كلّ رئاسَةٍ وكلّ سلطة[٢].

إن ّذلك النصّ هامّ. فقد ميز الرسول فيه من جهة تمييزا قاطعا ما بين الفلسفة الوضعيّة القائمة على التكهنات الخاصة بما أسماه بالعقل الجسدي (المتقلب)[٣] كما هي قائمة أيضا على التقاليد البشريّة المحضة، من جهة، وما بين العلم العلويّ من جهة أخرى - الذي (يصدر) عن مصدر وحيد كما قال ألا وهو السيد المسيح. إنّ العقل الجسدي بالنسبة للقدّيس بولس ليس إلا عقل الشخصيّة التي يطغى عليها في الأوساط المثقفة تكوين يتّسم فوق كل شيء بكونه عقليّا. ولكنّ ذلك العقل بالرغم من (كلّ ما أوتى) من دقة في فنّ الاستنباط الفكري لا يمكنه أن يتخطى حدود العقلانيّة المؤمنة باللا أدرية (أي العقلانيّة التي تؤمن أنّها لا ولن تدرك إلا الظواهر دون الماهيات). إذا انحصر التفكير المنطقيّ البشريّ في هذه الدائرة، فلا شكّ أنّه لا يعرف، ولا يمكنه أن يعرف شيئا عمّا يوجد فيما وراء حدودها: ما أكثَفَ جهلي كما قال ر. فرشو.

إنّ ذلك التمييز ما بين العلم البشرى الذي هو في متناول الشخصيّة وبين العلم العلوّي الآتي من المستوى الإلهيّ - ليتضح اتضاحا جليّا - إذا قارنّا إذا ما بين النصوص التالية للقدّيس يوحنّا الرسول. فانّ تأكيده لنا أنّه: "لم يرَ الله أحدُ[٤]" يبدو متناقضا تناقضا فاضحا مع كلمات يسوع التي ذكرها نفس الرسول الإنجيلي في موضع آخر: من أحبّني يحفظ كلمتي، فيحبّه أبي؛ ونأتي إليه فنجعل لنا عنده

---

[١] العناصر الأساسيّة ترجمة للكلمة الفرنسيّة " ELEMENTS" التي هي بدورها ترجمة للأصل اليوناني "STOICHEIA". الذي يعنى بصيغة عامّة مبادئ الشيء أو عناصره الأساسيّة كحروف الكلمة مثلا، ويعنى في مفهومه الفلسفيّ العناصر المركبة للكون كالماء والنار مثلا، أو المركبة للعلوم كالنقط والخطوط لهندسة القدماء ومبادئ بناءو تركيب الكلمات مع بعضها في قواعد اللغة، ويعنى أخيرا في علم الهيئة حسب علماء وفلاسفة مدرسة الإسكندرية مثلا الأبراج الاثنى عشر التي كان يشيع عنها أنها العناصر الأساسيّة والمبادئ لحياة البشريّة. (وفقا للقاموس اليوناني-الفرنسي لم. ا. بايى - الطبعة ١٣ - مكتبة هاشيت باريس: ١٩٢٩ ، صفحة ١٧٩٥.

هذا وقد أورد صاحب "الفهرس العربي لكلمات العهد الجديد اليونانيّة" المطبوع في ١٩٧٩ بدار النشر المعمدانيّة ببيروت - لبنان، أنّ تلك الكلمة قد وردت على شكل مصدر سبع مرّات، وقد ترجمها إلى: عناصر والى أركان، والكلمة الثانية أدقّ وأوقع، ونحن نذكرها لكي يدمغ القارئ الكريم هذا المعنى أيضا في مفهومه لهذه الكلمة - إذا تساءل عن كنة تلك الفلسفة والمخادعة الباطلة المبنيّة تبعا لأركان الطبيعة أو عناصرها الأساسيّة.

نودّ أن نضيف أخيرا أنّ هذه الكلمة قد وردت خمس مرّات - تبعا لنفس المصدر صفحة ٧١٣ - على شكل فعل، والفعل يعنى انخراط في سلك منتظم، اصطفّ صفا واحدا مع أنداده ...الخ.

[٢] الرسالة إلى أهل كولوسى، ٢ : ٨ إلى ١٠. نقلا عن النص السلافوني.

[٣] نفس المصدر، ١٨.

[٤] يوحنا، ١: ١٨.

مُقاماً[5]. كما جاء أيضا بسفر الرؤيا: ألا أنني واقف بالباب أطرقه. فإذا سمع أحد صوتي وفتح الباب، لأدخلنّ إليه، أتعشّى معه وهو معي[6].

إننا لنستطيع أن نعدد الشواهد المنتزعة من الأسفار المقدّسة لتأييد النصوص السابقة. فلنكتفِ بالإشارة إلى تعريف القدّيس بولس الرسول لهذين النوعين من العلوم اللذين لا وجه للمقارنة ظاهريا بينهما: إنّ الإنسان الحيواني لا يتقبّل الأشياء الخاصّة بروح الله، لأنّها بالنسبة له ضرب من ضروب الجنون، وهو لا يستطيع ألبتّة أن يعرفها لأنّ الحكم عليها لا يتأتّى إلا بالروح. وعلى العكس فإن الإنسان الروحيّ يحكم في كل شيء ولا يحكم عليه أحد[7].

إنّ المطابقة بين النصوص السابقة تسمح بالقطع بأنّ الرسل كانوا يميّزون تمييزا واضحا جدا ما بين نوعين اثنين من العلوم: الأول نسبيّ، محدود، لا يعلم شيئا عن الآخر، والآخر هذا مطلق، لا حدّ له ويحتوي على الأول. ينسب القديس بولس الرسول العلم الأول إلى الإنسان المسمّى الحيواني، والآخر للإنسان المسمّى بالروحي.

ما الذي يجب إذن أن نفهمه عن هذين الجنسين من البشر؟ ألا توجد وسيلة يستطيع الإنسان الحيوانيّ بواسطتها أن يصبح إنسانا روحيّا؟

نستطيع أيضا أن نقول أنّ هذه النصوص قد وضعتنا وجها لوجه أمام مشكلة الفرق الأصلي في الكيفيّة ما بين الحكمة البشريّة والحكمة الإلهيّة. بقي علينا أن نستعلم عن إمكانيّة وكيفيّة الدخول إلى أسرار الحكمة الإلهية، أو عن إمكانيّة وكيفيّة الاقتراب منها.

-٢-

سبق أن رأينا أنّ الإنيّة الحقيقيّة نادرا ما تتجلى في الإنسان، وأنّها لا تفعل ذلك عامّة إلا عندما تلجأ الشخصيّة إليها. يمكن تشبيه هذا السلوك بوضع قاض يمكث داخل قصره، ولا يسعى إلى إصدار أيّ حكم، كما أنه يلتزم سلوكاً سلبياً يخالف تماما السلوك الإيجابي للشخصيّة. وسبق أيضا أن رأينا أنّه إذا أُدخل ما بين الشخصيّة والإنيّة الحقيقيّة رباط المعرفة الباطنيّة، فقد ينعكس وضعيهما المتبادل بشكل لا يكاد يلمس. الإنيّة الحقيقيّة عندئذ إيجابيّة وتخضع لها الشخصيّة وإنيّة الجسد خضوعا كاملا لتصبح السيّد المطلق بلا منازع.

هذا الانعكاس في الموقف يتسم بشكل خاصّ بانعكاس في سلوك الإنسان تجاه رغباته. فبينما كان فيما مضى يريد ما كان يشتهي يصبح من الآن فصاعدا يشتهي ما كان يريده.

يشاهد (الباحث؛ المريد) تحقق هذا التغيّر في داخله على قدر ما يحرز من تقدّم في المعرفة الباطنيّة كلّما توغل في السير إلى الأمام، كلّما اتسع ذلك التغيّر وازداد عمقا. وبمفهوم المخالفة عندما يشاهد المريد في داخله هذه الظاهرة، يعلم أنّه قد تقدم، ويستطيع أن يقيس (بالتالي) مدى تقدّمه.

-٣-

علينا الآن أن نفحص التالي: من خلال أيّة أعضاء تتجلى الإنيّة الحقيقيّة في الإنسان، وما هي الوسيلة التي نستطيع بواسطتها أن نوسّع ونقوّى هذا التجلي؟

---

[5] المصدر السابق، ١٤ : ٢٣ - قارن أيضا الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ٣ : ١٦ :- ألا تعلمون أنكم هيكل الله وأن روح الله تقطن فيكم؟

[6] سفر الرؤيا، ٣: ٢٠.

[7] ١ كورنثوس، ٢: ١٤ و ١٥.

يوجد بداخلنا، فيما عدا مراكز الشخصيّة النفسيّة الثلاثة - التي سوف نسمّيها من الآن فصاعدا المراكز السفليّة - مركزان آخران، علويّان، مستقلان عن الجسد (الطبيعي) والشخصيّة. يمثّل حقا هذان المركزان العلويّان مجتمعين معا، روحنا تلك التي نعاملها في لغتنا اليوميّة معاملة الغير. إنّ تواجد هذين المركزين في الوازع الداخليّ للضمير، وكذلك ما نَدُرَ من الرسائل الغير متحيّزة الموضوعيّة التي نستقبلها من خلال هذين المركزين، يعطينا انطباعا عن تلك الإنيّة الحقيقيّة التي تصورناها على هيئة قاض يقيم في قصره. ولكنّنا سوف نرى حالا أنّ ذلك المظهر لها ليس بالوحيد. بل الأمر يختلف كثيرا، فانّ مذهب المركزين العلويّين لن يبدّد التناقض الظاهري في النصوص المذكورة أعلاه فحسب، بل سوف يساعدنا على النفوذ إلى معنى العديد من النقاط الغامضة في الأسفار المقدّسة وفي التقليد وفي الحياة، وسوف يسمح لنا، وهو الأمر الجوهريّ (الأهم) أن نتفهّم أنفسنا تفهّما أعمق.

في حين تكون المراكز السفليّة لدى الإنسان الخارجيّ غير متطورّة تطوّرا متكاملا يكون المركزان العلويان فيه كاملين. كما أنّهما يعملان بملء كفاءتهما (طاقتيهما). إلا أنّنا في حالتنا الراهنة لا نلتقط إلا جزءا متناهي الصغر من رسائلهما. سبب ذلك أنّ الإنسان يؤكد (انطباعه القوىّ) على شخصيّته فقط. ولوهمه هذا عدّة تأثيرات مباشرة، الكبرياء ومركزيّة ألذات والأنانيّة التي تكوّن (معا) ما يعمل بمثابة حاجز حائل لا يسمح إلا بمرور الرسائل البدائيّة الصادرة عن المركزين العلويين اللذين يستمران بالرغم من ذلك وبدون توقف في إرسالهما: وهو الذي يطرق الباب. ولكن علينا نحن أن نسمع الطرّق وأن نفتح الباب.

-٤-

نستطيع أن نقول إذا طرحنا لغة القدّيس يوحنا المليئة بالصور جانبا، أنّ قصور (وتخلف) مراكزنا السفليّة هو الذي يحول دون التقاطنا لإرسالات المركزين العلويين. سبق أن رأينا أنّ المركز الحركي هو المركز الوحيد - ما بين المراكز السفليّة الثلاثة - الذي يؤدى وظيفته بطريقة شبه منتظمة (قياسية). وهو أمر هامّ لأنّ ذلك المركز يشارك في كلّ حركاتنا النفسيّة. وبما أنّه يتحتّم علينا بحكم ما تقدم أن نستخدمه لبلوغ الغايات الباطنيّة، يجب علينا أن نربّيه، إذ لا يسمح له تطوره الغير كامل بتأدية ذلك الدور. كذلك أيضا يجب أن نُوقظ المركز العقلي بشتى أنواع الصدمات والدوافع (المنبّهة)، فإنّه لكونه أبطأ المراكز الثلاثة، يتّسم بميل طبيعي للإغفاء وبطلان الحركة. كان جوته يقول: إنّ الإنسان ضعيف، يستسلم للنعاس طوال الوقت... تتمّ تربّية المركز العقلي تربية متقدمة، كما في حالة المركز الحركي، بواسطة تدريبات باطنيّة مناسبة (تُعتبر) هي المكمّل اللازم للتكوين النظريّ.

إنّ المركز الانفعالي - ما بين المراكز السفليّة - في أسوأ وأضعف وضع. فإنّه في وسط حضارتنا هذه - كما سبق أن نوهنا إلى ذلك - لا يلقى تربية منطقية ولا تعليما منظما. بل يُترك تكوينه وتطويره للصدفة، ذلك أن التربية الدينيّة قد أصبحت تتسم إلى حد كبير بالعقلانيّة اللا أدرية[8] وبالفكر السندى[9] (القياسي[10]) في أيّامنا هذه. كذلك فإنّ شتّى أنواع الاعتبارات التي تمليها علينا حكمة العالم وأباطيله، وممارسة الكذب المعتادة - وخاصة كذبنا على أنفسنا - بالإضافة إلى النفاق الذي لا يكاد يخلو منه أحد منّا، كلّ ذلك يلحق بالمركز الانفعاليّ تشويها خطيراً. وهو يصاب في كثير من الأحيان بشعور بالنقص تنجم عنه الحاجة إلى التعويض، كما أنّه معتاد على انتقاد العالم كله بل وكل شيء، ومعتاد

[8] العقلاني اللا أدرى = Intellectuel (au sens donneé dans Gnosis) (المعرّب)

[9] للفكر السندى الاستنباطي = Pensée rationelle; rationalisme (المعرّب)

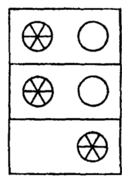
[10] القياسي؛ الاستنباط القياسي = المعنى المرفوض للقياس في الدين الإسلامي. (المعرّب)

على الحكم على العالم كلّه بل وعلى كل شيء أيضا، تارك لنفسه العنان في ذلك التلذّذ الغريب بالانفعالات السلبيّة، مما يطمس سماته الأساسيّة تماما. فيتدهور إلى حدّ أن يصبح أداة هدم بالنسبة لكينونتنا التي يدفعها نحو (هوّة) الشيخوخة والموت.

يعمل المركزان العلويّان بإيقاع أسرع بكثير من المراكز السفليّة التي يُعتبر المركز العقلي أبطأها كما ذكرنا؛ في حين أنّ المركز الحركي أسرع من السابق بقدر ملحوظ. إلا أنّه كان يجب على المركز الانفعاليّ أن يكون الأسرع، لو لم يكن وصل في داخلنا إلى تلك الحالة المختلّة التي تحدثنا عنها الآن. فهو يعمل عامّة بالسرعة البطيئة على نفس إيقاع المركز الحركي.

-٥-

هذه هي الكيفيّة التي يبدو لنا بها الشكل التخطيطي للإنسان، (بعد) تكميله بضم (إلحاق) المركزين العلويين به:



- شكل 15 -

يقع المركز الانفعاليّ العلويّ على مستوى القلب؛ والمركز العقلي العلويّ على مستوى الرأس. وهما مختلفا الوظيفة. يطلق عليهما أحيانا في التقليد اسم عينا الروح. فيقول مثلا القدّيس إسحاق السوري: في حين أنّ عيني الجسد تبصران الأشياء بطريقة مطابقة، تبصرها عينا الروح بطريقة مختلفة: فإنّ الأولى تتأمّل الحقيقة (على شكل) صور وبالرموز، والأخرى وجها لوجه[١١]. أي أنّه بعبارة أخرى يمكن ترجمة الإرسالات التي يلتقطها المركز الانفعاليّ العلوي بواسطة تمثّلات (شكليّة) أو باستخدام اللغة البشريّة، ولكن على شكل صور ورموز فقط لا غير. هذه مثلا هي الحالة بالنسبة لسفر الرؤيا. فانّ ذلك النصّ في المجموع لن يُفهم منه شيء إذا لم نشرع في (تفهّمه) إلا بالمراكز السفليّة فقط. يجب لكي نتملّك من فهم معناه الحقيقيّ أن نقرأه بمساندة المركز الانفعاليّ العلوي. هكذا كوشف به القدّيس يوحنّا فوق جزيرة باتموس، وهكذا فقط يمكن أن تُفهم تلك الرسالة ذات الأهمّيّة القصوى. حقّا أنّ إنيّة الشخصيّة تستطيع أن تقرأها؛ ولكنّها لن تفهم منها إلا جزءا بسيطا. في حين يبقى المعنى العميق لهذه الرؤى المهيبة (في عظمتها) خافيا عليها. أمّا الإرسالات التي يلتقطها المركز العقلي العلويّ فهي ذات طبيعة متعالية، ولا يمكن لذلك أن تترجم بأيّةِ صيغةٍ كانت إلى لغة البشر.

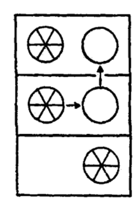
---

[١١] الفيلوكاليا، القديس إسحاق السوري، الموعظة ال ٨٢/ ٧٢. (المعرّب: يتكون هذا المرجع والمصدر البالغ الأهمية من مقتطفات مناسبة من عدد من كبار آباء الكنيسة، اختيرت نصوصها ورتبت بعناية. وقد ترجمت شذرات بسيطة منه للفرنسية والإنجليزية.)

إنّنا لا نفهم معنى إرسالات المراكز العلويّة التي تعمل في داخلنا بلا توقف وبملء كفاءتها ليس فقط لأنّ مراكزنا السفلية ناقصة التطوّر، بل لأنّها أيضا غير متوازنة. يجب علينا إذن أن نوجّه (جهودنا) إلى تنشيط نموّ الشخصيّة في داخلنا، وإلى موازنة وضبط عمل مراكزها الثلاثة. فإنه يجب علينا مع ممارستنا العمليّة المثابرة للاستبطان أن نجتهد لكي نميّز في داخلنا عمل كلّ من المراكز الثلاثة على حدة، ثمّ عمل كلٍ من جزئيه الاثنين، وأخيرا عمل كلّ من قطاعاته الستة. هذه هي الكيفيّة التي تسمح لكل منّا بالنفوذ إلى داخل نفسه.

فإذا توصّلنا - بواسطة التدريبات المناسبة - إلى تطوير مراكزنا السفلية تطويرا تامّا، وإلى موازنتها موازنة كاملة، أصبح في استطاعتنا أن نقيم اتصالا دائما يربطنا بمراكزنا العلويّة. يتم إنشاء ذلك الاتصال بالتدريج من عند المركز الانفعاليّ السفلى. فإن ذلك المركز يستعيد - كلما ازداد طهارة وتطوّرا - إيقاعه القياسي، ممّا يسمح بإنشاء الصلة بالمركز الانفعاليّ العلوي. كما أنّه يتصل بعد ذلك - من خلال المركز الانفعاليّ العلويّ أيضا - بالمركز العقلي العلويّ.

بما أنّه لا يوجد رباط مباشر ما بين المركز العقلي السفلى والمركز العقلي العلوي، فإنّ الثقافة العقليّة التي تكاد أن تكون الغرض الأوحد من التكوين (الذي نتلقاه)، لا يمكن أن توصّلنا إلى مستويات الوعي العلويّة. وبالرغم مما يبلغ ذكاؤه من دقة (وإرهاف)، مهما يكن اتساع وعمق المعارف التي يحصل عليها، يظلّ الإنسان الخارجيّ محبوسا في دائرة التفكير السندى (القياسي) فلا مخرج له إلا من جهة القلب؛ لذلك احتلت العناية الفائقة بالحياة الانفعاليّة مركز الاهتمامات والجهود التي يستلزمها التعليم الباطنيّ. لكنّ الثقافة العقليّة اللا أدرية المحضة، والفكريّة الاستنباطيّة المحضة، والوضعيّة المحضة لها فائدتها، وإن كانت لا تستطيع أن توصّلنا إلى المستويات العلويّة للحياة بطريقة مباشرة. بل هي تحتفظ بكلّ قيمتها من وجهة النظر الباطنيّة، ولسوف يكون لها أهمّيّة كبرى عندما تتكوّن فينا الفرديّة (الاتحاديّة: برجاء رجوع القارئ الكريم إلى الملحوظة <٦> بالفصل الثاني). ولكن علينا أن نبدأ من البداية، بتمرين القلب، وبزيادة إرهاف الحياة الانفعاليّة (ودقتها المفرطة). ولقد كان الأسقف ثيوفان الناسك الذي يعتبر مرجعا في هذا الموضوع، قاطع الرأي (صارما). حيث قال: هاهنا لا الكرامة ولا سعة الإطلاع تنفع في شيء.



- شكل 16 -

إنّ التوصل إلى المركز الانفعاليّ العلويّ هو التوصل إلى مستوى وعى الإنيّة الحقيقيّة، الفرديّة. أمّا التوصل إلى المركز العقلي العلوي فهو يرفع إلى مستوى الوعي الذي هو - بواسطة ما يتضمّنه من اتّحاد داخليّ - مشاركة في الإنيّة الكونيّة. هذه هي نهاية الارتقاء الممكن بالنسبة للإنسان في ظروف كوكبنا: الأرض. وهو مهيب في عظمته. قال القدّيس بولس الرسول في هذا الشأن: إنّنا لنعلم...أنّ الأمور كلها تتضامن لصالح من يحبّهم الله، الذين نودوا تبعا لمقصده هو. فإنّ الذين قد

عرفهم سلفا، قد قدر لهم أيضا أن يكونوا على شاكلة صورة ابنه، لكي يكون ابنه بكرا للعديد من الأشقاء.[١٢]

إنّ المركزين العلويين في جملة القول إذن، هما شرارتان إلهيّتان: (انبثقت) صدرت الواحدة من الأخرى. المركز الانفعاليّ العلوي - شرارة من الابن - والمركز العقلي العلوي - شرارة من الآب على شكله المتّحد الجوهر الذي هو الروح القدس. ونستطيع الآن أن نفهم بشكل واضح المعنى العميق للنصوص التي ذُكرت في مستهلّ هذا الفصل، والفارق الجوهريّ الذي نبّه إليه القدّيس بولس الرسول ما بين الفلسفة والتقاليد البشريّة من جهة، وبين التقاليد الباطنيّة من جهة أخرى.

إذا أردنا الآن أن نشمل في نظرة واحدة المسلك الذي (يتحتم) قطعه منذ الولادة وحتّى (بلوغ) قمّة الباطنيّة، يمكننا أن نكوّن فكرة عنه على أنّه ارتقاء الإنيّة التي تتخذ أشكالا متجددة دائما بدون أن تمحو مرّة بعد الأخرى (أشكالها) القديمة.

هناك أربعة مستويات للإنيّة تتناسب مع أربعة مستويات للكينونة والوعي:



- شكل 17 -

عرّف جبرائيل درجافين هذا الارتقاء في عبارته الشهيرة: أنا دودة، أنا عبد، أنا ملك، أنا إله.

-٦-

تقودنا الاعتبارات التي سبقت إلى أن نتساءل عن معنى ومهمة الشخصيّة - في عملية الارتقاء - ذلك الكيان الدقيق المعقد الذي ليس هو في حد ذاته بإنّية - والذي نلتصق به، ويجب أن ننجح في التخلي عنه ببذل جهودٍ مضنية جداً.

يجب أن نُذكّر أنّ الإنسان الروحي إذ أصبح منذ سقطة آدم - إنسانا حيوانيّا - قد فقد الاتصال بالمركزين العلويين اللذين هما شجرة الحياة، وأعطى السلطة كلها لمراكزه السفلية أيْ لشجرة معرفة الخير والشرّ. لكننا نملك في داخلنا - من خلال الشخصيّة ومراكزها الثلاثة - كافة العناصر التي يتركّب الكون منها في حالة جنينيّة أو ماثلة للتطور، وهي التي يسميها التقليد الأرثوذكسي "العالم". وكل هذه العناصر تتمثل في الجزيئات المناسبة من الشخصيّة.

على قدر تقدّم الإنسان في اكتساب السيطرة على شخصيّته والتحكم فيها، استطاع بمساعدة تلك الأداة المعقّدة أن يعرف الكون في كلّ أجزائه، وأن يقيم روابط واعية وعضويّة معه. وذلك تبعا لمبدأ أفلاطون الذي ينصّ أن المثل لا يدرك ولا يفهم إلا بالمثل.

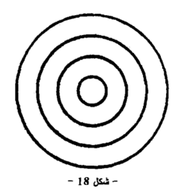
هذان هما المعنى الموضوعي للشخصيّة ومكانتها في ارتقاء الإنيّة: فإنّ الذي يبحث سوف يستطيع - بنوع من أنواع الانطباق الواعي، وهو ثمرة التدريبات المناسبة على التركيز - أن يعرف اللا-إنيّة

[١٢] رسالة بولس الرسول إلى أهل روميه، ٨: ٢٨- ٢٩.

هذان هما المعنى الموضوعي للشخصيّة ومكانتها في ارتقاء الإنيّة: فإنّ الذي يبحث سوف يستطيع - بنوع من أنواع الانطباق الواعي، وهو ثمرة التدريبات المناسبة على التركيز - أن يعرف اللا-إنيّة الخارجيّة بواسطة اللا-إنيّة الداخليّة، أي بواسطة شخصيّته. سوف نعود فيما بعد إلى ذلك النهج العملي الذي يعطي الإنسان المنفذ (لاكتساب) القدرات الإعجازيّة (الكرامات)[١٢]. قال القديس إسحاق السوري في الفيلوكاليا: اجتهد أن تنفذ إلى القفص الداخليّ، وسوف ترى القفص ألخارجيّ (الكون) فما الأول والثاني إلا واحد فقط[١٤].

-٧-

نستطيع الآن أن نفهم أوضح - وأن نعرّف - مفهوم الباطنيّة. يُعنى بكلمة الباطنيّة - بالمعنى الضيق لهذا التعبير - الوقائع والأفعال التي هي في متناول المراكز العلويّة، أي بمعنى آخر منطقة الوعي بالإنيّة الحقيقيّة ومنطقة الوعي. أمّا المعنى العريض لنفس التعبير فإنّه يمتد ليشمل الدرجتين المتتاليتين اللتين توصّلان إلى المنطقة المذكورة. فهو يتضمن أولاً المرحلة الخارجيّة من الباطنيّة (أو الدورة الخارجيّة) التي تتميز بالتخلي عن الإيمان بالشخصيّة بوصفها قيمة دائمة، ويَتضمّن بعد ذلك المرحلة الوسطى (أو الدورة الوسطى) التي هي طور الاقتراب من الإنيّة الحقيقيّة. هذه الدرجات الثلاث للباطنيّة قد بُيّنت على الشكل التخطيطيّ التالي في هيئة ثلاث دوائر متداخلة ومشتركة المركز، توجد في خارجها الأدغال، تلك المنطقة التي يعيش فيها الإنسان ألخارجيّ مُنْسَاقا للشخصيّة (وحدها).



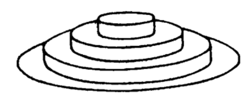
- شكل 18 -

إذا رُؤِيَ الشكل التخطيطي السابق منظوريّا، فإنّه يتمثل لنا كالتالي:

---

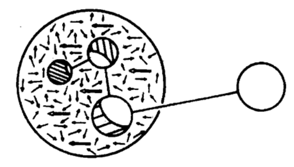
[١٢] هي ما عرف في الإسلام بالكرامات والطاقات الخارقة لطاقات وقدرات الإنسان العادي. وقد اتفقت جميع التقاليد الباطنية الحقيقية أنها لا تهم على قدر ما تحرّر المريد، ولا تقيّده بالمباهاة بها أو غير ذلك من الأفخاخ المنبوذة الخ ... وسوف يجدها القارئ الكريم على إحدى الصورتين التاليتين: للقدرات الإعجازيّة أو الطاقات الخارقة، لفصلها عن القدرات أو الطاقات الإنسانية العادية مهما كانت ملفتة - التي تكتسب في غير مجال العلوم والأعمال الباطنيّة التقليدية الطاهرة المشروعة.

[١٤] الفيلوكاليا، القديس إسحاق السوري، الموعظة ال ٣٠/٢.



- شكل 19 -

لنبحثْ الآن كيفية توصل الإنسان إلى الباطنيّة من وجهة النظر العملية، وبأي وسيلة يمكنه أن يعمل من أجل أن يقيم روابط دائمة تقدم له إمكانيّة الارتقاء. تُعالَجُ هذه المشكلة في "التقليد" بواسطة الشكل التخطيطي المبيّن فيما يلي. يُعتَبَرُ هذا الشكل التخطيطي أهمِ الأشكال التخطيطية (جمعاء) في التعليم الباطنيّ. فهو يحوى مجموعة كبيرة من الأفكار التجريدية التي تتعدى بكثير كل التعليقات التي سوف نعلّق بها الآن عليه. هذا هو السبب الذي يوجب علينا أن نعود كثيرا لهذا الشكل، وأن نتأمله (مليّا).



- شكل 20 -

تمثّل الأسهم السوداء المؤثراتِ التي خُلقتْ داخل الحياة بواسطة الحياة نفسها. وهي أوّل نوع من المؤثرات التي تحيط بالإنسان، وتُدعى المؤثرات "ا". نلاحظ أنّها تغطى بطريقة تكاد تكون متساوية، كلّ مسطّح دائرة الحياة. ويتناسب فعول هذه الأسهم - كما هي الحال بالنسبة لكلّ قوى الطبيعة المشعّة، تناسبا عكسيّا مع مربّع المسافة؛ ولهذا يتحمل الإنسان تأثير أسهم المحيط المباشر له بصفة خاصة، وينجرف في كل لحظة تحت تأثير محصلة الساعة. إن تأثير هذه الأسهم "ا" على الإنسان الخارجي تأثير آمر؛ يُدْفَعُ فيهيم في دائرة حياته منذ الولادة حتّى الموت، متبعا خطّا منكسرا يتعرّض أحيانا لتغيّرات خطيرة في مساره.

يشكل مجموع المؤثرات "ا" قانون الصدفة أو قانون العرض (الحادثة) الذي يقع مصير البشر تحت إمرته. إلا أنّنا إذا فحصنا الشكل التخطيطي عن قرب، أدركنا أنّ كل سهم من الأسهم السوداء يوازنه (ويعادله) ويحيّده سهم أسود آخر يوجد في مكان ما من الدائرة، مساو له في القوّة ومضادّ له على طول الخطّ، بشكل أنّنا لو كنا قد تركنا (هذه الأسهم) (تتعادل) تتحايد فعليّا لكانت المحصّلة العامّة لها مساوية لصفر. وهو ما يعنى أنّ المؤثرات "ا" ذات طبيعة وهميّة، في مجموعها، وإن كان مفعول كلّ منها مفعولا حقيقيّا: وهو السبب الذي يجعل الإنسان الخارجي يعتبر أنّها الواقع (الحقيقي).

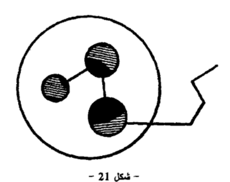
أمّا الدائرة البيضاء، فهي صورة للمركز الباطنيّ الموضوع خارج القوانين العامّة للحياة.

تمثّل الأسهم البيضاء المؤثرات التي تسمّى (بالمؤثرات) "ب". وهي المؤثرات الملقاة في داخل دوّامة الحياة، ويبثها المركز الباطني فيها. تتّجه كلّ هذه الأسهم لكونها خلقت خارج الحياة، في نفس الاتجاه، وتكوّن في مجموعها نوعا (من أنواع) المجالات المغناطيسيّة.
بما أنّ المؤثرات "ا" تتحايد (فيما بينها)، فإنّ المؤثرات "ب" هي التي تشكّل لوحدها بالفعل الواقع (الحقيقي).
تشير الدائرة الصغيرة المظلّلة (بعدد من الخطوط المائلة) في هذا الشكل التخطيطي إلى الإنسان منفرداً. وتعنى خطوط التظليل أنّ طبيعة الإنسان الخارجيّ ليست طبيعة متجانسة: بل هي مختلطة.
إذا قضى الإنسان حياته بدون أن يميّز ما بين المؤثرات "ا" و"ب"، فإنّه سينهي حياته كما بدأها - أي ميكانيكيّا، يحرّكه قانون الصدفة. ولكن يمكنه - تبعا لطبيعة وشدّة قوى المحصّلات التي سوف يخضع لها - أن يتوصل إلى حياة منصبيّة باهرة بالمعنى الذي يعطيه العالم لهذا التعبير. إلا أنّه سوف يصل إلى نهاية أيّامه بدون أن يكون قد تعلّم أو فهم شيئا ممّا هو حقيقيّ. ثمّ يعود بعدها تراب الأرض إلى الأرض.
يتعرض كل إنسان خلال حياته إلى نوع من أنواع الاختبارات على غرار المسابقات (العامة). فإذا تميّز وجود المؤثرات "ب"، وإذا تذوّق تجميعها واستطاب التشرّب بها، وإذا أصبح تائقا لمزيد من الاستيعاب لها، سوف يطرأ بالتدريج قدر من الارتقاء على طبيعته الداخليّة المختلطة. فإذا كانت الجهود التي يبذلها لامتصاص المؤثرات "ب" جهودا مستمرة وكافية في قوتها، يمكن أن يتكوّن في داخله مركز مغناطيسيّ. يتمثّل هذا المركز المغناطيسيّ في الشكل التخطيطيّ (على هيئة) المسطّح الأبيض الصغير.
فان طوّرَ هذا المركز - بعد أن يكون قد ولد - بكلّ عناية، يَزْدَادُ حجما وتأثيرا. بل ويحدث بدوره تأثيرا على محصّلات الأسهم "ا" الدائبة الفاعليّة فينتج عن ذلك انحرافا في المسار بالنسبة لها. وقد يكون ذلك الانحراف عنيفاً. (لكنّه) يشكّل بصفة عامّة مخالفة لقانون الحياة الخارجيّة كما أنّه يثير النزاعات في داخل الإنسان وحوله. فإذا خسر الإنسان المعركة، خرج من (ساحتها) وهو يعتقد أنّ المؤثرات "ب" ليست إلا وهما، وانّ الحقيقة الواقعيّة الوحيدة تتمثّل في المؤثرات "ا". فينحسر بالتدريج المركز المغناطيسي الذي كان قد تكوّن في داخله ليختفي (تماما). وحينئذ يكون موقفه الجديد، من وجهة النظر الباطنيّة، أسوأ من موقفه الأسبق عندما لم يكن يتميّز المؤثرات "ب" إلا بصعوبة.[15]
أمّا إذا خرج من هذا الجهاد الأول (النضال الأوّل) منتصرا، فإنّ مركزه المغناطيسي - وقد ازداد رسوخا وقوة - يجذبه إلى إنسان ذي تأثير "ج" اشدّ منه قوّة، يملك مركزا مغناطيسياً أشدّ نفوذا واقتدارا. وبذلك يصير عن طريق التوالي التصاعدي مرتبطا بالمركز الباطني "هـ"، حيث إن الرجل ذا التأثير "ج" على اتصال برجل آخر ذي تأثير "د".
هذا الرجل من الآن فصاعدا لن يكون منعزلا في الحياة. حقا سوف يظلّ يحيى كما كان من ذي قبل تحت فعل المؤثرات "ا" التي سوف تستمرّ فترة طويلة تحتفظ بإمرتها عليه؛ لكنّ مركزه المغناطيسي - رويدا رويدا، بفضل فعل التأثير المتسلسل "ب"-"ج"-"د"-"هـ" - سوف يتطوّر، فيخرج هو كلما زاد (مركزه هذا) نموّا من تحت أمرة قانون الصدفة ليدخل في مجال الوعي.
من حقق تلك النتيجة قبل وفاته، يستطيع أن يقول إنّه لم يعش حياته باطلا (وسدى).

[15] تلك هي الحالة المقصودة في مثل الروح للنجسة والبيت الخالي. متى، ١٢ : ٤٣ إلى ٤٥. قارن أيضا الرسالة إلى العبرانيين، ٦:٤ إلى ٨ - ٢ بطرس، ٣:١٧.

-٨-

لنفحص الآن نفس الشكل التخطيطي، ولكن في وضع يختلف عن السابق:



- شكل 21 -

يمثّل هذا الشكل التخطيطي الثاني بمراكزه المغناطيسيّة السوداء الحالة التي يخطئ الإنسان فيها، فيعتقد أنه يمتصّ المؤثرات "ب"، في حين أنه يمتص باختياره المسبق المؤثرات "ا" أي الأسهم السوداء التي توازى بشكل ما أسهم المؤثرات "ب" البيضاء. فيصير من جرّاء ذلك على علاقة بناس يملكون مراكز مغناطيسيّة من نفس الطبيعة، يكونون هم أنفسهم قد ضلّوا أو يضللون بالآخرين، وليس لهم أيّ رباط مباشر أو غير مباشر بالمركز الباطنيّ.

-٩-

ملحوظة أخيرة. ما هو الضمان الذي يجب أن يحوز عليه الإنسان ليضمن له أنّه لن يخطئ ولن يقع في الحالة الثانيّة؟ إنّ الردّ بسيط: يجب أن يُحَافَظ على نقاء المركز المغناطيسي - بواسطة المراقبة - محافظة فائقة الدقة (والحذر والعناية)، منذ البداية، وعلى طول طريق الارتقاء.

-١٠-

لنكرّر أنّ تعليقنا على الشكل التخطيطي لم يستنفذ كلّ ما فيه. بل يوجد عدّة تعليقات أخرى ممكنة، وإنما ندعو الأشخاص الذين يدرسون المذهب (الباطنيّ) بمواظبة، دعوة ملحة إلى تأمّله مليّا لكي يزدادوا تعمقا فيه.

عندئذ يدرك هؤلاء الأشخاص أن هذا الشكل التخطيطي يتضمن مجموعة من قوانين الحياة البشرية المفصلة (الواردة) في الأناجيل على شكل أمثال وصور وتنويهات.

الفصل السابع

المراكز العلويّة وبنيانها (بنيتها) - شروط (إقامتها) لعلاقات مع الشخصيّة - الروابط (الموجودة) بين المراكز السفليّة ونموّ المركز المغناطيسي - إرجاع ارتدادات تطوّره على شخصيّة الإنسان الخارجيّ - الانضمام إلى المراكز العلويّة - الإنسان ٥، ٦، و٧ -.

-١-

سوف نفحص الآن التغيّرات التي تحدث داخل الجسد النفسي (أو الكيان النفسي الحيّ)، بما معناه داخل الشخصيّة، على أثر ظهور ونموّ مركز مغناطيسيّ فينا. نستطيع أن نقول بصفة عامّة، إنّ إشعاع ذلك المركز يساعد مساعدة ناجعة في توصيل تطوّر المراكز السفليّة إلى الكمال. بالإضافة لذلك، فإنّ العلاقات بين المراكز السفليّة الثلاثة سوف تتعدّل - تحت حماه - تعديلا جذريًا، ممّا سوف يؤثر بالتبعية على حياة الإنسان. الأمر الذي يتسبّب بدوره في إحداث بعض الارتدادات على علاقاته بالمحيطين به.

سبق أن رأينا أنّ المراكز الثلاثة توجد - بفعل نظام القطاعات (التي تنقسم إليها) - في حالة دائمة من الترابط المتبادل، بحيث إنّ أيّة حركة (تصدر) من احد المراكز الثلاثة، تتسبّب آليًا في إصدار رد فعل من المركزين الآخرين. وبهذا، فما دامت الحياة النفسيّة للفرد تتركّب من شتّى تآلفات وتحرّكات المراكز السفليّة (فيما بينها)، لن يستطيع الإنسان أن يمتلك فكرة واحدة نقيّة ولا شعورا واحدا نقيًا، كما أنّه لن يستطيع أن يتّخذ (ولو مرّة واحدة) قرارا جازما. فإنّ كل (شيء) فيه مختلط، نتيجة لقيام هذه الروابط الميكانيكيّة بوظيفتها. حقا إنّ استجابات المركزين الباقيين ليس لها القوّة النافذة التي تكون لحركة المركز الذي صدر الفعل عنه. ومع ذلك، فإنّ الإنسان لا يستطيع - في الظروف العاديّة - أن يتخلّص منها. هذه الظاهرة التي يصاحبها نقص في تطوّر المراكز وقطاعاتها واختلال (في تأديتها لوظائفها)، هي سبب الشكوك والنزاعات الداخليّة التي ما أكثر ما يتخبّط الإنسان فيها. لهذه الحزَم من الروابط الميكانيكيّة - إلى جانب ما سبق - معناها الخاصّ، كما أنّها تلعب في الحياة النفسيّة للفرد دورا إيجابيًا. فإنّها تكوّن - إذا نظرنا إليها في مجموعها - العضو الخاصّ أو بالأحرى الأداة الخاصّة بالأخلاق. بما أنّ صوت الإنيّة الحقيقيّة، في الحياة الخارجيّة، صوت وهين، ونادرا ما يسمع، يستطيع الإنسان الذي يكاد أن يكون على الدوام منطبقا على إنيّة الشخصيّة أن يعمل - بل وما أكثر ما يعمل - بدون أن يحسب أيّ حساب لذلك الصوت الخاصّ به وحده، حتّى لو تحتّم عليه بعد ذلك أن يندم على ما فعل. (وبناء على ذلك) تكوّن الروابط الميكانيكيّة ما بين المراكز الثلاثة - في وسط تلك الظروف - "الفرامل" الوحيدة من الوجهة العمليّة (التي قد تكبح من جشع) مطامعه الفوضوية.

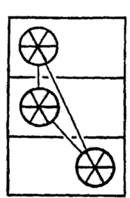
تتماشى أداة الأخلاق تلك مع تقاليد البيئة والوسط ومع تقاليد العائلة، كما أنّها تتكوّن منذ الطفولة بالتربية. من الواضح أنّ تنظيم الحياة الاجتماعيّة على جميع أشكالها، بدون هذه الأداة أمرٌ لا يتصوّر فكريًا. ومهما يكن من الأمر فهي لا يمكن أن تصلح كضمان كاف لتوافر الطيبة والإنصاف في سلوك البشر؛ لذلك فقد لجأ المجتمع البشريّ مضطرًا وعلى مدى العصور - من أجل توطيد وجود (هذه الأداة) - إلى الاستعانة بوسائل الإكراه وتطبيق العقوبات: فإنّها العلاج التي لا غنى عنها نظرا لأنّ الأخلاق (وحدها) لم يكن أبدا لها من السلطان (والاقتدار) ما يكفي لكي تكبح به ميول الشخصيّة

المتطرّفة والفوضوية. فإنّ هذه الشخصيّة تفتقد (يعوزها) بالفعل ذلك النوع من الضمير الذي تحث إليه الممارسات الدينية على شكل "مخافة الله"[1]. (خشيّة الله)

-٢-

إنّنا لنستطيع أن نفهم بكلّ سهولة - اعتبارا بما سبق - إنّ الأخلاق لا يمكن أن تكون مطابقة للوعي. وإنّما هي كبديل له، لا تقوم كما يقوم الوعي الأصليّ الصحيح على أساس من الحكم المباشر التلقائيّ البسيط بل على مجموع كامل من الاعتبارات التي يلعب فيها الجنس والحضارة والعصر والطبقة والبيئة والمصلحة أو المصالح الشخصيّة دورهم، ممّا يجعل مفهوم الأخلاق يتغيّر تغيّرا مرهونا بتغيّرات تلك المُركّبات. فإنّنا نميّز بناء على ما سبق أخلاق رجل متحضّر وأخلاق رجل بدائيّ، بين أخلاق المجتمع الروماني وأخلاق العصور الوسطى، وبين الأخيرة وأخلاقنا المعاصرة. ولكنّنا لا يجب أن نعتقد أنّ الأخلاق ترسم مع مرور الزمن منحنى تصاعديّا للتقدّم. كذلك فإنّ مفهوم التقدّم من جهة أخرى على الشكل الذي يُتَصَوّرُ به عادة، ليس له قيمة مطلقة، من وجهة النظر الباطنيّة. إذ أنّ ذلك التقدّم الذي يُكَوِّنُ ثمرة جهود شخصيّات هي نفسها رمل متحرّك، لا يتضمّن في حدّ ذاته أيّ ضمان متين. لقد زوّدتنا الحروب والثورات الحديثة بإثباتات لا دحض (ولا مردّ) لها عن الوهن المتناهي الخاصّ بكلّ ما كان يُعْتَبَرُ جدّيا حتّى القرن التاسع عشر، بمثابة أسس لا تتزحزح للأخلاق البشريّة بين الشعوب المتحضّرة على الأقلّ.

يمكننا أن نمثّل الروابط بين المراكز بطريقة رسومية تخطيطيّة مبسّطة جدّا على النحو التالي:



- شكل 22 -

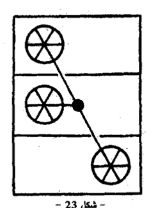
إن هذه الروابط تكون في حالة الإنسان الخارجيّ السويّ من المتانة بالقدر الكافي لكي تقوم بتأدية وظيفتها طوال الحياة. ومع ذلك فإنّ هذه الروابط في ظروف الحياة المعاصرة المحمومة والمختلة التوازن إلى حد كبير تكون متراخيّة (بصفة عامة) وخاصة بين المركز العقلي والانفعالي. بل قد تصل أحيانا إلى حالة التمزق (التام). فينجم عن ذلك التمزّق بالنسبة للفرد فقدان مفهوم ومعنى الأخلاق. يحدث انحلال هذه الروابط، منذ تراخيها حتّى اختفائها (مجموعة) متوالية من الظواهر

[1] سفر أيّوب، ٢٨ : ٢٨ - المزمور ١١٠: ١٠ - سفر الأمثال، ١: ٧ و٩: ١٠ - سفر الواعظ، ١٢: ١٣. يجب أن ننبّه ههنا إلى أننا نستخدم دائما في هذا المُؤلّف ترقيم المزامير الذي أعطى لها في النصّ السلافوني للكتاب المقدّس، أو كتب الأسفار المقدّسة للعهدين القديم والجديد، طبعة سنة ١٧٦٢. أنظر قسم المراجع.

السيكولوجيّة: حيث تتّسم هذه العمليّة جوهريًا بنفاق يتفاقم بالتدريج؛ إلى أن تنتهي العمليّة بتمزق الروابط تمزّقا كاملا، الأمر الذي يجعل الإنسان شخصا بلا أخلاق.

-٣-

سبق أنّ قلنا أنّ ظهور المركز المغناطيسيّ كفيل بإحداث تعديل عميق في الجسد النفسي (الكيان الحيّ النفسي). حتّى إذا ما وصل ذلك المركز إلى درجة معيّنة من النموّ، أقام روابط مباشرة، لم تعد ميكانيكيّة بل هي واعية، مع كلّ من المراكز الثلاثة، كما يظهر ذلك الشكل التخطيطيّ التالي:



- شكل 23 -

عندما يدعِّم (الإنسان) قوّة هذه الروابط الجديدة بالقدر الكافي، تحلّ محلّ الروابط القديمة التي تتلاشى عندئذ. فيستعيد الإنسان في هذه الآونة القدرة على أن يكون له أفكار ومشاعر نقية - أي غير خاضعة للاختلاط الذي ينبع من الترابط الآلي المتبادل بين المراكز. بل إنّ كلّ مركز يستطيع بعد ذلك أن يعمل في عزلة (عن باقي المراكز) ولكن تحت رقابة صارمة من المركز المغناطيسي الذي يتولى (بمفرده) مهمّة التنسيق.

وهكذا يكون من آثار ظهور ونموّ المركز المغناطيسي، فيما يتعلق بطبيعتنا الأخلاقيّة، أن نستبدل تدريجيًا عناصر تلك الطبيعة الأخلاقيّة بعناصر الوعي الملائمة. وعندئذ لا نصبح ضحايا للحركات الاندفاعيّة كما تصبح استجابتنا للانطباعات والصدمات الخارجيّة أكثر تروّيا ووعيًا. ومع ذلك لا يجب الاعتقاد بأن مثل هذا التحوّل الجذريّ في الحياة الداخليّة والخارجيّة يمكن وأن يحلّ فجأة. فإنّ هذا الارتقاء يبدو - فيما عدا بعض الحالات النادرة جدًا، والتي تختصّ بالأبرار منذ الولادة - كعمليّة طويلة، كجهاد (نضالي) بلا توقف، كتعاقب متلاحق من الانتصارات والسقطات. ولسوف يقع الباحث أكثر من مرّة في أزمات من الإحباط؛ كما سوف يبدو له أنّه مطحون تحت ثقل التجارب والصعوبات التي يصطدم بها في أثناء أبحاثه. كلّ ذلك مفهوم ومتوقع، والسبب فيه أنّ العلم الباطني يذهب في التعليم (الذي يلقنه) إلى ما وراء الاستعلامات (الساذجة) السهلة: فإنّه يهدف بالفعل إلى (إحداث) تحوّل في نفس كينونة هؤلاء الذين يدرسونه، في حين أن مثل هذا الاهتمام يظلّ بعيدا كلّ البعد عن العلم الوضعيّ. وبما أنّ (العلم الباطنيّ) يتعامل عامّة مع ظلمة (أشرار)، ولكنّهم يتوقون إلى النور، فإنّه يدعوهم، تبعا لعبارة القدّيس بولس إلى أن يخلعوا عن أنفسهم الإنسان القديم، وأن يلبسوا الإنسان الجديد الذي يتجدّد في المعرفة، تبعا لصورة خالقه[٢]. ومهما يكن من الأمر فإذ يقدم العلم الباطني

[٢] الرسالة إلى أهل كولوسّي، ٣: ٩ و١٠ - الرسالة إلى أهل أفسس، ٤: ٢٢ إلى ٢٤.

(للباحث) كلّ شيء، فإنّه يطالب مقابل ذلك بكلّ شيء. يجب أن ندفع كلّ شيء. فإنّما يستحيل أن نتوصّل إلى الصحيح عن طريق الكذب أو بواسطة تلاعب نفاقيّ (ريائيّ)، إذ أنّنا (في هذا المجال) نسعى إلى تحقيق الكينونة (أي إلى أن نكون) وليس إلى أن نتظاهر. هذا هو الإطار الفكري الذي يجب علينا أن نبحث فيه عن المعنى العميق لتلك القصّة الرهيبة التي قصها القدّيس لوقا عن حنانيّا وسفيّرة في أعمال الرسل[3].

-٤-

هذه هي الكيفيّة التي تظهر بها الأشياء عندما يُنظر إليها - إذا جاز ذلك التعبير - من أسفل أي من وجهة نظر الشخصيّة التي ترتكز على القول المأثور: هذا أملكه وذلك أيضا. لقد قال أحد الحكماء إنّ الله يبتسم حينما يسمع الإنسان وهو يستخدم منطقه بتلك الكيفيّة. ذلك أنّ الأشياء تظهر عندما ينظر إليها من أعلى بمظهر يختلف تماما. فإنّ شخصيّة الإنسان الخارجيّ قابلة للموت. وبناء عليه فكلّ القيم التي تتوق إليها عامّة قيم وقتيّة (زائلة): بل هي في الواقع مفروضة لها. وبما أنّها قابلة للزوال، فهي إذن وهميّة.

يدلّ العلم الباطني على المسلك (المؤدّى) إلى الدائم. ولكنّه يطلب من الإنسان لكي يصل (إلى ذلك الدائم) أن يخلّص قلبه من (تعلقه) بالزائل الذي يجرّه إلى الهاوية. فهو يبيع له، تبعا لكلمة يسوع، ذهبا خالصا (نقيّا) - لا يعرف له قيمة - في مقابل نقوده الزائفة التي يعتقد أنّها حقيقيّة. ومَع ذَلِكَ فإنّ الإنسان يَخْشَى أن يُغرّر به، ويتردّد، ويتعذّب.... هذا هو منبع سوء التفاهم الكبير الذي هو الحياة الإنسانية إذا نظرنا إليها من وجهة النظر الشخصيّة (الذاتية؛ الخاصة). إنّ الإنجيل كلّه (يتركّز) هاهنا. فهو يخاطب الذين يتوقون إلى الحياة.

ومع ذلك كما قال القدّيس بولس: إذا كان أحد يريد أن يتجاهله فليتجاهَلْهُ[4]. لأنّه عندئذ سوف يُستبعد من الطريق الوعر، ليُلقى به من جديد على الطريق الفسيح الذي سوف يقوده إلى الموت كما نعلم جميعاً.

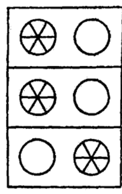
الآن نستطيع أن نفهم فهما أحسن المعنى والضرورة المطلقة لذلك المطلب الصارم المشترك ما بين كلّ الأديان وكلّ التقاليد الباطنيّة: ألا وهو التواضع.

ولنعرّف أوّلا مفهوم الكبرياء نقيض (التواضع). إنّ الكبرياء - بالمعنى الباطني لها - هو فرض الشخصيّة رفعة شأنها بالنسبة للإنيّة الحقيقيّة. مثل هذا الموقف أمر طبيعيّ لدى الإنسان الخارجيّ، فإذا نجح في الحياة أيّده ذلك في موقفه. إلا أنّ القانون الباطنيّ في ذلك قاطع. لقد قال الله: إنّني أقف بالباب أطرقه[5]. وهو ما يعنى أنّ كلّ إنسان يجد نفسه تحت ضغط دائم يأتي من المركز الباطني في شكل المؤثرات "ب"[6]. ولكن على الإنسان بنفسه أن يفتح بجهوده الخاصّة الباب - أي أن يتميّز بعبارة أخرى، وأن يستوعب هذه المؤثرات. وعندئذ يجب على الشخصيّة أن تُخضع نفسها، بتغلّبها على طبيعتها المتكابرة، وتقبل الإنيّة الحقيقيّة. بل يجب عليها أن تفعل ذلك مقدّما (من قبل حدوثه) بدفعة من الإيمان والرجاء، بدون أن تعلم بالضبط إلى أين هي ذاهبة[7]. نحن إذن مدعوّون إلى ائتمان الله مقدماً والتصديق له. هذا هو دور التواضع بوصفه الشرط الذي لا يتمّ بدونه شيء في العمل الباطني البنّاء. وبذلك يتسنّى لنا أن نتفهّم معنى هذا القول المأثور منذ القدم أنّ الله يصدّ المتكبرون

---

٣ أعمال الرسل، ٥: ١ إلى ١١.
٤ الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، ١٤: ٣٨.
٥ سفر الرؤيا، ٣: ٢٠.
٦ قارن بالشكل ٢٠، الفصل السادس.
٧ الرسالة إلى العبرانيين، ١١: ٨.

وينعم بالصفح على المتواضعين[٨]. يجب علينا أن نحذر من جعل هذا الكلام مجرد استعارة لفظيّة؛ فإنّ الشخصيّة التي تصدر عادة الأوامر في الإنسان، يجب عليها مع إنيّة الجسد أن ترضخ للإنيّة الحقيقيّة وتَدينُ لها بالإجلال. للوصول إلى ذلك علينا أن ننتصر على صعوبة كبرى نذكرها الآن: (ألا وهى) أنّ الوهم - اعتقادا منه بأنّه هو الواقع (الحقيقيّ) - يعتبر الواقع (الحقيقيّ) هو الوهم. تعمل قوّة الوهم بالفعل في الإنسان من خلال المركز الجنسيّ بصفة خاصّة، أو بتعبير أدقّ وأضبط، على حسابه. يتمثّل الشكل التخطيطيّ الكامل للإنسان - مع عدم الالتزام بمختلف الروابط، على النحو التالي:



- شكل 24 -

إنّ المركز الجنسي هو المثيل بالقياس للمراكز العلويّة - (مع ما تتضمّنه المماثلة القياسيّة من معنى محدّد كما ذكر المعرّب في الملحوظة ١ من الفصل الرابع) -: فهو غير قابل للانقسام، ولا يتضمّن جزءا سلبيّا كما أنّه لا ينقسم بالتبعية لقطاعات. ولكن يستطيع المركز العقلي السفلى والمركز الانفعالي السفلى أو الاثنان معا أن يغتصبوا جُزْءا من طاقته. فيحدث ذلك ظواهر سلبيّة منها الخلط ما بين الباطل والحقيقيّ، ومنها شتّى أنواع مظاهر التعنت (عدم التفاهم).

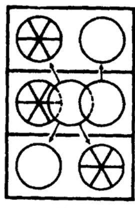
فإذا ما صمدنا للتجربة، تتزحزح بعدها إنيّة الشخصيّة بقدر متزايد لتقيم داخل المركز المغناطيسي. وفي المقابل كلّما طالت إقامة هذه الإنيّة داخل نفس المركز - وكلّما انطبقت عليه، كلّما تقدّم نموّه.

عندما يفرض المركز المغناطيسي - بعد أن يتوطّد - نفوذه الذي لا يعارضه احد فيه، على المراكز الثلاثة للشخصيّة، يصبح من كان من قبل إنسانا من النوع ١، ٢، أو ٣ ، إنسانا من النوع ٤ . فيكون عليه - على مدى امتداد هذه المرحلة، مهمّة التعرّف على أسلوب تأدية كلّ من هذه المراكز، ومهمّة جعلها متوازنة. بهذا يكتمل نموّ المركز المغناطيسي، ويبدأ تطوّره الذي هو دالة للجهود الواعية التي تُبذل من أجل أن تُطوّر المراكز السفليّة إلى آخر "مدى" ممكن لها. يمتصّ المركز المغناطيسي - على القدر الذي يخطو به هذا التطوّر إلى الأمام - (يمتصّ) المركز الانفعالي السفلى، في نفس الوقت الذي يزداد فيه انطباقا على المركز الانفعالي العلويّ - لينطبق بصفة نهائية عليه، بعد أن تكون المراكز السفليّة قد بلغت ملء تطوّرها وتوازنها - معه المركز الانفعالي السفلى إيّاه في نفس الوقت. فيصبح المركز الانفعالي السفلىّ والمركز المغناطيسي من هذه الآونة فصاعدا، جزء متكاملا (لا يتجزأ) من المركز الانفعالي العلوي. كلما تواصل هذا التطور، كلما ازداد ابتلاع المركز المغناطيسي للمركز الانفعالي السفلى، وازداد انطباقه في نفس الوقت على المركز الانفعالي العلويّ.

---

[٨] يعقوب، ٤: ٦ - وأيضا سفر الأمثال، ٢٩: ٢٣ - ١ بطرس، ٥:٥.

عندما تصل المراكز السفليّة إلى منتهى تطورها وتوازنها ينطبق المركز المغناطيسي بصفة نهائيّة على المركز الانفعالي العلويّ ساحبا معه المركز الانفعالي السفلى، ومبتلعاً إياه في نفس الوقت.



- شكل 25 -

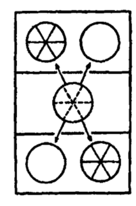
عندما يتحقق ذلك الانضمام، يصبح الذي كان يتابع عمله على نفسه إنسانا من النوع ٥.
على نقيض الإنسان ١، ٢ أو ٣ الذي يطلق عليه الإنسان الخارجيّ، يسمّى الإنسان ٥، ٦ و ٧ إنسانا داخليًا[٩].
عندما يُنشأ ويُقام رباط بين المركز الانفعالي العلوي والمركز العقلي العلوي يصبح الإنسان، إنسانا من النوع ٦. فلا يتبقى عليه بعد ذلك إلاّ تأكيد النتائج التي قد حصل عليها. وتكوّن عمليّة التأكيد هذه المرحلة الأخيرة للارتقاء الباطنيّ.
يمكننا تعريف المهامّ الخاصّة بكلّ مرحلة من مراحل الارتقاء على النحو التالي:

- الإنسان ٤ - التعرّف على المراكز السفليّة الثلاثة، ثم العمل على إنمائها وتطويرها إلى أقصى مدى، وتنظيم تأديتها لوظائفها؛
- الإنسان ٥ - اكتساب ملَكَات جديدة: هي الطاقات أو القدرات الإعجازيّة[١٠]؛ (ملحوظة المعرّب ٢ للفصل السادس)
- الإنسان ٦ - تطوير المَلَكَات الإعجازيّة المكتسبة بالكيفيّة المذكورة إلى أقصى مدى؛
- الإنسان ٧ - تأكيد النتائج المكتسبة.

يتم الحصول على هذا التأكيد بواسطة تسامى الجنس.
عندما نتمعّن في الشكل التخطيطيّ الكامل للإنسان (شكل ٢٤) يجب أن نحتفظ بنفس الشكل حاضراً في أذهاننا، ولكن باختلاف بسيط يبدو لنا به على النحو التالي:

[٩] رسالة القديس بولس إلى أهل روما، ٧: ٢٢.

[١٠] هذه هي هبات الروح القدس، ١ إلى أهل كورنثوس، ١٢: ١٤ وخلافه.



- شكل 26 -

هذا هو الشكل التخطيطيّ للإنسان، وقد أصبح كاملاً لا يموت، بالمعنى الذي كان القدّيس بولس يعنيه عندما قال: لن نموت جميعنا، ولكنّنا سوف نتبدّل كلنا[11]. كذلك يحتلّ المركز الانفعالي العلويّ وسط الشكل التخطيطيّ، وقد ابتلع المركز الانفعالي السفلى: أمّا عن مدلول الخطوط المنقوطة التي تظهر فيه، وعن إقامة رباط بالمركز الجنسي، فذلك سوف يُشرح فيما بعد.

-٥-

إنّ الإنسان ١، ٢ أو ٣ الذي تحركه طاقة المركز الجنسي المنتشرة عبر المراكز الثلاثة، يستخدم إنيّة الشخصيّة المؤقتة التي هي إنيّة غير ثابتة ومتغايرة وغير منطقيّة مع نفسها، كما أنّها تفترض وجودا مفتعلا (مصطنعا). ولكن يتغير الموقف من النقيض إلى النقيض، عندما يصبح الباحث المثابر - بعد اجتيازه مرحلة الإنسان ٤ - إنسانا داخليًا ٥ ثمّ ٦ وأخيرا ٧:

عندما يبلغ الإنسان إلى مرتبة الإنسان ٥، يتصل بصفة دائمة بالوعي بـ إنّيته الحقيقيّة؛
عندما يصبح إنسانا في مرتبة الإنسان ٦ يتصل على الدوام بـ الوعي؛
عندما يصبح الإنسان في مرتبة الإنسان ٧، يتوصّل إلى الحرية بتحصله على إرادة صحيحة.

فالإنيّة - والوعي - والإرادة تكوّن معا الهدف الثلاثي للعلم الباطنيّ كما أنها مكافأة (تعويض) للجهود التي بذلت بوعي ومثابرة. هذه هي نهاية الارتقاء الباطني الممكن في ظروف البشريّة على الأرض.

يعوض الإنسان-الحيوان زلة (سقطة) آدم بهذا الارتقاء فيصبح إنسانا روحيًا، ويتوصل بذلك إلى (منبع) الحكمة الإلهية.

-٦-

ملاحظة هامّة: لا يجب علينا - رغم صرامة وقطعيّة توافر التواضع - أن نقع في التطرّف، وأن نذهب إلى حدّ إهمال إنيّتنا النفسيّة أو احتقارها أو الإساءة إليها في المعاملة. كما أنّه يجب علينا ألا نهمل أو نحتقر أو نسئ معاملة أجسامنا بإخضاعها إلى تقشف مبالغ فيه. يجب علينا فقط أن نمنحها القيمة الملائمة بها، وأن نكفّ عن إعطائها النفوذ الأقصى أو الصفات التي تختص بها الإنيّة الحقيقيّة.

[11] إلى أهل كورنثوس، ١٥: ٥١.

يجب علينا - إلى جانب ذلك - أن نناضل بكل الوسائل ضد روح الامتلاء بالذات، فإننا لنعلم أنّ إنيّة الشخصيّة ليست سوى إنيّة مؤقتة وزائلة في حدّ ذاتها. ذلك أننا إذا انطبقنا عليها بإصرار (وعناد)، أكّدنا من جديد أننا رعايا خاضعون لقانون العَرَض، واتجهنا فعليًا بذلك نحو الموت.

يجب علينا إذن - متفادين الوقوع في مثل هذا التطرف - أن نعامل شخصيّتنا - الإنيّة المؤقتة - والجسد الذي نعيش فيه، بالطريقة التي يعامل الفارس الماهر بها جواده. لن نستطيع أن نجتاز المسلك الطويل الذي يؤدى إلى الهدف المنشود إلا إذا اعتنينا بتلك الإنيّة - في نفس الوقت الذي نروّضها ونطبّعها فيه. كما يجب علينا قبل بذل أي جهد - أن نُقيّم ما لدينا من قوى. فإن الجواد لا يعلم إلى أين يقصد راكبه الذي يكون إذن ووحده المسئول عن جواده وعن نفسه.

القسم الثاني

الكون

الفصل الثامن

الإنسان بصفته جزءاً متمماً للكون -التصوّر الذهني للكون بوصفه كيانا حيًا- المعني المزدوج لوجود الإنسان - القانون العام وقانون الاستثناء - المطلق - حالته بلا تجلٍّ والتجلي - الشروط الأساسية الثلاثة للخليقة: المكان (الفضاء) والزمان والتوازن - مبادئ (أساسيّة) ثلاثة للحياة: الاستاتيكي والديناميكي والمعادل - السرمدية - الإتمام (التتميم) - المفهوم العامّ لبنيّة الكون.-

-١-

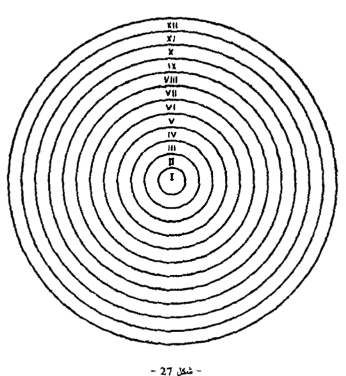
لقد سبق أن رأينا أنّ العلم الباطني يَتناول (يوالي) مع دراسة الإنسان، دراسة الكون. فإنّه يتفادى بعناية فصل الإنسان عن إطاره العضوي. بل يتطلّع للإنسان في مجموع الحياة علي الأرض التي هي عنصر من عناصر العالم الكوكبي الذي يدور حول الشمس، وهي احدي نجوم المجرّة اللبنيّة أي عالمنا المولود في داخل المطلق الذي يكفل له الوجود والغذاء.

إنّ كون الإنسان يزداد انعزالاً عن الأرض، وكونه يمشي مرتديًا الأحذية وينتقل (من مكان لآخر) في سيّارة أو قطار أو طائرة، قد أوصله إلي حدّ أن خلق في وعيه الباطن فكرة انفصاله عن الطبيعة. بيد أنّه بالرغم من جميع الآلات التي خلقها أو قد يخلقها لن يمكنه إلا أن يظلّ جزءا متمما من الأرض-الأمّ: ذلك أنّ كلّ شيء في الكون حي وجزء من المجموع. هذا هو السبب العميق الذي يحتّم إلي جانب دراسة الإنسان، دراسة للكون.

يؤكدّ التقليد الأرثوذكسي أنّ الكون كائن حي. يُشبّهه اوريجين في كتابه المبادئ بكيان حي ضخم روحه الله. ولقد ظلّ هذا التصوّر محفوظا لم يكد يطرأ عليه أي تغيير في التقليد الباطني؛ فإننا لنجده في شكل مختصر شيئا ما في نصّ الصلاة الطقوسيّة المعروفة باسم "الإكتينيا الكبرى" التي يشترك الشعب المصلّي فيها بالردّ علي الكاهن[١].

كان هذا التصوّر يُبيّن قديما في شكل تخطيطي يبدأ من الله روح روحنا ليصل بالتدريج إلي الله الذي يحتوي في داخله كلّ ما يوجد. يتكوّن هذا الشكل التخطيطي من اثنتي عشرة دائرة متداخلة تمثّل - ابتداء من المركز - العناصر المعطاة في الشكل ٢٧.

[١] وتسمى بالعربيّة صلاة الطلبات الكبرى. وكلمة اكتينيا تحريف سلافوني للكلمة اليونانية الأصليّة: اكتنى.



- شكل 27 -

1- الله، روح روحنا
2- النفس
3- الانسان
4- الغرفة
5- المنزل
6- المدينة
7- البلد
8- كوكبنا
9- نظامنا الشمسى
10- المجرة اللبنية، مجرتنا، عالمنا
11- كلّ العوالم، المتشابهة والغير متشابهة
12- الله الذى يحيط بالكل

من المميّزات الخاصة بالأرثوذكسيّة الباطنيّة هذا المفهوم المزدوج للإله الأوحد، بوصفه روح روحنا - وبوصفه الله المحتوي علي الكون الذي خلقه -. ولكنّنا فيما عدا ذلك نجده أيضا في الأناجيل ولدي الرسل؛ ولكن لا يلحظه عامّة أحد. لقد سبق أن أوْردَناه عندما ذكرنا قول القدّيس إسحق السوري وهو يتكلّم عن مطابقة القفص الداخلي للقفص الخارجي[٢]. لِنَستَشْهد أيضا في هذا الخصوص بالخطبة التي ألقاها القديس بولس بمدينة أثينا. لقد نقلها القدّيس لوقا لنا علي النحو التالي:

... إنّ أهل أثينا، وكذلك الأغراب القاطنين عندهم كان يحلو لهم قضاء وقتهم في قول أشياء جديدة أو في الاستماع إليها.

وقف بولس في وسط ساحة الأرياس باجوس فقال:

"يا أهل أثينا لأري من جميع الأوجه أنكم قوم متميّزو التقوى. فإنّني وجدت وأنا أجول في أنحاء مدينتكم وأزور معابدكم، هيكلا منقوشا عليه: إلي الإله المجهول.

" لقد جئت لأبشّركم بهذا الذي تبجّلون بدون أن تعرفوه.

---

[٢] الفيلوكاليا، القدّيس إسحق السوري، الموعظة ٢/ ٣٠.

" إن الله الذي خلق الكون وكلّ ما يوجد فيه ما كان ليسكن، وهو ربّ السماء والأرض، داخل معابد صنعتها يد الإنسان. وما كان ليطالب بأن تخدمه أيدي الإنسانية كأنه في حاجة لأي شيء، وهو الذي يعطي الكلّ الحياة والنَفَسَ والأشياء كلها.
" لقد جعل البشر أجمعين - وقد جبلوا من دم واحد - يسكنون فوق سطح الأرض كلها، بعد أن عيّن مسبقا قدر استمرار الأزمنة، وحدود مساكنهم.
" من أجل أن يبحثوا عن الله، وان لم يكن بعيدا عن كلٍ منّا. أفلا يشعرون به ولا يجدونه؟ فإننا به نحيا وبه نتحرك، وبه نوجد".[٣]

-٢-

إنّ العالم الفلكي الذي نرقبه من كوكبنا هذا، يتخذ بالنسبة لنا هذا المظهر، لأننا نري جسم الكون من الداخل. كما أننا لا نملك إدراكه في مجموعه، لأنّ أرصادنا له تَتِم وتفسّر تبعا لمقاييسنا الخاصّة التي هي لا متناهية الصغر بالنسبة للمجموع. إنّ ما يضلل بنا هي المسافات الموجودة ما بين النجوم التي هي بؤرا من المادّة الحيّة وشذرات من الكيان الحي الكوني نراها من منظور داخلي: فتبدو لنا هذه المسافات شاسعة جدّا. إلا أنّ كثافة الكون في مجموعه تماثل قياسيّا كثافة أجسادنا.
إنّ الإنسان في الكون شبيه بميكروب في الجسد البشري. لو أمكننا أن نتحوّل إلي ميكروبات (لا متناهية الصغر) لرأينا جسدنا من الداخل وكأنّه السماء المرصّعة بالنجوم والمزوّدة بالعديد من المجرّات التي هي أعضاؤنا. ولو أمكننا علي العكس أن نتضخّم تضخّما يمكّننا من رؤية الكون بالمقياس الخاصّ به، لرأينا أنّه جسد حي. هذا هو تأثير مبدأ النسبيّة.

-٣-

فما هو إذن معني الحياة البشريّة علي النحو الذي نعرفها به داخل هذا الفلك؟
إنّ لوجود الإنسان غايتان مزدوجتان:
إنّه بوصفه عنصرا من عناصر الكيان الحي الكوني يخدم أهداف هذا الكيان؛
وهو بوصفه فردا منعزلا يستطيع أن يسعى إلي تحقيق أهدافه الخاصّة.
ولنضرب مثلا يسمح لنا أن نزداد فهما لسبب وكيفيّة ارتباط هاتين الغايتين.
إنّ الموضع الذي يشغله الإنسان في الكون، يماثل بالقياس الموضع الذي تشغله الخليّة في الجسد البشري. إنّ كلّ خليّة تشارك في تركيب عضو من أعضائنا يعمل بدوره بوصفه عنصرا واحدا في مجموعة من الأعضاء علي تأمين حسن سير إحدي وظائف الكيان الحي.
لنفحص من وجهة النظر هذه مصير إحدي خلايا جسدنا. إنّها تخضع لنوعين من القوانين، ولنقل للتسهيل إنّها تقع تحت سلطان قانونين.
يعمل القانون الأوّل علي احتجاز الخليّة في مكانها (لا تبرحه). ويسمي في العلم الباطني بالقانون العامّ. أمّا الثاني الذي يترك للخليّة قدرا معينا من حرّيّة التصرّف فهو يدعي بقانون الاستثناء.
يحرص القانون الأوّل، وهو قانون محافظ، علي أن يؤدّي العضو الذي تشارك الخليّة في تركيبه، وظيفته بلا عائق. لأجل ذلك فإن أوّل الشروط المطلوبة مواظبة الخلايا التي يتركّب العضو منها طوال حياتها علي تأدية الدور الذي خوّل إليها. يُجْبرُ هذا القانون الخلايا إذن علي البقاء في الأماكن المخصّصة لها، وعلي تأدية عملها بها، وعلي تكريس حياتها لذلك فقط.

---

[٣] أعمال الرسل، ١٧: ٢١ إلى ٢٨. ترجم على النص السلافوني. الكلمات المسطرة للمؤلف.

من الواضح أنّه لو لم يكن هذا القانون يحتجز من خلايا الجسد في حدود العضو الذي يخصّ كلا منها ولو لم يكن يجبرها علي المساهمة في تأديته لوظيفته لما أمكن لكلّ من هذه الأعضاء أن يوجد. وبناء عليه يكون هذا القانون قانونا له فائدته فهو إذ يضمن وجود الأعضاء (عضوا عضوا) يسمح للجسد في مجموعه أن يستمر في بقائه. مع ذلك أننا نعلم أنّ الاستئصال الكامل لبعض أعضاء الجسد البشري يتّفق واستمرار الحياة. بل يبدو - (علي الأقل) في المرحلة الحاليّة من تقدّم معارفنا - أنه فيما يختصّ ببعض هذه الأعضاء، لا ينجم عن استئصالها خلل فادح من وجهة النظر الوظائفيّة. وإذا كان الأمر بهذه الكيفيّة فما أحرى أن يتغاضى كياننا الحي عن الاستئصالات الجزئيّة للأعضاء التي لا تهدد بالخطر الدور الذي تلعبه هذه الأعضاء في الاقتصاد العامّ (للجسد). وهو ما يبيّن أنّ اختفاء بعض خلايا احد الأعضاء، تكوّن هذه الخلايا جزءا طفيفا جداً منه، أمر يمر دون أن يُلحظ: فإنّ الوظيفة بالفعل لا تتأثر البتّة. وبما أنّ الدور الأصلي للقانون العامّ هو السهر علي استمرار الوظيفة، فإنّه لا يلحظ هذا الاختفاء. وبالتالي فهو لا يعوقه. يمكننا أن نقول بصيغة رمزيّة إنّ الخلايا التي أفلتت من هذا القانون قد أصبحت إذن في نطاق قانون الاستثناء.

مهما يكن من الأمر، فإنّ إفلات بعض الخلايا ظاهرة تحدث بصفة دائمة. فإن خلايانا كلّها من خليّة سطح الجلد إلي الخليّة العصبيّة[٤] تتجدّد باستمرار تبعا لإيقاعات مختلفة ومتغايرة جدّا. إلا أنّه إلي جانب هذا التجدّد الذي يحدث من الداخل، توجد كذلك اختفاءات قد تعوّض بواسطة وحدات جديدة أو قد لا تعوّض.

يمكننا إلي هذا الحدّ أن نعتبر التماثل القياسي الموجود بين الخلايا ومصير الإنسان تجاه القانون العامّ وتجاه قانون الاستثناء تماثلا قياسيّا كاملاً.

لكن هذا التماثل بالقياس يتوقف عند هذا الحدّ تبعاً لحالة تقدم المعارف حاليّا علي الأقل. فإنّه لا يوجد لدينا ما يؤهلنا بالنسبة لحركة حياة الخلايا وهجراتها وموتها، أن نجزم بأنّ انتقالها من القانون العامّ إلي قانون الاستثناء ينتج عن فعل واعٍ.

أمّا بالنسبة للإنسان، فإنّ الأمر يختلف (تماما).

إنّ الإنسان وهو خليّة من خلايا البشريّة، يشكّل جزءا من الحياة العضويّة علي الأرض. وتمثّل هذه الحياة في مجموعها، عضوا مرهف الحساسيّة لكوكبنا هذا، عضوا يلعب دوراً هامّا في اقتصاد النظام الشمسي. يجد الإنسان نفسه - بوصفه خليّة من خلايا هذا العضو - واقعا تحت سلطان القانون العامّ الذي يحتجزه في مكانه. حقا إنّ هذا القانون يترك له حيّزا بسيطا (للتجوّل فيه) وهو نوع من التجاوز له ببعض التحركات الحرّة في نطاق الحدود التي يعيّنها القانون له، والتي يستطيع الإنسان في داخلها - إذ تبدو له متسعة من الوجهة الذاتية وإن كانت من الوجهة الموضوعية ضيّقة جدّا - يستطيع أن يطلق العنان تماما لنزوات خياله ولطموحاته. يمكننا أن نقول مثلا - بدون أن نتوغّل في تعريف الحدود (المذكورة) وفي الوصف التفصيلي لشتّي مركّبات هذا القانون العامّ إنّ الجوع وعبوديّة العمل من أجل ضمان البقاء عامل من عوامل هذا القانون. كما تكوّن السلسلة التالية عاملا آخر منها: الغريزة الجنسيّة والتكاثر، وعناية الأهل المفرطة بأولادهم. إنّ هناك حِكْمَةٌ باطنيّة تنطبق علي هذا المظهر من الحياة، وقد صُممَتْ (صيغة) علي النحو التالي: إنّ الحبّ الجسدي لازم للخير العامّ. ويشكّل الخوف ونواتجه الطبيعيّة المجموع الثالث من العوامل المعنيّة. ومجمل القول أنّ الحيّز البسيط المسموح به للتحرّكات الحرّة التي يتجاوز عنها القانون العامّ تقف حدوده عندما يمكننا أن

---

[٤] " إنّ كثيراً من معتقدات الطب الغربي التي طالما دافع عنها باستماتة قد انهارت دفعة واحدة، تحت أعين طليعة في معزل عن الغير ظلت تتكتّم الأخبار في ضيق وحرج: فلقد كان مؤكدا (لدى الغرب) بما لا يقبل الشكّ أو النقاش أنّ النسيج العصبي لا يمكن أن يتجدّد؛ إلى أن استطاع طبيب أمريكي هو ريمون بيكر في سنة ١٩٧٢ أن يجعل الأعصاب تنمو من جديد تحت تأثير تيّار كهربائي ضعيف. وقد توالت بعد ذلك الحالات المماثلة".

نقلا عن كتاب "الإبر الصينية والغرب" للدكتور ج. برسارلو. فايار، باريس، ١٩٧٤ (المعرّب).

نقول عنه بعبارة غنيّة بالصور وإن كانت تفتقر إلي الكثير من الدقة العلميّة أنه حيّز السعادة البرجوازيّة: أي حيّز النجاح الوظيفي في أي فرع من فروع النشاط البشري والثروة والعائلة والغراميّات (المتعدّدة) والتكريم المتكرر، الخ. ذلك كلّه مشروطا بشرط لا غني ألبتة عنه ألا وهو قبول (الإنسان) بلا أي تحفظ حتمية الموت الذي لا يمكن تفاديه، حتى ولو كان هذا القبول علي مستوي الوعي الباطن فقط.

إنّ الإنسان ما دام يتقبّل بلا نضال مبدأ انعدام شخصيّته تماماً في النهاية، يستطيع أن يعمل في الحياة بدون أن يجلب علي نفسه ضغطا متزايداً من القانون العامّ.

لكن الأمر يختلف كليّة إذا بدأ الإنسان النضال من أجل أن يتعدى الحدود التي يفرضها عليه هذا القانون. فإنّه يصطدمُ عَندَئذ بمقاومة يركزها عليه هذا القانون ومشتقاته. حيث يؤثر عليه في نفس الوقت علي عدّةً مستويات معا: الجسدّي والنفسي والأخلاقي. أما عن فعل هذا القانون علي المستوي الأخلاقي فلقد تصوره الإنسان منذ أزمنة غابرة في هيئة شخصٍ هو إبليس.

يشغل علم الأرواح الشرّيرة في التقليد الأرثوذكسي مكانا مرموقا. حيث يمكننا أن نعثر فيه علي وقائع موضوعيّة عمليّة، وملاحظات مرهفة وعميقة عن الأشكال الدقيقة التنوّع والمليئة بالمخاتلات التي يتّخذها فعل إبليس في شتّي الظروف علي تعدد اختلافها، مادام يذهب إلي حدّ استغلال حسن نوايا البشر لبلوغ غاياته.

نجد في هذا العلم أيضا نصائح ثمينة تقوم علي ما تراكم من خبرة عبر الآلاف من السنين، وهي ذات فوائد خاصة بالنسبة لطلبة العلم الباطني. فإن هؤلاء لن يكادوا يحصلون علي أولي النتائج الإيجابيّة، حتى يصطدموا اصطداما لا يمكن تفاديه بمقاومة القانون الإيجابية لهم وبألاعيب الماكر.

يجب أن ندرك أنّ الإنسان عندما يضع نفسه تحت حمي قانون الاستثناء، يسير في مقابل القانون العامّ الذي سوف يُطَالبُ أيضا منه أن يتغلب عليه، ولكن بالطبع علي المستوي الفردي فقط. يجب عليه ألاّ ينسي - وإلا تعرّض "الهجوم مباغت" - أنّ الخلاص يتوقف علي الانتصار علي إبليس[٥] في هيئته كشخص يمثّل الشكل الأخلاقي للقانون العامّ كما سبق أن ذكرنا. هذا وإن كان ذلك القانون بوصفه قانونا فلكيّا، قانونا إلهيّا بالطبع. ولا يجب أن يخيفنا ذلك: فإنّ قانون الاستثناء قانون إلهي أيضا[٦]. والإنسان باختياره إيّاه يظل يخدم مصلحة المجموع بطريقة - وان كانت مختلفة - إلا أنّ فاعليتها لا يمكن أن تقارن (بفاعلية خدمته للمجموع وهو تحت سلطان القانون العامّ). يتعرّض الإنسان في أثناء نضاله ضدّ القانون الأوّل إلي اختبارات كثيرا ما تتّخذ شكل التجارب. ولقد كرّس المذهب الأرثوذكسي دراسات متعمّقة لهذا الموضوع. تتضمّن كما سبق أن ذكرنا ذلك أعلاه نصائح ثمينة فيما يختصّ بالوجهة العمليّة - لا يسمح لنا إطار هذا الكتاب أن نتبسّط في بيان تفاصيلها. ومع ذلك فليُسْمَحُ لنا بأن نجذب انتباه القارئ إلي الشكل الغير مباشر لفعل إبليس. فإنّه إذا تقدم الباحث مباشرة نحو الهدف - أي التحرّر والخلاص - وتغلّب علي العوائق واحدة تلو الأخرى فأثبت بذلك أنه يتمتّع بقوّة تسمح له بالتحدي لسلطان القانون العامّ، يبدأ نفس هذا القانون في التأثير عليه بصيغة غير مباشرة عامّة عن طريق وبوساطة أقاربه عندما يكونون لا يتبعون نفس المسار: فيؤثر أوّل ما يؤثر

---

[٥] ننبه القارئ الكريم إلى ترجمة الكلمات التالية:

إبليس = Le Diable

الماكر = Le Malin

الشيطان = Satan

الأرواح الشريرة = Les Demons

علم الأرواح الشريرة = La Démonologie.

[٦] لا يجب أن ننسى أنّ يعقوب صارع الملاك طول الليل فانتصر عليه، وتقبل منه لقب إسرائيل، والكلمة تعنى الذي صارع الله، أو القويّ ضدّ الله.

علي المستوي الأخلاقي، ويأخذ في كثير من الأحيان أشكالاً انفعاليّة تستثير مشاعره النبيلة والكريمة المنزّهة عن المصلحة الفرديّة ونزعة المحبّة فيه (بالإضافة) إلي تمسّكه بالتزاماته (وإيقاظ) شفقته. والهدف من ذلك كلّه، الدفع به فوق طريق بلا مخرج، في حين التنويه إليه بأنّه قد عاد بتلك الكيفيّة إلي أداء
واجبه، وأنّه يستمرّ هكذا في السير علي السبيل المستقيم، الخ. إن في ذلك لما يلقي الضوء علي المعني العميق لكلمة يسوع التي قال فيها: أعدي أعداء المرء أهل بيته[٧].

-٤-

ولنكرّر هنا (علي أسماع القارئ) ما يلي، لما له من أهمّية: إنّ العمل الباطني بطبيعته عمل ثوري. فإنّ الباحث يسعى من خلاله إلي أن يغير وضعه الراهن وينتصر علي الموت، ويصلَ إلي الخلاص. هذا هو الهدف الذي عيّنته الأناجيل وعيّنه الرسل للعمل الباطني المذكور. فإنما كما قال القدّيس بولس: إذا عشتم تبعا للجسد، لتَمُوتُنّ[٨]. ولا يجب من جهة أخري أن ننسي ما يقوله أيضا: لن نموت كلنا، ولكننا سوف نتبدّل كلنا[٩].
إنّ الإنسان الذي يعيش حياة سلبيّة - حتى إذا كان فيها مواطنا قمة في الصلاح - وهو تحت حمي القانون الأول سوف ينخرط، وهو لا يحسّ بذلك ولا يتنبه لأمره، فوق السبيل الفسيح الذي يؤدّي إلي الهلاك؛ أمّا الذي يختار قانون الاستثناء فهو يسلك السبيل الضيق (المختنق) الذي يؤدي إلي الحياة[١٠].

-٥-

يتضمن الكون سلما واسعا من العناصر، يبدأ بالمطلق الذي هو بمثابة بؤرة للحياة، ويصل عن طريق العديد من التشعيبات حتى القشرة الخارجيّة، أي سطح الجلد الذي يمثله مجموع أقمار الكواكب.
إلا أنّه يليق بنا - قبل أن نبدأ دراستنا لبنيان الكون - أن نعيّن شروط الخليقة. يقول التقليد الأرثوذكسي في تعليمه أنّ الكون قد خُلِقَ بفضل تضحية من الله. يَزدادُ فهمنا لهذه البديهيّة إذا أخذنا في اعتبارنا أنّ (ذلك التعليم) يميّز ما بين حالة الألوهيّة المتجلية وحالة الألوهيّة اللا- متجلية، وبالتالي اللا-محدّدة البعيدة عن كل الشروط.
تكمن تضحية الله في تحديده لذاته بواسطة التجلي. فما هي شروط ذلك التحديد؟ إنها شروط ثلاثة: فإنّ الكون قد خلق قبل كلّ شيء في الفضاء[١١]، ثمّ في الزمان، وأخيرا في التوازن.
تتجلي هذه الشروط الأساسيّة الثلاثة للخليقة في الكون علي شكل المبادئ القاعديّة الثلاثة للحياة: المبدأ الاستاتيكي (أي ألسكوني ألاستقراري) والمبدأ الديناميكي والمبدأ التعادلي.
يمكننا أن نحلل وندرس أي (عمليّة) خلق مهما كانت علي ضوء هذه المبادئ الثلاثة التي تعبّر عن نفسها بصيغة تماثل بالقياس الصيغة التي وصفناها عندما تكلّمنا عن شروط خليقة العالم: وتظل تلك الصيغة موحدة علي كلّ درجات (سلم) الفلك[١٢]. فإذا ضربنا لذلك مثل خلق مشروع إنشائي، يمكننا

أن نقول إنّ الفكرة المجرّدة[١٣] ينبغي أن نتصوّر في المحل الأوّل أمكان تنفيذها، ثمّ يُدَرَسَ المشروع وتوضع له الخطط (المناسبة). يتمّ ذلك كله بفضل المبدأ الاستاتيكي. ثُمّ يبدأ التنفيذ تبعا للمبدأ الديناميكي. يعمل كلّ من هذين المبدأين داخل العالم المتجلي من خلال قانون مناسب لكل منهما سوف ندرسه فيما بعد.

لكن هذا المشروع الإنشائي - من الوجهة العمليّة - سوف ينهار بكل تأكيد إذا لم يأخذ مديروه في الاعتبار بالمبدأ الثالث وهو مبدأ التوازن؛ إذ يجب السير تبعاً لمبدأ التوازن هذا منذ الدراسات الأولي للمشروع إلي أن يتمّ تحقيقه كما يجب أن يراعي تطبيقه بكل دقة في كل خطوة من خطوات المشروع. يمكننا إذن أن نقول بصفة عامّة جدًا أنّ الدّعاة إلي الخلق في نطاق أي فرع كان من فروع النشاط البشري، يجب عليهم قبل كلّ شيء أن يحترموا تطبيق التوازن بين ما يستلزمه المشروع من جهود (لإتمام) خلقه، وبين ما يمتلكونه من وسائل لتنفيذه. فإذا كان الموضوع يتعلق بدراسات علميّة - أو بدراسات باطنيّة فالأمر سواء. يجب أيضا أن نحترم التوازن - وإن كانت الصيغة تختلف: فإنّ خطّة الدراسات في هذه الحالة يجب أن تتناسب مع طبيعة الموضوع ومع بنيانه.

-٦-

بما أننا نتكلم عن خلق الكون، فقد أصبح لزاما علينا أن نذكر شيئا عن مفهوم الأبديّة[١٤] التي لدينا عنها عامّة فكرة مغلوطة. فإننا نتمثلها عادة (وكأنها) امتداد لا يتناهى للزمان. بيد أنّ الأبديّة ليست بالزمان؛ بل هي - إذا جاز لنا هذا التعبير - عموديّة علي الزمان. ثم إنها ليست غير متناهية، بل هي محدودة: فإن التقليد يجمع ما بين نهاية الأبدية ونهاية العالم. لذلك فنحنُ نسبحُ لله وهو في حالته القبل - أبدية. فنرتل في (صلوات) عيد الميلاد:

لقد وَلَدَتْ العذراءُ في هذا اليوم مَنْ سبق وجوده الوجود،
وجَلبت الأرض - ذات - المغاور بمَنْ يتعذر علي الإدراك إدراكه،
فالملائكة والرعاة يترنمون بالتسابيح،
وحكماء المجوس يقتفون مسار النجم،

---

[٧] متى، ١٠: ٣٦.

[٨] رسالة بولس الرسول إلى أهل روميّة، ٨: ١٣.

[٩] ١ إلى أهل كورنثوس، ١٥: ٥١ وقد سبق ذكر هذا النص.

[١٠] متى، ٧: ١٣.

[١١] أي المكان أو الفراغ.

[١٢] فلكُ وتجمع أفلاك: عرّفت هذه الكلمة على النحو التالي في دائرة المعارف الإسلامية - باللغة الفرنسيّة - الجزء الثاني من الطبعة الثامنة، ١٩٧٧ ص ٧٨٠ - ٧٨٢: " الفلك الكرة، وبصفة خاصّة الكرة السماوية. وقد استخدمت هذه الكلمة في القرآن: وَهُوَ الذي خَلَقَ الليلَ والنهَارَ والشمْسَ والقمَرَ كلٌ في فلكٍ يسبحون. (سورة الأنبياء، ٣٣) - لا الشمسُ ينبغي لها أنْ تُدْرِكَ القمرَ ولا الليل سابق النهار وكلٌ في فلكٍ يسبحونَ. (سورة يس، ٤٠) - وهى فيه تعَنى بتمام التحديد الكرة السماوية. (ترجمة عن النصّ الفرنسي)
والكلمة الفرنسيّة التي ترجمت على هذا النحو هي "Cosmos" التي تحمل نفس معنى النظام والجمال باليونانيّة.

[١٣] ترجمت كلمة: idée بالفكرة المجرّدة أو بالمعنى المجرّد وكلمة: pensée بالفكرة أو الفكر.

[١٤] نرجو من القارئ أن يتنبّه لكلمة الأبديّة هذه التي نستخدمها كمصطلح علمي - رياضي محدد ودقيق في مضمونه: فالأبدية عمودية على الزمان، وتنطبق نهايتها على نهاية العالم. والأبد في "التعريفات" للجرجاني، طبعة الدار التونسيّة للنشر، ١٩٧١، صفحة ٧: "مدة لا يتوهّم انتهاؤها بالفكر والتأمل ألبتة". أو "هو الشيء الذي لا نهاية له". "والأبدي ما لا يكون منعدما". ثمّ يعود فيقول في صفحة ١١: "الأزل استمرار الوجود في أزمنة مقدّرة غير متناهية في جانب الماضي". كما أنّ الأبد "استمرار الوجود في أزمنة مقدّرة غير متناهية في جانب المستقبل". وقد فضلنا استخدامها بدلا من الأزلية والسرمدية وما يشابهها.

نَعَمْ من أجلنا نحن قد ولد الفُتَـي الصغير، الله القبل - أبدي[15].
(ملحوظة: الفُتَـي تصغير الفتي / ذو الفتوّة والإقدام الخ.)
أمّا فيما يختصّ بنهاية العالم، فإننا نتمثّلها علي شكل الإتمام[16] الذي هو تبعا لقول يسوع إعلان ما تحقق إتمامه من أعمال ووقائع.

-٧-

إنّ اثنين من بين المبادئ الثلاثة الأساسيّة للخليقة، وهما الفضاء والتوازن لا ينطويان في حدّ ذاتهما علي أيّة خطورة بالنسبة للكون المخلوق. ولكّن الأمر يختلف فيما يختصّ بالزمان. فإنّه - بواقع كونه مبدأ ديناميكيا - يؤهل لإتيان أي فعل بما في ذلك الخلق و (كل ما يراد) تحقيقه، كما أنه ينطوي من الجهة العكسية علي تأكيد قطعي بانعدام كلّ ما خلق في النهاية. ولنَتَذَكرْ بهذا الخصوص أسطورة كرونوس الذي كان يلتهم أولاده.
لقد أدرجت الحكمة الإلهيّة في فعل الزمان - من باب التخفيف المؤقت لهذه الخطورة - ترتيبا يمنع الهدم الفوري للعالم المخلوق. ونعني بذلك أحد القانونين القاعديّين اللذين سوف ندرس في الفصول القادمة مبدأيهما، وطريقة تأديتهما لوظائفهما[17] وتأثيرهما. ولنكتفِ الآن بأن نقول إنّه بفضل هذا القانون الاصطناعي ينغلق سير الزمان في داخل دورات وبذلك يمكن إلي حد ما تخفيف تأثيراته الهدّامة. فإنه يكف عن السير في خطوط مستقيمة، بل يعمل في خطوط منحنية؛ أي أنّه "يدور".
تنغلق الدورات علي نفسها وتتكرّر فيتسنى للكون بجميع العناصر التي تسهم في تركيبه أن يستمرّ (في الوجود) بفضل هذا الفعل الدوري. لكن كلا من العناصر يستمر (في الوجود) تبعا لدورته الخاصّة. ولقد كان القدماء علي تمام العلم بهذا القانون؛ فإنّ فلسفتهم لم تقبل أبداً الخطوط المستقيمة؛ بل كان أساسها (التي تقوم عليه) هو المبدأ الدوري.

-٨-

ولنحاول الآن أن نرسم صورة عامّة لبنيان الكون. وهو ما يسمّي في العلم الباطني بشعاع الخليقة وفي أحيان نادرة بمخروط خليقة العالم.
يمكن أن نصمم شكلا تخطيطيّا له علي النحو التالي. للأرض قمر واحد يعتبر هو الحدّ النهائي، وآخر درج في سلم الخليقة فلا يوجد بعده شيء. فإنّه ليس لقمر الأرض قمر آخر تابع له، وكذلك الحال بالنسبة لأقمار باقي الكواكب.
فإذا أدرنا النظر الآن صوب المركز، وجدنا الأرض تكوّن جزءا من العالم الكوكبي الذي يدور حول الشمس التي تتسيّد مجموعتنا. الشمس هي واحد من نجوم النظام المعروف باسم المجرة اللبنية التي تنتمي لها المجموعة الشمسية (النظام الشمسي). ولا يخفي علي احد أنّ المجرة اللبنيّة ليست الوحيدة من نوعها. فقد أمكن رصد مجرّات أخري في السماء شبيهة بمجرتنا، ويمكننا أن نفترض وجود عوالم مختلفة. تكوّن هذه الوحدات الكبرى (المجرّات) في مجموعها كل العوالم - أي بعبارة

[15] مترجم عن السلافونية القديمة.
[16] نترجم كلمة: Accomplissement بكلمة إتمام - وكلمة: Proclamation بكلمة إعلان - وكلمة: Réalisation بكلمة تحقيق.
[17] ترجمنا كلمة fonction بكلمة وظيفة؛ وكلمة fonctionnement بكلمة تادية الوظيفة أو ما يعادل ذلك.

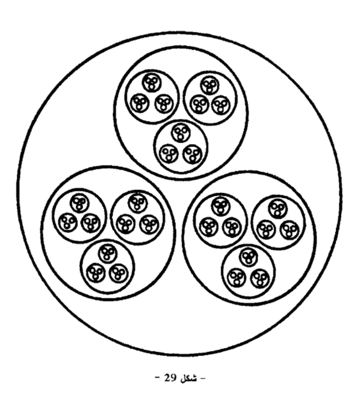
أخري كل ما يحتوي عليه الكون الذي يدور حول ما يسمي في التقليد بالشمس المركزية، أو بعبارة أخري المطلق بما معناه الله المتجلي.
يتمثل لنا الشكل التخطيطي (الموصوف أعلاه) علي النحو التالي:

المطلق
كل العوالم
عالمنا - المجرة اللبنية
الشمس
عالم الكواكب
الأرض
القمر

شكل 28

سوف نستخدم هذا الشكل بكثرة في أثناء دراساتنا حيث إنه شكل سائغ (وعملي) لمتابعة استدلالاتنا وتدعيمها[١٨]. بدون أن ننسي - مع ذلك - أنّه لا يمثل إلا شعاعا واحدا من الخليقة لا الكون في مجموعه. وأنّ الكون في مجموعه يماثل قياسيّا في بنيانه شجرة ينبثق من جذرها - الذي هو المطلق في شكلنا التخطيطي - نظام كامل من التفرّعات تصل إلي الأوراق التي تكوّن ورقة منها المثيل القياسي للقمر في شعاعنا.
أما إذا أردنا أن نصمّم شكلا تخطيطيّا أكثر شبها بالواقع وجب علينا أن نضع جميع درجات السلم الموجودة في الشكل - ٢٨ - داخل بعضها البعض ليكون المجموع مرسوما داخل دائرة كبيرة تمثّل المطلق الذي يحيط بالكلّ، والذي يُوجَد ويَحْيا بداخله كلّ ما هو موجود وحي.

[١٨] ترجمنا كلمة: Raisonnement - استدلالات؛ وكلمة Raisonner - نستدل.



- شكل 29 -

ملحوظة: يتوقف التمثيل البياني في هذا الشكل التخطيطي عند الدرجة الخامسة (من درجات الكون) وذلك لأسباب فنيّة.

الفصل التاسع

القانون الأوّل الأساسي للكون المخلوق: قانون ثلاثة - التمييز ما بين المؤثرات "ا" و "ب" - بنيان شعاع الخليقة - القوانين المقوّمة التي تتناسب وكلّ درجة من درج (أو سلم) شعاع الخليقة.

-١-

لقد بيّنا منذ قليل الشروط الثلاثة الارتكازية التي خلق الكون تبعا لها. علينا الآن أن ندرس القانونين الأساسيّين[1] اللذين يتحكمان في كلّ ما يوجد وكلّ ما يحيا علي درجات الكون المخلوق كلها.
إن القانون الأوّل منهما يشرط وجود كل ما (يملأ) الفلك سواء كان كائنات أو أشياء أو أحداث.
أما القانون الأساسي الثاني فهو يحكم كل فعل وكل حركة، وبصفة خاصّة يحكم سير الحياة في جميع أشكالها، إلي أدق وأخفي حركات الفكر والمشاعر.
بذلك يكون هذان القانونان الأساسيّان موجودين ومتفشيين في الكون بجميع ما يحتوي عليه بشكل يجعل من المستحيل علي أي شخص أو شيء فيه أن يفلت منهما.

-٢-

يطلق العلم الباطني علي القانون الأول اسم قانون ثلاثة. والتعريف يفسّر لنا هذه التسميّة:
التعريف: كلّ ما هو موجود، موجود كنتيجة لفعل قوي ثلاث يؤثر فعلها علي نفس النقطة في نفس الآونة: قوّة سلبيّة وقوّة إيجابيّة وقوّة تعادليّة.
نلاحظ (أوّلا) أنّ هذه القوي الثلاث تعكس الشروط الارتكازية الثلاثة لخلق الكون التي سبق أن تكلمنا عنها. كما أنّها تمثل علي حالتها داخل الكون المخلوق تجلي شروط الخليقة الثلاثة، التي صمّمتها، فيما قبل وجود العالم، الألوهيّة التي لم تكن تجلت. وبالتالي تكون القوة السلبيّة مشتقة من الشرط الاستاتيكي: الفراغ؛ والقوّة الإيجابيّة مشتقة من الشرط الديناميكي: الزمان؛ أمّا القوّة المعادلة أخيرا فهي تضمن استمرار التوازن في الكون علي كلّ المستويات وفوق كل الدرجات.
إنّ هذه القوي الثلاث بالطبع ومن حيث أنّها قوي فعالة نشطة. وقد أُعطِيتْ لقبها بما يتفق مع الدور الذي تؤدّيه كلّ منها في عمليّة تعاونهنّ معاً لتوليد الظواهر المناسبة.
إنّ الحياة في الكون - إذا نظرنا إليها من هذه الزاوية - ليست سوي عمليّة خلق مستديمة في كلّ المستويات وكلّ درجات السلم. فإنّما يتكرّر بالنسبة لكلّ حدث كبيرا كان أم صغيرا، هامّا أم تافها، فعلّ يماثل بالقياس، - مع حفظ النسب بالطبع - (الفعل الحادث) عند الخليقة الأولي - أي خليقة الكون بأجمعه الذي عملت فيه القوي المعنيّة الثلاث بمثابة صورة مطابقة للأصل من الشروط الثلاثة التي صُمِمَتْ فيما قبل وجود الكون المخلوق.
إن المثال الكلاسيكي الذي تعطيه المدارس الباطنيّة لطلابها عن تضافر القوي الثلاث معاً هو مثال الخبز. يجب لعمل الخبز أن يتوافر لدينا دقيق ونار وماء. يعمل الدقيق في هذا المثال بمثابة الموصل للقوّة السلبية، والنار للقوّة الإيجابيّة والماء للقوّة المعادلة.
يجب أن ننبّه منذ الآن إلي أنّ الجوهر الذي يعمل في حالة ما بمثابة الموصل للقوّة السلبيّة، يستطيع في حالات أخري أن يكون موصّلا للقوة الإيجابيّة، وفي حالة ثالثة حاملا للقوّة المعادلة.

---

[1] ترجمنا كلمة fondamentale = أساسي، وكلمة fondement = أساس؛ وكلمة basique = قاعدي، وكلمة base = قاعدة.

لِنَفْحَصْ هذه المتناوبات من خلال مثل كلاسيكي آخر، ألا وهو مثل حمل (المرأة). تكون المرأة في هذه الحالة القوّة السلبيّة، والزوج القوّة الايجابيّة، والحبّ الجسدي القوّة المعادلة: فإذا توافرت هذه الشروط الثلاثة أصبح الحمل ممكنا. فإذا انتقلنا من المستوي الجسدي إلي المستوي الأخلاقي فإننا لنري الموقف ينعكس. فالمرأة هي التي تعمل في هذه الحالة - أو علي الأقل هي التي يُطّلبُ منها أن تعمل - كقوة إيجابية بواقع كونها صاحبة الإلهام، في حين أن الرجل عندما يكون التعاون علي هذا المستوي خصبا يؤدي دور القوة السلبيّة. فإنه بنفس الشكل الذي تحمل المرأة به علي المستوي الطبيعي ثمرة الحب الجسدي في داخلها طوال مدّة الحَبَل، ثمّ تلدها للعالم وتغذيها وتربّيها، وكذلك علي المستوي الأخلاقي يحبَل الرجل بالفكرة التجريدية التي ألهمته المرأة إيّاها، أو التي أخصبتْها فيه، فيطوّرها في أعماقه ليلدها في النهاية للعالم علي شكل عمل أو بصفة أعمّ علي شكل خلق ما.

يمكننا أن نثبت بواسطة العديد من الأمثلة ما للقوة السلبية من أوّليّة في الطابع. فلنتناول مثلا حالة الابتياع: إنّ السّلعة المعروضة هي التي تكون هنا القوة السلبية؛ لتعمل بعد ذلك حاجة المشتري أو رغبته بمثابة قوة إيجابيّة كما يكوّن الثمن المدفوع للسلعة القوّة المعادلة. فالعرض يعمل بصفةٍ عامّة كقوّة سلبية، والطلب كقوة ايجابية، والدفع كقوة معادلة.

أمّا عن كون القوّة السلبيّة قوّةً فعالة - أي قوة ذات طابع ايجابي في حدّ ذاتها، فإنّ المستوي السيكولوجي يشهد بذلك علي الوجه الأخصّ وبوضوح تامّ: فإنّ إغراء الأنثى مهما كانت إيجابيّته يمثل في قصّة الحبّ القوة السلبيّة.

أمَا فيما يتعلق بالقوّة الثالثة، المعادلة، فإنّها كثيرا ما تخفي علي قوّة ملاحظتنا، إما بسبب طابع نفسيتنا المزدوج القطبية، أو لأن طبيعة هذه القوّة تجعلها في عدة حالات متوارية. حيث أنّها تلعب أحيانا دور العامل المساعد وهو دور أقل وضوحا من دورها كرابط الذي هو دورها أساساً.

يميّز التقليد ما بين الحالات المختلفة التالية تبعا لتأثير القوي الثلاث من خلال المادّة:

عندما يعمل جوهر ما بمثابة الموصل للقوة السلبية يدعي أكسيجيناً (ا)؛ وعندما يعمل بمثابة الموصل للقوّة الإيجابية يدعي كربونا (ك)؛ وعندما يعمل بمثابة الموصل للقوّة المعادلة يدعي نتروجينا (الأزوت) (ن). أما إذا نظرنا لهذا الجوهر علي أنه منفصل تمام الانفصال عن أي قوّة من القُوي التي يستطيع أن يعمل بمثابة الموصّل لها، فإن هذا الجوهر يدعي حينئذ هيدروجينا (هـ).

-٣-

إذا ظلّ تضافر القوي مجدبا، ويعني ذلك من الوجهة الباطنيّة أنّ تعاونها لم يكن متكاملا، فإن الخطأ قد يكون صادراً عن إحدى القوي الثلاثة، أو عن اثنتين أو حتى عن الثلاثة معا. ولا شكّ أنّ تحليل الحالة علي ضوء القانون المعني بالكلام هنا، يسهّل إلي حدّ كبير مهمّتنا في تحديد سبب أو أسباب الفشل. فانّ الخبز المصنوع من نفس الدقيق الجيّد قد يكون مثلا سيئا أو لا يمكن أكله تماما إذا خُلِطَ بكمّية من الماء تفيض عن اللازم - أو لم يخلط بماء كاف - أو إذا كانت نار (طهيه) ضعيفة أو أقوي من اللازم.

إنّ هذه الوقائع الموضوعيّة تسمح لنا بتفهم معني ومفعول قانون آخر مساعد لقانون ثلاثة. لقد تبيّن لنا أننا - بنفس الدقيق الجيّد، وهو القوة السلبية في المثل الذي درسناه - قد مُني بالفشل نتيجة لتخاذل القوة الإيجابية (النار) أو القوة المعادلة (الماء) أو الاثنتين معا. الأمر الذي يُؤدّي بنا إلي الاستنتاج التالي: وهو أنّ فعل القوّتين الإيجابية والمعادلة يجب أن يضبط بما يتناسب مع محتوي القوّة السلبيّة التي تدخل كعنصر مستقر وقيمة ثابتة. تتضمّن القوّة السلبية في داخلها كل إمكانيات خلق الظاهرة (المطلوبة)، في حين أنّ القوّة الإيجابيّة تساهم في العمليّة بصفة المُحَقق، والقوّة المعادلة بصفة المُنظِّم للعلاقات التي تربط القوّتين الآخر يين ببعضهما وذلك بأن تحدد هي الكميّة الأقصى تناسبا من كلّ منهما. هذا هو ما يفسّر ويبرّر منح الأوّليّة للقوّة السلبيّة في عالم الظاهريات.

يجب أن نشير أيضا إلي أنّ الأوّليّة المذكورة تنبعُ كذلك من شروط الخليقة الأولي. فإنّ الألوهيّة بالفعل، لكي تنتقل من حالة اللا ـ تجلّي أي من حالتها ذات القطب الأوحد التي تظل فيها مركزة علي الوعي بالذات بمفردها، تكون الفكرة التجريديّة الأولي التي تجعلها تخرج من اللا ـ تجلي لكي تدخل في الحالة المتجليّة هي فكرة الأنتَ التجريديّة حتما لزاماً. إنّ هذه الفكرة التجريديّة التي تم تصورها بفضل التضحية الإلهية، وهي تحديد الذات (الإلهية) ـ أصبح الحب القوّة الثالثة لها أي القوة المعادلة. لقد عبّر القديس يوحنا عن ذلك كله، ولكن بكلام في متناول مدارك البشر عندما قال: لقد أحبّ الله العالم إلي درجة أن جاء بابنه الوحيد لكي لا يهلك من آمن به، بل يكون له الحياة الأبدية[٢]. إن موقف المطلق المتجلي إذن ـ كما يمكننا أن نري ذلك يتغيّر بدوره بما يتفق مع القوة السلبية ـ أي العالم ـ أو الأنت الكوني ـ الذي يعتبر مصب وموضوع رعايته وحنانه.

بذلك يصبح الوجود الإلهي منذ بدء الخليقة مزدوج القطبية كما يصبح الحب القوة المعادلة التي تضمن استمرار العلاقات بين الأنا الكوني والأنت الكوني.

يجب لأهمية ذلك أن نبحث عن أمثلة لفعل[٣] قانون ثلاثة، وأن نعثر عليها. ليس من أجل أن نقتنع بفاعليته فحسب بل من أجل أن نسرع في عملية إعادة تربية عقلياتنا علي قواعد باطنيّة.

من المعلوم أنّ بنيان المركز العقلي بنيان مزدوج القطبية. وهو يتكيّف تكيفا كاملا مع بنيان ما يسميه التقليد الأرثوذكسي "بالعالم". يَتَكَوَنُ هذا "العالم" من مجموع المؤثرات "ا" التي سبق أن تكلمنا عنها أعلاه (الفصل السادس القسم ٧). هذا هو العالم الذي نعيش فيه، والذي يبدو بالنسبة للشخصيّة البشريّة وكأنه الوحيد الحقيقي، وإن كان في الواقع نسبيّا أو بالأحرى وهميّا. لقد سبق أن فحصنا الشكل التخطيطي الخاص بالمؤثرات "ا" و"ب" (شكل ٢٠) حيث يوجد كما سبق أن قلنا، لكلّ سهم من الأسهم "ا" سهم مضاد ويعادله. وهو ما يرمز إلي خلق العالم ابتداء من الصفر الذي ينقسم إلي مجموعتين من القوي تتساويان في القوّة وتتعارضان علي طول الخط في الاتجاه.

وبما أن بنيان عقليتنا مزدوج القطبية فهو يتفق تماماً مع بنيان[٤] "العالم"، فهو يسمح للإنسان بدراسة كل المؤثرات "ا" والتعرف عليها، وبتحديد الاتجاه المناسب داخل مجال فاعليتها المباشرة والبعيدة، كما يسمح له أيضا باستخدام مؤهلاته في داخل نفس المجال للبحث والحسابّ وعمل التركيبات (الملائمة)، وللتدخل والتصرف (الفعلي) أو حتى للخلق في حدود مجال فاعلية هذه المؤثرات.

إلا أننا نعلم أنّ هذا "العالم" في الواقع وهمي؛ وأنّ المؤثرات "ب" تمثّل في الحياة الحقيقة الوحيدة التي لا تزول ولا تفني. ألم يقل يسوع: لا تكدسوا لكم كنوزا في الأرض حيث ينخر الصدأ والدود، وحيث يقوّض اللصوص الجدران ويختلسون. بل كدّسوا لأنفسكم كنوزا في السماء حيث لا تنخر العثة ولا الصدأ، وحيث لا يقوّض اللصوص الجدران ولا يختلسون[٥].

ولنتحقق جيداً أن الأمر هنا يتعلق بعالمين يتداخلان معا: العالم الذي يتكون من مجموع المؤثرات "ا" أي "الأرض" والعالم الباطني أي "السماء" التي تشكلها المؤثرات "ب".

إن علي الباحث في أثناء دراسته بدقة وتركيز لتضافر القوي الثلاث، وبفضل هذه الدراسة أن يتدرب علي التعرف على فعل المؤثرات "ا" و "ب" وعلي أن يميز بينهما. فإن في ذلك واحداً من العناصر الأساسية لعملية إعادة التربية التي تكلمنا عنها أعلاه.

---

[٢] يوحنا ٣: ١٦.

[٣] ترجمنا كلمة action بكلمة "فعل" أو كلمة "عمل" حسب الإطار ونادرا "تأثير"؛ وكلمة effet بكلمة "مفعول".

[٤] ترجمنا كلمة Structure بكلمة "بنيان" أو "بنية" أحيانا؛ وكلمة Constitution بكلمة "تكوين، يتكون، الخ".

[٥] متى، ٦: ١٩ ـ ٢٠.

-٤-

إلا أنه يجب علينا أن نحذر من جعل تمييزنا ما بين المؤثرات "ا" و"ب" تفسيراً يعوزه الإرهاف والدقة. تعمل المؤثرات "ا" بمقتضي القانون العامّ - أي بما يتفق مع الإرادة الإلهية، ولقد سبق أن عرفنا أحد أسباب وجودها ألا وهو خدمة مصلحة المجموع. يجب ألا ننسي أبدا أنّ كلّ شيء نسبي. وهو ما يوجب علي دارس العلم الباطني ألاّ يتصدى بسذاجة لمهاجمة المؤثرات "ا"، فإن فعل حلّتْ به الكوارث بكل تأكيد. وهو ما حدث بالفعل في تجربة دون كيشوت المليئة بالدروس، والّتي طالما أُسئ فهمها. إنّ المؤثرات "ا" تلعب دورا إيجابيّا في اقتصاد الكون. وهي تتصدي بقوة ساحقة لكل من يريد أن يهاجمها وجها لوجه في مجموعها. إن مهمّة الباحث مختلفة. فلا يجب عليه في أثناء مواصلة دراساته الباطنيّة أن يحاول أن يقضي تماما علي المؤثرات "ا" وأن يقتطع لنفسه مساراً بينها بفضل أعماله البطوليّة. بل يجب عليه أن يفلت من قبْضتها.

هناك أيضا أمر هامّ علينا أن نفهمه، وهو أنّنا لا نستطيع أن نصل إلي الهدف بقوانا الخاصّة فقط لا غير. لن نُنْتشَلَ من سلطان المؤثرات "ا" الذي يحكمه القانون العامّ بمساعدة قانون العَرَض إلا بامتصاص المؤثرات "ب" وهي مؤثرات إلهيّة ذات مستوي رفيع، وبالتالي أقوي تأثيرا (من المؤثرات "ا") وإذا وضعنا فيها كلّ ثقتنا، ونجحنا في نفس الوقت أن نثبت كفاءتنا وتفانينا في الإخلاص.

إن من توجت جهوده بالنجاح فارتقي إلي مستويات أرفع من الكينونة، يستخدم لتوّه ليشارك في تكوين (وتربية) درجة تحدد له من قوي الفلك السفلية.

فتوكل إليه عامة مهمة إتمام عمل يقع داخل مجال المؤثرات "ا". إلا أن مثل هذا العمل يستلزم قبل كل شيء دراسة العالم المزدوج القطبيّة. وعقلنا هو الأداة الوحيدة التي سنستخدمها في هذا الغرض. بل إن في ذلك السبب الحقيقي لإيجاد العقل وسبب بنيانه بتلك الكيفية التي تعكس بالضبط عالم المؤثرات "ا". أي انه الآلة التي تمكّن الإنسان إذن - تبعا لمبدأ أفلاطون - من أن يعرف المثل بالمثل.

يجب علي طالب العلم الباطني، وقد علم بذلك كلّه أن يتجَنّب إذن التطرّفات التي تقع فيها بعض التعاليم؛ يجب ألا يحتقر أو يهمل مَلَكَاته[٦] العقليّة. يجب أن يُطوّر الطاقة العقليّة وأن يَسِنَ حدّها إلي أقصي درجة ممكنة، كما يجب أن يصبح الفكر دقيقا نفاذا كسنّ الإبرة. ولكنّنا لا يجب أن ننسي أنّ الشخصيّة بالرغم من بنيتها المعقدة ومن مؤهلاتها المتعدّدة، ليست سوي آلة تظلّ تأديتها لوظائفها ميكانيكيّة محضة. فهي فيما يختص بالأمور الباطنيّة لا تعرف ولن تعرف أبدا أي شيء معرفة يقينية. بل هي لكونها لا - أدريّة (أي لا تدري شيئا عن الحقائق الجوهريّة وماهيّات الأشياء) لتعلقها بالمظهريّات بحكم طبيعتها، تظلّ مقيّدة من جرّاء تكوينها وتأديتها لوظيفتها المنحصرين في الأبعاد الثلاثة التي تعجز[٧] الشخصيّة تماما عن تعدّي حدودها. وهو ما يجعلها تعتبر بكل صدق أن عالم المؤثرات "ا" هو العالم الحقيقي الأوحد.

-٥-

إنّ معرفة قانون ثلاثة يسمح لنا بإدراك مدي تعقيد بنيان شعاع الخليقة (الشكل ٢٩).

---

[٦] ترجمنا كلمة facultés بكلمة مَلَكَات.

[٧] سبق أن سمّينا ذلك العجز "باللا أدرية" وتبسطنا في تعريف هذه الكلمة. ولم نحجم - نظرا لأهمّية الموضوع القصوى - عن إضافة المزيد من المعلومات عنه هنا.

يتخذ المطلق عند البداية - أول مظهر (من مظاهر) التجلي. هو واحد، والقوي الثلاثة تكمن متحدة بداخله. هذا هو المذهب التقليدي عن الثالوث القدّوس المتّحد الجوهر والذي لا ينقسم. يطلق علي الثالوث بصيغة الاستحضار، إذا نظر إليه من أسفل إلي أعلي، اسم القمّة والحد العلوي الذي يتوّج الكون عندما نتصوره علي شكل هرم.

إنّ قوي المطلق الثلاث - وأقانيم الثالوث الثلاثة المزوّدين كلّ بإرادة مستقلّة، وإن كانوا معتمدين علي بعضهم البعض - يخلقون الكون المظهري وكلّ ما يحتوي عليه. تخلق هذه القوي العوالم علي أول درجة من درجات سلم الكون. إنّ هذه العوالم التي لم يعد وجودها متّحد الجوهر بما أنها منفصلة، تعتمد اعتمادا مباشرا وتامًا علي إرادة المطلق، كما تحفظ هذه العوالم قوي المطلق الثلاث ولكن في حالة تفكك.

تظلّ هذه العوالم التي خلقتها القوى الثلاث وهي متفرّقة - تظل مشبّعة بالثلاث قوي وهي في حالة اتحاد الجوهر الخاصّة بالمطلق في حالته المتجليّة.

تسير الخليقة علي نفس المنوال وهي في طريق تطويرها لشعاع الخليقة من أعلي لأسفل. إذ أنّ كل عالم تخلقه القوي الثلاث الخاصة به في نفس الوقت الذي يكون فيه تحت سلطان القوي التي تحكم الدرجات السابقة التي نبع هو منها.

تمثل كل قوّة من هذه القوي الخلاقة مجموعة من القوانين في نفس الرتبة هي التي تجعل عالم الدرجة المعنية يؤدي وظيفته، وتشرط (وجوده). ممّا يسمح لنا بتكملة الشكل التخطيطي "٢٨" بإضافة سلم (مدرّج) له يمثل عدد مجموعات القوانين المقومة علي طول امتداد شعاع الخليقة.

المطلق	1
كل العوالم	3
المجرة اللبنية	6=3+3
الشمس	12 = 6 + 3 + 3
عالم الكواكب	24 = 12 + 6 + 3 + 3
الأرض	48 = 24 + 12 + 6 + 3 + 3
القمر	96 = 48 + 24 + 12 + 6 + 3 + 3

- شكل 30 -

إنّ تدرّج هذه القوانين هو تدرّج في الكفاءة والمقدرة.

فإن إرادة المطلق تنفذ إلي كلّ الأشياء وكلّ الكائنات في الكون حتى أكثر الكائنات الحيّة بدائيّة، كما تنفذ بعد ذلك إلي أشد المواد خمولاً يشار إليها في التقليد بلفظة الحجر: ويتمّ ذلك علي كلّ درجات (السلم) درجة درجة حتى قشرة الخليقة.

-٦-

ما هو إذنْ مدلول أرقام الشكل التخطيطي السابق؟ إنّها تمثّل شروط أو قوي الخليقة؛ بما معناه القوانين، وبصفة أدقّ فئات القوانين التي تخضعُ كلّ درجة من درجات شعاع الخليقة لها. أمّا الوحدة فهي للمطلق فقط، فانّ العدد ١ لا يقبل القسمة وان كان يحمل في ذاته ثلاثيّة متحدة الجوهر، كما أنّه يدلّ علي حريّة الله. إلا أن كلّ ما ينبثق منه يفقد بالتدريج حريته - أي أنه يجد نفسه خاضعا لعدد آخذ في الازدياد من القوانين أو من فئات القوانين. فإذا أخذ كائن ما في السير عبر شعاع الخليقة متجها من المطلق إلي القمر فإنه سوف يجد أنه يزداد بالتدريج تكبلا بالقيود؛ إننا علي الأرض مقيدون بـ ٤٨ مجموعة من القوانين، وهو عدد هائل في حدّ ذاته. لكن يجب، بالنسبة للإنسان الخارجي أن نضيف إلي الـ ٤٨ مجموعة من القوانين التّي توالي الأرض حياتها (وجودها) تحت لوائها، القوانين المتعلقة بالحياة العضويّة علي الأرض وقوانين أخري تنتج عن وجود المجتمع البشري بشتى أعضائه وخلاياه: من أجناس وطبقات وعائلات، الخ. إننا نعيش إذن داخل "أدغال" من القوانين، وهذا هو السبب الذي من جرائه وبالرغم من بعض الانطلاقات، تصطدم حياتنا بأنواع متعدّدة من العوائق. إنّ الخلاص إذن هو بصفة خاصّة التحرّر التدريجي من الخضوع لهذا العدد المعتبر من القوانين. فإن لم يكن محتماً علينا في كلّ حالة من الحالات أن نزيل بالقوة هذه العوائق، فإنّه يجب علي الأقلّ أن نتجنّبها باللفّ حولها. لذلك يقول العلم الباطني: لن نستطيع أن نقاتل القوانين التي تقيّدنا بأن نهاجمها واحداً تلو الآخر؛ فإننا بهذه الوسيلة لن نحقق شيئا أبدا. فقد يلزمنا أكثر من ألف حياة متتالية لنصل إلي النتيجة المنشودة بهذه الطريقة. لذا يجب تجنب وضع الأمور هذا في مجموعه؛ وبذلك قد تسنح لنا فرصة. ما هي هذه الفرصة؟ سوف نري ذلك في الفصول التالية.

-٧-

لا يعدو تدرّج القوانين أن يكون تدرجًا لقدرة (من يتقيّد بتلك القوانين)، فإننا كلما ازدادت قيودنا كلما ضعفت قدرتنا. إلا أنه يجب علينا في تلك الأثناء أن نغير مفهومنا لكلمة القدرة. إن القدرة في العلم الباطني تعني الحريّة.

إننا في كل مرّة نلتزم فيها بالتزامات في الحياة نكون قد أخضعنا أنفسنا بمحض إرادتنا لمجموعة جديدة من القوانين التي تحكم المجال الذي التزمنا فيه بالتزام جديد. وقد لا نولي الأمر بالاً خاصّة في فترة الشباب. لذلك يمكننا أن نقول إن الإنسان يمضي النصف الأول من حياته في "قبول كمبيالات مستحقة الدفع" والنصف الثاني من وجوده في التساؤل عن كيفية مواجهته لما التزم به.

-٨-

إنّ القوّة الخلاقة الأولي وهي القوّة المعادلة التي تربط الـ أنت الكوني بالـ أنا المطلق هي الحبّ. ترتدي قوّة الحبّ هذه مظهرا جديدا علي كلّ درجة من درجات الخليقة، وإن ظلت في ماهيّتها كما هي، فتتخلل الكون كله من أعلاه إلي أسفله وبالعكس.

لقد قال القدّيس يوحنّا بوضوح: إنّ الله حبّ[٨]. نستطيع أيضا أن نعكس الكلام فنقول: إنّ الحبّ (هو) الله[٩]. إنّ الحبّ - وهو أقنوم الهي - يتجلى في الكون كقوّة الانبعاث الجديد والتجدد المستديم.

---

[٨] الرسالة الأولى ليوحنا، ٤: ٨. (لم نستخدم كلمة المحبّة بل الحبّ للأسباب السابق ذكرها؛ المعرّب)

[٩] نفس المصدر.

-٩-

إنَ حياة الكون قد أقيمت حسب نظام صارم وكامل. فإنّ كل ما يتهيأ لنا أنه خلل نظام أو فوضي يبدو لنا بهذه الكيفية من جرّاء نقص إدراكنا وحكمنا (علي الأشياء). ذلك حيث أن غالبيّة المؤثرات "ب" يعوزنا (إدراكها). في حين أن أي كائن وأية ظاهرة لها في اقتصاد الكون الأكبر محلّها (المعلوم) وهما يساهمان إنْ وَعَيَا ذلك أم لمّ يعياه في بلوغ هدف معيّن.

تلك هي المظاهر الأصلية للقانون الإلهي الأول وهو قانون ثلاثة.

الفصل العاشر

الكون المخلوق وتأديته لوظيفته: ثاني القوانين الأساسيّة للكون المخلوق، قانون سبعة أو قانون الطبقة الثمانيّة - مبدأ التوازن - مشكلة المادة والطاقة.

-١-

لقد أكدنا أن قانون ثلاثة يعكس الشروط الأساسيّة الثلاثة للخليقة: وهي الشرط الاستاتيكي والديناميكي وشرط التوازن داخل العالم الذي خلق باشتراك القوى الثلاث. لن نستطيع، بالرغم من التكرار، أن نوفي هذا القانون الهامّ حقّ قدره، فإنّ كلّ ما يوجد داخل الكون، بالفعل أو بالقوّة، يوجد بفضل الفعل المشترك لهذه القوى الثلاث.

سوف نقوم الآن بدراسة القانون الأساسي الثاني: قانون سبعة. لا ينطبق ذلك القانون علي خلق أو علي وجود الأشياء والظواهر في المكان بل ينطبق علي ارتقائها في الزمان. فهو يخص فعل كل أصناف الحركات، علي كلّ المستويات وعلي كلّ درجات سلم الخليقة.

يجب من أجل أن نحسن فهم قانون سبعة، ومن أجل أن نلمس (كل) أهميّته، أن نفحص جانبا آخر للمشكلة. لقد سبق أن رأينا أنّ الفرصة الوحيدة (للخلاص) بالنسبة للإنسان الذي يعيش في أدغال من القوانين هي أن يضع نفسه تحت سلطة قانون الاستثناء، وهو قانون باطني يسمح بالهروب من مجموع المؤثرات "ا" التي يؤثر فعلها في العالم الخارجي ثمّ يرتد ليؤثر في عالمنا الداخلي. بيد أنّ هذا الهروب يخضع أيضا، بوصفه فعل، تحت سلطان قانون سبعة.

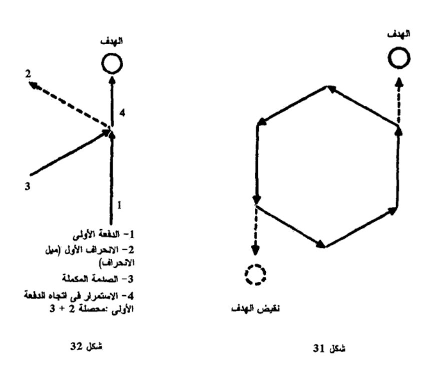
يتعرّض أي فعل تبعا لهذا القانون، كما سوف نري ذلك حالا، لانحراف أو لعدّة انحرافات (في مساره نحو هدفه) - ممّا يجعل هذا الفعل بالتالي محكوما عليه من ذي قبل بالفشل. ومع ذلك في أثناء تحليلنا لفعل (تأثير) قانون سبعة، سوف نلمس طابع هذه الانحرافات، وحتميّة حدوثها من وجهة نظر موضوعيّة، كما أننا سوف نتعلّم كيف يمكننا أن نناضل تلك الانحرافات ومتابعة (تحقيق) الهدف المنشود في اتجاه ثابت.

-٢-

تنبع طبيعة قانون سبعة وحتميته الموضوعية من طابع الزمن الهدّام، والزمن هو ثاني شروط الخليقة. وبمقتضي هذا المبدأ، فإنّ كلّ ما يولد وكلّ ما يخلق - بما في ذلك الإنسان - مصيره الانعدام. وبالتالي فإن الكون هو أيضا مهدّد منذ أن خلق بالانعدام بفعل الزمان. ممّا استلزم مواجهة هذا الخطر منذ البداية. يمثّل قانون سبعة الوسيلة التي يُعادل بها فعل الزمن الهدّام بقدر معيّن.

لا يمكن فصل أي حركة عن مدّتها (مدّة استمرارها). بيد أنّ كلّ فعل هو حركة خارجيّة أو داخليّة، وهو بالتالي داخل في حكم الزمان. إلا أن قانون سبعة يتكون بصفة محددة من التالي: أي حركة تتعرض بدايتها في لحظة معيّنة لانحراف (في المسار عن الاتجاه الذي بدأت به) حتى إذا ما قطعت شوطا في اتجاهها الجديد، أصابها انحراف جديد، وهلمّ جرًا. فإذا كانت دَفعة المبادرة ذات قوّة كافية، تعود الحركة في آخر انحراف لها إلى نقطة بدايتها بعد أن تكون قد رسمت بسيرها شكلا سداسيًا. وبذلك، وتحت تأثير قانون سبعة، فإنّ كلّ فعل يبدأ في الكون يتمم مساره علي شكل دورات (شكل ٣١).

إنّ قانون سبعة قانون اصطناعي، في حين أنّ قانون ثلاثة قانون طبيعي. وهو إن كان لا يعادل فعل الزمان الهدّام تعادلا كاملا، فهو علي الأقلّ يلطف منه بإخضاعه كلّ فعل أو حركة لتقوسّات متتالية لحبسها في (شكل) دورات. فيصير الزمان نفسه في المحلّ الأوّل مقوّسا ومنحرفا عن (السير في) الخطّ المستقيم، كما أنه أيضا يحبس في دورة كبري تحتوي في داخلها علي كلّ الدورات[1] التابعة. لا يتم الانعدام الذي (يفرضه) قانون سبعة في مجرى الدورة الأولي، أو في مجري الدورات التالية، إلا عندما تستنفذ قوّة دَفعهِ المبادرة. ولكنّ هذا القانون يسمح ببعثّ الحياة من جديد في الحركة - بعد ما فقدته من طاقة - ومن سرعة -وذلك بتغذيتها بدفعات مكمّلة في الفترات الزمنيّة الملائمة، وعند النقاط الملائمة (شكل ٣٢).



شكل 31

شكل 32

تُصوّرُ الدورة الكبرى التي تحصر الزمان ابتداء من الدَفعة الأولي للتجلي الإلهي حتى التحقيق التامّ (الإتمام) بما معناه حتى نهاية العالم - علي شكل الأبديّة في التقليد. فالأبديّة إذن - كما سبق أن بيّنّا ذلك - ليست غير متناهية. بل هي محدودة ككل ما هو مخلوق. إنّها تحيط بالتجلي كله، وتتضمّن في داخلها إتمام تحقيق كلّ الإمكانيات وكلّ الوعود.

إنّ تقوّس الزمان الناتج عن قانون سبعة يجعله هو نفسه يعود إذن إلى نقطة البداية، بعد أن يكون قد أحاط بشكل الأبديّة المتعدّد الأضلاع. وبذلك فإنّ الأبديّة تكون من هذه الزاوية إذن ذات مدّة استمرار تقدّر بـ: ٢ × ١٠ مرفوعة إلى أسّ ١٥ من السنين الأرضيّة - كما سنري ذلك فيما بعد. إنّ الاعتبارات السابقة عن تقوّس الزمان وتقوّس كلّ حركة مهما كانت، بما في ذلك كلّ فعل طبيعي أو نفسي أو أخلاقي مهما اختلفت طبيعته، تسمح لنا (بتحديد) تعريف قانون سبعة:

التعريف: كلّ حركة يُشرع بها في اتجاه معيّن تصاب في لحظة معيّنة بانحراف (عن اتجاه سيرها).

[1] الدورات: دوائر مفتوحة كما في الحلزون.

وبالعكس: لكي تواصل أي حركة سيرها نحو هدفها المعين بدون انحراف عن الاتجاه المعين، يلزم تغذيتها بدفعات مكملة وسائغة في أوقات محدّدة وعند نقاط محدّدة.
لازمة: إنّ أي حركة تسير في اتجاه محدّد، إذا تركت لنفسها تبدأ السير عند ثالث انحراف لها - في اتجاه عكسي تماما لاتجاهها الأول.
هذه هي أهم المميّزات الأصليّة لقانون سبعة.

-٣-

إنّ لازمة قانون سبعة التي ذكرناها يوجد لها في كلّ لحظة مجالُ تطبيقي في نطاق النشاط البشري علي المستوي الأخلاقي. فما أغزر الدماء التي أهرقت باسم ابن الله الذي بشّر بالحبّ؟ كم من أعمال وحشيّة ومن عنف وتجبّر قد تمّ علي يد ثورات قامت باسم الحريّة والإخاء؟ إننا نستطيع أن نعدّد هذه الأمثلة إلى ما لا نهاية.
إلا أنّ هذه الانحرافات تكاد تخفي علينا لتوّها بصفة دائمة. فنظلّ نتخيّل أننا لازلنا نسير في نفس الاتجاه، في حين أننا قد أخذنا نحيد عنه بصيغة لا تكاد تلمس إلى أن أصبحنا نسير في عكس الاتجاه الذي بدأنا به، بدون أن ندرك حقيقة ما حدث. وعندئذ يتقبّل الفعل الذي بدأنا بتنفيذه علي المستوي الأخلاقي دَفعة جديدة تحدث آليّا، لأنها تنبع من ردّ فعل الوسط المحيط لدَفعة البداية. وكلما كانت الأخيرة شديدة و"تقدّميّة جريئة" أو "ثوريّة" كلما كان ردّ الفعل بالطبع - وتبعا لمبدأ التوازن - قويّا. الأمر الذي يجعل الحركة في الاتجاه العكسي التي تسمّي في اللغة العاديّة بردّ الفعل تتّسع اتّساعا غير متوقع كما أنها تجعل القائمين بالفعل في بادئ الأمر يتقهقرون أحيانا إلى خلف نقطة البداية بكثير. هذا هو ما يكاد يحدث في كلّ الحالات بالنسبة للمذاهب السياسيّة.
يجب علي الدَفعة الثانية بتقويتها للنجاح الأول، أن تسمح باستغلال هذا النجاح. يقدّم لنا التاريخ أمثلة عديدة تثبت حتمية (حدوث) هذه الدَفعة الثانية: التي تسبّب نقصها بعد كسب معارك عدّة في ضياع الحرب نفسها في غالبية الأحوال.
يجب أن ننبه أيضا إلى تأثير آخر لهذا القانون. لقد رأينا أعلاه أننا يجب أن ننحرف انحرافين متتاليين لنصل إلى الاتجاه العكسي لاتجاه البداية. وهو ما يعني أنه يتحتّم علينا أن نعمل حساب دَفعتين مكملَتين متتاليتين للمحافظة علي اتّجاه البداية للحركة ولضمان نجاح العملية.

-٤-

يجب علينا من أجل أن نخطو خطوة للأمام في دراستنا لقانون سبعة، ومن أجل أن نفهم سبب تسميته بهذا الاسم، أن نلقي نظرة علي العلاقات الموجودة بين المادّة وبين الطاقة، وعلي طبيعة الحركات الدوريّة التي تميّز كلاّ منهما.
لقد حدّد العلم الوضعي المعاصر العلاقات الدقيقة الموجودة بين المادّة والطاقة، وهو أمر كان معروفا لدي العلم الباطني منذ غابر الأزمنة. لم يعد اليوم في حكم التهوّر أن نجزم بأنّ المادّة ليست إلا شكلا جامداً (استاتيكيا)، إذا جاز ذلك القول، للطاقة التي تتصف طبيعتها خاصّة بالحركة (الديناميكيّة). هناك بعض الظواهر المعروفة علي الدوام كانت تسمح منذ أن عرفت، بإدراك هذه المعلومة: وهي البرق الكروي، أو الصاعقة المتكوّرة مثلا التي لها بعض الخصائص المميّزة للمادّة كالحجم واللون. ولكنّ درجة تقدّم المعارف في القرن الماضي لم تكن تسمح بالشروع في دراسة مفيدة لتلك الظاهرة التي كادت لا تلحظ نسبيّا، وذلك لندرتها. لقد أدّت تقدّمات العلم الوضعي الحديثة إلى إعادة اكتشاف المعلومات التقليديّة القديمة اكتشافا جزئيّا إن لم يكن متكاملا، وذلك في مجال علاقات

المادّة - بالطاقة علي الوجه الأخصّ. يعتبر العلم الباطني التقليدي أنّ تجلي (ظهور) أي (نوع كان من) الطاقة يتمّ في شكل حركة دوريّة تذبذبيّة. كما أنّه يعلّم أنّ المادّة من حيث أنّها مادّة، تتركّب من عدد محدود نسبيّا من النوى المتباينة كيفيّا، وان كانت طبيعتها تماثل بالقياس طبيعة البرق الكروي. تتحرك هذه النوى بحركات دوريّة تذبذبيّة تختلف ما بينها في التردّد وفي السعة. يدخل التقليد هاهنا (في هذا الصدد مفهوما جديدا هو) مفهوم الكثافة الذي ينطبق علي الطاقة كما ينطبق علي المادّة تبعا له. وأخيرا فإنّه يحدّد القانون الذي تكون تبعا له كثافة المادّة وكثافة التذبذبات في علاقة تناسب عكسي.

إنّ كميّة النوى - تبعا للتعليم التقليدي أيضا - وهي المادّة بمعني الكلمة، كميّة ضئيلة جدّا. والحجم الذي يشغله جسم ما يُشغل بواسطة ما يُطلق عليه اسم آثار الحركات الفائقة السرعة التي تعتري عددا محدودا من النوى. فكلّ شيء يعتمد علي كثافة هذه الحركات، وعلي سرعتها. كلّما كانت التذبذبات ثقيلة وبطيئة كلّما ازداد عدد النوى اللازم لبنيان المادّة. والعكس بالعكس. إنّنا نعلم جميعا أنّ سرعة الحركة تستطيع أن تغير الخواصّ الطبيعيّة للمادّة. فإنّنا إذا وضعنا مثلا ورقة خفيفة بين حاقتي محور، وأدرنا هذه الورقة بسرعة خمسة إلى ستّة آلاف لفة في الدقيقة، فإنها تصبح قادرة علي نشر قطعة خشب. أضف إلى ذلك أنّ قطعة الورق تبدو عند التردّد المذكور وكأنها أسطوانة في حين أنّها في الواقع شكل مستطيل الأضلاع. فإذا فاقت سرعة الدوران بكثير ما سبق أن ذكرنا، تكتسب هذه الاسطوانة بالنسبة لأحاسيسنا (ما دامت تلف) خصائص الأجسام الصلبة الساكنة. ويمكننا عندئذ أن نلمس قطعة الورق هذه بدون أن نخشى من نشر أيدينا.

وبالتالي فإنّ كيفية بنيان المادّة يكون علي ضوء تلك النظريّة مماثلا بالقياس لبنيان الكون إذا "روقب" من الداخل بما به من دوران المجموعات النجميّة. سبق أن تكلمنا عن هذا الموضوع فقلنا (راجع الفصل الثامن: القسم الثاني: ٢) أننا لو كنا نستطيع أن نراقب جسدنا من الداخل - بأن نتضاءل إلى حجم كائن غير متناه في الصغر - كما نراقب (عادة) جسد الكون (من الداخل) لما وجدنا فرقا بين الجسدين. ذلك أنّ كيفية بنيان الكون موحّدة علي كلّ الدرجات، إذا روعي تطبيق مبدأ النسبيّة.

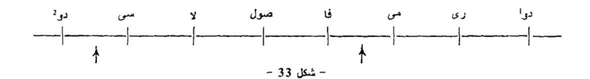
-٥-

ينظر التقليد لأي حركة علي أنّها زيادة أو نقصان في التذبذبات من نفس الرتبة. كما أنّه يرفض فكرة الجمود، نظرا لأنّ كلّ ما يوجد يوجد بفضل الحركة، ويستمرّ في حالة من الحركة المستديمة. فإنّ الجسم الواحد يستطيع أن يؤدّي - وهو عامّة يؤدّي عدّة حركات في نفس الوقت. إنّ كوكبنا بالتالي - أي الأرض يتحرّك بعدد كبير من الحركات تعتبر اثنتا عشرة حركة منها هي الرئيسية. أمّا بالنسبة للقمر التابع لنا، فقد أحصيت له حوالي مئة حركة. ويمكننا في كثير من الأحيان علي المستوي النفسي أو حتى علي المستوي الفسيولوجي أن نرقب مركّبات متضادّة خاصّة بمجموع واحد من الحركات يكون جزء واحد منه في تقدّم في حين أنّ الجزء الآخر يكون في تأخّر؛ إلا أنّه لا يوجد شيء يكون جامداً ثابتا (متوقفا) بمعني الكلمة. فإنّ الثبات (الجمود) من وجهة النظر الباطنيّة شيء لا يمكن أن يُتَعقّل؛ إنّه من صنع الخيال. فلا يتقبّل فيها إلا (جمود) ثبات واحد وهو الثبات علي الحركة: وهي ظاهرة لها الصدارة في الأهميّة. فإنّها هي التي سمحت بخلق المادّة علي ما نعرفها به في أشكالها الثلاثة.

-٦-

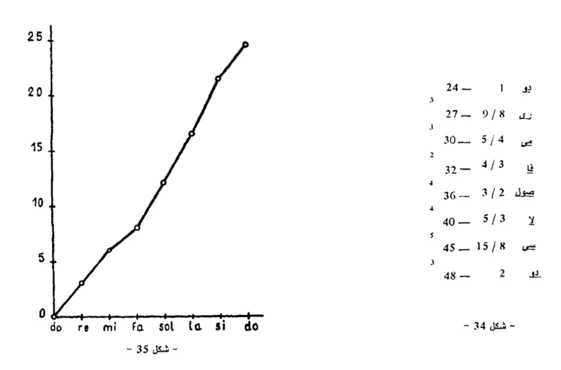
ولنتبّع الآن فعل قانون سبعة (تأثيره) في حالة حركة تزداد فيها التذبذبات. إن الانحرافات المتتالية التي تكلمنا عنها في بداية هذا الفصل، تخلق في هذا المثال عدم استمرارية (في الحركة) تؤثر على انتقال هذه الحركة في حين أنه قد يبدو لنا بل ويبدو لنا (بالفعل) أن الحركة تتقدم بلا انقطاع. ولنفحص في هذا الصدد الطبقة الثمانية الموسيقية التي يعكس بنيانها قانون سبعة بصفة كاملة.

إن ما يقصد بالطبقة الثمانية هو مضاعفة عدد التذبذبات. يتضمن المقام الموسيقي المحصور بين طرفي الطبقة الثمانية سبع نغمات وخمسة أنصاف نغمات (أنصاف تون). أما نصفا النغمة الناقصان فإنهما يوضعان كما يتضح ذلك من وضع سهمي الشكل التخطيطي التالي:



- شكل 33 -

يقع السهم الأول بين نغمتي مي و فا، والآخر بين نغمتي سي و دو[٢]. ولننظر الآن لطابع (ميزة) (تقدم) ازدياد التذبذبات الذي يتم - كما كنا نقول - بصيغة غير استمرارية. تبين لنا الأشكال التخطيطية التالية غير الاستمرارية هذه معبراً عنها من الجهة الأولى بواسطة كسور أعداد وأعداد صحيحة، ومن الجهة الأخرى برسم لمنحني غير الاستمرارية الخاصة بطبقة ثمانية موسيقية.



- شكل 35 -

- شكل 34 -

-٧-

لقد سبق أن قلنا أن كل ما يوجد من ظواهر يوجد في الزمان فتكون (هذه الظواهر) بالتبعية حركة. كما أن كل حركة - والحركة دالة للزمان - تقع تحت سلطان قانون سبعة كما أن الزمان نفسه يقع

تحت سلطان قانون سبعة مع الظواهر، أي بعبارة أخري تحت سلطان قانون الطبقة الثمانية وقانون سبعة. يسير تطور فعل المطلق خالق الكون الذي يضمن قانون ثلاثة الوجود له علي كل الدرجات، يسير تطور هذا الفعل أيضا داخل الزمان، وبالتالي تبعاً لقانون سبعة.

إن شعاع الخليقة إذ يسير في تقدمه من المطلق نحو أقمار الكواكب - أي حتى القمر في حالتنا - يتتبع حتمية (لزاما) إيقاع الطبقة الثمانية التي يطلق عليها في التقليد اسم الطبقة الثمانية الكبري، أو الطبقة الثمانية الفلكية، وهي طبقة تنازلية.



شكل 36

-٨-

إنّ التعليم الباطني وقد كان آنفا وقفا علي أهل العرفان وحدهم - لم يعرف في الشرق فحسب بل في الغرب أيضا. وهو ما يُري بكلّ وضوح عندما نحلل أسماء نغمات المقام الموسيقي الذي كان أقامه - كما نعرف جميعا - جيدو دارزّو الراهب البندكتي (حوالي ٩٩٥ إلى ١٠٥٠ ميلاديّة). ولقد استخدم جيدو دارزّو لإقامة المقام الموسيقي الترنيمة التي كان قد ألفها منذ مائتي سنة قبله بول دياكر وارنفريد المؤرخ اللومباردي (٧٤٠ إلى ٨٠١ ميلاديّة)، والترنيمة موجّهة للقدّيس يوحنّا المعمدان. كان بول دياكر وارنفريد في أول الأمر سكرتيرا للملك اللومباردي ديدييه، ثمّ عاش بعد ذلك في بلاط الإمبراطور شارلمان، وبعدها في بلاط بينيفان إلى أن لجأ في آخر حياته إلى دير جبل كاسين حيث أنهي أيّامه في عزلة.

وهاك تصميم الترنيمة الموجّهة للقدّيس يوحنّا المعمدان:

(أوردناها باللاتينيّة لكي يري القارئ أنّ الحرفين الأوّلين أو الثلاثة من كلّ من أبيات الشعر اللاتينيّة هي أسماء النغمات المستخدمة حتى الآن: دو، ري، مي، فا، الخ.)

UT queant laxis
*RE*sonare fibris
*Mi*ra gestorum
*FA*muli tuorum
*SOL*ve polluti
*LA*bii reatum
*S*ancte *J*ohannes

وترجمتها للعربيّة من الفرنسيّة كما أوردها المؤلف في ملاحظاته
المدونة بأسفل الصفحة جاءت على النحو التالي:
لكي يستطيع المخلصون لك
وبكلّ أوتار (نفوسهم)
أن يتغنّوا بروائع حياتك
طهّر شفاهنا
المدنّسة (بالخطيئة)
يا قدّيس يوحنّا.

يمكننا أن نري أنّ بول دياكر قد ألفّ هذه الترنيمة في صيغة مطلسمة. وهي وسيلة كان لها دائما في التعليم الباطني مكانة مرموقة. فإنّ الفحص المقارن للشكل التخطيطي الخاصّ بالطبقة الثمانيّة الكبري ولترنيمة بول دياكر لا يترك مجالا للشكّ في أنّ بول دياكر كان علي تمام العلم بهذا الشكل التخطيطي. وكذلك جيدو دارزّو الذي جاء بعد بول دياكر بمائتي عام ليختار من بين ترانيمه العديدة هذه الترنيمة بالذات لاستخدامها في المقام الموسيقي.

بل إنّنا قد نستطيع أن نفسّر أيضا سبب استخدام بول دياكر للمقطع "يو تي" (*UT*) لتسمية النغمة الأولي به بدلا من استخدام المقطع دو (*DO*). فإنّنا لنلاحظ أنه صمّم ترنيمته علي أساس أن تكونُ مقاما تصاعديّا، في حين أنّ الطبقة الثمانيّة الكبري تمثّل بالطبع مقاما تنازليّا. فإنّ هذا الترتيل يصعد بحكم معني مضمونه من أسفل إلى أعلي، ومن الغليظ إلى الدّقيق أي بعبارة أخري من المستوي البشري إلى المستوي الإلهي الذي يتوقف بدون أن نؤكد أنّ يوحنّا المعمدان هو السابق والممهّد لسبيل (يسوع) وهو يتمتع في التّقليد بتوقير خاصّ جدًا. بل ويوضع (في مقام يفوق مقام) الرسل. فإنّه يُمَثّل في بعض الأيقونات البيزنطيّة مجنّحا ومزوّدا برأسين، إحداهما فوق كتفيه في مكانها القياسي، والأخرى مشابهة للأولي ولكنّها مقطوعة ودامية يحملها القدّيس بين يديه علي صينيّة.

ولو كان بول دياكر أراد أن يطيل ترنيمتة بإضافة سطر آخر لها، لوجب عليه إذ ذاك أن يكرّس هذا السطر الإضافي ليسوع، وبناء عليه أن يبدأه بالمقطع دو. ولكنّه لم يفعل. فإنّ المقام الذي استخدمه هو مقام بشري قبل أي شيء آخر، ويقصد به الإنسان علي حالته التي يولد بها من المرأة[1] أي يقصد به الإنسان بكلّ ما به من نواقص بذلك لم يكن ممكنا بالطبع أن يبدأ بالمقطع دو الذي يعني حقيقة الله السيّد (دومينوس = *Dominus*). بل إنّه اختار المقطع "يو. تي." (أوت = *UT*) من كلمة ("يوتيروس" = *Uterus*) وتعني الرحم الذي هو عضو الحمل، وذلك بالذات لإبراز أهميّة حالة النقص التي يشترك فيها جميع المؤمنين وجميع الناس من أجل توجيههم للسير فوق خطي القدّيس يوحنّا الذي قال يسوع عنه: الحقّ أقول لكم، لم يظهر بين جميع من ولدوا من النساء من هو أعظم من يوحنّا المعمدان[2].

وبذلك فإنّ (أوت - أوتيروس - = *Uterus*) ترمز لباب الولادة تبعا للجسد، والنغمة سي لباب الولادة الثانية[3] تبعا للروح، وهي الولادة التي لا يستطيع الإنسان بدونها أن يري ملكوت الله[4]. يتضمّن

---

[1] متي، ١١ : ١١.

[2] نفس المصدر

[3] نظرا لأهميّة الولادة الثانية بالنسبة للمسيحية الباطنيّة والإسلام الروحانيّ وتأكيدهما أن الولادة الثانية هي الوسيلة الوحيدة إلى دخول ملكوت الله، ولأنها أهم ما في باطنيّة الإسلام كما هي في المسيحية؛ فإننا نذكر هنا بعض مقاطع من كتب كبار شيوخ الإسلام والتي تفسر الولادة الثانية وتشرح أهميتها، وتبين تقارب الدينين الموحدين في الطريق إلى ملكوت الله:-
الولاية، فهي باقية أبد الدهر، في أشخاص أولياء الله المقربين. وهؤلاء الأولياء، الذين هم مظاهر خالدة وحية للإنسان الكامل، عند ابن عربي، هم أنبياء بكل معنى الكلمة، وعلى مدى العصور. ولكنهم الآن، بعد ظهور الشريعة المحمدية، هم أنبياء ولاية، لا أنبياء شريعة. فمهمتهم في الوقت الحاضر، وبعد مجيء الإسلام، مقصورة على الوظيفة الأساسية الثانية للإنسان الكامل، أ لا وهي تحقيق الولادة الثانية للفرد البشري،

إذن مقام بول دياكر التصاعدي طبقة ثمانيّة للتجدّد ألتطهريّ تسير من الولادة علي الأرض إلى الولادة في السماوات.

هذا هو تفسير تلك الترنيمة بما يتفق مع المعنى الخاصّ (الداخلي) للتقاليد الروحانيّة الغابرة.

-٩-

يبيّن التفسير المفصّل الكامل لأسماء النغمات التي تكوّن الطبقة الثمانيّة الموسيقيّة تناسبا مباشرا مع نغمات الطبقة الثمانيّة الفلكيّة الكبرى، كما يشهد بذلك الشكل التخطيطي التالي:

1	دو - الله، المطلق المتجلى. الشمس المركزية	دومينوس	*DO*minus
3	سى - السماء ذات النجوم، مجموع كل العوالم	سي ديروس اربيس	*SI*dereus orbis
6	لا - عالمنا الكبير، المجرّة اللبنيّة	لاكتياس اربيس	*LA*cteus orbis
12	صول - الشمس	صول	*SOL*
24	فا - العالم الكوكبى الذى كان ينسب اليه قديما تأثير مباشر على المقدور	فاتوم	*FA*tum
48	مى - الأرض، عالمنا الغير كامل الموضوع تحت امرة خليط الخير والشر	مي كستوس اربيس	*MI*xtus orbis
96	رى - القمر، المتحكم فى المصير البشرى تبعاً للقدماء	ريجينا استريس	*RE*gina astris

- شكل 37 -

((ملحوظة للمعرّب: أستُخدمت في هذا الشكل دوائر قطرها ١٠ ملليمترات بدلا من دوائر الشكل الأصلي ذات الـ ٦ مم وذلك للسهولة. كما كتبت الأسماء اللاتينيّة بالحروف العربيّة بالإضافة لكتابتها بالحروف اللاتينيّة وترجمتها، وهاك معني هذه الكلمات من دو تنازليّا: ١) السيّد - ٢) السماء ذات النجوم - ٣) المجرّة اللبنيّة - ٤) الشمس - ٥) المقدر - ٦) الفلك المختلط - ٧) ملكة النجوم.))

التي بها وعن طريقها يتم عروج المرء إلى ملكوت السموات، أي تحقيق إنسانيته الكاملة، وحريته الخالدة، وسلامه الأبدي. "شرح فصوص الحكم" للعارف المتأله الولي للسيد حيدر الآملي ص ١١.

فكما أن وجود البدن في الولادة الصورية يتولد في رحم أمّه من نطفة أبيه. فكذلك وجود القلب في الولادة الحقيقية يظهر في رحم استعداد النفس من نفحة الشيخ والمعلم، وإلى هذه الولادة أشار عيسى عليه السلام بقوله: "لن يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين". تفسير القرآن الكريم – محيى الدين بن عربي ص ١٨٠.

ومن أياته انك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت (فصلت ٣٩) فقس على إحياء الأرض بعد موتها بالماء، واهتزازها بالنشو والنماء، إحياء النفوس الإنسانية التي هي أرض الحقائق بعد موتها للجهالة، وانغمارها في أرض الطبيعة وحفرة البدن بماء حيوان العلم، وتنويرها بنور المعرفة الواجبة لنشوها في أرض الآخرة، ومشيها في عالم النور، كما قال: أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها (الأنعام ١٢٢) "مفاتيح الغيب" للحكيم الإلهي والفيلسوف الرباني صدر الدين الشيرازي ص ٤٣١.

وإنما يطلع على أحوال الملكوت من خرج روحه عن يطن هذا العالم السفلي بالولادة الروحانية كما قال المسيح عليه السلام: لا يلج ملكوت السماء من لم يولد مرتين. "مفاتيح الغيب" للحكيم الإلهي والفيلسوف الرباني صدر الدين الشيرازي ص ٣٣٨.

فإذا قويت بصيرته وتكحلت عين قلبه بنور الهداية والتوفيق كما هي عند القيامة. "مفاتيح الغيب" للحكيم الإلهي والفيلسوف الرباني صدر الدين الشيرازي ص ٦٥٧ (المعرّب).

[٤] يوحنا، ٣ : ٣.

-١٠-

لِنعُدْ لمشكلة المادّة - والطاقة (وعلاقتهما) من أجل أن نستوضح مسألة البنيان الذرّي في نظر العلم الباطني. لقد سبق أن رأينا أنّ التجلي الأوّل للطاقة يكون علي شكل حركة تذبذبيّة دوريّة - داخل الذرّة. تتكوّن المادّة من عدد معيّن من النوى التي تدفعها الحركة المذكورة. إلا أنّنا إذا كنّا نستطيع بالفعل أن نقول إن هذه النوى المتحركة تكوّن المادّة، يجب علينا ألا ننسي أنّ نفس هذه النوى تتكون من طاقة في شكل استاتيكي (ثابت). أمّا الطاقة إذا عكست الأوضاع، فهي ليست سوي مادّة قد اتخذت الشكل الديناميكي. ولقد أعطانا تفكّك الذرّة مثالا لذلك التحوّل. كما سبق أن ضربنا بالبرق الكرويّ (المتكوّر) مثالا لتركز الطاقة الديناميكيّة علي شكل نوي، وهي عمليّة عكسيّة للعمليّة الأولي، ويمكن مقارنتها بظاهرة الالتحام التكويني للذرّة.

سبق لنا أيضا أن أشرنا إلى أنّ بنيان المادّة الذي يخضع لمبدأ التوازن ينتج عنه كثافة تتناسب عكسيّا مع كثافة التذبذبات الداخليّة التي تبعث فيها الحركة. علينا الآن أن نُدخل في دراساتنا مفهوم الذرّة علي الشكل الذي يقبله التقليد. إنّ الذرّة تبعا للتعريف الكلاسيكي لهذه الكلمة هي ذلك الجزء من العنصر الموصوف بالبسيط، والذي لا يمكن أن يقسّم إلى (أصغر ممّا هو عليه) إذا أردنا أن نحتفظ بكامل الخواصّ الكيميائيّة التي يمكنه بفضلها أن يشارك في (مختلف) الاتحادات بأجسام أخري. وقد تبنّي العلم الباطني مفهوما مختلفاً (للذرّة)، هو التالي:

التعريف: إنّ الذرة هي أصغر جزء وآخر قسم (ممكن) من الجوهر المنصوص عليه الذي يحتفظ احتفاظا متكاملا بجميع خواصّه: الطبيعيّة والكيمائيّة والنفسيّة والفلكيّة.

يمكننا أن نري أنّ هذا التعريف يقترب أكثر من تعريف العلم الحديث للجزيء، وإن كان يتعدّاه أيضا.

فإنّنا نميّز إذن ذرّات الأجسام المركّبة بالإضافة إلى ذرّات العناصر التي تعتبرها الكيمياء بسيطة. كذرّة ماء أو هواء مثلا الخ. كذلك فإنّ العلم الباطني - فيما يرتبط بالخواصّ الفلكيّة للذرّة علي النحو الذي عرّفناها به - يميّز بين عدّة رتب من المادّة تبعا لكثافة الذرّات النمطيّة التي تختّص بكلّ درجة من درجات الطبقة الثمانيّة الكبري. فالعلم الباطني لا يقرّ من جرّاء ذلك التصوّر للأمور - بوجود تناقض في المبدأ ما بين المادّة والروح. فإذا كانت الأولي تجعل في مقابل الثاني، فإنما يتم ذلك اتفاقيّا وللتسهيل، تماما كما ظلّ علم الفلك يستخدم نظام بطليموس لتحقيق أهدافه العمليّة. في حين أنّه كان يعلم تماما أنّ نظام كوبرنيكس هو النظام الذي يعكس الواقع بطريقة أضبط. فإنّ كلّ شيء من وجهة نظر العلم الباطني الذي يتبنى التوحيد هو مادّة في العالم المتجلي، وذلك بما أنّ المادّة هي المُظهر للطاقة، والطاقة ليست سوي شكلا معيّنا من (أشكال) الروح. إنّ الأوصاف التي يوصف بها الروح القدس في ترنيمة ظلّت الأرثوذكسيّة تحتفظ بها لتبيّن بكل جلاء هذا النمط الفكرّي:

(يا) ملك السماوات، (يا) معزّي
(يا) روح الحقّ، (يا) موجودا في كلّ مكان،
(يا) مالئ كلّ شيء،
(يا) كنز القدّيسين،
(يا) مانح الحياة،
أقبل وأقم في داخلنا،
طهّرنا من كلّ دنس،
ونجّ نفوسنا أيّها الطوباوي ![٥]

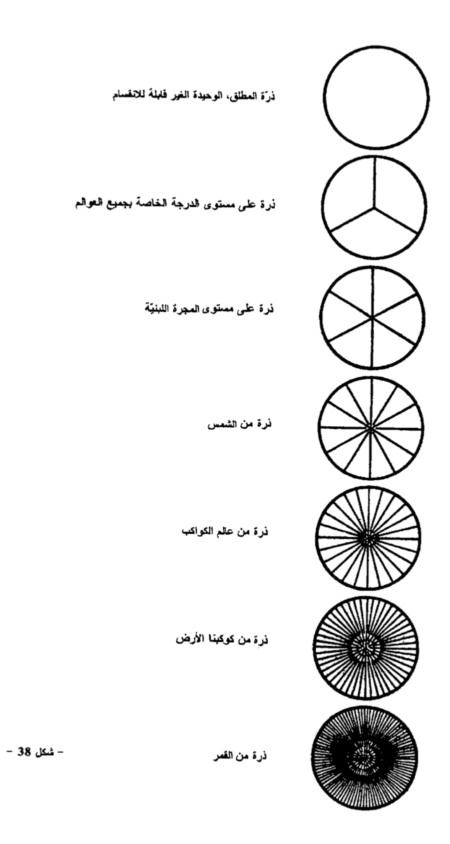
---

[٥] مترجم عن اللغة السلافونية القديمة. تسطير وإبراز الكلمات الهامة للمؤلف. يمكننا أن نلاحظ أنّ هذا التصوّر للروح القدس الذي يمثّل من جهة أخري علي شكل نار (راجع أعمال الرسل، ٢: ٣) يُماثل بالقياس التصوّر الخاصّ بالإله أجني في الديانة الهنديّة. نلاحظ أيضا أنّ كلمتي

يمكننا بعد ذلك أن نفهم أنّ ذرّة المطلق هي وحدها الذرّة البسيطة حقا، وبالتالي الغير قابلة للانقسام: فإنّه (يوجد) في هذه الحالة نواة وحيدة من طاقة -هي أيضا الروح تتذبذب بأقصى شدّة. إنها أخفّ الذرّات جمعاء؛ بل تُتّخَذُ كثافتُها كمادّة في العلم الباطني بمثابة الوحدة. ثمّ تأخذ التذبذبات إذا هبطنا من درجة لأخرى علي امتداد شعاع الخليقة تفقد من سرعتها بالتدريج. يترتّب علي ذلك ازدياد جبري ومطّرد في كميّة المادّة (أي في عدد النوى) التي تكوّن الذرّات علي مستوي كلّ درجة من هذه الدرجات مع نظام الخليقة، وتبعا لقانون ثلاثة - كما سوف نري ذلك فيما بعد، وقد سبق أن عرضنا ذلك (في الفصل التاسع، القسم الخامس "-٥-" الشكل ٣٠ الفصل العاشر، القسم السابع "-٧-" الشكل ٣٦). وتكون بالتالي كثافة هذه الذرّات النمطيّة مناسبة لنغمات الطبقة الثمانيّة الكبري، ويمكن تمثّلها بواسطة الشكل التخطيطي المرسوم علي الصفحة التالية.

لم يأخذ العلم الوضعي في اعتباره إلا بأربع درجات فقط من بين الدرجات السبع للمادّة الفلكيّة: وذلك بطريقة متكاملة علي مستوي الدرجة (المسماة) بالأرض؛ وبنسبة كبيرة علي (مستوي) درجة القمر وبنسب تتضاءل بالتدريج علي درجتي العالم الكوكبي والشمس. لكنّه لا يمتلك حتى الآن أيّة وسيلة لإدراك أو لمعرفة الثلاث درجات العليا. فإنّ ذرّات العالم الكوكبي - كما سبق أن عرّفناها أعلاه - تبدو له حاليّا وكأنّها افتراضيّة فقط. أمّا فيما يتعلق بالشمس فأنّنا لا نعرف بخصوص هذا النجم سوي بعض أشياء طفيفة جدّا. إلا أن تقدّم العلم الوضعي يضعنا اليوم علي عتبة اكتشافات هامّة في هذا المجال، وفي مجال معرفتنا للقمر التابع لنا. ولا شكّ أنّنا سوف ندهش كثيرا إذا علمنا أنّ الشمس من الوجهة الموضوعيّة لها مظهر يختلف تماما عن المظهر الذي نراها به، وأنّ الأرض إذا شوهدت من فوق سطح القمر سوف تبدو لنا بشكل يخالف تماما الشكل الذي نتمثّلها به.

الروح والهواء في اليونانيّة متشابهتان لفظا (بنوما = Pneuma) كما هما متشابهتان لفظا في السلافونية القديمة أيضا، أي أن رَوح ونَفس تساويان لفظة (دوخ = doukh).
إضافة للمعرّب: أليست كلمتا النَفس والنفَس بمعني التنفّس متشابهتين تماما في اللغة العربيّة أيضا؟


ذرّة المطلق، الوحيدة الغير قابلة للانقسام
ذرة على مستوى الدرجة الخاصة بجميع العوالم
ذرة على مستوى المجرة اللبنيّة
ذرة من الشمس
ذرة من عالم الكواكب
ذرة من كوكبنا الأرض
ذرة من القمر

- شكل 38 -

الفصل الحادي عشر

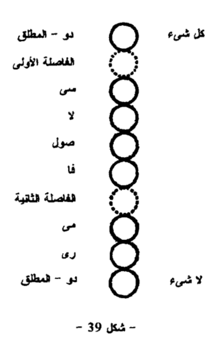
خطّة الخليقة وتطبيقها - الطبقة الثمانيّة الفلكيّة - الطبقة الثمانيّة الجانبيّة، أداؤها لوظيفتها، ومعناها بالنسبة للطبقة الثمانيّة الفلكيّة.

-١-

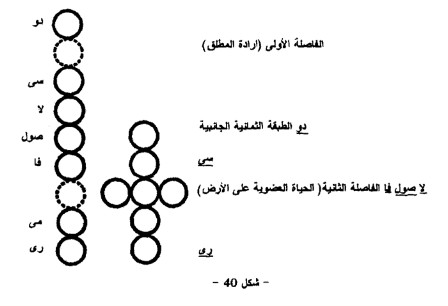
إنّ قانون سبعة إذن قانون عامّ يحكم كلّ أنواع الحركات: الواعية منها والميكانيكيّة كما تحدث في الكون المخلوق. وهو ما يرجع إلى القول بأنّ كلّ حركة وكلّ خليقة تتطوّر تبعا لمقام (سباعي). إلا أنّ التقدّم الطبيعي في كلّ مقام يتعرّض للانحراف (لزاما)، كما أنه يصاب بإبطاء أو بتوقف (تامّ) أحيانا عند الفاصلة بين دو و سي والفاصلة بين فا و مي. هذا هو المعنى العميق لمفهوم القدر كما كان يتصوّره القدماء. فلم يكن حتّى زيوس نفسه تبعا لهم (يستطيع) أن يَفلِتَ من سلطانه. فإن فعل المطلق الذي يتبع في عمله الخلاق مسار شعاع الخليقة، يخضع بالفعل كذلك لهذا القانون. يتبع هذا الفعل الخلاق كما هو مفهوم مقاما تنازليا، كما هو الحال بالنسبة لأي عمل خلاق. بيد أنّه - من أجل أن تصل إرادة المطلق إلى حالة التجلي، ومن أجل أن تصل بعد ذلك عبر كلّ درجات شعاع الخليقة إلى نقطة النهاية التي هي نغمة ري أي القمر - كان ولا زال لازما أن تُملأ في البدء الفاصلة بين دو و سي، وأن يُعَادلّ بعد ذلك الميل للانحراف الناتج عن الإبطاء المفاجئ الذي (يعترى) التقدّم بين نغمتي فا و مي.

تُملأ الفاصلة الأولى بإرادة المطلق. (وذلك) في الواقع بإرادته الخلاّقة التي تعمل عند تلك النقطة بمثابة جهد واع يعطى الدفعة الأولى للخليقة التي سبق التخطيط لها كما سبق العزم على (تحقيقها). لقد سبق أن بيّنا أنّ هذه القوّة الخلاّقة هي الحبّ. أمّا عن الفاصلة الموجودة بين نغمتي فا و مي من الطبقة الثمانيّة الكبرى فإنّها تُملأ أيضا بواسطة إرادة المطلق، ولكن ليس بطريقة مباشرة كما كان في الحالة الأولى. فإنّ هذه الإرادة تعمل هاهنا على (مستوى) الدرجة الثانية، وإن كانت أيضا قوّة الحبّ الخلاّقة. فهي تظهر في هذه الحالة على المستوى السفليّ الذي يتناسب مع الفاصلة المعنيّة. فيسمح هذا الإسهام التكميليّ الذي يجئ في الموضع الفلكيّ اللازم - للفعل الخلاّق الأوّل أن يواصل تطوّره بدون عائق.

يعكس الشكلان التخطيطيّان التاليان خطّة الخليقة من جهة (شكل ٣٩) وتطبيقها من الجهة الأخرى (شكل ٤٠).



- شكل 39 -



- شكل 40 -

يتحقق نقل الطاقة الخلاقة عبر الفاصلة الثانية من الوجهة الفنية، بإدخال طبقة ثمانيّة جانبيّة مساعدة في تنفيذ الخطة، تبدأ (هذه الطبقة) عند الشمس، وهي نغمة صول للطبقة الثمانيّة الكبرى. فإنه عند خلق العالم الكوكبيّ، تبدأ نغمة صول للطبقة الثمانيّة الكبرى تتردد (ترنّ) بوصفها نغمة دو لتلك الطبقة الثمانيّة الجانبيّة.

-٢-

لا شكّ أننا سوف نفيد الكثير هنا - قبل أن نواصل التقدّم في البحث - إذا تبسّطنا في التعليق على معنى ومهمّة الطبقة الثمانيّة الجانبيّة في مجموعها، وإذا حددنا المعاني الخاصّة بكلّ من النغمات التي تدخل في تركيبها.

نستطيع إذا ألقينا نظرة على الشكل التخطيطيّ الذي يمثّل الطبقة الثمانيّة الفلكيّة أن نعاين موضوعيّا أنّه لا يوجد بين المطلق وبين الشمس أي جسم وسيط ذي طبيعة تختلف في جوهرها عنهما. فإنّ نغمتي سي: كلّ العوالم - ولا: المجرّة اللبنيّة - عالمنا- تتركّبان بالفعل من أجسام في مختلف مراحل وجودهما (من تكوين ونضج وشيخوخة أو موت) ولكنّها كلّها شبيهة، أو على الأقل مماثلة بالقياس لشمسنا. إنّ الشمس وكذلك كلّ نجوم الكون الاسطرونومي الذي يعمل كلّ نجم فيه بمثابة شمس لمجموعته الخاصّة، تمثّل معا - كما سوف نرى ذلك فيما بعد - مجموعا (واحدا). ولا يوجد ما بين المطلق وبين هذا المجموع الذي يعتبر تبعا للتقليد جسد المسيح الفلكيّ - أي جسم - ولنقلها للمرّة الثانيّة - يختلف بطبيعته. فإنّه لا يُعثَرُ (في هذا الحيّز) إلا على عدّة تجمّعات من الأجسام التي لها نفس الطبيعة الشمسيّة. هذا هو السبب الذي دعا إلى أن نعتبر روح هذا الجسد الشمسي المتكامل الموجود المتّحد الجوهر مع المطلق، المولّد الغير مخلوق ابن الله[1] المسيح الفلكي كما كنّا نقول. يتبدّى تجليه - بصفة خاصة في شعاعنا هذا للخليقة - بواقع كون نغمة صول للطبقة الثمانيّة الكبرى ترنّ بمثابة نغمة دو للطبقة الثمانيّة الجانبيّة التي ترتبط بذلك الشعاع للخليقة ارتباطا لا ينفصم. إنّ الطبقة الثمانيّة الجانبيّة هي الموصّل في الكون (كلّه) للحياة على مختلف أشكالها. فإنّ المسيح إذ هو روح الشمس (حيّ) يحيي[2] كما أنّه يتضمّن في داخله ملء الحياة الشمسيّة والكوكبيّة وملء حياة الأقمار على جميع أشكالها الحاضرة والماضية والآتية.

هذا هو المعنى العامّ للطبقة الثمانيّة الجانبيّة. فلندرس الآن كيفية تجلّي هذا المنبع للحياة الصادر عن الشمس عبر نغمات فا و مي و ري من الطبقة الثمانيّة الكبرى، وعبر النغمات سي و لا و صول و فا و مي و ري من نفس هذه الطبقة الثمانيّة الجانبيّة.

-٣-

لِنَحْذَرْ هاهنا من تمثّل الكون بطريقة اسطرونوميّة أو اسطرو-فيزيائيّة محضة ومبالغ فيها. فإنّنا ندرك الظواهر الفلكيّة إدراكا جزئيّا، على قدر ما تسمح لنا به سعة مداركنا، وهي محدودة. فإن كلامنا على حالته الراهنة أي كإنسان خارجي لا يستطيع أن يُدرك العنصر النفسي في حياة الكون؛ أو بصفة أدقّ لا يمكن أن يتكوّن لدينا عنه أي مفهوم موضوعيّ. إنّنا إذ نفتقر في هذا الصدد إلى مجرّد المعلومات، نجد أنفسنا مضطرّين إلى اعتناق (مختلف) المعتقدات: الإيجابيّة منها - أي بعبارة أخرى الانفعاليّة، الدينيّة أو السلبيّة، العقلانيّة، الإلحاديّة.

إننا في الواقع لا نعلم إلاّ أشياء طفيفة جدّا فيما يتعلق بشمسنا وبعديد وظائفها، وبالمؤثّرات التي تتحكّم بواسطتها في النغمات الثلاث المتبقية من الطبقة الثمانيّة الكبرى، وخاصّة النغمة مي التي هي نغمة كوكبنا.

---

[1] راجع نؤمن بالله واحد.
[2] يوحنا، ١٤ : ١٩.

-٤-

لندرس الآن مثالا منتزعا من حياتنا المعتادة لكي نمعن في فهم فعل المقام (السباعي) بصفة عامّة. سوف نرى في ذلك المثال أنّ الإنسان يحاول دائما بطريقة غرائزيّة أن يتغلب على (الإبطاء عند) الفواصل، وذلك في أثناء خلقه المشاريع وطوال مدّة تحقيقها.

لكي تتوافر لتصرّفاتنا فرص للنجاح، يجب كما نعلم جميعا أن نعمل تبعا لخطّة محكمة يُتفق عليها من ذي قبل. ما المعنى الباطنيّ لمثل هذا المبدأ؟ إنّ له معنى مزدوجا. الأوّل منهما معروف لدينا كلّنا؛ فهو يستجيب لمستلزمات قانون ثلاثة الذي يهيمن على كلّ (عمليّة) خلق. أمّا الثاني فإنّه يستهدف التنفيذ الفعلي للعمليّة المشروع فيها، والبدء في تشغيلها، وهو ما يتمّ حتما تبعا لقانون سبعة.

لنضرب (لذلك) مثلا نستمدّه من مجال ليس بالغريب على أي أحد منّا ألا وهو مجال الإدارة. إنّنا نعلم أنّ أي قانون يجب أن يكون مصحوباً في الحالات القياسيّة بقرار تطبيقي واحد أو أكثر ترتبط ارتباطا وثيقا بهذا القانون. إنّ هذه القرارات تلعب دور القوّة المعادلة ما بين نغمة دو للقانون المعنىّ وهي قوة ايجابيّة، وبين نغمة سي، وهي القوّة السلبيّة التي يبدأ عندها تنفيذ الإجراءات التي تنجم عن القانون.

يعتمد التنفيذ، وهي القاعدة العامّة (في كلّ هذه الحالات) على سلطة تابعة كالابن في حالة الطبقة الثمانيّة الكبرى، وليس على السلطة التي أصدرت القانون وصدّقت عليه. فيوكل إلى هذه السلطة ذات الدرجة الثانية بالذات مهمّة تحقيق العمليّة حتّى نهايتها، ابتداء من النغمة صول التي يوجد خلفها نغمتا سي و لا اللتان تمثّلان تراكمُ الوسائل النفسيّة والبيولوجيّة، كما يوجد أمامها النغمة فا بما معناه مختلف الوسائل الماديّة الموضوعة تحت تصرّفها.

فإذا حدث أن تطوّر العمل الإداري تطوّرا قياسيّا، تصبح النغمة مي هي التي تمثّل النتائج الأولى. ثمّ يثبت (و يتأكد) النجاح في نغمة ري ويسمح بجني الثمار النهائيّة وهي التي تظهر في شكل نغمة دو للطبقة الثمانيّة التالية التي تكون بذلك قد تولّدت فتتمتع بعدئذ بحياة مستقلّة وتطوّر مستقلّ.

هذا هو الارتقاء (المثالي) فيما يتعلق بالطبقة الثمانيّة الرئيسيّة، من الوجهة النظريّة. إلاّ أنّ حسن تصميم القانون، والاختيار الموفق لسلطة التنفيذ، والتراكم السانح للعناصر النفسيّة والبيولوجيّة والماديّة اللازمة، (كلّ ذلك) لا يستطيع أن يتعدّى بالخليقة نغمة فا. فانّ الفعل لا يمكن أن يصل من الجهة العمليّة إلى النتيجة الموضوعيّة - كما سبق لنا أن رأينا ذلك - لا يوصل إليها إلاّ عند بلوغ النغمة دو التي تتمّم الطبقة الثمانيّة الثانويّة.

تبدأ الطبقة الثمانيّة الجانبيّة بنغمة دو الصادرة عن نغمة صول للطبقة الثمانيّة الرئيسيّة. وهو ما يعنى أنّ سلطة الدرجة الثانية، أي صول الطبقة الثمانيّة الرئيسيّة تتولّى المبادرة بتنفيذ القانون التخطيطيّ في إطار القرار (التنفيذي). وليس لهذه السلطة (بالطبع) حرّية التصرّف الكليّة؛ فإنّ الخطّة تحدّها كما أنّ القرار (التنفيذيّ) يوجّهها. إلاّ أنّه يُنتظر منها المبادرة في إطار المعايير (القياسيّة) التي تحدّدها النصوص. فإذا تجنّبنا خطأ التدخّل في أفعالها، ظهرت هذه السلطة المرؤوسة بمظهر السيّد المطلق السيادة في حدود الإطار المعيّن لها: فإنّ دو الطبقة الثمانيّة الجانبيّة يماثل بالقياس في مجاله (الخاصّ) دو الطبقة الثمانيّة الرئيسيّة.

تكمن مهارة الرئيس الأعلى - بعد إقامته للخطّة على الأسس السليمة، وبعد تكديسه للوسائل اللازمة للتنفيذ الفعلي - في الاختيار المتأنّي لمساعديه. أمّا المساعد (الذي اختير) فإنّ عليه عوضا عن ذلك أن يجعل كلّ ما أوتى من مواهب يطرح ثماره في جميع المجالات، وخاصّة في المجال الباطنيّ.

يمكننا هنا أن نفهم أنّ يسوع كان يستهدف التلميح لهذا المظهر (من بين مظاهر) قانون سبعة عندما كان يتفوّه بهذه الكلمات التي قد تبدو لأوّل وهلة غريبة: "سوف يعطى لمن كان يمتلك من قبل أمّا الذي لا يمتلك فلسوف ينزع منه حتّى ما لديه[3] أو بالأحرى ما كان يعتقد أنّه لديه[4].

إنّ الإنسان يعمل في الحياة تحت سلطة قانون سبعة وهو لا يدرى بالطبع. وَهُوَ إذ يصطدم بالصعوبات التي تنبت على السبيل الذي (يمشى عليه) بدون أن يتبيّن لها أسبابا واضحة، وإذ تتراكم لديه تجربة فشل تلو الأخرى، يأخذ في البحث بطريقة تجريبيّة عن وسائل تجنّب (تفادى) هذه الصعوبات (والعوائق).

-٥-

يستطيع بل يجب على من يدرس العلم الباطنيّ، وقد تحصّن بما سبق (من شرح) أن يزداد فهْماً لمهزلة الحياة التي يدّعى فيها أناسُ عميُ ومغرورون القدرة على توصيل عميٍ أكثر تواضعا إلى هاوية تلتهم الفئتين معاً[5]. فإذا تملّى الدارس بذلك، توافرت له إمكانية صدّ آثار المؤثرات "ا" الضارة، وذلك على قدر ما يتبقى له من استقلال بعد كلّ الالتزامات التي سبق أن أخذ على عاتقه الإيفاء بها، والتي لا تظلّ تربطه. ولسوف يجد في المؤثرات "ب" كلّ الدفعات اللازمة لملء فاصلتي كلّ مقام من المقامات التي يشرع فيها - أو التي قد وقع فريسة لها - في شبكة المؤثرات "ا" الذي يكوّن نسيجها حياتنا. فإنّما يجب عليه بعد أن جَعَلَتْهُ ألعوبة لها أن يصير هو الفاعل وذلك لكي يتوصّل بعدئذ إلى أن يتحكم فيها (تحكم السيّد).

إنّ ما يفعله الكثيرون منّا هو أنّنا نظلّ - بعد أن نكون قد شرعنا (جادّين) في الدراسات الباطنيّة - نظلّ نعيش كما كنّا من قبل، ونظلّ نعمل كما كنا نعمل من قبل وسط نفس مهزلة الحياة هذه التي تتولّد من المؤثرات "ا". إنّه قد يبدو لنا أنّنا قد نجحنا في التخلص (والتحرّر) منها لكوننا قد شرعنا في الدراسات الباطنيّة. فما أخطأ هذا التصوّر. أو قد نقع في النقيض الأقصى. بيد أنّنا يجب أن نحاذر من حذو مَثَل دون كِيشوت الذي كان يتكالب على محاربة المؤثرات "ا" وجها لوجه على جميع أشكالها، وخاصّة على شكل طواحين الهواء. يجب على الباحث أن يتعلّم كيف يُسوسَ هذه المؤثرات، وبصفة خاصّة تلك التي تدخل كمركّبات في فيلم حياته الشخصيّة، وذلك بأن يستمد طاقة مكمّلة من نبع المؤثرات "ب"، وأن يستخدمها في "حياته" بما يتّفق اتفاقا حقيقيّا مع مستلزمات قانون سبعة. لذلك يجب عليه أن يبذل كلّ الجهود لكي يتعرّف على كلّ المقامات، أو على الأقلّ على كلّ المقامات الرئيسيّة التي يكون هو عميلها أو ضحيّة لها، والتي يعيش في أي آونة من حياته في (معترك) تقاطعها. هذا هو الجزء الأوّل من العمل الذي (يجب عليه أن يؤدّيه) والذي يناسب مبدأ التعلم. أمّا الجزء الثاني الذي لا يقلّ أهمّيّة عن الأوّل فهو الذي يوافق مبدأ فن الإنجاز بمهارة. فإذا حدّد موضوعيّا وضعه من تقاطع المقامات في آونة ما، تعيّن عليه بعد ذلك أن يقيم مقارنة بين تلك المعطيات وبين الوسائل العمليّة التي يمكنه استخدامها فيما يتعلق بالهدف الذي اختاره أو الذي يتطلع إليه على المستوى الباطنيّ. وعندئذ يحلّ حتما تطبيق المهارة في فن الإنجاز التي يجب أن تسمح للباحث أن يتصرّف بطريقتين اثنتين. يجب عليه أوّلا أن يستمد الطاقات اللازمة من نبع المؤثرات "ب" ليعالج بها بعد ذلك المقامات المكوّنة من المؤثرات "ا" والتي هو جزء منها. وذلك بروح الواقعيّة المحضة المجرّدة من أي ميل للنفاق ومن أي سلوك ميكانيكيّ للتبرير الذاتي، والخالية قبل

---

[3] متى، ١٣ : ١٢ - مرقص، ٤ : ٥ .

[4] لوقا، ٨ : ١٨.

[5] متى، ١٥ : ١٤ - لوقا، ٦ : ٣٩ .

كل شيء من أي كذب تجاه أنفسنا. والشرط الأخير شرط لا غنى ألبتة عنه (إذا أردنا) النجاح. كذلك فإنّ فترة تطبيق ما سبق سوف تجبر الباحث على أن يبذل جهودا واعية في استحداث طبقات ثمانيّة جانبيّة في جميع الحالات الخاضعة لقانون سبعة بطريقة تماثل بالقياس الطريقة التي أدْخِلَتْ بها الطبقة الثمانيّة الجانبيّة في الطبقة الثمانيّة الفلكيّة.

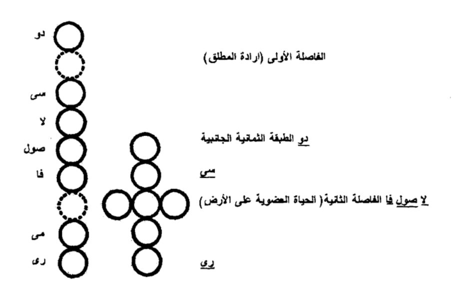
يجب أن نشير هنا - بلا تأخير - إلى أننا حتّى إذا استوفينا كلّ الشروط السابقة واستوفيناها بدقة (بالغة) فلن نصل إلى النتيجة المبتغاة، إلا نادرا، بدون أن نرتكب أخطاء عديدة فيما يتعلّق بتقدير (الأمور) وما يتعلّق بالتطبيق. يجب أن نكون عادلين (أبرارا) (بالفطرة) لكي لا نخطئ أو لكي لا نستمر في أخطائنا. أمّا الظلمة والمكابرون - وهم عامّة الحالات - فإنّهم يعتقدون أنّهم هم وحدهم العادلون وأنهم بالتالي هم وحدهم على حقّ، في حين أنّ الآخرين مخطئون وكذلك الظروف. كما أنّهم قد يتمادون في غرور عماهم إلى حدّ أن يشوّهوا الوقائع بتعمّد مسبّق. فإنّ القول المأثور: "ما كنّا لنأبه بالوقائع" لازال قولا مشهورا.

إنّ على من يدرس العلم الباطنيّ أن يتيقظ، وأن يحذر لكي لا يعود بهذه الكيفيّة إلى العامة (والغوغاء) ولكي لا يسير "كما يفعل الآخرون" على ذلك الطريق الفسيح الذي يؤدّى إلى الهاوية.

-٦-

ولنَعدْ الآن لدراسة الطبقة الثمانيّة الجانبيّة الأولى والتي ترتبط بالطبقة الثمانية الكبرى الفلكيّة.

ولنكرّر منذ البداية أنّ النغمة دو فيها تنبع (تنبثق) من نغمة صول للطبقة الثمانيّة الكبرى وتظهر فيها بمظهر المطلق. إن هذا المطلق - كما سبق أن قلنا - هو المسيح، مَسَحَ عليه المطلق ١، فهو اللوجوس الثاني (الكلمة الثانية) روح الشمس الذي يسطع بمحض نوره الذاتيّ[٦]، المولّد اللا مخلوق المتّحد الجوهر مع الآب.



شكل - ٤١-

[٦] متى، ١٧ : ٢.

إنّ نغمة دو للطبقة الثمانيّة الجانبيّة تمثّل إذن مطلق الحياة العضويّة على الأرض - بعبارة أخرى - تعتمد على الشمس ما إن ظهرت أو كمنت وحتّى آخر حدود تطوّرها الممكن بدون أي استثناء. تُملأ الفاصلة بين دو و سي من الطبقة الثمانيّة الجانبيّة بواسطة الإرادة الخلاّقة للمطلق ٢ التي تماثل بالقياس إرادة المطلق في الطبقة الثمانيّة الكبرى، وهي (أي تلك الإرادة) الحب.
تعمل هذه القوّة الخلاّقة والواعية النابعة عن المطلق ٢ بمثابة القوّة المعادلة بين القوّة الإيجابيّة لنغمة دو والقوّة السلبيّة لنغمة سي التي هي جزءٌ من مجموع العالم الكوكبيّ. فيظهر - نتيجة لفعل هذه القوى الثلاث المتضافرة في نفس الاتجاه - يظهر الشرط اللازم لوجود وتطوّر الحياة العضويّة على سطح الكواكب (عامّة) ونحن نقصد هنا الأرض: ألا وهو الجوّ.
تمثّل النغمات الثلاث: لا و صول و فا الأشكال الثلاثة للحياة العضويّة: الإنسان (وعالم) الحيوان (وعالم) النبات.
أمّا نغمتا مي و ري من الطبقة الثمانيّة الجانبيّة فإنّهما تمثّلان التأثير المُحْيي (الباعث للحياة) للمطلق ٢ عندما يتخلّل كوكب الأرض، ثمّ يتخلل قمرها عبر محطة الإرسال: لا- صول - فا.
لقد سبق أن قلنا أنّ النغمات سي و لا و فا من الطبقة الثمانيّة الكبرى تمثّل على التوالي العناصر النفسيّة والبيولوجيّة والماديّة التي وضعت تحت تصرّف الابن لإتمام الخليقة التي شرع الآب فيها. هذا هو السبب الذي جعل يسوع يقول: أنّ كلّ ما يملك ألآب هو لي[٧]. ذلك أنّه كما قال في غير هذا الموضع:أنا وأبي لسنا إلاّ واحدا[٨].

-٧-

تناسب نغمة سي الطبقة الثمانيّة الجانبيّة (وتخص) إذن خلق وتنظيم وصيانة جوّ الكواكب (عامة) ونعنى هنا جوّ الأرض. إنّ الجوّ يتغيّر مع الزمان بنياناً وتركيباً بما يتّفق مع ارتقاء الكوكب (الذي يحيط به). كذلك فإنّ الجوّ هو الشرط الذي لا غنى ألبتة عنه للحياة العضويّة التي تتميّز (خصّيصا) بالتنفس. يضاف إلى ذلك أنّ الجوّ هو الموصّل لشتّى أنواع المؤثرات الأرضية والخارجة عن الأرض بما في ذلك المؤثرات الكوكبيّة والشمسيّة والفلكيّة التي ينفذ إشعاعها إلى داخل الجوّ، ثمّ تمتص عن طريق التنفس. إنّ الإنسان ليجهل الكثير عن المؤثرات التي تمتصّ بواسطة التنفس هكذا فتنفذ إلى الدم مباشرة وتمرّ بكلّ أعضائه، وبالتالي تمرّ بكلّ مراكزه النفسيّة.
تكّون النغمات الثلاث التالية من الطبقات الثمانيّة الجانبيّة الفلكيّة، وهي لا و صول و فا في مجموعها الحياة العضويّة على الأرض. تناسب نغمة فا الحياة النباتيّة. ونغمة صول الحياة الحيوانيّة، ونغمة لا الحياة الإنسانيّة. تكوّن هذه النغمات الثلاث مُتَزَاوجة عضوا واحدا من أعضاء الكواكب (أي) نوعا من الأغشية الشديدة الحساسيّة، ومحطّة لنقل (أو إرسال) بالنسبة للطاقة الخلاّقة الصادرة من المطلق ١، التي تصلها (أي لمحطة النقل) عن طريق المطلق ٢. يتصل بقاء هذا العضو بواسطة الحبّ الجسدي (وهو) - نغمة صول للطبقة الثمانيّة الجانبيّة - وبواسطة التوالد المستديم. كما أنّه بهما يرتقي ويواظب على نقل الطاقة الخلاّقة الصادرة من المطلق ١ عبر الفاصلة الموجودة بين نغمتي فا و مي للطبقة الثمانيّة الكبرى.

---

[٧] يوحنا، ١٦: ١٥.
[٨] يوحنا، ١٠ : ٣٠.

تلتحم نغمتا مِي و رِي للطبقة الثمانيّة الجانبيّة بنفس النغمتين من الطبقة الثمانيّة الكبري، اللتين تتمثّلان على التوالي في جسدِ الأرض وفي جسد القِمر. ويظهر التأثير (الفعال) لنغمتي مِي و رِي للطبقة الثمانيّة الجانبيّة عند (تحقيق) تطوّر هذين الجسدين.
هذان هما معنى ودور الطبقة الثمانيّة الجانبيّة الفلكيّة في خطوطهما العريضة.

-٨-

قد أمكننا أن نلاحظ أنّ الطبقة الثمانيّة الجانبيّة تتعرّض في أثناء ملئها للفاصلة بين نغمتي فا و مي من الطبقة الثمانيّة الكبرى، تتعرّض هي أيضا بدورها لإبطاء أو لانحراف (مسار) عند الفاصلة الموجودة بين نفس نغمتي فا و مي فيها. فكيف إذن تُملأ تلك الفاصلة؟ سوف نعود إلى هذا السؤال الهامّ بعد أن نكون قد تحصّلنا على عدّة مفاهيم تنقصنا سوف تسمح لنا بالشروع في التصدي لهذه المشكلة بصيغة مفيدة.

-٩-

يسمح لنا هذا التحليل المقتضب لأداء الطبقة الثمانيّة الجانبيّة (لوظيفتها) أن نرى تحت ضوء جديد عدّة مشاكل كبرى تشغل الأذهان، كمشكلة الانفجار السكّاني على الكوكب، والمشكلة الغذائيّة على الصعيد العالميّ، والتنظيم العامّ للمجتمع البشرى، والمعنى الفلكيّ للحروب في الماضي بالإضافة إلى دورها مستقبلا، أو مشاكل الملاحة ما بين الكواكب وما بين النجوم.

الفصل الثاني عشر

حياة الكون على امتداد شعاع الخليقة - نظام الأفلاك - معنى الأسماء المنسوبة إلى مختلف درجات نظام الأفلاك - الطبقات الثمانية التصاعدية والتنازلية.

-١-

لقد درسنا تصميم الكون على شكل شعاع الخليقة، وتركيبه تبعاً لقانون ثلاثة، وتأديته لوظيفته تبعاً لقانون سبعة. فسمحت لنا هذه الدراسة الأولى للفلك [1] إدراك الأعماق الحقة للوصف الذي كان القدماء يصفونه به في نظامه وجماله. لقد أعطينا للقارئ صورة عن الكون في الفصول السابقة، تبيّن نظام تأسيسه وخلقه وحسن تأديته لوظيفته. فرأينا أنه نظامٌ واحدٌ ينطبق بصورة موحّدة توحيداً تاماً حيثما انطبق. إذ هو يحمل إرادة المطلق، ويتحكم في الكون كما يتحكم في أصغر جزء فيه فيتحقق بذلك القانون الباطني القديم القائل بأن كلّ ما هو موجود في أسفل يشابه ما هو موجود في أعلا. وها نحن الآن بصدد دراسة الكون فيما يتعلق بالحياة التي تتواقد فيه، إذ يجب أن نعتبر تصميمه كما درسناه من قبل، بمثابة هيكل متحرك فقط لا غير. فيتسنّى لنا بذلك أن ندرك إدراكاً أجوّد جمال الفلك الفائق الوصف ولو بصفة جزئيّة.

فلا يجب أن ننسى أن قدرتنا على التصوّر تفتقر إلى الكثير من القوّة. فإنّ أروع الصور التي نُضّني أنفسنا في خلقها، ليست سوى لوحات باهتة وتافهة. فإننا ما لم نبذلْ جهدا متواصلا، وما لم نمارسّ مرانا خاصاً، يَقُوتَنَا أن نتبيّن ذلك التغيير الذي ينتاب أحجام الأجسام باستمرار - إلاّ القليل منه - في الوسط الذي نعيش فيه. فانّ أحاسيسنا تميل إلى تقديم "أكليشيهات" ثابتة لنا عن جميع ما يحيط بنا. ونجد أنفسنا من جرّاء ذلك نعيش في عالم استاتيكيّ ذي بُعدين فقط. في حين أننا ننتمي فعلا إلى عالم ثلاثيّ الأبعاد يسير إلى ارتقاء داخل الزمان، وهو يحتوى أيضا على أبعاد ساميّة أخرى تخفي عنّا ونعجز تماماً عن إدراكها تلقائيّا. إن الصورة التي قد نرسمها لأنفسنا عن الكون وعن حياته بما هي محملة به من أكبر ما فيها إلى أصغر ما فيها من تدفق الحب المتوالي - صورة كتب عليها أن تظل باهتة لا تعكس من جمال الكون الفائق النظير إلاّ ظلاّ متباعداً ورسماً اصطلاحيا. فلا نجتاز إلى تأمّل الفلك تأملاً مباشراً بما فيه من نظام وجمال، إلاّ بعد أن نسير شوطاً في الارتقاء التدريجيّ، وبعد أن نصل إلى مستوى كينونة الإنسان ٤ وأنّ نتعدّاه عابرين تلك العتبة التي سوف ترفعنا إلى مستوى الإنسان ٥.

ولكن الجهود التي يبذلها الإنسان الخارجي من أجل أن يدرك ذلك النظام وذلك الجمال لا تضيع سدىّ. بل هي جهودٌ يجب أن تبذل حتماً. فإنّنا في هذا المجال يجب أن نتلقن أولاً لكيّ نستطيع أن نفهم ثانيّا. تماماً كما يتم ذلك في برامج الدراسات العلميّة الوضعيّة.

هذه هي الروح التي يجب أن نتأهّب أن نواصل بها دراسة هذا الفصل.

---

[1] ملحوظة للمعرّب: الترجمة الصحيحة لكلمة "Cosmos" هي الكلمة العربية "إنسان" لكننا نستعمل بدلاً منها كلمة: "الفلك" وإن كانت أقل دقة. لأن اللسان العربي قد درج في الشرق على ربط كلمة إنسان بالمعنى المعروف. بقى علينا أن نحدد كلمة "Univers" ونحن نستعمل في ترجمتها كلمة "الكون" ولكننا سوف نلجأ في بعض الأحيان لكلمة "إنسان" وعندئذ سوف ننبه القارئ بإذن الله.

-٢-

كيف يمكننا إذن أن نتصوّر الكون - مع كامل الاعتبار بالتحفظات السابقة -؟ إن صورة الشجرة لواحدة من مجموعة الصور المستعملة. ولقد استعملها يسوع عندما صوّر نفسه على شجرة الكرم وصوّر تلاميذه على صورة الأغصان فيها[٢]. ونحن نستطيع أن نتصوّر مجموع أشعة الخليقة على شكل تفرعات شجرة لها جذر ثلاثيّ ينبثق منه الجزع والفروع. ثم يكتسي هذا الهيكل بالبراعم التي تعطي بعد ذلك الأوراق والورود والثمار في النهاية. إنها شجرةٌ حيّة تحمل على جميع تفرّعاتها شتى مظاهر هذه الحياة. وتعتمد هذه المظاهر على بعضها البعض كما أنها مفيدة بل قل لازمة لزوماً حتمياً لبعضها البعض من أجل ضمان وجود المجموع ومن أجل نموّه وتطوره. ورغم أن هذه الصورة بعيدة عن الكمال إلا أنها سهلة الاستعمال ممّا جعلنا نلجأ إليها في عدّة مواضيع. وبُعدِ هذه الصورة عن الكمال كون الأجزاء المختلفة للشجرة فيها على مختلف مستوياتها لا تتشابه. فإنه إذا كانت الفروع الكبرى تشبه الجذع كما أن التفرعات الصغرى تشبه الفروع الكبرى، فإن الورود والأوراق والسيقان تختلف تماماً في شكلها عن شكل "الهيكل الأساسي". إن حياة الفلك تتضمّن هي الأخرى عدّة درجات، ومنها سبع درجات أساسية، إلا أن هذه الدرجات السبع لمظاهر الحياة فيه قد صُمّمت على صورة الدرجة الأولى[٣] منها، وفيها يعيش الست درجات الباقية. وخلاصة القول أنه يوجد هناك سبعة أفلاك أو قل سبع رتب مدرّجة من الأفلاك لها جذر تلاقٍ واحد، وهي إذ توجد وتعيش داخل بعضها البعض تمتد مع تفرّع أشعة الخليقة.

ولقد ضاعتْ مع الزمن بعض أجزاء هذه التعاليم القديمة التي كانت تربط كل شعاع خليقة واحد بسلّم يتكون من سبعة أفلاك أوْ شوّهتْ تعمداً. فقد عملتْ التعاليم الباطنيّة بمبدأ الطلسمة والحجب من قديم الزمن. ونجد أعظم شاهد على ذلك في الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم وفي الأناجيل. ولكن الحكماء الأقدمين كانوا يحرصون على دفع جزء من الحقيقة للعامّة - على شكل أو على آخر - جزء يمكن أن يَبْدو لأذهانهم في صورةٍ للكلّ.

وهكذا بثّ هؤلاء الحكماء من الإشارات اللازمة ما يكفي لدفع باحثي المستقبل - خلال الأجيال، أو قل آلاف السنين المتتالية وعبر الحضارات البائدة - إلى التعمّق في أبحاثهم وتنقيبهم.

-٣-

لقد أعطانا رابيّ بن عقيبة في قبّالته[٤] ملخصاً للتعاليم القديمة المتعلقة بالأفلاك السبعة ، تحدّث فيه عن فلكين: الفلك الأصغر، ويرمز به للإنسان، والفلك الأكبر، ويرمز به للكون[٥]. وهناك تشابه كامل بين الفلك الصغير والفلك الأكبر[٦] تبعاً للاصطلاحات اليونانيّة، يعكس إجمالاً ما نصّ عليه سفر التكوين المذكور أعلاه حيث أن الإنسان قد خلق على صورة الله وشكيلته[٧]. ويفترض ذلك بالطبع مبدأ وحدة العالم. إلاّ أن هذا التعليم قد اقتصر على دراسة هذين الفلكين فقط في حين أن المذهب الكامل يدرس - كما سبق أن قلنا - لا فلكين فقط بل سبعة أفلاك تشكل في مجموعها دورة حياة متكاملة تتوالد بدون توقف.

---

[٢] يوحنا، ١٥: ٥.

[٣] سفر التكوين، ١: ٢٦- ٢٧.

[٤] La Kabbale par Rabbi-ben-Akiba

[٥] يتحدث محيي الدين بن عربي عن الفلك (الكوزموس) الأكبر مسميًا إياه الإنسان الأكبر، وعن الفلك الأصغر مسميًا إياه الإنسان. (المعرّب)

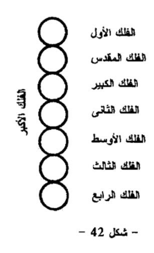
[٦] Microcosmos et Macrocosmos أو الإنسان الصغير والإنسان الأكبر (المعرّب).

[٧] سفر التكوين، ١: ٢٦ - ٢٧؛ ٥: ١-٢؛ ٩: ٦.

وعلينا أن ننبّه هنا إلى أن نظام الأفلاك السبعة يتضمن في داخله كل ما يوجد، أي أنه يتضمن الكائن المتكامل الذي نصوره على شكل الكون الأكبر منحازين في ذلك إلى النظريات الفلكيّة أو قل متشدّدين لها. كما أنه من جهة أخرى يحتوى على كل ما يختصّ بحياة هذا الكائن وتنظيمها ومظاهرها المختلفة. وهو أمرٌ يجب أن يتنبّه الباحث إلى أهميته القصوى، فإنّ المعرفة بالمعنى الكامل الباطنيّ لهذه الكلمة تبدأ حتميّا عند دراسة هذا النظام الموحّد بشرط لا غنى عنه أبداً، وهو إتمام دراسة الأجزاء جزءاً جزءاً، مع دوام مراعاة ارتباطها النسبيّ بالمجموع الكلّي.

-٤-

وها نحن نقدم للقارئ هنا تصميم الشكل الخاص بنظام الأفلاك السبعة كما صُمّم، تتمثل بمجموعها في الفلك الأكبر:



- شكل 42 -

الفلك الأكبر= Macrocosmos؛ الفلك الأول= Protocosmos؛ الفلك المقدس= Aghiocosmos؛ الفلك الكبير = Megalocosmos؛ الفلك الثاني = Deuterocosmos؛ الفلك الأوسط = Mesocosmos؛ الفلك الثالث = Tritocosmos؛ الفلك الرابع = Tessaracosmos.

هذه هي المعطيات الأولى لذلك المذهب:

كل فلك من السبعة كائن حيّ. وكل واحد منهم له ثلاثة أبعاد تماما كالفلك الصغير - أي الإنسان، وهو يعيش في داخل الزمان مثله أيضاً. كلّ فلك يعيّنه ويَحدّه الفلكان المجاوران له. فيتكوّن بذلك من كل ثلاثة أفلاك متتالية وحدة كاملة. ولكن ذلك لا يضع بين كل ثلاثية والأخرى فاصلاً مطلقاً. إذ إن الفلك الأوسط من كل ثلاثة - وهو من الأمور البالغة الأهمية التي يجب على الباحث ألاّ يتغافلها - هو بمثابة العنصر السفلي في الثلاثية العلوية، والعنصر الأعلى في الثلاثية السفليّة.

ولقد سبق أن قلنا فيما يختص بشعاع الخليقة، والأمر ينطبق بالنص على مجموع الفلك الأكبر: إن الأفلاك على اختلافها تخضع لنفس القوانين. ولكن كيفيّة تطبيق هذه القوانين على كل منها، وإن كانت كيفيّة متماثلة بالقياس إلاّ أنها ليست في ذلك بالمطلقة. فلنلاحظ هنا على سبيل الملاحظة أنّه قد يُبدأ في عمل ما على فلك من الأفلاك بما يتناسب مع قوانين فلك آخر. وللحالة السابقة مثال شائع معروف هو مثال الأمراض البكتيريّة والفيروسيّة من جهةٍ، وما نقاومها به من تطعيم وأمصال علاجيّة الخ... من جهة أخرى. فإننا نرى هنا تداخل فلكين في بعضيهما، الفلك الأول، وهو التابع للإنسان، والفلك الثاني

وهو التابع للكائنات الميكروبيّة. إلاّ أن تداخل قوانين الفلك الذي يعلو عن الفلك الخاصّ بالحياة الإنسانيّة أندر، أو قل يبدو لنا أنّه أندر. ونحن نعتبر مثل هذه الوقائع - إذا حدثتْ - عجائب كما نقول عامّة.

-٥-

ولنِقدِمَ الآن على دراسة المفهومين التاليين: الفلك وشعاع الخليقة دراسة مقارنة.

إذا كانت أشعة الخليقة هي تبعا للصورة التي استعملناها بمثابة فروع تلك الشجرة الكبرى التي قلنا إنها هي الكون وإنَ جذرها الثلاثيّ ليس سوى المطلق المتجلي، فإنّ نظام الأفلاك في مجموعها هو الحياة كما تبدو عندما تسرى في تلك الفروع.

وتنبثق هذه الحياة من نفس الجذر الثلاثي الذي هو المطلق ١ كما أنها تعتمد عليه اعتماداً كاملاً.

فإنّ أشعة الخليقة ونظام الأفلاك، في البدء يلتقيان فيه، الأمر الذي يؤهلنا أن نطابق بين المطلق ١ وبين البروتوكوزموس - أيّ الفلك الأوّل.

إننا نرى أن شعاع الخليقة الخاص بنا ما هو إلاّ فرع واحد حيث يُعَبّرْ على امتداده عن حياة العناصر المختلفة الخاصة بنظام الأفلاك.

-٦-

ولنتوقف الآن قليلاً لننبّه إلى تفادى خطأ في التصوّر قد توحي إلينا بارتكابه صورة الشجرة. فإن تلك الصورة التي تساعدنا ببعض جوانبها على تفهّم موضوع دراستنا تفهّما أجود، بفضل ما بين الاثنين من تشابه لا تشمل مع ذلك جميع العلاقات الموجودة بين شعاع الخليقة ونظام الأفلاك على جميع المستويات. لأن بلادة أذهاننا ودوام استسلامنا للغفلة والنعاس، وهما يمثلان فينا، القصور الذاتي للمادة - ذلك العائق الأكبر في وجه كل جديدٍ في الفكر - يدفعان بنا إلى التسرّع في استنباط النتائج، والأخذ بالتعميمات التي لا تستند إلى مبّررات كافية. فلا يجب أن ننسى أنّ مُشَابهة الشيء للشيء ليستْ كمماثلته له، أو بالأحرى كمطابقته له. كما يجب علينا أن نستعمل الرموز بحذر وتحفظ فلا نتعدى حدود مطابقة الشكل لموضوع الدراسة.

لقد رأينا أن ننبه هذا التنبيه نظراً لتوغلنا بدراسة نظام الأفلاك في مجال تكثر فيه المفاهيم والنظريات الجديدة. ويتطلّب هذا الطابع الخاص بالمفهومات الجديدة التي نتعلمها أو نصممها لأنفسنا جهدا واعياً من قبل الإنسان يُعتبر إذا نظرنا إليه نظرة خاصة جهداً خلاقاً. ولكن ثقل مادّة أمخاخنا النسبية يبدى دائما مقاومة لهذا الجهد اللازم. ولعلنا نستطيع بصيغة رمزية أن نجزم بأن كل نظرية جديدةٍ نستوعبها تترك أثراً على سطح المخ. وكلّما عبّر الفكر عن هذه النظرية أو هذا المفهوم بطريقة جديدة وأخّاذة كلّما ازداد عمق الخط الذي ينطبع بهما على سطح المخ. إلاّ أن تثبيت مثل هذه الخطوط يتطلّب حتما تركيزاً في الانتباه وفي الفكر. كما أنّه يجب أنْ يُصبح الفكر دقيقا كسنّ الإبرة الرفيعة وقاطعاً نفاذا مثله، ليحفر بعد ذلك خطوطاً تكون من العمق بما يضمن ألاّ تلتئم آثارها الحفرية فور حدوثها مباشرة، بل تبقى مدّة كافية تستطيع مادّة المخ خلالها أنّ تؤدى عمليّة التثبيت.

ولكن هذه العملية تصطدم بعائقين معاً. أما العائق الأول فهو الإرهاق الذهني الناتج من استهلاك احتياطي القوى اللازمة للوصول إلى درجة التركيز المطلوبة. وسوف نرى فيما بعد أن كمية الاحتياطي لدى الإنسان الخارجي ضئيلة جداً. لأنّه في حياته بصفة عامة، يتعايش على آخر ما تبقى له من رصيده من القوى العصبيّة، فلا يكاد يمتصّ كميّة من الطاقة إلاّ ويعادلها لتوّه بصرف كميّة تناسبها في الدرجة. فيترك الإنسان - من جرّاء استنفاذه للطاقات اللازمة له، ويكاد ذلك يكون وضعه

المستمرّ - الطريق الذي يؤدّى به إلى الجديد أي إلى المجهول، لينزلق بفكره فوق الدروب المطروقة الممهدّة تبعاً لعمليّة لا تستلزم أي جهد واعٍ، ولا تتطلب أي تركيز. أمّا العائق الثاني، فهو تلك المقاومة التي تقاوم بها مادّة المخ نفسها ذلك الفكر القاطع النقاذ الذي يجرحها كسنّ الإبرة الرفيعة.

إنّ الاستنتاجات السريعة والتعميمات التي لا تزيد عن كونها حشواً لا جدوى منه، والشعارات السفيفة المملة - كل هذه الوسائل الفنيّة الشائعة تستعملها جهات الطبيعة الإنسانيّة القاتمة الجامدة في كلّ مناسبةٍ لحث المرء على ترك البحث في المجالات الجديدة والمجهولة التي تستلزمُ كما قلنا جهوداً واعية وخلاقة.

ويُنْصَحُ باستعمال وسيلةٍ فنيّة تهدف إلى هدفين اثنين أيضاً لننجح في نضالنا ضدّ هاتين العقبتين اللتين تواجهان كلاً منا بصعوبات تختلف من شخص لآخر، وان كان لا يسلم من مواجهتهما أحدّ. فهي من جهة تتضمّن تمرينات تهدف إلى تكديس القوى اللازمة لتكوين احتياطي كافٍ من الطاقة كما تتضمّن من جهة أخرى تمارين عدة تهدف إلى الرقيّ بمستوى العمل التي تؤديه خلايا المخ. فإن تلك الخلايا تتقبّل بسهولة التهذيب والتربية - وهي مزودة أيضاً في حدود حياة الجسم - بخاصّة البقاء على ما هي عليه والاستمرار فيه. وقد تصل حساسيّة تلك الخلايا إلى درجة من الحدّة تكاد تكون إعجازاً. فتتميّز الطبائع الراقيّة بدرجة عالية من رقيّ هذه الخلايا وإرهاف حساسيّتها. ويمكن لجميع الناس من جهة المبدأ على الأقل، أن يسيروا في هذا الطريق الارتقائي فإن الباب مفتوح على مصراعيه. ولكنّ عبوره يتطلّب جهودا مستمرّة وواعيةٍ وخلاقه، ما إن لم تُبْذَل، تتوقف عمليّة ارتقاء الخلايا وازدياد إرهافها. وهو ما يحدث عامّة عندما يكْتَمِلُ تكوين الفرد. إذ تَبْدأ بعده حياته - أي يبدأ استغلاله لما يكون قد حصل عليه من تكوين، ويؤدّى ذلك في غالبية الأحوال إلى ما يمكن أن نسميّه بالتكيّف الذهني - أي إلى "تحجّر" في المخ يُفقدُ الإنسان بالتدريج كلّ قدرته على التكيّف، كما أنه يفقده بالطبع كل قدرته على النفاذ بفكره إلى أعماق المجهول تباعاً.

إنّ المعاني والوقائع السابق عرضها لتُبيّنُ لنا - بدون حاجة للرجوع إلى أسباب أخرى قد سبق أن لمحّنا إليها كما أننا سوف نعود إليها فيما بعد، كيف أصبحت الدراسات الباطنيّة وقفا على أقلية تهتم قبل كل شيء بالأمور الروحيّة كما أنها تستطيع - كما كان فرسان الجرال[8] يفعلون - أن تغتصب المعرفة اغتصاباً.

-٧-

لقد سبق وبيّنا أن شعاع الخليقة ونظام الأفلاك وحدة واحدة، في بادئ الأمر. ثم يستبين الفرق بينيهما بعد ذلك. وعليه فإن النسب بين درجات الأول والثاني تكون مختلفة. فهي في شعاع الخليقة - تبعا لاختلاف المقامات - متغايرة، أما في نظام الأفلاك، فإنها نسبٌ ثابتة.

إن العلاقات الموجودة بين الأفلاك المتجاورة لهى نفس العلاقات الموجودة بين كميّة متناهية الصغر وكميّة متناهية الكبر. إلاّ أن تلك العلاقة بفضل مفعول قانون سبعة لا تصل أبدا إلى الحد الأقصى لها أيْ إلى علاقة الصفر باللانهائي ممّا يترتّب عليه حتما ولزاماً كسر اتصال السلسلة وتهدّم النظام بأكمله[9].

---

[8] يسمى هؤلاء الفرسان على الأصح بفرسان "سان جريال"، وقد اشتقت هاتان الكلمتان أساساً من كلِمتي (Sang Royal) وتعنيان "الدم الملكي" وقد سُمّيت الكأس المقدسة التي شرب منها المسيح النبيذ في أثناء العشاء الأخير بكأس "سان جريال" تبعاً للأسطورة. ولقد قال - وهو يرفع بها إلى شفتيه - هذه الكلمات: هذا هو دمي، دم العهد الجديد، الذي أريق عن كثيرين لمغفرة الخطايا (متى، ٢٦: ٢٨؛ مرقص، ١٤: ٢٤). وتدّعى الأسطورة المتوارثة أن يوسف الاريماطى Joseph d'Arimathie قد احتفظ بتلك الكأس المقدسة، وأنه نقلها بعد ذلك إلى مقاطعة بريتانى بشمال فرنسا.

[9] أنظر لوسبنسكى في كتاب شذرات P.D Ouspensky, Fragments of an Unknown Teaching حيث توجد هذه الغلطة.

لِنُحَاوِلْ الآن أن نفهم معاني الأسماء التي سُمِّيَتْ بها درجات سلم نظام الأفلاك المختلفة.
لقد تكلمنا فيما سبق عن الفلك الأول (البروتوكوزموس) والمطلق. وتتصل الدرجتان التاليتان، وهما الفلك المقدّس (الأجيوكوزموس) والفلك الكبير (الميجالوكوزموس) بالنغمتين سي و لا في الطبقة الثمانية الكبرى على التوالي بما أسميناه بكل العوالم وبالمجرّة اللبنيّة في شعاع الخليقة. وتمثل هاتان الدرجتان الحياة النفسية والفسيولوجية في الفلك الأكبر (الماكروكوزموس) أي الكون الأكبر بصفته كائنا حيّا. والحق يقال إننا لا نستطيع على حالتنا الراهنة أن نكوّن لأنفسنا مفهوما واضحا أو نصوّر لها صورة دقيقة عمّا سبق. فإنّ مثل هذه المعرفة، ومثل هذا الفهم لا يمكن أن يتأتيّا للفرد إلا بعد ارتقاء باطنيٍّ طويل، وهي إذن معلومات ليست لها الآن بالنسبة لنا إلاّ قيمة نظرية. كما أنه على مستوى كينونتنا لا تتخذ معاني هذا النظام بالنسبة لنا أهمية عملية إلا عند الفلك الثاني (الديتيروكوزموس).
ولنتساءل لماذا سُميَ بالديتيروكوزموس - أي الفلك الثاني في حين أنّه يكوّن فعلا الدرجة الرابعة من نظام الأفلاك؟ ويستطيع القارئ أن يجيب على هذا السؤال لنفسه. يكون ذلك لسبب سبق أن أعطيناه في الفصل الحادي عشر - القسم الثاني صفحة ٢ وهو أنه لا يوجد بين المطلق ١ والمطلق ٢ أي الشمس أيّ درجة انتقالية تختلف في طبيعتها الجوهرية عنه. وهناك سدُمٌ عديدة توجد على مستوى النغمة سي للسلّم الثماني الأكبر، وهي النغمة التي توافق الأجيوكوزموس - أي الفلك الأقدس. فتطلِقُ هذه السدُم كمّيات هائلة من الطاقة التي يتولد منها نتيجة لتثاقل الذرّات مجرّات مكوّنة من نجوم أو شموس. وعليه فإنه تماما - كما أن المطلق ١ وهو نغمة دو للسلّم الثاني الأكبر يناسب الفلك الأول، كذلك المطلق ٢ وهو نغمة دو للسلّم الثماني الجانبي الفلكيّ يجئ في المرتبة الثانية ويعتبر مثيلاً للأول. ولنترك الآن جانبا أمر الفلك الأوسط فإننا سوف نعاود دراسته بعد مضيّ فترةٍ كافية. ونكتفي الآن فقط بالتنبيه إلى أن الحياة على هذه الدرجة من النظام تتمثل في العلوم الباطنيّة على صورة السماء السفلي التي تخضع لأمراء الهواء، وهم كبار قضاة الهواء. ولقد تعمدنا ذكر ذلك من أجل تحديد موقع الفلك الأوسط بالنسبة لنغمة فا للسلّم الثماني الأكبر ونغمة سي للسلّم الثماني الجانبي.
علينا الآن أن نواجه مشكلة الفلك الثالث والفلك الرابع. فلنبدأ إذن بالفلك الرابع. وإذا كانت التعاليم الباطنيّة المتوارثة لا تفيدنا كثيرا بخصوص الفلك الرابع، فإن المذهب يكاد لا يذكر عنه شيئاً. إنّ النصوص المذكورة لا تتضمّن أكثر من بعض التلميحات العابرة للمشكلة التي أصبحتْ الآن الشغل الشاغل للعلوم الوضعيّة بفضل التقدّم الحاصل، وبفضل ما توصلت إليه التكنولوچي الحديثة.
وإذا كان الفلك الثالث هو الحياة على الأرض، وهو حياة الأرض بصفتها كائنا حيّا فإن مفهوم الفلك الرابع ينطبق على القمر بصيغة مشابهة. إلاّ أن القمر إذا نظرنا إليه على مستوى نظام الأفلاك ليس إلاّ جنينا يقترب حاليا من نهاية مدة الحمل. إن الفلك الرابع لم يولد بعد. مما يوجب عليه أن يمتص قدرا من الطاقة والعناصر اللازمة له لإتمام نموّه الناقص. ولقد أصبح من الممكن بفضل تقدّم التكنولوچي الحديثة أن تصل إليه هذه العناصر بكميات هائلة، فضلاً عن الازدياد المطرد الحاصل الآن في عدد أفراد المجتمع الإنساني وتنظيم هذا المجتمع على أسس جديدة، بالإضافة لتقدُم وسائل التربية الحيوانيّة، واستغلال الأراضي الزراعية استغلالاً علمياً. إن هذه العناصر لتُنبئ بتقدم سريع لعملية نموّ القمر طوال المائة سنة القادمة. إلاّ أنّ الفلك الرابع يؤثر تأثيرا بالغاً على الفلك الثالث تماما كالجنين في رحم الأم، وهو بالتالي يؤثر على الإنسان الذي هو جزء لا يتجزأ من الحياة العضوية على الأرض كما أنه يساهم في نموّ القمر ويعتبر جنيناً كونياً.
هذا هو كل ما يمكن أن نقوله الآن فيما يختص بالفلك الرابع.
فلنعد إذن إلى الفلك الثالث. انه يسمّى بالثالث في حين أنه يوجد بينه وبين الفلك الثاني الفلك الأوسط؛ ولكننا نستطيع أن نعتبره الفلك الثالث لنفس الأسباب التي جعلتنا نعتبر أن الفلك الثاني ثانٍ في حين أنه يوجد بينه وبين الفلك الأول فلكان آخران.

إن الفلك الثالث يمثل الأرض إذا نظرنا إليها بصفتها كائناً حيّاً. ولكنه يمثل الحياة العضويّة على الأرض بالنسبة لإمكانيات إدراكنا المحدودة. وسوف نحاول الآن أن نحدّد وضعه بالنسبة للفلكين المجاورين له. إننا إذا نظرنا إلى الفلك الثاني أي إلى الشمس في مجموع نظامها على أنها وحدة واحدة، فإننا لندرك بسهولة - حتّى إذا كان ذلك من الزاوية الفلكية أو الطبيعية المحضة - أن العلاقة بين هذين الفلكين يمكن أن تقارن فعلا بالعلاقة الموجودة بين كمية متناهية الكبر وكمية متناهية الصغر. وبعبارة أخرى فإن الفلك الثاني هو الفلك العلويّ الأقرب بالنسبة للفلك الثالث.

فما هو الفلك السفليّ الأقرب إلى الفلك الثالث من جهة أخرى؟ إن هذا الفلك لا يمكن أن يكون إلاّ كائنا حيّاً - يُعتَبرُ متناهي الصغر من جهة الحجم بالنسبة للمجموع، ومع ذلك فهو أحسن نموذج يمثل الحياة العضوية على الأرض. وبما أننا قد طابقنا بين هذه الحياة العضويّة وبين الفلك الثالث، فإن الإنسان ولا شكّ أجدر الكائنات الحيّة بتمثيله.

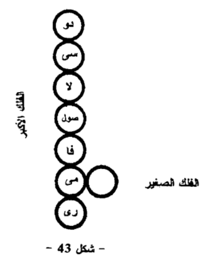
إن الإنسان إذن هو الفلك الصغير، وكأيّ فلك آخر على صورة الله وشكيلته.

ولعلنا يجب أن نلفت الأنظار هنا إلى أمر غريب: إنه من السهل علينا أن نتصوّر الفلك الثاني على صورة المسيح في مظهره الفلكي، أو في مظهره الفردي الشمسي تبعا لصورته في التعاليم الباطنيّة - كما يسهل أن نتصوّره وهو إنسان - ويتناسب ذلك كله - على أغلب الظن مع الحقيقة الموضوعيّة.

ولكنه يصعب علينا أن نتصوّر الفلك الثالث أو الفلك الأوسط على صورة الإنسان وشكيلته. إلاّ أن العلوم الباطنيّة قد لجأت دائما فيما يختص بالفلك الأوسط، وعندما تعمدتْ وصف الطبقات السماوية أو أمراء الهواء، إلى صور من هذا القبيل كما أنها قد تحرتْ أحيانا إضافة أشكال حيوانيّة مصوّرة.

-٨-

أما إذا كان مفهوم الفلك الصغير (الإنسان الصغير) كما ذكرنا، فما هو إذن محلّه في سلّم نظام الأفلاك؟ إنه يتحدّد كما في الشكل ٤٣

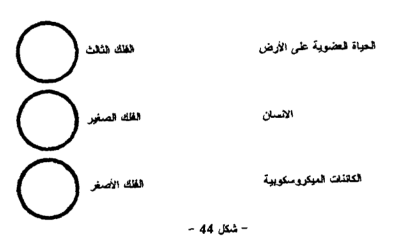


- شكل 43 -

الفلك الصغير = الإنسان الصغير =Microcosmos

ولا يجب مع ذلك أن نعتقد أن الفلك الصغير يُمَثّلَ الدرجة الأخيرة لسلّم الحياة العضويّة على الأرض. فإننا نعرف أنّه من الوجهة الفسيولوجية على الأقل ترتكز حياة الإنسان على حياة العالم

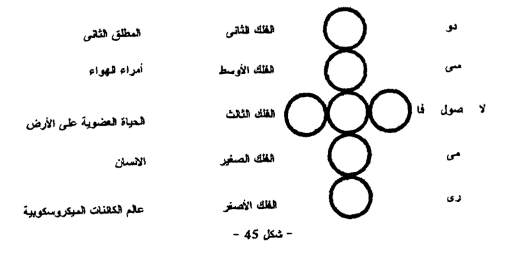
الميكرو عضوي أو العوالم الميكرو عضويّة، وأوّلها ما نسمّيه بناقلي الحياة وحاملي مبادئ الجنس الأساسيّة، وهي الحيوانات المنويّة والبويضات، ويلي ذلك سلّم كامل من الخلايا الكبيرة والصغيرة منها البروتوزوا والبكتيريا والفيروسات التي تكوّن عالماً يظل خافياً عن أنظارنا ما لم نستعمل الميكروسكوبات. بحيث إننا إذا رجعنا إلى مبدأ تجميع الأفلاك على شكل ثلاثيات نستطيع أن نستنتج أن حياة الإنسان بوصفه الفلك الصغير تُحدّدها الحياة العضوية على الأرض من جهة - أي الفلك الثالث وإن كانت لا تمثّل إلاّ جزءا لا يكاد يذكر فيها، كما تُحدّدها حياة عالم الكائنات الميكروسكوبية وهي تعيش في الإنسان وترتقي على حسابه، وان كانت كلُّ وحدة من وحدات هذه الحياة تُعتبر متناهية الصغر بالنسبة له. ونحن نبيّن في الشكل التالي العلاقات المذكورة:



- شكل 44 -

التريتوكوزموس (Tritocosmos) = الفلك الثالث؛
الميكرو كوزموس (Microcosmos)= الإنسان = الفلك الصغير؛
الميكرو ميكروكوزموس (Micro-Microcosmos)= الفلك الأصغر = الكائنات الميكروسكوبية.

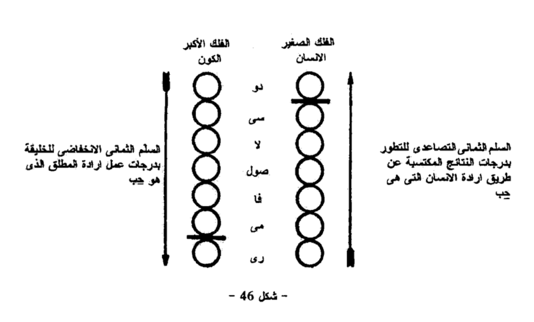
ويسمح لنا هذا الشكل أن نفهم الشكل الخاصّ بالسلّم الثماني الجانبي الفلكي فهما جيّدا، وهو سلّم الفلك الثاني إذا نظرنا إليه من الوجهة الديناميكيّة.



- شكل 45 -

{الفلك الثاني = Deuterocosmos؛ الفلك الأوسط = Mesocosmos؛ الفلك الثالث = Tritocosmos؛ الفلك الصغير = Microcosmos؛ الفلك الأصغر = Micro-microcosmos}.

ولا بدّ لنا بعد كلّ ذلك أن نستنتج أنه إذا كان تطوّر الكون لم يكمُل على امتداد شعاع الخليقة الخاص بنا - إذّ إن الفلك الرابع لم يولد بَعْدُ - فإننا من جهة أخرى - أي على الطرف الآخر لنفس المقام نرى ارتقاء الإنسان بصفته الفردية قد تعثّر على مستوى المراكز السفليّة الثلاثة - وتعتبر هذه القوى الثلاث في الإنسان الخارجي قوىً مشتتة الأثر، وعليه هو أن يحقق وحدتها، فيحقق بذلك الهدف الفعلي للدراسات الباطنيّة والتمارين العملية المتصلة بها. وقد تمثلت في الشكل التالي جميع المهامّ الموكول إليه تنفيذها من أجل أن يطور الفلك الأكبر والفلك الصغير معاً:



- شكل 46 -

إن المعاني والأفكار والوقائع التي عرض لها هذا الفصل سوف تساعد القارئ على إدراك المهمة الموكول إلى الإنسان القيام بها، في مجموع نظام الأفلاك، وتقدير مدى المسؤولية الواقعة عليه.

-٩-

لقد تمكن الإنسان بفضل تقدم العلم والتكنولوجي من أن يمسك بزمام الأمور بين يديه، وأن يتحكم في حياة الأرض العضوية على مستواها البيولوجي. ولقد رأينا أن الحياة العضوية تعمل كمحطة لتوصيل الطاقة الباعثة للحياة إلى الأرض وإلى القمر عبر الفاصل بين فا ، مي من السلّم الثماني الأكبر. وهي مهمّة تكاد تكون قاتلة لثقل مشاقتها. وتتطلب كميّة الطاقة الغير كافية التي تصل إلى القمر في ظروف السلام على الأرض بفضل ما يؤديه الإنسان من أعمال مع ما يحيط به من نبات وحيوان - أن يتدّخل الفلك الثاني تدخلاً حتمياً وحاسماً يُحدث في الفلك الثالث هزّات شاملة وعميقة، وهدفها ضمان تغذية الجنين الفلكيّ - أي الفلك الرابع وضمان نموّه بفضل ازدياد مطّرد في صرف

الطاقات المطلوبة على هذا المستوى بالذات. هذا هو السبب الفلكي الأعلى لقيام الحروب واندلاع الثورات وانتشار الأوبئة وغير ذلك من الكوارث الكبرى التي تنتاب الإنسانيّة. لقد لوحظ منذ قديم الزمن أن توالى ظهور البقع الشمسية الكثيفة ينتج عنه على الأرض زوابع مغناطيسيّة وحالة سيكولوجيّة تؤدى عامّة إلى اشتباكات على المستويات الاجتماعية والدولية وبين مختلف الأجناس.

كلّما زاد عدد أفراد الجنس البشرى، فاستطاع الإنسان أن يزيد من كميّة الماشية ويحسّن من أنواعها كذلك فيما يختص بالأراضي المزروعة...الخ. ممّا يجعل النغمات لا وسول من الطبقة الثمانيّة الجانبيّة تردّد أصواتاً نقيّة قويّة، ويتمشى ذلك الأمر بالطبع تمشيًا تاماً مع قوانين الأفلاك، كلما قلّ نصيب الطاقة الذي يجب على كلّ واحدٍ من سكّان الأرض أن ينتجه، وكلّما أصبحت الحياة على الأرض سعيدة ورغدة ومتيسّرة.

إلا أنه كلما خفّتْ عن عاتق الإنسان قيود هذه العبودية كلما ظهرت أمام وجهه مشاكل أخرى كما أنّه لن تكفّ المشاكل تتوالى. ولكنّها سوف تقابله على مستوى أرفع في كلّ مرّة. وعلى الإنسانيّة قبل ذلك أن تمرّ بنجاح عبر اختبارات نضوجها. نعم إنّ تقدّم التكنولوچى السريع يجعل عصرنا عصراً يزدهر بالوعود البرّاقة. ولكن الأمر يختلف تمام الاختلاف فيما يختص بالتقدم الأخلاقي. فقد أصبح لزاما على الإنسان الخارجي أن يبذل قدراً هائلاً من الجهود الواعية على المستوى الباطنيّ من أجل أن يعود التوازن المفقود بين العلم والوعي، ومن أجل أن يساهم مساهمة ناجعة كما يجب عليه أن يفعل، في عمليّة ارتقاء نظام الأفلاك ارتقاءً متناسقاً منسجماً بفضل ارتقائه هو.

الفصل الثالث عشر

مبدأ النسبية - المفهومات الموضوعية والذاتية للزمان - وحدات الزمان - جدول التكافؤ - العلاقة الحسابية بين مختلف وحدات الزمان: الانطباع، التنفس، الصحو أو الاستيقاظ، النوم، الحياة الاعتيادية - جدول الارتقاء - أبعاد وفضاء (مكان) الزمان - موازاتهم.

-١-

لعل القارئ لازال يذكر أن الزمان يكوّن المبدأ الأكبر الثاني عند التجليّ وفي خليقة الكون. فإن الكون بكل ما يحتوى عليه يوجد في الزمان تماما كما يوجد في المكان. وهو يخضع لقانونين أساسيين هما قانون ثلاثة وقانون سبعة. ويهدف قانون سبعة إلى حصر فعل الزمان الهدّام في نطاق نظم دوريّةٍ - كبيرة كانت أم صغيرة - تسمح لكلّ ما هو مخلوق بالاستمرار والبقاء.

ولا ينفصل مفهومنا للزمان عن مفهومنا للحركة. وبعبارة أخرى فإننا لنتصور الزمان نلجأ إلى الحركة، وهي تخضع لقانون سبعة. وسوف نحاول الآن أن نتعمّق في فهم طبيعة الزمان على قدر ما نستطيع: إلاّ أن انغماسنا مع كلّ ما لدينا من مفهومات في نفس الزمان يصعّب من عمليّة الاستكشاف ويحد من مداها.

وتواجهنا دراستنا للزمان في بادئ الأمر بمبدأ النسبيّة. ويحيط هذا المبدأ بكل المظاهر المتعددة للتجليّ الموجودة في داخل الظاهرة الزمنية نفسها، كما أنه يجعلها تبدو - وهو في ذلك يشبه الفانوس السحري تماماً - بمثابة أشكال متلاشية لا يقرّ لها قرارٌ. إن ما يوجد سوف يوجد في داخل الزمان إلى أن يجئ اليوم الذي يُنفخ فيه في البوق السابع فيعلن أن العمل الذي قد أنشأه المطلق لاقى تمامه. وعندئذ فإن ملكوت الأرض يصبح ملكوت الله وملكوت المسيح الذي هو ألفا التجلي والأوميجا فيه. ولقد كان الملاك يحلف تبعاً لرؤيا يوحنا في جزيرة بِاثموث: أنه لن يكون زمان بعد ذلك [1].

-٢-

أننا وقد بدأنا في دراسة الزمان لا يجب أن نغفل ما في أحاسيسنا من ذاتيّة. ولكنّنا لا نستطيع أن نصل إلى ما هو موضوعيّ إلاّ عن طريق ما هو ذاتيّ. فإن في ذلك المعنى العميق للعلوم الباطنيّة: إذ هي تسمح للإنسان الخارجيّ أن يعطى نفسيّته الذاتية قيمة موضوعيّة حقّة. فإنه يستطيع أن يصل إلى ذلك بطريقة كالتي تستعمل في حالة ضبط الآلات الدقيقة: إذ يُعيّن في تلك الآلات قبل استعمالها ما نسميّه بمُعدّل الخطأ فيها. فإذا أخذت "ذاتيّة" الآلات هذه باعتبار كاف، أمكننا أن نسجّل بها مشاهدات صحيحة، رغم ما فيها من الأخطاء. ولكي ندرس جميع ظواهر عالمنا الداخلي إلى جانب ظواهر العالم الخارجي دراسة دقيقة، علينا قبل ذلك أن نحدّد ونقدّر معدل الخطأ للآلة النفسيّة التي نستعملها في هذه الدراسة، وهى واحد من أهم عملاء الشخصيّة. إن جميع الدراسات الباطنيّة لتتّجه بكل جهودها نحو هذا الهدف. حتى إذا ما حققه الإنسان - عند ولادته الثانية - دخل بذلك إلى مجال جديد من مجالات الشعور والوجود، مجالٍ يختلف تمام الاختلاف - كما أنه موضوعيّ لا يستطيع الإنسان الخارجي أن يدركه إلا بواسطة تصوّرات متماوجة غامضةٍ.

---

[1] سفر الرؤيا، ١٠: ٦، ١١: ٥.

وبناء عليه، فإنّه مادامتْ طبيعتنا تتسم بالذاتيّة - أي بالنسبيّة، لن نستطيع أن ندرس الزمان دراسة عميقة حقة إلاّ إذا استعنّا بمبدأ النسبيّة.

-٣-

إن إحساسنا بالزمّان إحساسا يتغاير. وهو يتغاير بصيغتين: من شخص إلى آخر أولاً، أمّا بالنسبة للشخص الواحد فتبعاً للظروف الطبيعيّة أو النفسيّة التي يوجد فيها. فإن للسنّ والحالة الصحيّة والانفعاليّة تأثيراً معروفاً للجميع. إلاّ أنه يوجد إلى جانب تلك الحالات العامة حالات خاصة يتلاشى الزمّان فيها تماماً: كما يحدث مثلاً في حالات النوم العميق التي لا تصحبه أحلامّ، أو عندما نفقد الشعور وقتياً، أو في حالات التخدير العام. ويعزى فقدان الإحساس بمفهوم الزمّان فيها إلى أسباب فسيولوجيّة: إلا أن الإحساس بالزمّان قد يختفي أيضاً على أثر مجهودٍ واع وإراديّ كما يكون ذلك بالذات عند التركيز الذهني. فإذا جاهد الباحث بمثابرة لا تملّ لوحِظتْ هذه الظاهرة على أثر التمارين الأولى. وكلّما ازداد التركيز الذهني حدّة وتأكيداً كلما قل إدراك الباحث للزمان. حتى إذا ما توصّل بفضل جهوده المنظمة المتواصلة - إلى إزالة كل شيء يَعْتَرض مجال مراقبته الذهنية - فيما عدا موضوع تركيزه مهما كانت طبيعته - شيئاً يتسم بصفات فيزيائية طبيعية كان أو موضوعاً أخلاقيّا - ثم استطاع بالإضافة إلى ذلك أن يحتفظ بقوّة انتباهه مثبتة على نقطة واحدة - ممّا يولّد ما يسمى بظاهرة التأمّل - اختفي الزمان اختفاءً متكاملاً بالنسبة له. ونحن نرى على نقيض ذلك أنه كلّما ازداد انتباه المرء تشتيتاً، كلّما ازداد الزمان بالنسبة له امتداداً.

إنها ظاهرةٌ موضوعيّة في حدّ ذاتها. بل إنها لقانون. وسوف نشرح سبب وجودها مع الوسيلة التي تُؤدّى بها عملها فيما بعد عندما نتعرض لدراسة مذهب الحاضر.

وهناك ظاهرة أخرى يجب أن نهتم بالتنبيه إليها: إنها قدرتنا على التغيير من سرعة إدراكنا للزمان: وهو ما يحدث كل يوم وفي عدة مناسبات. إلاّ أنّنا لا نعير هذه الظاهرة اهتماما لأنها تحدث بشكل ميكانيكي وعلى نطاق ضيّق. ولكنها ظاهرةٌ يمكن أن تتكرر إراديّة وعلى نطاق أوسع.

فلقد قصّ علينا أحد أبطال لعبة التنس، أنّه في إحدى المباريات، تلقى كُرةُ بالغة الصعوبة، فرأى هذه الكرة فجأة تقترب منه ببطءٍ. وكان أن مكّنته شدّة بطئها من تقدير الموقف تقديراً إجمالياً واتخاذ قرار مناسب، كما مكّنته أخيراً من تصويب كرة لخصمه <ببراعة فائقة> انتزعت إعجاب الخبراء.

وتكون الحالات التي يبدو الزمان فيها على حالة من التمدّد نتيجة لزيادة بالغة في سرعة تذبذبات المراكز عامة - وفي سرعة تذبذبات المركز الحركي على الأخصّ، وهو المركز المهيمن على عمليّة تسجيل ظواهر العالم الخارجيّ والعالم الداخليّ.

ونستطيع أن نقول بصفة عامة إنه كلما زادت سرعة التسجيل الحسّي للفرد كلما بدت له الحركة التي يتتبعها بطيئة. وعلى النقيض من ذلك فإنه كلما ضعفت سرعة التسجيل الحسيّ كلما بَدَتْ له نفس هذه الحركة - أو بالأحرى كلما بدا له سريان الزمان - سريعين.

-٤-

ونحن نستطيع أن نميّز - على المستوى الذاتي بالنسبة لسرعة التسجيل الحسيّ - بين أربعة أنواع من الحركة:-

حركات تكون سرعتها صغيرة إلى درجة تجعل الجسم المتحرّك يبدو ساكنا. ومن أمثلة ذلك كافة ظواهر النموّ، وتنقل عقارب الساعة التي تشير بواسطتها إلى الساعات والدقائق حركات تكون سرعتها في متناول التسجيل الحسّي، وان كانت لا تغيّر شكل الجسم المتحرك في الحسّ. ومن أمثلة

ذلك كافة الحركات التي نراها في حياتنا اليومية، كالمشي والرقص، أو العربات والسيارات والطائرات والسفن، أو حركات عقارب الثواني الخ.

حركات تكون سرعتها أكبر من ذلك بكثير مما يجعل تسجيلها الحسيّ للجسم المتحرك تسجيلاً مشوّها فلا نستطيع أن نتتبع إلاّ آثار حركة الجسم فقط. ومن أمثلة ذلك الحركات السريعة، وخاصةً إذا تكرّرتْ كالحركات التذبذبية الناتجة مثلا عن شوكة رنانة الخ...

حركات تبلغ سرعتها حدّا فائقا يجعل الجسم المتحرك "يتلاشى" ومن أمثلة ذلك المنحنى التي ترسمه الرصاصة المنطلقة الخ...

ولقد بيّنا أن أنواع الحركة أنواع ذاتيّة - أيّ أنه يمكن لشخصين أو أكثر أن يختلفوا في تسجيلهم الحسي لسرعة نفس الجسم المتحرّك - وخاصّة إذا كانت شديدة القرب إلى الحدود الفاصلة بين أيّ نوعين من هذه الأنواع الأربعة -. وهي تعتبر موضوعيّة لأيّ شخص بمفرده بالنسبة لسرعة تسجْيله الحسيّ بالطبع، ولنْ يفوتنا أن ننبه إلى أهميّة الملاحظة السابقة. فإننا سوف نستطيع أن نقدّر النتائج الحاصلة في مجال السيطرة على المركز الحركي وقسمي المركزين الآخرين الحركيّين بواسطة التغيّرات التي تعترى تسجيلنا الحسّي للحركات المختلفة.

ويلعب اكتسابنا للقدرة على تغيير سرعة تسجيلاتنا الحسّية تغييراً إراديا - إنْ إسراعا أو إبطاءً - دوراً هامّا في عمليّة الارتقاء الباطنيّ، فإنه يجد تطبيقاً عملياً في مَجَال الحركات كلّها ومنها العمل النفسي، وهو أساساً حركةٌ، فإننا نستطيع بفضل تدريب مناسب للفكر فينا، أن نحيط من جهة بمجموعة كبيرة من الأفكار والمعاني التي لم نكُنْ لنلمّ بها قبل ذلك بهذه السهولة. كما نستطيع أن نتعمّق من جهة أخرى بحدّة فائقة في أدق التفاصيل وأصغرها. كما تزيد طاقة الباحث على العمل بنسبٍ هائلة بفضل حيازته على هذه القدرة. إلاّ أن العمل بمثل هذا التدريب - على مستوى العواطف والانفعالات يسمح لنا بادراك ما تصبوا إليه كبرى التجمعات الإنسانية في الخفاء - إن كانت دولاً بمفردها أو مجموعات متحدة من الدول - كما يسمح لنا بتبنيّها وإظهارها في الإطار المجسّم الملائم لها. وهو يكشف على المستوى الفردي للحياة الانفعالية عن أعماق مجهولة.

ولقد كان كبار قادة الإنسانية يتمتّعون جميعاً بهذه القدرة على قسط هائل من التطور كالإسكندر الأكبر، والإمبراطور أغسطس، والقيصر بطرس الأكبر وجميعهم ممّن أعطت أعمالهم اتجاهاً جديداً لتاريخ الشعوب. وهو ما يفسّر لنا سرّ طاقتهم الخارقة على الإفادة الفائقة من الزمان فليس هناك تفسير آخر لذلك.

ويجب أن نذكر هنا قاعدة هامة من قواعد العلوم الباطنيّة، تتمشى مع الاعتبارات السابقة وهى تقول: إن الدقة في المحافظة على المواعيد هي مخزن الزمان الحافظ له.

-٥-

سوف نحاول الآن أن نحدّد بعض وحدات الزمان مع عمل كامل الاعتبار لمبدأ النسبيّة. وهى وحدات طبيعيّة ولكن قيمتها تتخذ مقادير مختلفة تبعاً لدرجات سلّم الأفلاك المختلفة التي تنطبق عليها. وإن كانتْ تلك القيمة مطلقة من الوجهة النظرية البحتة.

إن الحياة العضوية تتميّز بخاصّية التنفس. ألم يردْ في النصوص المقدّسة أن الله بعد أن كوّن الإنسان من تراب الأرض، قدْ نفخ في فتحتي أنفه نفس الحياة فأصبح روحاً حية[٢]؟ ألم يرفع الملك داود صوته معلناً بجهارة أن كلّ ما يتنفسُ يمجّد الباقي أزلاً[٣].

[٢] سفر التكوين، ٢: ٧، ٧: ٢٢، أعمال الرسل، ١٧: ٢٥.

[٣] المزامير، ١٥٠: ٦.

إذا كان التنفس، كما قلنا مسبقاً هو الميزة الأساسيّة (أو الخاصة الرئيسيّة) للحياة العضويّة، المحرك الأول الذي يوصل الحركة إلى مجموع الأعضاء ويضبط تأدية وظائفهم، فهو من المنطقي أن نعتبر دوام التنفس (زمن التنفس) للنوع (الجنس) كوحدة الزمان القاعدية.

إلاّ أن الحياة العضويّة على الأرض تخضع لحياة الجنس البشري[4]، وتتبع خطاها على طريق الارتقاء. ولقد أخذا الإنسان يسيطر بالتدريج على ارتقاء العالَميْن الحيوانيّ والنباتيّ بفضل الإسراع المطرّد في التقدّم العلميّ. فأصبح يغيّر من طبيعة الأرض، ويحوّل الأنهار عن مجاريها الأصليّة، ويَستكشف باطن الأرض ليستغله كما أنه نجح في تفتيت الذرّة. وينتظر أن يصل الازدياد الحاصل في الحياة العضويّة بالإضافة إلى استغلالها استغلالاً منطقياً إلى أقصى حدوده، في المستقبل القريب. فيساهم الإنسان بذلك - بدون وعى منه - مساهمة ناجحة في تطوير شعاع الخليقة الخاصّ بنا، وبالتالي في ارتقاء كوكبنا وارتقاء قمره.

ولقد علمنا من جهة أخرى أن الإنسان يحوى في داخله على عناصر الطبيعة. وأنه ليبدو من الطبيعي إذن أن نعتبر تنفس الإنسان وحدة الزمان الأصلية بالنسبة للفلك الثالث، وهو الحياة العضويّة على الأرض.

كما أننا نعلم أن مدة تنفس الإنسان البالغ تساوى ثلاث ثوانٍ بالتقريب. هذه هي الوحدة الأساسيّة الأولى للزمان.

أما الوحدة الثانية بالنسبة للحياة العضوية كلها فهي اليوم الكامل. كما أنها بالنسبة للإنسان والحيوان الدورة التي تشمل الصحو والنوم وتتابع فيها فترتا النشاط والراحة. وأخيرا فإن أطول وحدة طبيعيّة للزمان بالنسبة للإنسان هي طول حياته نفسها، وتقدّر عامّة بثمانين عاماً.

فإذا قارنّا هذه الوحدات الثلاث فيما بينها نرى أنّ بينها علاقة حسابية تساوى ١: ٣٠،٠٠٠ تقريبا. فإن كل ٢٤ ساعة تحتوى على ٢٨،٨٠٠ عملية تنفس تستغرق كل واحدةٍ منها ٣ ثوان، في حين تتضمّن الثمانون عاما ٢٩،٢٠٠ يوماً. أما إذا قسمنا الثلاث ثوان التي تمثّل مدة التنفس الواحد على نفس المعامل ٣٠،٠٠٠ فإننا نحصل على ١ /١٠،٠٠٠ من الثانية، وهى المدة التي يستغرقها البرق، وهى تمثّل أيضا أقصر انطباع بصري للعين.

وإذا كانت عملية التنفس تستغرق في الإنسان ثلاث ثوان فإنها تستغرق في الطبيعة - أي في العالم النباتي، مدة أطول بكثير - أي أنها أبطأ بكثير منها في الإنسان. إنّ الدورة التنفسيّة تتضمن شهيقا وزفيرا تستغرق في النبات ٢٤ ساعة إذ أن الشهيق يتم نهارا بينما يتم الزفير ليلا. ويساهم الإنسان أيضا بصفة وحدة من وحدات الحياة العضوية على الأرض في إيقاع الطبيعة التنفسي الدوري ويستغرق كما قلنا مدة تعادل ٢٤ ساعة. فإن التنفس في الإنسان يعتريه التغيير فعلاً أثناء النوم فيشمل الإيقاع العددي فيه بالإضافة إلى محتوياته الكيماوية.

ومما سبق نستطيع أن نستنتج أن المعامل العددي المساوي لـ ٣٠،٠٠٠ يظل ثابتاً على مستوى سلّم الوحدات الزمنيّة الخاصّة بالفلك الصغير كما يظل ثابتا في علاقة مدة تنفس الفلك العلوي المجاور له أي بمدّة تنفس الحياة العضوية على الأرض. ولقد سمحت لنا الاعتبارات السابقة بإقامة الجدول التالي:-

	الإنسان	الحياة العضوية على الأرض
الانطباع الواحد	٠،٠٠٠١ ثانية	—
مدة التنفس	٣ ثوان	٢٤ ساعة
دورة الاستيقاظ والنوم	٢٤ ساعة	؟
فترة الحياة الاعتياديّة	٨٠ سنة	؟

---

[4] سفر التكوين، ١ كما سبق أن ذكرنا.

فما أغرى تطبيق نفس المعدّل العددي (٣٠،٠٠٠) على الحياة العضوية في مجموعها تطبيقا مباشراً. لكننا يجب أن نقاوم هذا الإغراء فهو خطأ جسيمّ، كما نستطيع أن نرى ذلك لتوّه. فإن الحياة العضويّة في هذه الحالة سوف تقتصر على مدّة لا تتجاوز ٢،٤٠٠،٠٠٠ سنة، وليست بالمدة الكافية بالطبع.

-٦-

لقد استطاع علم الأنثروبولوجيا بفضل الوسائل الحديثة المستعملة في تحديد أعمار الهياكل العظمية لإنسان ما قبل التاريخ وحيواناته، أن يقيم جداولً زمنية تعتمد على ارتقاء الجنس البشرى بعد انفصاله عن الفصائل الحيوانيّة الراقيّة. ولا ننكر بالطبع أن أرقام هذه الجداول أرقام تقريبيّة، ولكنّها تتضمّن نسباً مدّرجة لها أهميتها.

ولعلنا نفيد كثيراً إذا اطّلعنا بسرعة على ما يُقدّمه لنا علم الأنثروبولوجيا من نتائج قد حصل عليها بفضل مناهج العلوم الوضعيّة وحدها، فنتعمّق في فهم دور الإنسان الأساسي ودور ارتقائه في تأثيره على ارتقاء الحياة العضويّة في مجموعه، ممّا يؤكد أهميّة رسالته في الارتقاء بشعاع الخليقة الخاصّ بنا بما في ذلك الفلك الرابع[5].

العصور الجيولوجية	التواريخ التقريبيّة (حتى يومنا هذا)	فترات تطوير الأشكال الجسميّة للإنسان	العصور الأركيولوجيّة	فترات تطوّر المجتمع الإنساني البدائي		
الهيلوسين أو العصر الحالي	١٤٠٠٠ سنة	الشكل الجسمي الحالي للإنسان Homo sapiens recens	العصر الحديدى العصر البرونزي النيوليثيكى	تنظيم ما يسمى بالـ gens (الأسرة الموحدة الأصل)	بليستوسين	العصر الرابع الذي تكوّن فيه الإنسان
العصر الجليدي الحديث	٤٠٠٠٠ سنة	الشكل الجسمي الحالي للإنسان Homo Sapiens fossilis	الباليوليثيكى الحديث أو الأعلى	الكوميونات القديمة التابعة لما يسمى بالـ gens Matriarcale (نظام الأسرة ذات الأصل الواحد المنسوب للأم)		
العصر الجليدي الأوسط	١٠٠٠٠٠ سنة	إنسان نياندرثال	الباليوليثيكى القديم	القطعان البدائيّة		
العصر الجليدي القديم	٨٠٠٠٠٠ سنة	إنسان هيدلبرج ثلانتروب سينانثروب				
بليوسين مايوسين اوليجوسين ايوسين	٦٠٠٠٠٠٠ سنة	اوسترالوبيثيك رامابيثيك بريوبيثيك	–	–		العصر الثالث

[5] ابعد للخطوات الزمنية في تطوّر الإنسان البدائي. وضع الجدول الزمني ب. ى. بوريسكوفسكى، ماضي الإنسانية البعيد، موسكو طبعة أكاديمية العلوم بوريسكوفسكى ١٩٥٧ ص ٣١٢ مترجم عن الروسية.

ولا يجب أن نستغرب لقدم ظهور الإنسان كما يتبيّن لنا من هذا الجدول. هناك البيانات عن الإنسان تسمح لنا بتكوين فكرة عامّة عن بطء ارتقاء الجنس البشريّ:

لا يتعدّى الحجم الأقصى للمخ في القرود الأنثروبولوجية .... ٦٠٠ - ٨٠٠ سم[٣].

أما عن حجم مخ البيثيكانثروب (قامته ١٦٥ - ١٧٠ سم) .... ٨٥٠ - ٩٥٠ سم[٣].

كان هذا النوع البشري يتمتع بنطق بدائي جداً، كما أنه كان منتصب القامة.

أما مخ السينانثروب ويعتبر أول جنس بشريّ بمعنى الكلمة فإن حجمه عند المرأة... ١٠٥٠سم[٣]

وعند الرجل .... ١١٠٠ - ١٢٠٠ سم[٣]

وقد لوحظ فيه أنه يفضّل استعمال اليد اليمنى عن اليد اليسرى، وهو من مميّزات الإنسان.

ولا نكاد نلحظ ذلك في حالة البيثيكانثروب، وهناك عدمُ تناسق نصفي يعتري تركيب المخ في حالة تفضيل اليد اليمنى على اليد اليسرى.

وكان السينانثروب يستطيع أن يتكلم. ولقد استنتج ذلك من البروز الواضح الموجود على عظام الرأس والناتج عن أثر ضغط الجزء الخلفي السفلى للتعريجة الجبهيّة السفلى من المخ على سطح العظمّة المناسبة.

يتراوح حجم مخ الإنسان المعاصر بين .... ١٤٠٠ - ١٥٠٠ سم[٣]

لقد أخذ الإنسان البدائي يتقدّم على الطريق الطويل المؤدى إلى التقدم العلمي المادي بفضل قدرته على العمل، وبقدر ما كان يبذله من جهد كما سمحت له بذلك قدرته على إصدار مقامات متسعة من الأصوات المختلفة التي مكّنته من إنشاء اللغة.

-٧-

ولعلّ ما سبق قد بيّن لنا بوضوح أنه لا يجوز في حالتنا الراهنة لتقدّم العلوم أن نطبق المعامل ٣٠٠٠٠ على الوحدات الزمنيّة المقارنة في الأفلاك المتجاورة. كما فعل ذلك بعض الكتاب[٦] إلا أنّ البيانات الموجودة في الجداول السابقة تسوقنا إلى المشاهدة التالية. إنّ المعدّل العددي المذكورْ ٣٠٠٠٠ يبيّن العلاقة الموجودة بين تنفس الإنسان وتنفس الحياة العضوية: يجدُرُ بنا إذن أن نُطبّقه على سلّم ارتقاء الإنسان لأعلى مستوى الأفلاك. ولكننا مع ذلك، وإذا كان يمكننا أن نطبّق الجدول السابق للوحدات الزمنية المختلفة على مستوى الإنسان الخارجي والإنسان ٤، فإننا لا نستطيع أن نطبّقه على الذين قد بلغوا مستويات الوعي العليا، ونعنى بهم الرجال الداخليين ٥، ٦، ٧. ولقد نظمنا الوحدات الزمنية المختلفة بموجب هذا المبدأ كما هو مبيّن في الجدول التالي، تبعاً لشتى مراحل الارتقاء الباطنيّ. ويجب أن ننبّه القارئ إلى أن العامود الأول مخصّص للرجال ١، ٢، ٣، ٤ إلا أن الإنسان ٤ لازال يعتبر خارجياً. إلا أنه يتمتع بالاتزان التامّ.

ولعل القارئ لازال يذكر أن الإنسان ١، ٢، ٣، ٤ لم يتطوّر فيه بعد تطوّراً تاماً إلاّ الجسم الطبيعيّ. ولكنّه يكتسب بعد تكامل تطوّر شخصيّته وما يترتب عليه من ولادة ثانية، جسماً كوكبيّا. حتى إذا ما بلغ مرتبة الإنسان ٥ أصبح لا ينتمي إلى الفلك الثالث فحسب، بل إلى الفلك الأوسط أيضاً وهو يتفق مع النغمة فا للسلم الثماني الأكبر. ويقال عن مثل هذا الرجل إنه زُوّدَ الآن بالحياة الكوكبيّة. فإذا بلغ مرتبة الإنسان ٦ وحاز على جسم ذهني قد تطوّر ووُلد، فإنه سوف يساهم أيضاً في حياة

---

[٦] انظر لوسبنسكى المؤلف المذكور ص ٤٥٩ والتالية (النسخة الفرنسية).

الفلك الثاني. وهناك إذ يدّعم ما قد حصل عليه من النتائج - يبلغ مرتبة الإنسان ٧ - وبذلك يكون قد بلغ أقصى درجة يستطيع أن يرقى إليها بصفته إنسان يعيش على سطح الأرض. وهو إذ يزوّد بما يسمى بجسم النعمة (أو بالجسم ألسببي) يُقبل في صدر تلك الأخويّة العليّا التي قال عنها القدّيس بولس الرسول أن الابن فيها سوف يصبح بكرا ما بين إخوة كثيرين [٧].

واليك الجدول الشامل:

مراحل الارتقاء ← / وحدات الزمان ↓	الإنسان ١، ٢، ٣، ٤ الجسم الطبيعي	الإنسان ٥ الجسم الكوكبي	الإنسان ٦، ٧ الجسم الذهني يدعمّه جسم النعمة
الانطباع الواحد	٠،٠٠٠١ من الثانية	٣ ثوان	٢٤ ساعة
التنفس	٣ ثوان	٢٤ ساعة	٨٠ سنة
اليوم الكامل	٢٤ ساعة	٨٠ سنة	٢،٤٠٠،٠٠٠ سنة
الحياة	٨٠ سنة	٢،٤٠٠،٠٠٠ سنة	٧٢ مليار سنة

-٨-

عُرف مبدأ النسبيّة من قديم الزمان. فقد قال القدّيس بطرس الرسول أن اليوم أمام الرب كألف سنة [٨]. كما أننا نقرأ في صلاة موسى أن ألف سنة أمام عينيك كيوم البارحة.....كسهرة في الليل [٩]. ونحن نجد عند الغنوصيين (الباطنيين) إشارة مماثلة استَقَوْهَا على أكبر الظن من نفس المنبع: أن يوم النور الواحد كألف سنة من سنين العالم [١٠].

ولا نعرف بالضبط ما كانت تعنيه في النصوص المذكورة كلماتّ مثل "يوم" و "السهرة في الليل" و" يوم النور الواحد" ولكنّ يبدو أنه كان لذلك كله مبدأ نظريّ ثابت ومتفق عليه. ولكننا لن نستطيع أن نوفق بين هذه النصوص المختلفة والتأويلات المتباينة إلاّ بالرجوع إلى المصادر القديمة والبحث فيها من جديد [١١].

---

[٧] للرسالة إلى أهل رومية، ٨: ٢٩.

[٨] للرسالة الثانية لبطرس، ٣: ٨.

[٩] مزمور ٨٩: ٤.

[١٠] عن المصدر القبطي المترجم باسم Pistis Sophia أيّ الحكمة الخفية.

[١١] ولم تنجح المحاولات الكثيرة التي عملت من أجل التوحيد على قاعدة ثابتة بين النصوص المذكورة وشتى المصادر الهندية - أو إيجاد مطابقات كاملة - ولكنها أدت إلى نتائج متقاربة. وتستعمل المصادر الهندية وحدات تُشابه الوحدات المذكورة تنفس براهماء أو يوم وليلة براهما. ولكن نفس المصادر تصل بالنسبة لما يسمّونه بالماها مانفانتيرا - أي التجلي الأعظم إلى ٣،١٠ [١٤] من السنين. بينما أننا إذا أضفنا

-٩-

هذه هي بعض إشارات مختصرة بالطبع يمكن استنتاجها من جدول التكافؤ الزمني.
إن الباحث إذ يصل إلى الولادة الثانية فيُزوَّد بجسم كوكبي، ويرتفع إلى مرتبة الإنسان - ٥- ينتمي إلى الفلك الأوسط بصفة نهائية، وان كان لازال يعيش على الأرض.
فيؤهله ذلك من الاضطلاع على الفلك العلوي المجاور - أي على الفلك الثاني، وهو الفلك الخاص بالابن. فإننا نجد مثلا العبارة التالية في ترنيمةٍ من التراتيم التي ينشدها المؤمنون خلال دورة البصخة - وقد تبدو غريبة لمن لا يتنبّه إلى ما سبق: إنني لأشاهد قصرك يا ربي.
والحقّ أن الحياة الكوكبية التي تتعدّى مليوني سنة أرضية لجزاء وفيرٌ بالنسبة لما يتحتّم على الباحث أن يبذله من جهد في عمله. فإننا إذا أغفلنا ذكر الحياة الشمسية، وهي خاصّة بالإنسان ٦، ٧ فإن حياة الإنسان -٥- بالنسبة لشعور الشخصيّة فينا، وهو شعورٌ نسبيٌ ومحدّد من جميع الجهات، تمثّل الخلاص حقاً كما تمثّل الحياة الأبديّة وهما معاً موضوع الصلوات الخاصة بالطقوس المسيحية.
إلاّ أن الإدراك الحسي للزمان مماثلٌ في شتى الأفلاك المختلفة. حيث إن كل فلك ثلاثيَ الأبعاد في حدّ ذاته ومماثلّ لباقي الأكوان. ذلك أن الزمان يختلف هو نفسه من فلكٍ للآخر. فإذا كانت مدة حياة الجسم الطبيعي الفيزيائي لا تجاوز عامة ثمانين سنة أرضية فإن مدة حياة الجسم الكوكبي لا تتجاوز هي الأخرى ثمانين سنة كوكبية - أي ثمانين سنة من سنى الفلك الأوسط . وهكذا دواليك. إن الفردية الإنسانية إذن ترتفع من درجة لأخرى فوق سلّم الأفلاك في حياة لا تتعدّى الثمانين السنة المذكورة - فيما عدا بعض الاستثناءات القليلة - من السنين المناسبة بالطبع لكل درجةٍ على حدةٍ - لتصل في نهاية الأمر إلى عتبة الفلك الأول، وتُستقبل فيه أي في صدر المطلق -١- كما يُستَقبلُ الابنُ الضالّ.

-١٠-

لقد نجحنا إذن في تفصيل خصائص الزمان بالنسبة للفلك الصغير، وهو موطن الجسم الطبيعي الفيزيائي، وبالنسبة للفلك الأوسط، وهو موطن الجسم الكوكبيّ، وأخيراً بالنسبة للفلك الثاني، وهو موطن الجسم الذهني يعزّزه جسم النعْمة. أما فيما يختص بما هو وراء الفلك الثاني فانه مجالٌ مغلق بالنسبة للإنسان مادام محتفظاً بجسمه الطبيعي الفيزيائي. وبعبارة أخرى فنحن نعتبر العامود الخاص بالفلك الثاني في الجدول المذكور أعلاه بمثابة الحدّ الأقصى لإدراك الزمان النسبيّ في الإنسان الأرضي. إلاّ أنه يجب علينا أن نُضيف عامودا آخر يقع على يمين العامود الخاص بالفلك الصغير لكي يكتمل هذا الجدول فعلاً. ويخصّص هذا العامود للفلك الأصغر -أي لعالم الكائنات الميكروسكوبية الحجم التي تكون أصل الجسم الإنساني وأساسه. فإننا إذا طبقنا هنا قانون معدل الـ ٣٠،٠٠٠ تطبيقاً عكسياً - أي في الاتجاه المضادّ للاتجاه الأول نحصل على النتائج التالية: تكون مدة الحياة بالنسبة للخلية الواحدة ٢٤ ساعة، ويكون طول اليوم بالنسبة لها: ٣ ثوانٍ. ولكن التحليل الكامل للتكافؤات الموجودة بين الإنسان - أي بين الفلك الصغير وبين الفلك الأصغر لكي يكون تحليلاً صحيحاً يتطلّب منا أنّ نعتبر الإنسان مركباً هو نفسه من مجموع سبعة أفلاك. ولنكْتَفِ الآن بتذكرة القارئ أنه تبعاً لمبدأ النسبية، تمتد حياة الفلك الأصغر، وان كانت لا تشغل أكثر من ٢٤ ساعة بالنسبة للإنسان وكأنها ثمانون سنة في إحساسه هو بها وتجربته لها، وكذلك فيما يختص بيومه هو الذي لا يشغل إلا ثلاث ثوان من حياة الإنسان، فإنه يمتدّ ٢٤ ساعة بالنسبة له. وبذلك نستطيع أن نفهم تلك الظاهرة الغامضة

عامودا آخر للجدول السابق نحصل على 2×10^{15} من السنين بالنسبة للتجلي الأعظم كله - أي بالنسبة للأزلية (أنظر الفصل العاشر القسم الثاني) ويجب أن ننظر إلى هذه الأعداد بحذر شديد. إذ إن أصغر خطأ عند البدء يعطى إذا ضوعف بمثل هذه النسبة الضخمة فروقا هائلة في آخر الأمر.

التي لم يوجد لها شرح أو تفسير للآن، وهى السرعة الفائقة التي تتمّ بها فينا جميع التفاعلات الفسيولوجيّة مهما استلزمتْ من العمليات المعقدة. إنّ مبدأ النسبيّة في هذه الحالة يبيّن لنا الكيفيّة التي يتأتّى بها الوقت اللازم للخلايا لكي تتممّ فيه جميع العمليات المطلوبة. فإذا كان الإنسان يُحسّ بعد فترة وجيزة جداً من اجتراعه أيّ مَشْروبٍ كحوليّ بمفعوله، يسرى في جسمه فإنما يرجع ذلك لكون الثانية الواحدة أو الثانيتين بمثابة ثماني ساعات، أو ست عشرة ساعة بالنسبة للفلك الأصغر، وهو وقت أكثر من الكافي لتتميم جميع العمليات التي يظهر تأثيرها بوضوح في شتّى المواضع المتباينة من الجسم.

-١١-

يجب أخيراً من أجل أن نتمّم دراستنا الوجيزة للزمان أن نقول شيئا بسيطاً عن مسألة الأبعاد.

يُقال بصفة عامّة أن العالم له ثلاثة أبعاد، أو أنه عالمٌ ثلاثيّ الأبعاد. وهى كلّها اصطلاحات متّفق عليها كما نعرف ذلك جميعاً. ولكنّ الجسم المزوّد بهذه الأبعاد الثلاثة إن لم يعط لحظة وجود واحدة في داخل الزمان - يَخْتَفِ لِتوّه من الوجود. ونحن نقول بناءً على ما سبق إن كل ما هو موجود في أبعاد المكان الثلاثة، يوجد في نفس الأونة داخل الزمان أيضاً، إذ يكوّن الزمان الإحداثية العمودية الرابعة التي يمكن إضافتها إلى إحداثيات ديكارت الثلاث.

إنّ تسجيلنا الحسيّ للزمان يجعله يبدو وكأنه خطّ واحدٌ. كما أن المفهومات المميزة للزمان، وهى المستقبل والماضي بالإضافة إلى نقطة الحاضر التي تتحول الأحداث المستقبلية عندها بطريقة غامضة إلى أحداثٍ ماضية، تشبه تماماً المفهومات التي يوصف بها الخطّ الهندسي حيث يُنسب كلّ شيء عليه إلى نقطة معيّنة فيكون بالتالي إمّا أمام هذه النقطة أو خلفها.

وسوف نعود فيما بعد، عندما نتعرّض لدراسة مذهب الحاضر إلى بحث هذه المسألة الهامّة. ولنكتف الآن بأن نؤكد أنّ للزمان أبعادا ثلاثة لا بعداً واحداً فقط، وأن هذه الأبعاد الثلاثة شبيهة بأبعاد المكان الثلاثة شبهاً دقيقاً. ولقد سبق أنْ أشَرنَا في تلميحات عابرة إلى هذه الأبعاد العليا. ولا يفوتنا أن نذكر الباحث هنا أن وعي الاستيقاظ، أي أنّ إنيّة الشخصيّة، وهو يتسّم كما نعلم بدرجةٍ عاليةٍ من النسبيّة لا يستطيع أن يرقى إلى إدراك هذين البعدين العلويّين للزمان أو إلى إدراك آثارهما كما يعجز بالطبع عن مراقبتهما بصيغةٍ مباشرة. بل هو يمزجها جمعاء (أي تلك الأبعاد) مَعَ مفهوم البعد الرابع في تسجيل حسيّ واحدٍ يجمعها كلها، ويتمثل في ما أسميناه بخط الزمان.

يُمثّل البعد الخامس المحلّ الهندسي لجميع إمكانيات اللحظة الواحدة، حيث لا تَتَحقق من ضمنها كلها إلا إمكانية واحدةٌ فقط في الزمّان، وتَظل جميع الإمكانيّات الباقية غير محققة. وقد يجوز أن نمثّل البعد الخامس هذا بسطح يخترقه خطّ الزمّان في مكان الإمكانية الواحدة التي تحققتْ فور اختراق الخط لمحلّها المحدّد. أما البعد السادس فهو زمان الكون الكُلّي، وهو لا يحتوى بموجب حجمه على الممكن فحسب، بل يحتوى على تحقيق جميع إمكانيات أيّ لحظة من اللحظات بفضل إتمام الدورة الكاملة لجميع خطوط الزمان.

وأخيراً فإنه يوجد بعدٌ سَابعٌ لا يعدو أن يكون نقطة. إلا أنها توجد في داخل المكان والزمان في آنٍ واحدٍ.

ونحن نستعمل العبارات التالية وقد استُعيرت من اللغة المتداولة ألا وهى: خط الزمان والأزلية وكل شيء للاستدلال على البعد الرابع والبعد الخامس والبعد السادس على التوالي. أما كلمة الصفر فهي تنطبق على البعد السابع والأخير، أو لعله يكون في اعتبارنا له البعد السابق للبعد الأول.

يلعب مفهوم كلمة الصفر دوراً هاماً في الفلسفة الباطنية. فإن الصفر فيها ليس بالعدم، بل إنه البذرة والنهاية، كما أنه الألفا والأوميجا (الألف والياء) لكلّ ما هو موجود.

الفصل الرابع عشر

ميدأ التوازن - مبدأ النقص - حياة- حب- موت- الفرديّة - الزوج الكامل المكوّن من كائنين قطبيين - الكارما - تأثير مبدأ التوازن على قانون سبعة، يسمح ضمن آخرين لشرح تغذية الكون - العلاقات العضوية الموجودة بين الشكل والمضمون.

-١-

إن ثالث المبادئ الكبرى للتجلي هو مبدأ التوازن، إلى جانب مبدأي المكان والزمان بالطبع.

إن الكون متوازن في مجموعه وفي أدق أجزائه. ولكننا لا يجب أن نعتقد أنه توازن ليس له إلا شكل واحدُ فقط، أو أنه توازن ثابت على جميع درجات سلم ألخليقة - فإنه لا يكون ثابتا إلا عند البدء فقط - ولذلك فإن نغمة دو في الطبقة الثمانية الفلكية والفلك الأول ليسا معا إلا وحدة واحدة. إلا أنّ هذا الانطباق التام بين شعاع ألخليقة وبين نظام الأفلاك يتوقف عند ذلك الحدّ. فإن الانطباق في هذه ألحالة أو بعبارة أدق، فإن الوحدة الحاصلة، مدعّمة ومضمونة بموجب طبيعة الثالوث الأقدس الذي هو وحدة موحّدة لا تقبل الانقسام. إلا أننا نرى تلك القوى الثلاث التي كانت متّحدة الجوهر، وتعمل بمثابة كتلة موحّدة صمّاء - تتجلى على مستوى نغمة سي التي توافق الفلك الأقدس وقد تفككت عن بعضها فكونت الثلاثية الأولى وولدتْ أول علم يحق لنا أن نعتبره علما منبعثا. وأنها لظاهرة يجب أن نتنبه لها بصفة خاصة، لما فيها من البساطة وعمق التصميم. فلا تكاد القوى الثلاث تنفصل عن بعضها حتى تهدف من جديد إلى التجمُع في نقطة ارتكاز واحدة. ولكنّ ثبات التوازن الأول - وقد كانت طبيعة الثالوث المتحد الجوهر تضمنه وتدعمه، لا يعود إلى ما كان عليه. وذلك لكون الفعل المجمع الخلاق مسبوقا بتفرقة للقوى الثلاث. هذا هو سبب الاختلاف الحاصل بين نغمة سي على الطبقة الثمانية الكبرى وبين الفلك الأقدس. لا أن هذا الاختلاف يزداد استفحالا على طول امتداد شعاع الخليقة و نظام الأفلاك وإلى أقصى حدودهما.

-٢-

إن هذه المفاهيم، بالإضافة إلى ما اكتسبناه من المعلومات الخاصة بتركيب الكون الكلى تسمح لنا بإدراك سبب إيجاد مجاميع القوانين المقوّمة التي يزداد عددها من ١ إلى ٩٦ كما يمتد تأثيرها تبعا لامتداد شعاع الخليقة، وتسمح لنا أيضا بإدراك معناها (انظر شكل ٣٠). إن الهدف منها تعويض ثبات التوازن المفقود بالتدريج ، تعويضا ملائما. فإننا كلما ابتعدنا عن دو - الفلك الأول، كلما استفحل ألخلل الحاصل لثبات التوازن، وكلما اتخذ المجهود اللازم لتقويمه طابعا معقدا وفقد من حدته قدرا يتناسب تناسبا عكسيا مع ما اكتسبه من تعقيد. وبعبارة أخرى يتمتع الكون الكلى فقط في مجموعه بثبات في التوازن لا يتزحزح على الإطلاق. أما فيما يختص بباقي الأفلاك الستة التالية للفلك الأول وهى تعيش جميعها في صدر المجموع المذكور فهي في حالة مستمرة من التوازن المختل، الذي يزداد اختلالا كلما ازداد البعد عن الفلك الأول.

إن من طبيعة التوازن المختل الذي يعيش العالم فيه أن يتغير في كل آونة فتعيده إلى حالته الأولى المجموعات المناسبة من القوانين المقوّمة، فور انكساره.

هذا هو المظهر الميكانيكي للظاهرة السابقة. ولكنه ليس بالشيء الأساسي فيها، بل أهم ما في الأمر هو ما يترتب على المعنى البيولوجي لهذه الظاهرة. فإن الاستفادة من اختلال التوازن، مع تمام

التحكم فيما ينجم من الآثار الضارة للزمان نتيجة لقانون سبعة، هما الشرطان الأوليان الأساسيان لظهور الحياة الحقة، وتظل طبيعة هذين الشرطين على ما هي عليه، على طول امتداد سلم الكون الكلي، وان كانت الحياة تتخذ أشكالا معينة على مستوى كل فلك على حدة.

إننا إذا تخيلنا عالما مكتمل الصفات تماما قد رسخ فوق مبدأ توازن ثابت، فلن تكون تلك إلا صورة جامدة متحجرة: صورة الموت. لأن الحياة تتسم قبل كل شيء بالحركة وبالحركة التي تتخذ شكل تيار حار. إلا أن التيار لا يتولد إلا نتيجة لوجود فارق في الشحنة. ولكن الفوارق في الشحنات بدورها لا تظهر في جميع المجالات إلا نتيجة للاختلال في التوازن.

إن امتداد الزمان على خط مستقيم - وهو يشبه في ذلك حالة التوازن الكامل الثابت - يتنافى تماما مع ظاهرة الحياة كما يتنافى مع فكرة الارتقاء أو إمكانية حدوثه. يجب أن يختل التوازن لكي تُخلق الحركة. فلقد انبثقت الحياة على كل درجة من درجات سلم الفلك الأكبر في عملية تصميم الخليقة عندما أُدخل عليها مبدأ النقص.

لقد خُلق الإنسان - الفلك الصغير - على صورته وشكيلته.[1] فأصبحت المراكز العليا فيه لكمالها وكمال توازنها وثباتها، تمثل الفلك الأول الخاص به. إلا أنه توازن يختل على الدرجة التالية، وهي تتضمن المراكز النفسية الثلاثة كما أنها شبيهةُ الفلك الأقدس، وهكذا دواليك.

-٣-

وخلاصة القول أننا نستطيع أن نعتبر الحياة نتيجة لحركة تذبذبية تتردّد على كل درجة من درجات سلّم الكون - وتتكوّن في كل حالة من اختلال في التوازن سرعان ما يتلوه اعتدال.

إلا أن إمكان وقوع هذه الاختلالات يترتّب على التالي: فجميع ما يوجد في الكون الكلّي، وإن كان متوازنا إلا أنه في حالة توازن مختلّ.

يجد مبدأ التوازن مجالا عمليا للتدّخل عندما يتم تعويض الاختلالات الحادثة. إلا أن الحالات التي يستطيع هذا الفعل التعويض فيها أن يعيد الوضع إلى ما كان عليه تماما قبل حدوث الاختلال - حالات نادرة. ولو نجح في ذلك لما كان بالأمر المرتجى على وجه العموم. إن الحركة التذبذبيّة، وهي تتكوّن من اختلال يتلوه التعويض تتخذ عامة وفي حالة الحياة العضوية خاصة شكل الدورة المفتوحة - أي شكل الحلزون، ذلك أنه بموجب مبدأ النقص، تسرى الحركة حتما في كل ما هو موجود. ونحن نستطيع أن نشاهد هنا من جديد ما يتّسم به النظام السابق من وحدة منطقية مكتملة. فإننا نعلم جميعا بما في أيّ حركة انتقالية تصاعدية من صعوبة، كالتي تحدث مثلا في الارتقاء. إلا أن الحركة الحلزونية، وان كانت بالطبع تحدّ من سرعة التقدم التصاعدي، إلا أنها تُيسّر حدوثه، كما أنها في حالة السقوط تحدّ أيضا من مدى التقهقر.

-٤-

إن الزمان والمكان والتوازن، وهي الشروط الثلاثة التي تسبق التجلي كما تسبق عملية خليقة الكون، قد نبع منها في داخل الكون الكلى بعد خلقه، ثلاث قوى هي القوة الإيجابية والقوّة السلبية والقوّة التعادلية على التوالي. وقد سبق أن بيّنا ذلك بالتفصيل . ثم يتّخذ مبدأ التوازن الشكل الديناميكي في المجموعة الثالثة فيعمل فيها بمثابة قوّة ردّ الفعل، ومهمته تعويض الاختلالات الحادثة لتثبيت ميزان القوى المختل مما يجعله إذا ظهر يتّسم دائما بنفس طابع قوّة ردّ الفعل كما رأينا. ويجد مبدأ التوازن مجالا عمليا لينطبق عليه في جميع أنحاء الكون الكلّى فيعمل بصفة ميكانيكية كما أنه يتدخل

---

[1] سفر التكوين - ١:٢٦.

تدخلا تلقائيا بصفة آلية. ولذلك فإننا نرى أي عمل يُبدأ بتنفيذه في أي بقعة من بقاع أي فلك من الأفلاك قد عُودل بعد ذلك حتماً ولزاماً.

إن الاعتبارات السابقة تسمح لنا بفهم بعض ظواهر عجزتْ العلوم الوضعيّة عن إيجاد أيِّ تفسير لها، كما أنها تساعدنا على إدراك معناها. ظاهرة الموت مثلاً - وهي أكبر مشكلة تواجه الإنسان. فإنه تماماً كما تتبع الحياة من اختلال التوازن - يترتب الموت بصفة حتميّة من تأثير مبدأ التوازن بأن الاختلال يجب أن يُعوض في جميع الحالات وبدون استثناء، كما أن التوازن يجب أن يُعاد إلى حالته الأولى. إلا أنه تعويض ثمنه الموت.

إن الولادة على جميع المستويات، تتم بموجب فعل ثوري - يخل بالتوازن ألا وهو الحبّ. إلا أنّ الحب نفسه قد ولد قبل الخليقة عندما ظهرت في وعى المطلق فكرة أنت التي نبعت بالطبع من فكرة أنا حتماً ولزاماً. فكان بذلك الاختلال الأول، وقد حدث في التوازن الأزلي الثابت. ونحن نُعارض لذلك الموت بالحب لا بالحياة مؤيدين ما تمليه غرائزنا علينا وهو الوضع الصحيح. كما أن قلب الإنسان يشعر وهو في ذلك على حق بالرغم مما يجابهه العقل به من دلائل وإثباتات، أن الحب قوّة عُليا فلا تستطيع أي قوة غيرها أن تتصدّى في وجه الموت لتخذله.

إن الانتصار على الموت شعار العلوم الباطنية واللواء الجامع لمن ينتمون إليها. فلا يجب أن يكون هناك أي خلاف حول المعنى الحقيقي لهذه العبارة.

إن القوى الثلاث عندما يمتّد مفعولها تؤثر على مجموع الكون الكلى فتظهر على النحو التالي في نظام الأفلاك وفي أشعة الخليقة: إذ يعمل الحب بمثابة القوّة الإيجابية الباعثة للاختلال، ويعمل الموت بمثابة القوّة السلبية الدّاعية للجمود والثبات. كما تعمل الحياة بمثابة القوّة المعادلة التي تقيس الوجود فيما بين الحدود التي تعيّنها القوّتان السابقتان. مما يجعل الموت شرطاً لا غنى عنه للوجود - وبالتالي للحياة - تظهر ثماره على مستوى الثلاثية التالية في صورة النسل المتخلف. إلا أنّ المشكلة التي نواجهها هي معرفة ما إذا كان نضالنا ضد الموت، للحصول على الحياة الحقة الأبديّة، ذلك الأمل الإنساني الأسمى التي تبشر جميع الأديان به - نضالا يمكننا أنْ نعقله لنلتزم فيه بأمل واسع في النجاح. إنها مشكلة معقدة يجب أن ندرسها من شتى زواياها وجوانبها لإيجاد حلّ لها. إلا أن الأديان تدخلها في نطاق الإيمان فتجعلها عقيدة من عقائده. ولكننا الآن، وقد أشرفنا على عصر جديد سوف يشمل دورة الروح القدس، لا نرضى بهذا الوضع رضاءً تاماً، أو قل لم تعد العقول المستنيرة ترضى به. مثل هذه العقول تتطلع إلى أن تدرك وتفهم ما كان بالأمس فقط، يُعد فقرةً مقدسة من فقرات "نؤمن بالله واحد".

ولعل مطالبة المؤمنين بالإيمان ولو على سبيل الثقة المتبرع بها في هذا الصدد أسهل من التعرض لشرح ما يصعب شرحه. إلا أن العلوم الباطنية تقدم رد السؤال.

إن وجه العالم يتغير. فلقد أشرفت دورة الابن على نهايتها. كما حدث ذلك قديما بالنسبة لدورة الآب. وقد كان مجيء المسيح أنهى العمل بالقانون الذي تلقاه موسى[٢] ، فحل محله عهد الإيمان والرجاء والحب [٣] وقد دخلنا الآن في غمرة حروب قرننا العشرين وثوراته ، بما أحرزناه من تقدم في العلوم الوضعيّة يفوق التصور في تلك الفترة الانتقالية التي تقوم بمهمة التمهيد لحلول عصر الروح القدس ، وفيه تحل المعرفة بالتدريج محلّ الإيمان كما ينتهي الرجاء بإقصائه إلى الإتمام . فتكتمل بذلك نصرة الحب النهائية: ذلك أن الحب لا ينتهي أبدا، حتى إذا بُطلتْ النبوات، وانتهت الألسنة، واندثرت المعرفة[٤].

---

[٢] رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١٠:٤

[٣] رسالة كورنثوس الأولى ١٣:١٣

[٤] رسالة كورنثوس الأولى ١٣:٨ عن النص السلافوني.

-٥-

إن التقليد[٥] يقصد بكلمتي الانتصار على الموت، انتصار شخصيتنا بعد تمام اكتمالها تماما على الموت : هذا هو المعنى الحقيقي للخلاص - موضوع الصلوات وهدف جميع الفروض الدينية في المسيحية . لقد سبق أن ذكرنا ما قاله القدّيس بولس الرسول: هكذا أفضي لكم بسرّ، لن نموت جميعا ولكننا سوف نتغير جميعاً[٦] . ولكن معنى كلمة نتغير العميق، كما وردتَ في الجملة السابقة يردّ إلى أن جميع الرجال الخارجيين كالذين توصلّوا إلى مستويات الإنسان ٥ أو ٦ أو ٧، يتحتم عليهم - إن عاجلاً أو آجلاً - أن يتركوا أجسامهم الفيزيائية الطبيعيّة. إلا أنهم سوف يَفْعلُونَه كما يترك المرء رداءً باليًا ليرتدى ثياباً أخرى، في حين أن موت الجسم الفيزيائي الطبيعي بالنسبة للإنسان ١، ٢ أو ٣ يترتّب عليه حتماً لزاماً تحلل شخصيّته-الجنينيّة. إنّ الموت يعتبر إجهاضاً على المستوى الكوكبيّ. إنّ الموت إجهاض، ولكنّ الخلاص يجئ بمجئ الولادة الثانية عندما تتصل الشخصيّة - بعد تمام تطوّرها وولادتها- اتصالاً وثيقاً بالإنيّة الحقيقيّة لتكوّين الفرديّة. فإذا ولدتْ تلك الفرديّة، استقلت تماماً عن الجسم الفيزيائي الطبيعي، كما أن المولود الجديد - إذا ما ولد - لا يموت هو، حتى إذا كانتْ ولادته قد تكلفتْ حياة أمّه. ولقد كان بولس الرسول يشير إلى ذلك عندما قرّر إننا لن نموت جميعاً.

-٦-

لقد رأينا أن الزمان يختلف من فلك لآخر، وأننا إذا حدّدنا مدة الحياة على أحد الأفلاك العليا بواسطة وحدات الزمان الأرضية نحصّل على أرقام مرتفعة جداً. ولكن كل شيء نسبّي. فلقد سبق أن قررنا أننا إذا قصرنا حياةً الإنسان على الأرض على ٨٠ (ثمانين) سنة تقريباً في المتوسط - فإن الحياة في الجسم الكوكبيّ، وهو تابع للفلك الأوسط ترتفع إلى ما يساوى حوالى٢٤٠٠٠٠٠ سنة إلا أن هذا العدد الهائل من السنين ليس - كما قد يعتقد البعض ذلك بأبدية فعليّة: فإن ذلك الرقم هو نفس الثمانين سنة ولكنّها سنين كوكبيّة مما يواجه الباحث بعد انتصاره على الموت الطبيعي - الفيزيائي - بمشكلة الانتصار على الموت الكوكبيّ، ثم بمشكلة الانتصار على الموت الذهنيّ في حدود حياة تمتّد على فترة ٨٠ سنة ذهنية فقط. حتى إذا ما تمّ تبلور جسم النعمة - في صدر المطلق - هُزم الموت هزيمة نهائية. فإن الكائن سوف يحصل من جديدٍ عندئذ على الحالة التي يتمتع بها الكائن الأوّلى في قلب التوازن الثابت. فلا يكون ذلك خلاصا مؤقتا، بل خلاصاً نهائياً.

إلا أنها حالة سعادةٍ لا يجوز أن توصف بما تتميز به الحياة كما سبق أن عرفناها. فإن الحياة وقد نتجت عن نقص حُقق إراديا تزول بالطبع فوْر عودتنا إلى المطلق في داخل الفلك الأول حيث لا وجود لمبدأ النقص بتاتاً.

وقد ظنّ البعض أنها حالة انعدام كامل للكينونة - أي أنها حالة العدم أو حالة الصفر المطلق. والحق أنها ليست حياةً في الزمان كتلك التي نعرفها جميعاً فتحدها الولادة من جهةٍ والموت من الجهة الأخرى. إنه وجودٌ - إذا جاز لنا هذا التعبير - يكون فيما وراء المكان والزمان. ولا نستطيع في حالتنا الراهنة، أن نتصوره بكيفيّة مقنعة مقبولةٍ. ولكن التعاليم الأرثوذكسيّة نقضت ما شاع عن تلك الحالة من صور جامدة كالثلج - أو هكذا بدتْ على الأقل - كتلك التي شاعت عن حالة النرفانا مثلا - فلجأت إلى المفهوم الوحيد في جميع اللغات البشرية الذي يعكس شيئا عن الوضع الألوهَى: ألا هو مفهوم الحب. لقد قال القديس يوحنا الإنجيلي "إن الله حب"[٧] . إن من منا يحوز على الانتصار ثلاثا:

---

[٥] ترجمنا كلمة Tradition بكلمة التقليد، ويعنى هنا التقليد الباطني (المعرّب).

[٦] ١ إلى أهل كورنثوس، ١٥: ٥١.

[٧] يوحنا رسالة أولى ٤: ٨

على الموت الفيزيائي الطبيعي، والموت الكوكبي، والموت الذهنيّ، سوف يُستقبَل في رحاب الحب المطلق، الذي لم تكن له بداية، ولن تكون له بالتالي نهاية: إنه "بليروم" [8] الباطنية الأرثوذكسية.

-٧-

إن ذلك الحب المطلق لفي متدارك النفس الإنسانية حتى في أثناء وجودها على الأرض. إلا أنه يستحيل على الرجل بمفرده، كما يستحيل على المرأة بمفردها أن يصلا إليه، ولكن ذلك لا يحدث من الوجهة العمليّة، إلا إذا كانت الشخصيتان في حالة متطورة وقد أنضجتهما خصب التجارب التي خبرتْ كلاً منهما على حدةٍ، في غمار الحياة الخارجية. بل لا يدركانه إلا إذا كوّنا معاً زوجاً واحداً، وعلى شرط أن يستعيد كلّ منهما تكامله بالآخر استعادة واعية في تكامل تام على شكل كائن واحد. ويتم ذلك بواسطة جمع يضمّ الأنا والأنت الحقيقيين. فما يكون من القوةّ بحيث أن يفجّر القشرة المغطية لشخصية كل منهما على التوالي [9] .

فما هو إذن مَغزى ذلك الطريق الطويل الذي يقطعه الإنسان ليستعيد به حيويّته، فيبدأ عند سقطة آدم، ويهدف في النهاية إلى كمال يكاد يلمس الألوهية ؟ إن التعاليم الباطنية الأرثوذكسية لا تجيب على هذا السؤال إجابة واضحة محددة. بل تقرر في بساطة عجز الإنسان المطلق عن الغور في سبل الله الخفية [10] وتشير إلى أن كل شيء في محيطه هو، كما أنه به هو، وإليه هو [11] ولقد استصوب آباء الكنيسة في المجمع ألكنائسي الأول لهم سحب أوصاف حالة الفناء والسعادة الطوباوية ، التي كانت تشيع نصوصها بين أفراد الكنائس الأوَل - خوفا من أن تتحول إلى عثرة للمؤمنين - لما كانت تتسم به - على حد ما قيل - من طابع الإباحية الغراميّة [12] . ومع ذلك فإننا نجد في المذهب الأرثوذكسي إشارة تؤكد أن الحب البشرى كما يشيع على الأرض، ليس إلا حطام الحبّ السماوي أو ما تبقى منه. وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك.

وإذا كان من المحقق أننا نعجز تماماً عن وصف السعادة الطوباوية وصفا لائقا، فلقد أكدت لنا التقاليد الباطنية الأرثوذكسية إمكان بلوغنا إياها، بالرغم من الصعوبات والعوائق الهائلة. فإنها قد أنشأتْ - برنامجا فنيا كاملاً يتضمن شتى التدريبات الملائمة - ليبلغ الباحث بواسطته - هدفه المنشود.

-٨-

لقد سبق أن بيننا بإمعان ووضوح أنّ المْوت واحد من مظاهر مبدأ التوازن العديدة، إذ يردّ الفعل بطريقة آليةٍ ليعادل الاختلال الناتج عن تأثير الحب الجسدي في العالم المخلوق. وهو - أي الحب الجسدي - وإن كان ناقصا بعيدا عن الكمال، إلا أنه يولّد الحياة. وهو ناقصٌ لما يتسم به من الغريزيّة والاندفاع . فلا يخدم الإنسان إلا الأهداف الكونيّة الخاصة بالمجموع ما دام يستسلم ميكانيكيا لدفعاته ولكنه يستفيد منه بالمتعة التي يمنحها إياه، وتُعتَبر عنصر التوازن في هذه العملية كما إنها جزاؤه أيضا. غير انه حب لن يساعده على الارتقاء باطنيا على شكله هذا. ومع ذلك فإنّ الحب أضمن وسيلة

---

[8] سورة المنتهى في العلوم الباطنية التصوفية الإسلامية (المعرب)

[9] متى ١١:١٢ - لوقا ١٦:١٦

[10] الرسالة إلى أهل رومية١١:٣٣

[11] الرسالة إلى أهل رومية ١١:٣٦

[12] اتسم التصوف الإسلامي في أعلا مراحله بنفس الطابع وشاعت بين المتصوفين قصائد لا يفرق القارئ الغافل بينها وبين قصائد التشبيب الإباحي (المعرب)

وأقواها لإتمام ذلك الارتقاء المنشود. فإن الحب هو العنصر الموضوعيّ الوحيد في حياتنا. وهو صحيح بالنسبة لشتى مظاهر الحب العديدة وفي مختلف أشكاله مهما تباينتْ.

يستطيع الحب إذن أن يخدم الإنسان فعلا خلال ارتقائه الباطنيّ. ولكنه بدوره يجب عليه أن يطبّق جهوداً واعية على ذلك الحب فلا يجعل نفسه ألعوبة تتقاذفه الاندفاعات. فيُعادل - هو بنفسه - الاختلال الناتج عن تأثير الحب، مما يمنع تدخل مبدأ التوازن - يجعله غير ذي جدوى - ويرحم تأثير ذلك التدخل المؤلم. وعندئذ لا يتصرف المرء تصرفاً مباشرا فيما يؤتيه الحب من قوّة فائقة ملكاً له، وهو إذ ذاك يستطيع أن يستغل ما أوتيه منها بفضل الحب للإسراع في تنمية شخصيته والتقدم بها تدريجيا نحو الولادة الثانية التي تعتبر أول نتيجة ملموسة للدراسات الباطنية التطبيقية.

هذه هي النظرية المعمول بها في الدراسات الباطنيّة داخل الأديرة، وهى تعير اهتمامها إلى المركز الجنسي أساسا، فتهدف إلى التحكّم في اندفاعاته بواسطة تبنى التدريبات المناسبة. ويجب أن نقول هنا أنّ الدراسات الباطنيّة التطبيقيّة قد خرجت في العصر الجديد من أعماق الكهوف ونظم الأديرة، ونحن لا نتعرّض مع ذلك بالطبع لفحص المنهج السابق وتقدير مزاياه ومساوئه. ولكن الدراسات الباطنيّة التطبيقيّة سوف تستمرّ من الآن فصاعداً في غمرة الحياة داخل نطاق النشاط الخاص بالمجتمع الإنساني العام. ولقدْ أصبحت تلك المهمّة بذلك أصعب تنفيذاً مما كانت عليه داخل الأديرة حيث كان البَاحث محميّا بعيداً عن تأثير أكبر جزءٍ من المؤثرات "ا". إلاّ أن الحياة تمنح الباحث وسائل أقوى وأنجح كما أنّها تؤدى إلى نتائج أقل قابليّة للضّياع، فانّ الدراسات الباطنيّة التطبيقيّة في وسط الحياة لا تسمح بالتحكم في المركز الجنسي فحسب، بل هي تسمح أيضاً بازدهار الحب على مستوى المركزين الانفعالي والفكري ازدهاراً أحسن ممّا يؤدى إلى تفجير الروح الخلاقة على جميع أشكالها. ولن يكون لهذا الازدهار العلويّ إلاّ هدف واحدٌ هو تركيز الجهود الخلاّقة على نقطة واحدة لا تتغيّر، وهى تطوير الشخصيّة تطويراً متكاملاً، والولادة الثانية، بلورة الجسم الكوكبي، واتحاده بالإنيّة الحقيقيّة للتمكّن من تكوين فردية.

فإذا أدّى ذلك العمل اثنان معاً: الرجل والمرأة أمكن لهما أن يطوّراه بقوّة خارقة، وأن يحوزا على نتائج سريعة. ولكن يشترط من الوجهة الباطنيّة أن يكون هذان الكائنان متناسبين داخليّا تناسباً متكاملاً. أيْ أن يكون الاثنان زوجاً كاملاً، أو بعبارة أخرى أن يعكس مجموعهما - مع التحفظ بالطبع فيما يتعلق بالخصائص النوعَية المميّزة لكل منهما على حدة - العلاقة القائمة بين الأنا والأنت المطلقين والسابقة لخلق الكون الكلى. إنها حالة الكائنات التي تسميها التعاليم الباطنيّة بالكائنات المستقطبة.

وسوف نعود فيما بعد إلى تلك المشكلة الهامّة التي أصبحتْ من جرّاء اقتراب العصر الجديد مشكلة السّاعة. فإن قصّة الحبّ الحرّ - وقد كانتْ تميّز الدورة البائدة بصفة خاصّة، سوف تَتَنَحَى حالياً، عند حلول دورة الروح القدس، في شتى الأوساط المثقفة لتحلّ محلها قصة الحب الأوحد القائم بين كائنات مستقطبة سوف تُدعى لتكوين الإطارات العليا[١٣] في مجتمع الغد.

إنّ مبدأ التوازن - وقد علمنا أنّ كل اختلال وكل حركة تحرريّة قد يحدثان في مجرى الحياة العضويّة بالذات، وفي الجزء البشرى منها بصورةٍ أخص، يتطلبان بفضل وجوده تعويضاً، كما أنهما يتلقيانه حتّما - يبدو وكأنّه حارس قاسٍ وان كان لا يتحيّز أبداً، يضمن - بمساعدة قانون سبعة - دوام أي وجود تبعا للقوانين. وهنا أدركت حكمة القدماء وجود ذلك المبدأ وتنبهت إليه من قديم الزمان. فلقد عرفَ باسم: "الكرما" أو نيميزيس Némésis الإغريقي، كما أنه المهندس أو المدبر الأعلى "أوريال" على السلّم السماوي الأرقى، في الباطنيّة المسيحيّة، واحدٌ من أرواح الله السبعة - وهم

[١٣] إطارات عليا ترجمة للكلمة الفرنسية cadre (المعرّب).

يظلون وحدهم - تبعاً للتقليد (للتعاليم المتوارثة)، لا يتغيرون أبداً في الكون[١٤] الكلي[١٥]. وهو يسهر على إعادة التوازن إذا اختل إلى حالته الأولى، على جميع درجات السلّم الفلكي بما في ذلك الفلك الأصغر.

إنّ تأثير الكرما يبدأ بصفةٍ آليّة. ولعل من واجبنا ألا نغفل تلك الصفة الآلية. بل نعيرها ملء اعتبارنا على الأقل فيما يختص بأفعالنا الواعية التي تتّصف بالتروي والتريّث. ولكن الأمر ليس بالسّهل. لأننا نادراً ما ندرك مدى الاختلالات الناتجة عن أفعالنا وشتّى تأثيراتها. ممّا يجعل تأثير الكرما يتعدّى في معظم الحالات آفاق ما يمكن أن نتنبأ بوقوعه. ولكننا نكرّر ما سبق أن قلناه عن فقدان الكرما بالنسبة للأبرار - واجهته المرعبة. فهو لا يأتيهم إلا بالسعادة والنشوة. ذلك أن أفعالهم لا تحدث من الاختلالات ما يُخالف القوانين الفلكية العامّة أو المحليّة. إنّ الأبرار لا يُخطئونَ، في حين أنّ عامّة الناس يرتكبون الخطأ تلو الخطأ حتى إذا كانوا يتصرّفون بنيّة سليمة، أو إذا ظنّوا إنهم على صواب فيما يأتون من الأفعال، ابتداءً بتصوّراتهم الخاطئة للأمور التي هي نفس منبع الخطيئة. فإن الخطيئة لا تحتوى على أيّ عنصر خفيّ يمس الله - كما يدعى البعض. بل يمكن تسديد ما ينجم عنها - بوصفها خطأ قد أرتكب - بدفع التعويض المناسب. ولقد نبهنا التقليد الباطنيّ إلى ذلك عندما أكدّ لنا: أنه لا توجد هناك خطيئة لا يمكن التسامح فيها إلا الخطيئة التي لا يتوب مقترفوها عنها[١٦]. ولعله من السهل علينا أن نفهم معنى الإرشاد السابق فهماً صحيحاً. فإن التوبة فعل شعوريٌ واع يترتّب عليه تعويضٌ سهل غير ذي ألم، وهو في نفس الوقت تعويض فعّالٌ للخطأ المرتكب. هذه هي نظرية التوبة البحتة. إلا أن العمل بها ليس بالسهل. بل إنه يتطلب دراسة دقيقةً لكلّ حالة على حدة. ومن الأيسر علينا ألا نرتكب خطايا بدلاً من إيجاد حل يكون بمثابة التعويض المناسب لها بعد ارتكابها. إلاّ أن التوبة بالمعنى الذي حدّدناه لها إن لم تتمّ في الوقت المناسب، تدعو تأثير الكرما التعادلي إلى التدّخل آليا بما يجعل التصدي له عندئذ أمراً محالاً. فلا يملك الخاطئ إذ ذاك إلا أن يستسلم له بسلبيّة تامّة.

ومادام تأثير الكرما يبدأ عمله بصفة آليّة، ويسير في طريقه سيراً ميكانيكيّاً - فإنه يعوّض إذن كل خلل حادث على نفس مستوى ذلك الخلل. فيتم التعويض هنا كما يتم على صفحات دفاتر الحسابات الكبيرة، أيْ بالنسبة لكل حساب على انفراد، لا بَيْنَ حواصل جميع النتائج الجيّدة والرّديئة.

-٩-

ولندرسْ الآن كيفيّة تأثير مبدأ التوازن على قانون سبعة ومدى ذلك التأثير. إنّ الدوريّة التي تتسم بها كل حركة طويلة المدى بسبب قانون سبعة يَتَولدُ عنها حركة دوران قد تكون بطيئة أو سريعة - إلا أنها تسير في كل حالة على حدة في نفس الاتجاه. فينجم عن ذلك حتماً لزاماً فعل يخلّ بالتوازن ويتطلب بالتالي تعويضاً ملائماً، يتخذ بالطبع نفس الصيغة الدوريّة تصاحبها حركة دوران حلزوني تُناسِبُ الحركة الأولى، ولكنها تسير في الاتجاه العكسيّ لها. ممّا يجعل أيّ مقام عمل إيجابي - وهو مقام انخفاضيّ - يتولد عنه لتوّه مقام آخر يعوّض المقام الأول تعويضاً دقيقاً إلا أنه مقام تصاعديّ يمثّل النتائج التي أثمر عنها العمل الإيجابي المؤدى. فإذا تطور العمل تطوراً حسناً، يتلقى العامل النتائج الايجابيّة المناسبة لعمله والعكس بالعكس.

يجب علينا إذن أن نعلم أن أيّ مقام انخفاضي أيْ أنّ أيّ مقام عمل إيجابي ابتداء بالطبقة الثمانية الكبرى الفلكية يَتَولد عنه بصيغة آلية مقام آخر يوازى الأول على نفس درجته، هو مقام تصاعديّ يمثّل مقام النتائج الحاصلة بفضل العمل الإيجابي كما بُدِئ بتنفيذه في المقام الأول. ويعتبر ذلك قانوناً

---

[١٤] الكون الكلي ترجمة للكلمة الفرنسية L'Univers (المعرّب).

[١٥] ذكرهم محيي الدين ابن العربي تحت اسم الأئمة السبعة الواقفين بباب الله على الدوام. (إنشاء الدوائر)- [المعرّب].

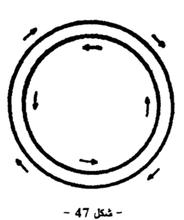
[١٦] الفيلوكاليا، القديس إسحاق السوري: الموعظة ٢ / ٣٠.

عاماً، هو بمثابة واحدة من ضمن نتائج مبدأ التوازن العديدة. ولقد صُمّم هذان المقامان المختلفان في الطبيعة بشكل أن يكون الاثنان متعاونين. إلاّ أنّ دراسة التطبيق العملي لذلك القانون، على مستوى الظواهر الطبيعيّة والكيماويّة والبيولوجية تتكشف لنا عن مشهد خلابٍ رائع في عظمته نستطيع أن نتلمّس من ورائه ذلك العقل الذي يدير الكلّ. كما أنّها (أي تلك الدراسة) تسمح أيضا في بعض الحالات، بإيجاد حلّ مشاكل - لا تقبل في غير هذا الضوء - أيّ حلّ، نظراً لطريقتنا العاديّة في التفكير، وهى تسير في خط مستقيم. ومن أمثلة هذه المشاكل تغذية الكون الكليّ في مجموعه.

لقد صممَتْ تغذية الكائنات النباتية والحيوانية والإنسانية تبعاً لعدّة أشكال دوريّة مختلفة. إن الإنسان والحيوان يمتصّان الأوكسيچين ويخرجان الحامض الكربونيك؛ كما أنّ النباتات تمتصُّ الحامض الكربونيك وتخرج الأوكسيچين. ويأكل الإنسان والحيوان النباتات؛ بينما تستعمل النباتات في أكلها ما يُلقيه الإنسان والحيوان من فضلات في برازهم. إننا نستطيع أن نرى في هذه الحالة وفي عدة حالات أخرى لا يتأتّى لنا أن نرقبها بنفس السهولة والوضوح عملاً إيجابيّاً يُنفذ تبعاً لمقامات مزدوجة تصاعدية انخفاضيّة، وبتوازن توازناً تاماً في مجموعه. إن عملية التغذية - كما نعلم جميعاً تتلخص في عملية امتصاص الطاقة الشمسية تبعاً لمجموعة معقدة من الخطوات التمثيلية الاستيعابيّة لازال العلم الحديث يجهل عنها الكثير؛ في حين أنّ مواد غذائنا تترك بطريقة موازية من الفضلات والبقايا ما يكفي تماماً لحاجة النباتات الغذائية، بعد مرورهما خلال أمعاء الإنسان وإيفائها بحاجاته المختلفة إلى المواد البنائة وشتى أنواع الطاقة التي لا غنى له عنها، إلى أن تعود نفس منتجات النباتات هذه على شكل أطعمةٍ تعمّر بها موائدنا. نرى هنا المقام التصاعديّ لمنتجات عملية التمثيل والاستيعاب يعوضه المقام الانخفاضي لتحويل الغذاء إلى فضلات في البراز. ويمكننا بالطبع أن نراقب وندرس أمثلة لا نهاية لها تبيّن العملية المعقدة التي تؤديها تلك المقامات المتوازنة المتداخلة، في شتى المجالات، وعلى شتّى المستويات: الطبيعيّة والنفسية والأخلاقيّة. ولا يحدث بالطبع عن الحركات التي تتم تبعاً لتلك الأشكال المتوازنة المعوّضة أيّ ردّ فعل من قبَل الكرما.

فإذا انتقلنا الآن من تلك الحالات الخاصة إلى الحالة العامّة، وإذا فحصنا مشكلة التغذية بالنسبة للكون الكليّ بصفته (كائنا حيّا)، يجبُ علينا أن نقرّ أنه لا يمكنه أن يجد ما يفي بحاجاته الغذائية خارج ذاته، فإنه لا يوجد شيء فيما عداه هو. إلاّ أن التقليد الباطنيّ يؤكد بما لا يترك مجالاً للشكّ أن الكون الكليّ الكبير - أي الفلك الأكبر أو الإنسان الأكبر [١٧]، كائن حيّ، كما هي الحالة أيضاً بالنسبة لكلّ فلك من أفلاك النظام. فانّه بصفته مجموعاً يتكون من عدّة عناصر حيّة لا يمكن أن يكون إلاّ كائناً حياً. وهو بصفته كائنا حياً، يحتاج بالطبع إلى التغذية. ونحن من جهة أخرى، وبواقع ما أشرنا إليه من استحالة إيجاد الفلك الأكبر طعاماً يتغذى به خارج ذاته - لا يسعنا إلاّ أن نقرّ بأنه يجد غذائه داخل ذاته. هذه هي أولى مشاهداتنا. ونستطيع أن نقول بعد ذلك إنه إذا كان الكون في مجموعه يتواجد في حالة توازن تامّ في كماله، فإن عملية التغذية فيه لا يمكن أن تكون قد صممَتْ إلاّ تبعاً لشكل دوريّ يتضمّن عدَداً من المقامات المزدوجة.

[١٧] أنظر مؤلفات أوريچين، المبادئ...



- شكل 47 -

ولقد سبق لنا أن لمسنا الكيفية التي يعمل بها هذا الجهاز الآلي على شكل (انبساط) مدّ الطاقات المختلفة على امتداد شعاع الخليقة وانقباضها بعد ذلك. وسوف نعود إلى دراسة هذه الظاهرة بطريقة تفصيليّة في المجلد الثاني.

-١٠-

بقي علينا أن نَدْرس أيضاً بسرعة مظهراً آخر من مظاهر مبدأ التوازن، وهو يتعلق بمجموعة العلاقات الحيويّة التي تربط الشكل بالمضمون. إنها مشكلة واسعةٌ ومعقدّة قدر اتساعها؛ مما لنْ يسمح لنا في إطارنا الضيّق هذا بتحليلها تفصيلياً. ولكن يجدر بنا أن نستفيد هنا من دراسة مثالٍ طالما ذكر منذ بداية القرن العشرين. ونحن نقصد بذلك القانون الذي يتحكمّ في العلاقات القائمة بين شكل النظم السياسيّة ومضمونها. إنّ التفكير المجرّد يسمح باكتشاف هذا القانون بدون عناء. إلاّ أن القادة السياسيين لا يعملون مع الأسف أيّ اعتبارٍ له إلاّ فيما ندر، كما أنهم يتذكرونه بصفة غريزيّة أكثر ممّا يلجأون إليه بفضل الاستنتاج المنطقي الدقيق.

إنه قانون صارمٌ لا نقاش فيه: ذلك أن العناصر النامية تتطوّر مع الزمان حتى إذا ما بلغت منتهى ما يمكن أن تصل إليه من التطوّر تنزلق فوق منحدرٍ انخفاضيّ، ثم تتدهور لتنتهي بالتفكك التام.

إنّ أيّ نظام سياسي يخضع لذلك القانون الصارم، مهما كان: أيْ إذا كان من النوع المألوف "الكلاسيكي" كما يقولون، أو كان "مجدّدا". فإن الظروف عامة، والظروف السياسية على وجه أخص لشدّ ما تتغيّر. وهي تتبع في تغيّراتها، ما يطرأ على حياة المجتمع البشري من تحوّلات عميقة، مع ما ينتاب ذلك المجتمع من تقدّم إذا نظرنا إليه من بعض الوجهات، أو من تأخّر إذا نظرنا إليه من وجهات أخرى. إلاّ أن مبدأ التوازن يتجلى على المستوى السياسي الداخلي لكلّ دولة على حدة في حفظه تكافؤاً معيّنا ثابتاً يربط بين شكل الحكم والمضمون السياسي للنظام الموجود. فإن هذين العاملين يجب أن يكونا متوازنين . وإن كانا في الواقع لا يكادان يتوازنان أبدا. فإن الحكومات تكون عامّة من جرّاء أسباب عديدة متأخِّرة عن سير الحوادث. إلاّ أنه يَستَحيل على مجرى الارتقاء التاريخي، أن يحتفظ الحكم بشكله وبمحتويات النظام السائد معاً إذا تعدى ذلك الوضع حدوداً معيّنة. فإن فعل، حَدَثَتْ ثورةٌ، تَبْحَثُ بدورها عن نقطة بداية جديدة. كما أنها تحوّل الدفة نحو سياسةٍ جديدة لها تسير في اتجاه تقدميّ من جهة المبدأ. ولكن الزمان لا يتوقف في سيره. ممّا يجعل الحكم الثوري بعد مرور فترة معيّنة حكماً لا يتناسب مع الأوضاع الرّاهنة. بل كلّما كان طابع الثورة القائمة طابع الحدّة والعنف - كلما قصرت الفترة اللازمة لتعدى بأوضاعها. هكذا كانتْ ثورة فرنسا في ١٧٨٩ - كما كانتْ أيضاً ثورة روسيا في ١٩١٧.

ومع ذلك فإن انجلترا تقدّم لنا مثالاً مدهشاً حقاً - في ثبات نظامها التقليدي، وان كان يفوت النظر عادة أنه ثبات في الحركة، وهو نوع الثبات الوحيد الممكن بالنسبة للكون، الكون الذي يعتمد في وجوده وفي حياته على توازن يختل باستمرار. إن نظام الحكم في انجلترا يحتفظ بشكله التقليدي عَبْرَ الأجيال، لأن رجال الدولة هناك قد عرفوا كيف يغيّرون من مضمون نظام الحكم بمرونةٍ سياسيّة فائقة النظر، وفي الوقت المناسب بالضبط.

في حين أن نظام الحكم في عهد القيصر نقولا الثاني ظلّ مصراً - بالرغم من الحاجة الماسّة للتغيير - على الرغبة في الاحتفاظ بشكليات الحكم الإمبراطوري وبمضمونه - أي بتجميع السلطات بين يديه هو. وقد كان ما كان.

-١١-

إلا أن عدم التوازن القائم بين الشكل والمضمون قد يزيد بنسبٍ تجعل الأمر يتعدّى تماماً مستوى الدول. فإنّ أحداً لا يستطيع أن ينكر مثلاً مدى الأخطار الجسيمة التي قد تنجم عن الأزمة التي تتخبط الإنسانية فيها منذ بداية القرن العشرين. فإن الإنسانيّة لا تتهددها كارثة انفجار ذرّي يتسع بنطاقه بما لا يسمح بحصره فحسب - بل يوجد هناك خطر آخر يتهددها - يختلف عن الخطر السابق تمام الاختلاف، وهو ينجم عن تراكم ما نستطيع أن نسميه بأوصام الكرما. فإذا حدث ذلك - يعاد التوازن إلى حالته الأولى بواسطة كارثة ضخمة كالطوفان مثلاً - أو إذا كان ثقل الكرما قد بلغ قدراً هائلاً، بواسطة تدخل الأفلاك العليا. هذا هو السبب العميق الذي تجسد المسيح من أجله ثم أدّى رسالته على الأرض، وعانى أمّر العذاب ثم ضحّى بكل ما لديه. ومن الواضح أن خطر الكرما الذي كان قد تراكم في إبان تجسّده كان خطراً حقيقيّاً وهائلاً. ولقد قال يوحنا الإنجيلي إن الله قد أرسل لنا ابنه لكي يُخلّصُ العالم به [١٨]. وإننا لنعتقد أن تبشير السيد المسيح، وتليه التضحية التي قام بها قد عادلا فائض قيمة أوصام الكرما المتراكم حينئذ، وأعاد التوازن إلى الأرض فنجا العالم بذلك كما نجتْ معه البشريّة جمعاء.

---

[١٨] يوحنا، ٣: ١٧.

القسم الثالث

الطريق

الفصل الخامس عشر

تعريف الطريق - الوهم - الطريق والأحراش - المسلك والسبيل الموصّل إلى الطريق - يُحرّم الرجوع على من شرع في السير فوق الطريق: فان الطريق في اتجاه واحد - مقاومة القانون العامّ للبحوث عن الطريق - ارتقاء الشخصيّة وولادة الفرديّة - الإنيّة الحقيقيّة والحياة الحقيقيّة.

-١-

إن الطريق هو مجموع الخطوات العمليّة التي تَسمحَ للإنسان أن يرتقى إذا طبّقت فعليًا بما يتمشى مع مبادئ العلم الباطنيّ. لقد سمحت لنا دراستنا المسبقة للعناصر التأسيسيّة الخاصّة بالإنسان والكون، والتي كانت موضوع جزئي هذا الكتاب الأوّل والثاني، أن نكتسب القدر الأدنى الذي لا غنى عنه من المعارف اللازمة للبدء في دراسة الطريق.

يبدأ العلم الباطنيّ فيما وراء منطقة استكشاف العلم الوضعيّ؛ يوجد بين هذين الفرعين من العلم فجوة، منطقة وهم خلقت قصداً. وتكوّن (هذه الفجوة، أو منطقة الوهم هذه) عقبة وعائقا. وبما أنّه لا يمكن (للباحث) أن يعبر تلك الفجوة إلا ببذل جهود لا يستهان بها، بل ويبذل جهودا فائقة[1] فإنّ ذلك يعمل بمثابة اختبار لاختيار (الأكفأ). يختلف طابع وكمّيّة الجهود اللازمة بالنسبة لمختلف الأشخاص كما أنّها تتوقف على طبيعة ودرجة التشويه الذهني عند الإنسان الخارجيّ، وهي كلها عوامل فرديّة. إن تخطي الفجوة يستلزم دراسات نظريّة مصحوبة بإنجازات عمليّة متضمّنة جميعها في داخل برنامج محدّد.

نستطيع الآن أن نشرع في دراسة مشكلة الطريق. وهو ما يمكن أن يتمّ من عدّة زوايا؛ إلا أنّه من الأيسر أن نعرض للمعنى الفلسفيّ والباطنيّ للطريق مستندين على الاعتبارات التي عرضت في الفصل الثامن. وكنّا قد قارنّا الإنسان فيه بخليّة من خلايا الحياة العضويّة على الأرض. فإن الإنسان بواقع كونه جزءاً من ذلك الكيان الحيّ يكون خاضعا للقانون العامّ، فلا يدخل في نطاق قانون الاستثناء إلا عندما يفلت من قبضة القانون الأوّل.

إنّنا لا ندرك كم نحن مكبّلون بالقيود من جرّاء فعل القانون العامّ[2]. فإنّ ذلك القانون يؤثر علينا بنفس الطريقة التي يؤثر بها على الخلايا الحيّة، فيثبتنا في نفس المكان، أو يسعى باستمرار إلى إعادتنا إلى مكاننا الأوّل. فإنّ شدّة (تأثيره) لا تترك لنا سوى حرّية تصرّف محدودة الاختيار والمدى. وهو يؤثر علينا بوسائل (وطرق) متباينة. نستطيع أن نقول إنّ الإنسان إذا عاش "كما يعيش كلّ الناس" وان لم يغامر ولم يخرج عن المسالك المألوفة، فإنّه لن يتنبّه إلى وجود تلك القوّة، أو بالأحرى فإنّ تلك القوّة سوف تتجاهله. أمّا إذا خرجت مشروعاته عن المعتاد في أيّ مجال من المجالات، وفي مجال الباطنيّة بصفة خاصّة فإنّ تلك القوّة سوف تعترض (سيره) للتوّ، وتختلق له أنواعا عديدة ومنوّعة من العوائق لكي تعيده إلى النقطة التي يجب - تبعا للقانون العامّ - أن يلزم حدّها. وإننا في الواقع لا نَعْرفُ تلك القوّة، ولكننا نعلم حدسا بوجودها وبالأشكال المتعدّدة التي تتقمصّها. لقد ذكرتها الأسفار المقدّسة أكثر من مرّة، وخاصّة عند الكلام عن ممارسة العمل الباطنيّ.

---

[1] جهود فائقة هي ترجمة لكلمة Sur - Efforts.

[2] قارن بالفصل الثامن.

قال يسوع في هذا الصدد: أعداء المرء هم أهل بيته[٣] فما أحْرى إذن أن يحتقر النبيّ في موطنه بين أهله وداخل بيته[٤].

فإذا لم تفلح تلك القوّة المحافظة التي تخدم أغراض القانون العامّ أن "تهدّى" المرء بالتأثير عليه، سعت إلى ذلك بطريقة غير مباشرة بواسطة أهل بيته، إمّا بما يلجأون إلى التذرّع به من مشاعر، أو بما يتحرّون إبرازه من برود أو من احتقار.

المثل الكلاسيكيّ لهذا التأثير الغير مباشر هو إغواء حوّاء لآدم، وحوّاء (هنا) هي إنيّته الأخرى (آدمه الآخر) أغوته بعد أن (انصاعت) هي نفسها لإغراء الثعبان الذي استخدم في ذلك ثمرة شجرة معرفة الخير والشرّ.

إنّ هذه الأسطورة تكتظ بالمعاني. فلماذا إذن، وفي بادئ الأمر، (وقع الاختيار على) الثعبان الذي هو أمكر حيوانات الحقل[٥]؟ إنّ الثعبان هو الوهم في شكل شخص أو بتعبير أدق قوة الوهم المنغرس في الكيان البشريّ الحيّ والسلطة (والنفوذ) اللذان هما تحت تصرفه. يجب أن نلاحظ أنّ تلك القوّة إلى جانب الأخطار التي تتضمّنها، لها تأثيرات إيجابيّة بيّنة، وخاصّة المخيّلة الخلاّقة (أو التخيل أو الخيال الخلاق).

أنّ قوّة الوهم يمكن أيضاً أن يُتحكّم فيها، وأن توجّه بصفة متكاملة في اتجاه بنّاء. ولكن تحويل تأثيراتها إلى الاتجاه العكسي لا يمكن الحصول عليه إلا بثمن مواصلة العمل بمثابرة نحو الطريق الباطني ثم فوق الطريق الباطنيّ. حيث إنّ هذه القوّة تحدث في الإنسان الخارجيّ، بواسطة الأوهام المتتابعة التي تولّدها نتائج سلبيّة.

يطلق على هذه القوّة في التقليد اسم الثعبان الصغير (أو الثعيبان). والسبب في هذه التسمية هو أنه عندما يُوقظ ويوجّه توجيهاً بناءَ يحدث مفعوله داخل الكيان الحيّ للإنسان - يحدث انطباعاً (بوجود) حركة متموجة. هذا هو سبب اختيار الثعبان وسبب جعْله أحد شخصيّات أسطورة سقوط آدم. يتكشّف لنا في نهاية المطاف أنّ ثمرة شجرة معرفة الخير والشرّ هي بعد البحث والتحليل ثمرة وهميّة. ونعنى بها (أي بهذه الثمرة الوهمية) تلك المعرفة التي توجد في متناول ملَكة العقل الذي هو كما سبق أن بيّناه الاستدلال (والاستنتاج) القياسيّ المنطقيّ اللا-أدريّ بكلا شقيه الخالص والعمليّ، وكلاهما لا يمكن أن يتعدّى منطقة نفوذ المؤثرات "ا". فهي بالفعل ليست سوى معرفة عناصر عالم الظواهر، بما معناه العناصر "ا" التي يساوى حاصل جمعها الجبريّ في مجموعه صفرا. مصباح سحريّ يدور بلا توقف.

اقترب الثعبان الخبيث (المحتال) من حوّاء وهو ينوّمها مغناطيسيّا (باستخدام) البريق الناصع لحركة المصباح. فأيقنت حوّاء أنّ اللا حقيقي هو الحقيقيّ وجرّت آدم وراءها في سقوطها. لقد أصبحت مناورة الإغواء هذه من وقتها، ومع إضافة العديد من التحويرات التي أثرت بها - أصبحت إذن أمرا معتادا في (مجرى) العلاقات البشريّة.

يستطيع الإنسان عندما يشرع في السير فوق الطريق الباطنيّ أن يسير في عكس التيّار، وأن يكفّر عن الخطيئة الأصليّة - أي خطأ جدّنا الأعلى نحن جميعاً الذي نعيد ارتكابه نحن في كل لحظة. إن قوّة الوهم - ما لم نسيطر عليها - تحتجز كلاّ منّا في مكانه مجبرة إيّاه على اعتبار الغلط صحيحا في غالبيّة الحالات. فيظلّ الإنسان منغمساً في اللا حقيقي يتعثّر في نفس مكانه بدلا من أن يتقدّم؛ فيخطو خطوة إلى الأمام ثمّ خطوتين إلى الخلف فخطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الخلف وهلّم جرا. ليؤدى به إنهاك القوى الناتج عن ذلك إلى الموت.

---

[٣] متى، ١٠: ٣٦.

[٤] متى، ١٣: ٥٧ - مرقص، ٦: ٤ - لوقا، ٤: ٢٤ - يوحنا، ٤: ٤٤.

[٥] سفر التكوين، ٣: ١ إلى ٧.

يجب علينا في مثل هذه الحياة المفتعلة التي يسيطر الوهم عليها، وان كانت تتخللها أيضا المؤثرات "ب" - أن نشرع كلّ يوم تقريبا في إجراء إعادة تقدير للقيم لكي لا نقع في فخّ جديد. إننا نتّفق عامّة على الاعتراف بوجود خطر الوهم، ولكنّه اعتراف نظريّ (أكثر منه عمليّ)؛ فإننا نرى الوهم في أكثر الأحوال يتثاقل (على كواهل) الجار القريب لا على (كواهلنا) نحن. فنواصل بتلك الكيفيّة حياتنا اليوم كالبارحة لتنتصر القوّة التي نسمّيها عامّة إبليس. ومهما يكن الاسم الذي نسميها به فهي موجودة دائما. إننا لنعيش في عالم مصطنع وهميّ. يجدر بنا في هذا الصدد أن نذكر الحكمة التي قالها أحد النسّاك البوذيّين. فلقد أجاب ردّا على السؤال التالي: كيف تتمثل خلق العالم؟ بأن قال: إنّ العالم يُخلق من جديد لكلّ مولود جديد. والرد صحيح: بما أنّ قوّة الوهم التي تقيّدنا كلنا تؤثر مع ذلك تأثيرا فرديّا على كلّ واحد منّا (على حدة) حيث إنّ كلا من أذهاننا مغلوط بكيفية خاصّة به وحده. ما الذي يمكن أن يؤدى إليه مثل هذا الموقف؟ إننا إذا لزمنا أمكنتنا في هدوء تنفرج أمامنا فرصّ لشغل شتى المراكز والوظائف على قدر ما هي موجودة فيما قبل منطقة الفجوة. فقد يكون لنا حياة سعيدة أو تعيسة؛ حياة عائلية أو حياة مليئة بالغراميّات، أو نكتشف المكتشفات، وقد نمنّى (بعديد) الرحلات، ونكتب المؤلفات. ثمّ تأتى النهاية.

إنّ قوّة الاستدلال فينا سوف تبتسّم بقدر أكبر من الواقعيّة إذا تركز انتباهنا على تلك النهاية. فإنّ أيّ شيء قد يحدث لنا في حياتنا، أو لا شيء ألبتّة، قد يتحقق كلّ ما نتوق إليه أو لا يتحقق إلا لأنّ هناك نهاية مؤكّدة ألا وهى الموت. يجب أن نبدأ دراساتنا عند تلك الواقعة (الأكيدة).

منذ أن وجدت البشريّة والسؤال التالي لا زال يتردّد: ألا يمكن إطلاقا أن نَتَفَادَى الموت؟ ألا يوجد أيّ مخرج؟ هل يمكننا أن نتقبّل مستسلمين أن نولد ونتعلم ونتثقف الخ. لينتهي كل ذلك بكلّ بساطة في الانعدام التامّ؟ هل يمكن أن تتأقلم قلوبنا ورؤوسنا بدون أن تثور مع (فكرة) هذا القدر المحتوم؟

إننا في الواقع لا نفكر في ذلك أبدا، أو نفكر فيه قليلا جدّا الأمر الذي يرضى تماما قوّة الوهم التي هي إبليس تبعا للتقليد. إلا أنّ الإنسان اليوم يعير قدرا أكبر من الاهتمام بما لأشياء هذا العالم من (طابع) البطلان والزوال، وخاصّة بعد ما امتلأ به هذا القرن من شتّى الحوادث: حروب عالميّة وثورات وحروب أهليّة وحروب باردة وتوترات سياسيّة واجتماعيّة وتحلل الإمبراطوريات، وتقدم العلم الإحصائي للشعوب بسرعة البرق. سوف نعود فيما بعد إلى (مناقشة) كلّ هذه الحوادث التي يرجع وجودها لأسباب ذات طبيعة فلكيّة.

يتولّد داخلنا أمام ذلك المنظر شعور بالمحال (واللا معقول). فإنّ تقدّم التطبيق الفنّي (للعلوم) بسرعة متزايدة - يوحّى لنا بدلاً من الطمأنينة بالتوجسّ والحيرة اللتين تكادان أن تقتلعا من جذورها قوّة الوهم التي كانت قد ظلّت حتّى الآن لا تتزحزح. وبذلك بدأنا نشعر باهتمام متزايد بمشكلة الموت التي كانت بالأمس تتوارى بين كواليس وعى الاستيقاظ.

-٢-

سبق لنا أن ذكرنا نصّ القدّيس بولس الرسول (الذي يقول فيه): أنني لأقول لكم سرّا. لن نموت كلنا ولكن سوف نتبدّل كلنا[٦].

ولنعلّق عليه تعليقا جديداً من زاوية مختلفة.

ماذا يعنى بهذه الكلمات: سوف نتبدّل كلنا؟

إن طال الأمد أو قصر سوف يترك كلّ منّا جسده الطبيعيّ فنتبدّل كلنا إذن بالفعل.

فماذا يعنى إذن بهذا القول: لن نموت كلنا؟

---

[٦] ١ إلى أهل كورنثوس، ١٥: ٥١.

إن تهدم الجسد الطبيعيّ الذي يعمل في الإنسان الخارجيّ بمثابة الرحم لذلك الجنين الشمسيّ (أو ألنجميّ) الذي هو الشخصيّة، ينجم عنه بالضرورة تفكك تلك الشخصيّة. يطلق في لغة التقليد على تفكك الشخصيّة، وعلى تفكك الإنيّة الشخصيّة معها اسم الميتة الثانية[٧]. نبلغ، بالولادة الثانيّة، عندما يولد الجسد الشمسيّ (أو ألنجميّ) الذي قد تحقق التحامُه (ثم اتحد اتحاداً) متكاملاً مع الإنيّة الحقيقيّة ليكوّنا معا الفرديّة - نبلغ الحياة الكوكبيّة ونَفْلتُ بذلك من الميتة الثانية[٨]. إلا أنها سوف تحدث مع ذلك، لا بعد مرور أربعين يوما على موت الجسد الطبيعيّ، ولكن بعد ٨٠ سنة نجميّة أي بعد ٢٤٠٠٠٠٠ (مليونين وأربعمائة ألف) سنة أرضيّة. إن موت الجسد الطبيعيّ بالنسبة للإنسان ٤ بعد أن يكون قد تخطّى عتبة الدائرة الداخليّة للباطنيّة، لن يكون أكثر من تخلصه من ملابس عفا عليها الزمن أو بَلِيَتْ. بَلْ يُمكِنهُ أن يَتَّخِذَ لنفسه ملابس أخرى إذا كان في حاجة لذلك. لن يكون الأمر إذن بالنسبة له كارثة. هذا هو معنى عبارة القدّيس بولس.

يوضحّ لنا هذا النصّ المعطيات الأولى للمشكلة. إنّه مجموع الشروط الذي يجب الإيفاء بها للوصول تبعا لبولس الرسول إلى الهدف المشار إليه، والذي يحمل في العلم الباطنيّ اسم الطريق. ويتكوّن هذا المجموع من الآتي: مواصلة دراسات معيّنة واتباع (بعض) التعاليم واحترام قواعد معيّنة، وتنفيذ مهامّ عمليّة (خاصّة) - على أن يُؤَدَى ذلك كلّه بروح الدقة الصارمة التي تسود العلم الوضعيّ. ولكن يجب علينا أن نمرّن ونطوّر ونسنّ روح النقد فينا بقدر أكبر من القدر الذي نمرّن ونطوّر ونسنّ به فينا هذه الروح في مجال العلم الوضعيّ. وهو أمر لا غنى عنه حيث إنّه لا يوجد دائما حدودّ دقيقة في عالمنا الداخليّ. فإنّه إذا كان المنطق على المستوى العقلي يسعى إلى وضع تعريفات واضحة، لا يجب أن نتغاضى عن الحقيقة التالية ألا وهى أنّ تأدية العقل لوظيفته تتمّ تحت إمرة الوهم الذي يشوّه حكمنا (على الأمور والأشياء) في العديد من الظروف. أما عن المستوى الانفعالي فإنّ الموقف فيه أكثر اختلاطا، حيث إنّه من الصعب جدّا أن نحدّد الاتجاه الصحيح، وأن نفرّق بصفة قاطعة بين ما يتولّد من أنفسنا وما ينتج من انطباعات خارجية - أي بعبارة أخرى بين ما

---

[٧] رؤيا يوحنا، ٢: ١١.

[٨] نظرا لأهمية الموضوع واشتراك الدينين في اختيار نفس الألفاظ نذكر الآيات القرآنية التي ذكرت فيها "الميتة الثانية" مع شيء من التفسيرات التي أوردها في هذا الصدد بعض المفسّرين.

سورة غافر آية ١١: (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل).

تفسير الطبرى: ٣٠٢٩٠ ص ٤٨ و٤٩، جزء ١١ طبعة دار الغد العربي القاهرة:- حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة قوله [أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين] قال: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم فأحياهم الله في الدنيا، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما حياتان وموتتان.

٣٠٢٩٦: حدثنا محمد، قال: حدثنا أحمد، قال: حدثنا أسباط، عن السدي قوله [أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين] قال: أميتوا في الدنيا، ثم أحيوا في قبورهم فسئلوا أو خوطبوا ثم أميتوا في قبورهم ثم أحيوا في الآخرة.

جوامع الجامع في تفسير القرآن المجيد، إمام المفسرين الفضل الطبرسي، ص ٣٩٥ من الجزء الثاني لطبعة دار الأضواء:- [اثنتين] أي إماتتين وإحياءتين أو موتتين وإحياءتين، أراد بالإماتتين خلقهم أمواتاً أوّلاً وإماتتهم عند انقضاء آجالهم، وبالإحياءتين الإحياءة الأولى وإحياء البعث، وقيل: الإماتتان هما التي في الدنيا بعد الحياة التي في القبر قبل البعث، والإحياءتان هما التي في القبر للمساءلة، والتي في البعث.

سورة البقرة آية ٢٨: [كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحيكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون]

تفسير الطبري ٥٨٤ ص ٢٨٧ من نفس الطبعة: حدثنا به أبو كريب، قال: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن السدي، عن أبي صالح: قال: يحييكم في القبر ثم يميتكم.

جوامع الجامع في تفسير القرآن المجيد، إمام المفسرين الفضل الطبرسي، ص ٤٠ من الجزء الأول من نفس الطبعة:- [ثم يميتكم] بعد هذه الحياة، [ثم يحييكم] بعد الموت. وهذا الإحياء الثاني يجوز أن يُراد به الإحياء في القبر، وبقوله: [ثم إليه تُرْجَعُونَ] الحشر والنّشور. ويجوز أن يراد بالإحياء النّشور، وبالرجوع المصيرُ إلى الحساب والجزاء. وعطف الأول بالفاء، لأنّ الإحياء الأول يعقب الموت بغير تراخ، وعَطَفَ الآخرين بثُمّ، لأنّ الموت قد تراخى عن الإحياء، والإحياء الثاني متراخ عن الموت، إن أُريد به النُّشور أو الإحياء في القبر، والرجوع إلى الجزاء أيضاً ـ متراخ عن النّشور.

سورة الدخان آية ٥٥: [لا يذوقون فيها الموت إلا المَوْتَة الأولى].

تفسير الطبري، ٣١١٧٩ ص ٢٦٩ من الجزء الحادي عشر:- لا يذوق هؤلاء المتقون في الجنة الموت بعد الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا.

هو أنا وما ليس أنا. إن التفرقة بين الموضوع وبين ألذات تسهل جداً في العالم الطبيعيّ، وتقلّ سهولتها في العالم العقلي لتصبح صعبة إلى أبعد الحدود في العالم الانفعالي. وبما أنّ الحياة الانفعاليّة هي الموضوع ذو الأهميّة القصوى في العمل الباطنيّ، يكون ذلك السبب الذي يدعو في التعليم الباطنيّ إلى وضع ذلك القدر الكبير من الأهميّة على تطوير روح النقد الموجّهة (أساسا) نحو أنفسنا، أي نحو ظواهر حياتنا الداخليّة.

-٣-

يشارك الإنسان بصفته خليّة من خلايا الحياة العضويّة على الأرض في تطوّر شعاع الخليقة. يكوّن إحياء القمر، ذلك الجنين الفلكيّ، واحد من الظواهر الحاليّة لهذا التطور. والعمليّة تستلزم كميّات جديرة بالاعتبار من الطاقة تنتج خاصّة بواسطة القطاع البشريّ من الحياة العضويّة. إن الوهم الذي يلعب دورا بالغ الأهميّة في وعى الاستيقاظ للإنسان قد أدخل في هذا الوعي لكي يقبل الإنسان بلا تمرد أن يشارك في هذا المظهر من العمل الفلكي.

فإذا كان الإنسان واعياً لهذا الموقف، وإذا كان يرغب في الإفلات منه، يجب عليه أن يصمّم ويخلق حائلا يقي من هذا التأثير النهم (الملتهم) للقمر. ولكنّه يجب علينا أن نحاذر لكي لا نفلت من (شرك) وهم لنقع في (شرك) وهم آخر، وذلك بإقامة حائل غير صحيح؛ فإننا في تلك الحالة سوف نتسبّب في إهدار قوى خطورته أفدح بدلا من الاقتصاد فيها. بيد أنّ كمّيّة القوى اللازمة للتصدّي تصدّيا فعّالا لتأثير القمر علينا كمّية جديرة بالاعتبار. لذا فإنّ أول أمر (حتمي) هو إيقاف تبديد تلك القوى وإغلاق الصنابير التي تترك الطاقة تتسرّب بلا جدوى: الانفعالات الجدباء وخاصّة الانفعالات السلبيّة؛ الخرافات الخياليّة النابعة عن مخيّلة غير محكومة؛ الرياضة الذهنيّة الغير منسّقة، الثرثرة الخ. يجب إذن أن نتصرّف كما يتصرّف وزير مالية حكيم، أن نوفر بحزم صارم قوانا، ولكن بدون إجداب نشاطنا أو عقلنا. بل على العكس يجب أن نختزن هذه القوى وأن نزوّد (كمّيّاتها) حتّى نكوّن لنا منها احتياطيّا. هذا هو المظهر المزدوج للمقصد الأول الذي يتعيّن علينا أن نبلغه.

-٤-

تُعرف الفجوة (أو الفراغ) التي تكلمنا عنها في بداية الفصل الحالي - في لغة التقليد العامرة بالصور إما باسم الحفرة أو باسم العتبة. سوف نستعمل فيما بعد الاسم الثاني أكثر من الأوّل، ولكنّنا سنستخدم هاهنا الأوّل بخصوص جزء النص الرمزيّ (المذكور أدناه). لقد دأب التعليم الباطنيّ على مرّ العصور على عرض أشكال تخطيطيّة ومقاطع أدبيّة تقدّم في شكل رمزيّ معا (في نفس الوقت) على تلاميذه. ويجب أن تحفظ المقاطع عن ظهر قلب، ثمّ تمثّل بواسطة شكل تخطيطيّ. يمارس أيضا التدريب العكسيّ: يُبْدَأ عندئذ بشكل تخطيطيّ ما، يجب بعد ذلك أن يحوّل إلى مقطع أدبيّ مكتوب.

-٥-

وهاك مقطعا من تلك المقاطع:

أخذ الرجل وقد تاه في غابة مليئة بالحيوانات المفترسة يبحث في وله عن مخرج مدفوعا بشعور غامض وإن كان عميقا. وها هو وقد أنهكت قواه بعد أن تعرّض لألف خطر يصل إلى طرف الغابة.

تبدّى أمامه مشهد غمره بالانبهار المشوب بالتوّجس: هناك حصن حصين ذو جمال متوّحش يتشامخ فيما وراء حفرة واسعة مليئة بماء رقراق وحيٍّ. ينفرج وراءه واد سعيد يستضئ بآخر أشعّة الشمس. أمّا على اليسار فإنّ الأفق المظلم الضارب إلى الحمرة ينبئ بمقدم إعصار.

نسى الرجل وقد غمره الانبهار وتملكت منه شهوة محتدمة للوصول إلى الحصن - كلّ المخاطر والمتاعب التي يتعرّض لها.

وتساءل: كيف يمكنني أن أصل إليه؟

فجأة سمع صوتا أخذ يكلمه من أعمق أعماق قلبه.

قال الصوت: هذه الحفرة لا يمكن عبورها إلا عوما... ولكنّ التيّار شديد والماء كالثلج.

أحسّ الرجل أثناء ذلك بدفعة دافقة من القوى الجديدة تتصاعد فيه. فبتّ في أمره، وألقى بنفسه في الحفرة. شلّ البرد نَفَسَه. ولكنّه شدّ إرادته إلى أقصى ما استطاع. فوصل بقليل من الدفعات إلى الضفة الأخرى حيث قفز على أولى درجات السلّم واستقر بقدميه فوقها. فرأى فوقه ثلاث درجات ضخمة من الحجر الصوان تعتليه، وتؤدّى إلى مدخل فسيح على شكل نصف دائرة تحميه طابيتان، ويسمح بالدخول إليه بابان موصدان.

رنّت عندئذ في أذنيه صيحة مدويّة، فاستدار الرجل. فرأى قطيعا من الذئاب تدهس أرض المكان الذي كان يقف فيه منذ لحظات.

كاد ضوء النهار أن يتلاشى، ولكنّه استطاع أن يتبين عن بعد أجيج عيون الحيوانات الجائعة.

وسمع الصوت يكلمه من جديد قائلا:

إذا أنت نظرت للأمر نظرة شاملة تبيّنت أنّ المخاطرة لم تكن بالقدر الذي كنت تخشاه ولو كنت رفضت أن تخاطر لكانت الذئاب قطّعتك الآن إربا.

أخذ الرجل، وقد تملك منه رعب الإفلات من الخطر الذي نجا منه يقدّر ما بين نفسه الصعوبات التي تعترض (عملية) التسلق.

ما كاد يحاول أن يرتقى إلى الدرجة الثانية حتّى انهمرت سيول كالطوفان جعلت الأحجار زلقة وقيّدت حركاته. ونجح في النهاية بالرغم من ذلك كلّه في الارتكاز بقدميه فوق الدرجة (الثانية). وانقضى الإعصار وخفّ المطر. والماء ينحدر من وجه وملابس الرجل فوق البلاط.

قال الصوت: لا تلق للأمر بالا. لقد سبق أن ابتللت وأنت تعبر الحفرة المليئة بالماء من ذي قبل.

استردّ الرجل أنفاسه وعاد إلى التسلق. أنسدل الليل، وبدا هلال القمر الجديد في لون الذهب الباهت على اليمين من جهة الغروب.

- سمع من يقول في أعماق نفسه: أنّها لعلامة طيّبة (أيّ تبشر بالخير).

ابتسم الرجل. لقد أخذ الآن يتشبّث بأصغر نتأ في الحجر ليبلغ الدرجة الثالثة. ونجح في ذلك وقد تلوثت يداه وقدماه بالدم. وما أن انتصب واقفا حتّى كادت عاصفة جامحة من الهواء المثلج تلقى به إلى أسفل. فتشبّث بأرض الدرجة، وارتقى إلى أن وصل إلى أسفل الحائط الذي يكوّن الدرجة الرابعة حيث وجد لنفسه مأوى.

قال له الصوت آنذاك: لم ينته الأمر بعد. لا تتلكأ في مأواك. فإنّ الدرجة قد تنفرج تحتك وعندئذ تبتلعك الأرض...

ضاعفت مقاومه الرجل للعاصفة من قواه عشر مرّات بدلا من أن تنهكه. فأصبح يرتقى للدرجة الرابعة بلا عناءٍ يذكر، وان كانت في نفس ارتفاع الدرجات السابقة.

سمع الرجل بعد أن انتصب واقفا فوقها بوق الإنذار يدوّى كأنّه صدع الرعد. لفحت وجهه فجأة لفحة ملتهبة. نظر الرجل إلى أعلى. فرأى في ظلمة الليل وجها مضيئا ينتصبُ أمامه: هذا هو الحارس، وقد ارتدى درعا وخوذة يسطعان بالنور مادّا ساعده، وقد أمسك في يده بنصل متوهّج صوّبه نحو الرجل.

- سأله الحارس: من أنت أيها الحاجّ؟ لأيّ هدف وباسم من تخطّيت تلك العوائق وتسلقت سلّم الفردوس؟

أخذ الرجل وقد جرفته انطلاقة فرحة لا يمكن أن توصف يردّد بصوت عال الكلمات التي سمعها في أعماق قلبه. فأحسّ بها الآن وكأنّها كلماته هو وردّ بشجاعة على الحارس:

أنا النفس التي تبحث عن النعيم الإلهي؛ الجزيء الذي يتوق إلى الاتحاد بالمبدأ الخلاّق!

فأجاب الحارس: ردك مقبول (صحيح).

انفتح باب طابية اليمين، وعاد النصل إلى غمده. أخذ الحارس الرجل من يده وعبر به عتبة الباب المفتوح...

طلى الفجر المشرق بالذهب. وأخذت (الزهراء) نجمة الصباح تتلألأ فوق الوادي السعيد منبئة بقدوم الشمس.

-٦-

وهاك مقطعا آخر قد استخرج (من نصوص) الأدب الكلاسيكيّ، وهو نص من مقتطفات الكاتب ترجينييف[٩].

أنني أرى مبنى يشكل كتلة ضخمة. يوجد في جداره الأماميّ باب ضيّق مفتوح على مصراعيه؛ وترى خلفه أبخرة كئيبة. وقفت أمام العتبة المرتفعة فتاة... فتاة روسيّة جميلة.

خرج من وسط هذه الأبخرة المعتمة الثلجية ... نفسُ يجتلب معه من أعماق المبنى في تيّار من الهواء المثلج رنين صوت بطئ ومكتوم.

يا من تتُوقين إلى تخطى هذه العتبة هل تعلمين ما الذي ينتظرك؟

أجابت الفتاة قائلة: نعم أعلم ذلك.

البرد والجوع والكراهية والاستهزاء والاحتقار والظلم والسجن والمرض حتّى الموت؟

نعم أعلم ذلك.

هل تنتظرين أن ينبذك الكلّ؟ هل تتوقعين الوحدة الكاملة؟

أنني مستعدة لذلك كله. وأعلم ذلك. سوف أتحمل كل أصناف العذاب وكلّ اللطمات.

حتّى إذا لم تجئك من أعداء بل من الأهل والأصدقاء؟

نعم... حتّى من هؤلاء...

ليكن. هل تقبلين التضحية؟

نعم.

التضحية التي لن يعلم أحد شيئا عنها؟ سوف تهلكين ولن يعلم أحد... لن يعلم أحد بتاتا من تلك التي كان يجب أن تتبجّل ذكراها ...

لا حاجة لي إلى العرفان بالجميل أو الشفقة. ولا حاجة لي إلى اسم (يبقى بعدى).

هل أنت على استعداد لاقتراف الجريمة؟

وطأطأت الفتاة رأسها.

حتّى الجريمة نعم.

كفّ الصوت الذي كان يتولى السؤال كلامه لفترةٍ. ثمّ عاد أخيرا يسأل من جديد:

---

[٩] ج. س. ترجنييف: قصائد صيغت نثرا، نشرتها "لى سوى". وهى أول ترجمة كاملة نشرها شارل سالمون بنفس نظام المخطوط الأصلي مع التعليقات، جاب، مطبعة لويس جان، ١٩٣١. وكانت تلك القصيدة قد رفضتها الرقابة ومنعت نشرها آنذاك.

هل تعلمين أنك قد لا تؤمنين يوما بما أنت مؤمنة به الآن؟ وأنك قد تصلين إلى حدّ أن تطمئنني أنك كنت مغشوشة، وأنك قد أضعت حياتك الشابّة بلا جدوى؟
أعلم بذلك أيضا. ورغم علمي به فإنني أريد أن أدخل.
تخطّت الفتاة العتبة وانسدل ستار ثقيل.
ففاه خلفها شخص ما قائلا في صرير من الأسنان:
حمقاء!
فأجاب على ذلك صوت لم يعرف مكان صدوره قائلا:
(بل) قدّيسة!

-٧-

إنّ هذين المقطعين، وكلاهما من اصل باطنيّ يعطيانا فكرة عن المدخل (المؤدى) إلى الطريق. سوف نفكّ شفرة معاني كلا منهما على قدر تقدّمنا في دراساتنا فإنّ كلّ شيء في هذين النصّين ذو معنى (ومغزى). ولنكتف الآن بجلب انتباه القارئ بصفة خاصّة جدّا إلى التوجيه الأوّل والأهمّ بالنسبة له: إنّ الطريق يسير في اتجاه واحد فقط. وهو ما يعنى أنّ الذي بدأ في السير فوقه قد حرّم عليه سبيل العودة، ولا يصدر هذا التحريم بموجب أمر قاطع يأتي من الخارج بل بواقع كون كلّ خطوة إلى الأمام فوق الطريق تغيّر بما لا رجعة فيه من المحتوى الداخليّ للشخص الذي قد شرع في السير فوقه. فيترتب على ذلك أن يزداد (شعور) السائر بالغربة بالنسبة لكلّ من يحيطون به يوما بعد يوم؛ ويقلّ اهتمامه يوما بعد يوم بالحياة الخارجيّة التي كان بالأمس يشارك فيها مشاركة ملية. كذلك فإنّ مظهر الأشياء، وخاصّة مظهر الكائنات يعتريه تغيّر عميق بالنسبة له. فسوف يدهش عندما يقرّر يوما (بكلّ موضوعيّة) أنّ بعض الوجوه التي كان يجد فيها بالأمس قدرا كبيرا من الجمال تظهر الآن عليها سمات الحيوانيّة: لا الوجوه كلها، ولكن عدداً كبيراً منها.

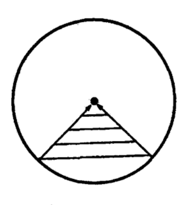
فلقد تسائل يوما نيكولا جوجول أثناء نوبة كشِفَ عنه الحجاب فيها فقال: ماذا ترى؟
ضباب ... وأفواه الخنازير...

كلّما ازداد تقدّم الإنسان فوق الطريق كلّما ازداد شعوره بالغربة حدّةً. لن يمرّ وقت طويل حتّى يصبح مملا؛ ثم يصبح بعد ذلك أيضا غير محتمل؛ وأخيرا مقيتا (كريهاً). هذا هو السبب الذي يجعل النبيّ محتقرا في وطنه بين أهله وفي داخل بيته[١٠]: هذا التنبيه لا جدال في حدوثه، ولا يترك مجالا لأيّ شكّ. إنّ على الذي يريد أن يشرع في الدراسات الباطنية أو يمعن في التفكير طويلا وان يوازن الأمور كلها قبل أن ينطلق لعبور الحفرة - العتبة. فإنّه - ولا مانع من التكرار - لن يمكنه بعد ذلك أبدا أن يعود إلى الحياة الخارجيّة، وأن يجد فيها كما كان يفعل من ذي قبل مضطجعة وملذّاته وكفايته. إلا لأنه إلى جانب الصعوبات التي تكوّن النتائج الأولى لارتقائه، سوف يتقبّل انطباعات مشجّعة ومنعشة، وبصفة خاصّة فيما يتعلق بعلاقات البشريّة. فسوف يدهش عندما يدرك يوما أنّ بعض الوجوه التي كانت حتّى الأمس تبدو عاديّة بالنسبة له تتلألأ اليوم أمام عينيه بجمال ساطع. يحدث ذلك لأن العمل الباطني قد زاد من حدّة نظره وجعله يكتسب القدرة على النفوذ إلى ما وراء القشرة (الخارجيّة). سوف يجد بذلك أصدقاءه الجدد ما بين هؤلاء الكائنات الأكثر شفافية فيتقبّله مجتمعهم كواحدٍ منهم. فيجد من يفهمه في كلّ واحد منهم، ويصبح اشتراكهم جميعا في نفس الأهداف والمصالح دافعا وعونا للكلّ.

---

[١٠] متى، ١٣: ٥٧؛ مرقص، ٦: ٤.

ها نحن نقدّم للقارئ بعد هذا النصّ الشكل التخطيطي للأب دوروثي، وهو الشكل الذي يُقدّم (للمريد) في التقليد الأرثوذكسيّ عند الشروع في مواجهة مشكلة الطريق. ومعنى هذا الشكل التخطيطيّ أنّ الذين يسيرون نحو الحقيقة يتقاربون بالتدريج من بعضهم البعض.



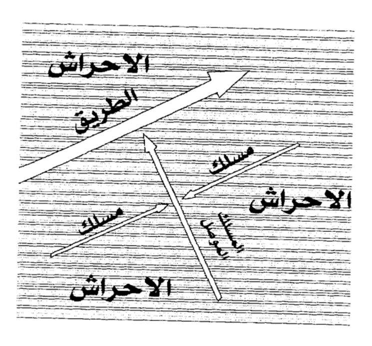
- شكل 48 -

-٨-

لقد تكلّمنا عن الطريق كما لو كان مفتوحا لنا وموجودا في متناولنا، وكأنّ يكفينا أن نخطو خطوة واحدة لنجد أنفسنا فوقه. والواقع أنّ الأمر يختلف تماما.

يجب قبل كلّ شيء أن نتملّى داخليّا بفكرة أنّ الحياة الخارجيّة أحراش، بملء معنى هذه الكلمة أحراش تسود فيها المؤثرات "ا"؛ وإن كان يوجد بالفعل طريق خطّته المؤثرات "ب". يجب أيضا أن نفهم أنّ الطريق فريد، وأنّه لا يوجد طريق خارج الطريق. يجب بعد ذلك أن ننتبّه إلى أنّنا على الحالة التي نحن بها لا نوجد، ولا يمكن أن نكون موجودين فوق الطريق. بل لكي نصل إليه يجب أوّلا أن نجد سبيلا موصّلا، وأن نتتبّع ذلك السبيل. ولا شكّ أنّ التفكير الجادّ الموضوعي سوف يؤدى بنا إلى النتيجة المنطقيّة التالية: ألا وهى أنّنا لا نوجد خارج الطريق فحسب بل نوجد أيضا خارج السبل الموصّلة. إننا نوجد بالفعل في وسط الأحراش، ولا يوجد بين أيدينا سوى ورقة رابحة واحدة: هي رغبتنا في بلوغ الطريق (بأيّة كيفيةٍ).

إذا ثبت أنّ تلك الرغبة صادقة ومن القوّة بالقدر الكافي فسوف نجد بدون الكثير من العناء مسلكا يقودنا إلى سبيل موصّل لنتوصّل أخيرا وبوساطته للطريق. يمثّل الشكل التخطيطيّ الموجود أدناه الإنسان الموجود في هذا الموقف:



- شكل 49 -

يمكننا أن نرى أنّ الاتّجاه الذي يجب إتّباعه للتوصّل للسبيل الموصّل يتوقف على المكان الذي يقف فيه الباحث الذي يريد أن يصل إليه. فلا يمكن ألبتّة إعطاء أيّ توجيه عامّ. يمكننا أن نقول رمزيّا إنّه إذا كان يتحتّم على شخص ما أن يسير في اتّجاه الشمال لكي يتوصّل للسبيل الموصّل، فإنّه سوف يتحتّم على شخص آخر يوجد من الجهة العكسيّة للسبيل المطلوب بلوغه أن يسير حتما في اتّجاه الجنوب. وهلمّ جرّا بالنسبة للطريق.

أنّ الحيطة واليقظة لكلّ ما يدور حول الإنسان أمران لازمان في مواجهة القرارات التي يجب اتّخاذها كما هما لازمان في تقدير مدى ما يجب القيام به من تحرّكات وفي تقدير تحرّكات الآخرين.

الفصل السادس عشر

الإفلاس الأخلاقي الذي تؤدّى إليه الحياة الخارجيّة - يشعر الإنسان الخارجي بالحاجة إلى البحثِ عن الطريق عندما يعترف بإفلاسه الأخلاقي - إعداد "القفص" الداخليّ بمأمن عن المؤثرات " ا " - التفرقة بين المؤثرات "ا" والمؤثرات "ب" - عدم الانجراف الداخليّ والامتناع عن (التمادي) في الاعتبارات الداخلية - الاعتبار الخارجيّ - خميرة الفارسيين - الجهاد ألّلا مرئيّ - سرّ الإتمام-.

-١-

عندما يبدأ الإنسان في البحث عن الطريق، فإنّ ذلك يعنى عامّة أنّه قد انهار شيء ما في داخله. يسبق ذلك الانهيار - فيما عدا بعض الحالات الاستثنائيّة- إعادة تقدير لقيم أخلاقيّة التي تفقد في نظره الثمن الذي كان يعطيه لها قبل ذلك. أ مّا إعادة ألتقدير هذه، فإنما يدفعه إليها تراكم صدمات سابقة ومتفاوتة في العنف ولّدت فيه انفعالات سلبيّة.

يجب أن يكون الإنسان عادلا[١] وطاهرا بطبيعته، وألاّ تكون الحياة قد دنّسته، لكي تدفع الانفعالات الإيجابيّة ويدفع النجاح به إلى العمل الباطنيّ. أمّا بالنسبة لعامّة الناس، فإنّ النجاح والفرح بدلا من العمل بمثابة منبّه له من الغفلة يغمسان الإنسان في السبات الذهنيّ. إنّ النجاح كما يقال - يطيح بالعقل -. والصدمات الغير مستحبّة من وجهة النظر الباطنيّة تعتبر منطلقا للعمل أفضل من الصدف السعيدة. فإنّ التواضع الذي لا يمكن الاستغناء عنه تبعا للتقليد لازمٌ بالذات لكي يعمل بمثابة حاجز يصدّ المؤثرات المضرّة التي يتعرّض الإنسان لها عند أدنى نجاح خارجيّ أو داخليّ. لكننا يجب أن نتفادى في هذا المجال - كما في غيره (الوقوع) في التطرّف. كلّ شيء كما يقول القدّيس إسحاق السرياني يزدان (بالالتزام) بالقدر المطلوب. فالجمال نفسه إذا تعدّى هذا القدر المطلوب يتّخذ مظهراً (وشكلا) مشوّها[٢].

يجترّ الانهيار الداخليّ بعض التوابع. (إذ) يبدأ الإنسان يرى الأشياء تحت ضوء مختلف. قد ينتج عن ذلك نوعان اثنان من الآثار على طرفي نقيض. فإذا كان الإنسان قويّا بما يكفي (وإذا كان) لا متحيّزاً، فانّه لن يغضّ الطرف أمام الواقع الذي لا يرحم. (بل) سوف يجتلب الشجاعة (اللازمة) لكي ينظر للأشياء على ما هي عليه وجها لوجه، ولكي يتقبّل الأمور الموضوعية التي تفرض نفسها (عليه)مهما كانت غير مستحبّة. فإن فعل يكون بذالك قد بدأ السير بكلّ حزم فوق المسلك الذي سوف يؤدى به إلى السبيل الموصل إلى الطريق. أما إذا كان الإنسان على العكس ضعيفا فانّ هذه التجربة سوف تزيد ضعفه أكثر وأكثر. فالقانون في هذا الصدد واضح وقاطع: سوف يعطى من لديه (ويزاد) أما الذي ليس لديه شيء فسوف ينزع منه حتّى ما لديه[٣]. إن لم يقبل الإنسان (الإقرار) بموقفه (وان لم يقرّ) بصفة خاصّة بحالته الداخليّة (كما يبدوان له بفضل بوارق الضوء الآتية) من الوعي بالإنيّة الحقيقيّة، وإن أصرّ ضدّ كلّ البيّنات الواضحة (وضدّ كل الدلائل التي لا يمكن إنكارها) أن يبرّر شخصيّته محتميا (بأسوار) المنطق والشرعيّة والعدالة، فإنّه (حينئذ) سوف يدير ظهره للسبيل الموصّل، ويزداد توغّلا داخل الأحراش أكثر وأكثر.

ولنكررها (مرّة أخرى): لا يمكن للمرء أن يبلغ السبيل الموصّل إلى الطريق إن لم يكن قد مرّ مسبّقا بالإفلاس الداخليّ، بانهيار أخلاقيّ. إلا إذا كان عادلا (بارّا). إلا أنّ هذه الحالة لا تعرض إلا في القليل النادر.

---

[١] نترجم كلمة JUSTE ومعناها الصحيح "عادل" بكلمتين عادلاً وباراً. لأن الثانية هي الكلمة المستخدمة عامة في الكتاب المقدس.

[٢] -(١)الفيلوكاليا (Philocalie) القدّيس إسحاق السرياني الموعظة الأولى.

[٣] متى،١٣ :١٢، مرقص، ٤: ٢٥، لوقا، ٨: ١٨ - ١٩: ٢٦

- ٢ -

هذا هو الوضع الذي على الإنسان، أو الذي كان يجب على الإنسان أن يتّخذه نحو نفسه عندما يبدأ في البحث عن الطريق. لنفحص الآن وضعه لو كان فعل، تجاه الوسط الذي يعيش فيه بالإضافة إلى وضع نفس هذا الوسط فيما يختصّ به هو. وهو سؤال هامّ، حيث إنّ اتخاذ وضع غير صحيح منذ البداية سوف يخلق صعوبات وعوائق من الممكن تفاديها. وإنّما الاقتصاد في (استخدام وحفظ) القوى أمر لا يمكن التغاضي عنه حيث إنّ السير نحو الطريق وفوقه يستلزم تعبئة هذه القوى بأكملها. بل إنّ أيّ استهلاك لا مبرّر له منها قد يتمخّض عنه في نهاية الأمر فشل.

يجب أن يكون كلّ ذلك حاضرا (على الدوام) في أذهاننا، حيث إنّ ردّ فعل الوسط من جهة المبدأ نحو من يسير في البحث عن الطريق ردّ فعل سلبيّ.

هذا الوضع السلبيّ نتيجة فعل (أو تأثير) القانون العامّ الذي يسعى - وهو أمر معلوم لدينا - إلى حفظ كلّ منّا في محلّه. فإن لم يستطع القانون العامّ أن ينفّذ ذلك بواسطة الفعل المباشر للوهم، وعندما يفقد سلطانه على الإنسان الذي "يتحرّك" فهو يؤثر تأثيرا غير مباشر عليه بواسطة المحيط (الذي يعيش فيه). وهو تصرّف(وأسلوب) كلاسيكيّ. أمّا الإنسان الذي (يظلّ) يبحث عن الطريق بعد مروره من خلال الإفلاس الأخلاقي فإنّه من جهته قد أصبح هو الآخر مختلفا عن الناس الذين يواصلون حياتهم داخل الحدود التي يضعها (ويحدّدها) لهم القانون العامّ، ويعتقدون أنّ السراب (الذين يعيشون فيه) هو الحقيقة. فيزداد من جرّاء ذلك إحساسه بالعزلة يوما بعد يوم، ينتقل بالتدريج مركز ثقل اهتماماته نحو العمل الباطني الذي سوف يستغرقه استغراقا كاملا في نهاية الأمر.إلا أنه من صالحه كلّ الصالح ألا يظهر (علنا) الوضع الجديد الذي اتخذه فيما يتعلّق بالحياة الخارجيّة. فإنّ العالم سوف يكون معاديا له لتنافي وظيفته (مع بحث الإنسان عن الطريق). وليس من مصلحته في شيء (أي الإنسان) أن يستثير (دخول) استعداد العالم هذا (للمعاداة) وبالأحرى أن يزيد من تأججها. سوف يجيء اليوم الذي - لو مكث في الوسط نفسه - سوف يصبح ممقوتا بصيغة علنيّة أو في الخفاء. قال يسوع:

" إذا كان العالم قد مقتكم، فاعلموا أنّه قد مقتني قبلكم. ولو كنتم من العالم لكان العالم أحبّ ما له، لكن لأنّكم لستم من العالم... بسبب ذلك فإنّ العالم يمقتكم"[٤].

وبعد ذلك: سوف تعانون من شدائد (و محن) في العالم: ولكن تشجّعوا لقد هزمت العالم[٥].

لو فكّرنا بجدّية (فيما سبق) لفهمنا أنّ (هذا) الوضع ألعدائي "للعالم" من الوجهه السيكولوجيّة ليست ظاهرة قياسيّة فحسب، بل هي ظاهرة يجب أن تظهر إذا جاز لنا أن نقول ذلك. والسبب أنه بالنسبة للإنسان الذي يحتلّ بكلّ ارتياح محلّه داخل الأحراش ويعيش فيها راضيا بما هو فيه، يكون تأييده لوضع من يسير فوق المسلك بمثابة الاعتراف بنفس إفلاسه هو. هذا هو السبب الذي يجعل "العالم" يعتبره (أي السائر فوق المسلك) فاشلا فشلا ذريعا. بل كلّما ازداد تقدّم ذلك الشخص في عمله (الباطنيّ) كلما أصبح مصبّا (سائغا) للمقت. هذه هي الكيفيّة التي دعت إلى أن يقال: لا يستطيع أحد أن يكون نبيّا في موطنه[٦]. وأن يقال أيضا: لا يحتقر نبيّ إلا في موطنه، بين أهله وفي داره[٧].

- ٣ -

يجب على من شرع في السير فوق المسلك أن يعلم، وذلك قبل أن يصل إلى الطريق بمسافة طويلة، أنّه (قد بدأ) رحلة بلا عودة. ويترجم ذلك عامّة كما فعلنا هنا بأنّ الطريق (يسير) في

---

[٤] يوحنا، ١٥: ١٨-١٩

[٥] يوحنا، ١٦: ٣٣

[٦] لوقا، ٤ : ٢٤

[٧] - مرقص، ٦:٤، متى، ١٣ :٥٧، يوحنا، ٤:٤٤

اتجاه واحد. أنّ هذا التعبير تعبير دقيق (في صحته) فإنّ من ألقى بنفسه في تلك المغامرة التي هي البحث عن الطريق لن يستطيع أن يعود (إلى الوراء) إلى الحالة التي كان عليها قبل الرحيل.
إنّ كلمة الحقّ كلمة حيّة (لا تكفّ عن) العمل في داخل من تذوّ قها حتّى إن لم يعد يتفكّر في الأمر(بجدّيّة واهتمام). لذلك يجب على (الإنسان) وقد اطّلع على ما سبق أن يمعن ويطيل في التفكير قبل أن (يقرّر) السير فوق المسلك الذي يقوده نحو الطريق. لكن بالنسبة لمن قد شرع فعلا في السير فوق المسلك فعليه استبعاد أيّ تردّد (بلا رجعة). فالحزم عندئذ لا غنى عنه. فقد قال المسيح لشخص كان يريد أن يتبع يسوع، ولكنّه طلب منه الإذن في الرجوع أوّلا لأهل بيته لإعلامهم (بعزمه على) تركهم: من وضع يده على المحراث ثمّ نظر للخلف، ليس خليقا بملكوت الله[٨].
فلنكرّر هذه (الحقيقة مرّة ثانية) ألا وهي أنّ الطريق يسير في اتجاه واحد. إنّ الخلاص بالنسبة لمن يسير عليه يكون أمامه ولا يكون أبدا خلفه.

- ٤ -

مع ذلك لا يجب أنّ نظنّ أنّ الإنسان إذا شرع بحزم في السير فوق المسلك تغيّر كلّ شيء بالنسبة له بمجرّد أن فعل، وأنّ حياته قد ابتدأت من جديد بصفة رائعة (و إعجازيّة). إنّ أبحاثه الباطنيّة هي بلا أدنى شكّ عنصر جديد في حياته، لكنّ ذلك لا يعني أنّ العناصر القديمة التي كانت بالأمس فقط تملأ وجوده بأكمله قد اختفت. إنّها لا زالت موجودة. (بل) هي في أكثر الأحيان تشكّل قيدا (يعوق سير) العمل الباطنيّ. هذا أنّ الإنسان عندما يسير فوق المسلك (بإرادته) يضع نفسه حمى قانون الاستثناء، لذلك يجب عليه بالطبع أن يهرب من قبضة (وتسلّط) القانون العامّ. يتّخذ هذا الإفلات دائما طبع الصراع، الصراع حتّى الموت أحيانا. صراع - كما سبق أن قلنا - ضدّ "العالم" بما معناه ضدّ مجموع مؤثّرات الوسط التي ستكون من جهة المبدأ سلبيّة ومعادية. (يجب) أن نهزم " العالم". هذا هو الأمر (المطلوب تنفيذه) والذي يجب أن يتّبعه (كلّ) من يتوق للحياة الحقيقيّة.
بما أنّنا قد عيّنا المشكلة، فعلينا أن نحدّد الوسائل التي ستسمح بحلّها. مهاجمة المؤثّرات "ا" مهاجمة أماميّة لن تزيد عن تكرار تجربة دون كيشوت عندما انطلق بحصانه مهاجما طواحين الهواء. لقد هلكت آلاف مؤلّفة من ذوى النوايا الطيّبة الصادقة بلا جدوى (أو نفع) لاقترافهم هذا الخطأ في تصوّر الأمور الذي وسوس لهم به إبليس :
ألا وهو الاعتقاد أنّ المستحيل ممكن. ذلك أنّ " العالم " أقوى بما لا يمكن تصوّره من الفرد المعزول طالما هو إنسان خارجيّ.
إنما يجب على من يريد أ ن يستفيد من قانون الاستثناء أن يحوز نصرا على نفسه، على عالمه الداخليّ قبل أن يستطيع أن يهزم " العالم "، وبذلك أن يهرب من القانون العامّ.
إنّ مبدأ هذا المنهج مبدأ بسيط. يجب أن نتذكّر فرض أفلاطون الذي يقول إنّ المثل لا يمكن أن يدرك ويفهم إلا بالمثل. نقول تطبيقا للمبدأ السابق أنّ المؤثّرات الخارجيّة لا يمكنها أن تؤثّر على الفرد إلا بوساطة العناصر المشابهة التي هي جزء من عالمه الداخليّ. ذلك أنّ العالم الداخليّ للفرد يخضع هو أيضا للمؤثّرات "ا" والمؤثّرات "ب"، والأخيرة إذا تراكمت في داخله (بكثرة) تكوّن هذا المركز المغناطيسيّ الذي يشكّل ما يمكن أن يسمّى مركز وعيّ جديد. يأخذ ضغط القانون العامّ على الفرد في الزيادة كلما زاد تحرك مركز ثقل الاهتمام بالحياة نحو المركز المغناطيسيّ إلى أن يتربّع فيه في نهاية الأمر بطريقة مستديمة. وتحاول روح مجموع المؤثّرات "ا" التي تسهر من الخارج على تطبيق هذا القانون أن تؤثّر (تأثيرا فعّالا) على الإنسان بواسطة قدرتها بما معناه بواسطة المؤثّرات "ا" (الموجودة) في عالمه الداخليّ. سوف نفهم (بعد ذلك)

[٨] - لوقا، ٩ :٦٢.

بسهولة أنّ السيطرة (والتحكّم) فيها يغلق باب الدخول (في وجه) المؤثرات "ا " الخارجيّة ويلغي بذلك قدرتها .

يقال عن ذلك بلغة التقليد ذات الصور (المعبّرة) إنّه يجب أن نجعل الحيوان أليفا، وأن نحوّل الذئب إلى كلب حراسة مخلص. عندئذ لن يكون للقانون العامّ قدرة على الفرد الذي سوف يوضع تحت حمى قانون الاستثناء بأكمله.

يمكننا الآن أن نفهم كلمة يسوع فهما أدقّ: أنّ أمير هذا العالم آت ليس له شيء في[9] هذه هي الحالة التي يجب أن يتوق لها الإنسان الذي يشرع في البحث عن الطريق. ولنكرر ما سبق مرّة أخرى: بالتحكّم في (والسيطرة على) المؤثرات "ا " في عالمه الداخليّ سوف يهرب الإنسان من تأثير (وفعل) نفس هذه المؤثرات الآتية من العالم الخارجيّ، وبصيغة أخرى من قبضة القانون العامّ.

تلك هي النظريّة. تطبيقها يضعنا أمام العديد من المشاكل. فاختلاف الحالات الفرديّة الذي يكاد لا يتناهى يثير الصعوبة التالية: هذه المشاكل لا (ولا يمكن أن) تدخل تحت نوعيّة واحدة، كذلك أيضا لا يمكن أن تصنّف داخل مجموعات تسمح (لنا بعد ذلك) بتحديد نماذج منهجيّة (أو مناهج نمطيّة) قادرة على حلّه. لذلك لا يمكن أن يكون المنهج المتّبع إلا منهجا فرديّا.ومع ذلك فإنّه يمكننا أن نعطى بعض الإشارات (والتحديدات) التي إن لم تسمح بحلّ المشكلة أو المشاكل التي تطلعنا بها كلّ حالة معيّنه (على حدة) فهي تسمح على الأقلّ بالنظر إليها نظرة صحيحة، وذلك شيء مهمّ: إذ إنّ عرض المشاكل عرضا غير سليم يتضمّن في حدّ ذاته حلولا خاطئة، يلطّخها الوهم، فتزيد تلك الحلول من تعقيد الموقف أكثر وأكثر، بدلا من تبسيطها .

تتضمّن الملاحظة (السابقة) إشارة أولى ذات طابع عامّ: ألا وهو أنّ وضع (وعرض) المشكلة وضعا صحيحا، بما معناه موضوعيّا ينتج عنه تبسيط و توضيح - وإن كان جزئيّا للموقف. على العكس إذا أخذ الموقف يزداد تعقيدا على أثر الإجراءات المتّخذة لحلّ المشكلة أو المشاكل فإنّ ذلك يشير إشارة موضوعيّة (إلى وجود) خطأ في تصوّر (الأمور) منذ البداية.

الإشارة الثانية ذات الطابع العامّ هي أنّ حاصل جمع المؤثرات " ا " أشدّ بكثير من قوّة مقاومة الفرد ما لم يكن قد خضع بعد للتدريب الباطنيّ. فالهجمات الأماميّة - كما سبق أن قلناها- ليست إلا إعادة لتجربة دون كيشوت، وهو ينطلق مهاجما طواحين الهواء التي هي بالفعل العمالقة الذين ظهروا له، ولاشكّ أنّ هذا الفارس الشجاع كان قد قدّر الأمور تقديرا صحيحا فيما يختصّ بتلك النقطة. إلا أنّ شدّتها (وسلطانه) تخيّليّة (فقط) تصبح فعّالة على قدر ما يعتبرها الإنسان حقيقيّة، وخاصّة عندما يتعلّق الأمر بالحياة الداخليّة. يجب على الإنسان من أجل أن يتحكّم في المؤثرات "ا" (الموجودة) في عالمه الداخليّ، أن يغيّر وضعه تجاهها. إنّ الإنسان على الحالة التي يكون بها عامّة (أي على حالته كانسان) ١، ٢، أو ٣ ليست له قدرة مباشرة على الوقائع، وإن كان يعتقد في كثير من الحالات أنّه يملك تلك القدرة وذلك بالرغم من الشواهد البيّنة التي تثبت له عكس ذلك. لكنّ الوقائع نفسها إن كانت تفلت من قبضته فإنّ الوضع الذي يتّخذه تجاهها يعتمد عليه اعتمادا كليّا. إلا أنّ هذا الوضع يتولّد في داخله - وهو ما يحدث عامّة - وهو في حالة من الصحو ليست أفضل من الإغفاء بكثير، و بما يتمشّى مع المبدأ القائل: فليحدث ما يحدث (أو على الله الاتكال). أو قد يأتي الإنسان في فحصه للوقائع بمجهودات واعية. وهنا تظهر من جديد بالنسبة لمن يبحث عن الطريق الحتميّة المطلقة في العمل على إعادة تقدير القيم الأخلاقيّة في حياته، بما معناه على تقدير موقفه من الوسط (الذي يعيش فيه)، (بالإضافة إلى) فحص متعمّق لكلّ علاقاته ولكلّ اتصالاته فيما يختصّ بمحيطه. تتطلّب إعادة تقدير القيم هذه بعض الوقت حيث إنّ حكم الإنسان (على الأمور) ليس له، ولا يمكن أن يكتسب الموضوعيّة اللازمة فجأة (بتلك

---

[9] - يوحنا، ٣٠:١٤-٣١. أمّا عن الطبعة التي عُرفت بطبعة القدّيس جيروم فإنها تعطينا نصّا مُخففا (وضعيفا) "...ليس له أيّ سلطة عليّ." هذه الطبعة لا تؤثر على التسلسل القصصيّ، ولكنّها تضيّع المعنى الباطنيّ الذي يظهر بوضوح عندما نقرن هذا النصّ بالنصّ المذكور أعلاه: " لقد هزمت العالم ".

السرعة). يهدف تطوّر (قدرة الإنسان) للحكم (على الأمور) إلى اكتساب الموضوعيّة (وينجح في ذلك) على قدر التقدّم الذي يحوزه في العمل الباطنيّ. نتيجة لذلك تستمرّ عمليّة إعادة تقدير القيم في داخله بصيغة دائمة. يضطرّ الإنسان في الحالات الخطيرة والمعقدة - كما في الحالات الأكثر بساطة للعودة مرارا وتكرارا إلى مشاكله التي سوف يراها كلّ مرّة تحت إضاءة جديدة وبموضوعيّة أكثر فيقلّ بالتالي من تشبثه بمصالحه (الشخصيّة الضيّقة) إلى أن يحلّ اليوم الذي يرى فيه الإنسان كلّ مشكلة على ما هي عليه، بلا إضافات ولا تجميل بعد أن يكون قد كفّ عن تزيين (وتحسين) الوقائع وعن تبرير نفسه. عندئذ سوف يبدو الحلّ الموضوعيّ العادل (لمشاكله) ممكنا ومرغوبا فيه، حتّى إذا كان يتضمّن عمليّة شاقة عليه. فإنّه سوف يكون قد وجد في هذا الحلّ المسار نحو الحقيقة التي تعتق (وتكسر القيد).

يترتّب على هذا التحليل المقتضب أنّ القاعدة (المنصوص عليها) بعدم الكذب على النفس تتطلب عندما تطبّق على الحالات التي فحصناها، مراجعات مكرّرة بلا انقطاع (لفحص) القيم الأخلاقيّة في حياتنا، وهي قيم تتولد (وتصدر) في الغالبيّة العظمى من تسلطنا برأينا (واحتكامنا إلى أنفسنا فقط لا غير) ممّا يجعلها محمّلة بكلّ الأخطاء التي يجترّها ذلك.

- ٥ -

قلنا فيما سبق أنّ مجموع المؤثرات "ا" التي يوجد الإنسان تحت إمرتها في الآونة التي يقرّر فيها أن ينطلق للبحث عن الطريق، أشدّ بكثير من قوّة تحمّله. هذه الحالة الموضوعيّة تدعو (الباحث) لبناء سياسة سيكولوجيّة تجاه نفسه وتجاه العالم الخارجيّ تسمح له بتعويض نقص القوى والمخزون الموجودين لديه بواسطة مناورات. لا يجب أن ننسى أنّ الإنسان ١، ٢ أو ٣ مهما كان قويّا، أو بدا قويّا في الحياة الخارجيّة فهو من وجهة النظر الباطنيّة - أي من وجهة النظر الموضوعيّة ضعيف. كلّ شيء فيه محدود ابتداء بمقاومته العصبيّة. والقاعدة التي تترتّب على ذلك هي أنّه يجب عليه على قدر الممكن أن يعمل في صمت بدون أن يجتذب إليه انتباها وضغطا متزايدين. هذا وإن لم يفعل فهو في حكم الهالك حيث إنّ ردّ فعل "العالم" نحوه سيصل إلى غايته. ما يجب عليه أن يفعله هو أن يتحكّم تحكما واعيا في المؤثرات "ا" (الموجودة في عالمه الداخليّ)، بشكل أن يكدس قوى و أن يختزنها. حتّى إذا ما لم يعد لأمير هذا العالم ما يمتلكه (بداخله) عندئذ استطاع بكلّ بساطة أن يقول له وداعا.

و لنكرّر أنّه لن يتأتّى للإنسان ذلك إلا إذا عمل في صمت، ولم يجذب إليه انتباه روح (قوّة) المحافظة الخاصّة بالقانون العامّ، ولا انتباه قوى الحياة المعادية معاداة منظّمة لكل من يواصل البحث عن الحقيقة.

يوجد (لتحقيق) ذلك وسيلتان. الأولى أن يضع الباحث نفسه جسديّا في مأمن من تأثير "العالم" الضارّ. هذا هو سبب إيجاد حياة الرهبان المنعزلين والحياة بالأديرة (بصفة عامّة). أمّا بالنسبة للذين يشرعون في العمل الباطنيّ (و هم) داخل العالم، فإنّما يجب أن يشيّد الملجأ (الآمن) بمعرفة نفس الباحث، وهذا الملجأ لا يوجد بالخارج ولكن بداخله في (نفس) عالمه الداخليّ. يقال بلغة التقليد ذات الصور (المعبّرة) إنّ الإنسان يجب أن يبنى لنفسه قفصا[١٠]. يجب أن يكون ذلك القفص مزوّدا بكلّ وسائل الربط والإدارة فيما يختصّ (بباقي) المراكز. كما يجب أيضا أن تكون من الصلابة بحيث أن تقاوم بنجاح أيّ تمرّد للانيّات الصغيرة المنعزلة أو (المتجمّعة على شكل) اتحادات. هذا البناء يتطلّب وقتا، كما يجب أن يوسّع بلا توانٍ وأن يعاد تنظيمه، و أن يصبح مكتملا لكي يستطيع أن يلعب دوره بصفته عضو للإدارة.

---

[١٠] الكلمة الروسيّة كلجت مصطلح روسي كان يستعمل قديما أكثر من الآن، وهو يعنى غرفة أو ردهة كما يعنى أيضا قفصا (KLJET)لقد وقع اختيارنا على التعبير الأخير لأنّ التقليد يستخدمه للإشارة إلى الفراغ (أو المكان) الأكبر الذي يحتوى على الكون الكلى بأكمله و يحيط به.

يستطيع القارئ أن يتعرف بلا عناء من خلال هذه الصورة على المركز المغناطيسيّ، ذلك المركز الجديد للوعي الذي سوف يتولى التحكم في المراكز السفليّة الثلاثة المستمرّة كلما ازداد نموّه، ثمّ يعزّز له سلطة مطلقة على مجموعها وعلى كلّ مركز منها على حدة، وعلى كلّ التجمّعات (والتآلفات) الوظائفيّة الممكنة التي تستطيع أن تقيمها بينها وبين مختلف قطاعاتها. يتطلب ذلك بالطبع وقتا وجهدا، وكثيرا من الصبر والمثابرة. إنّ الذي يواصل العمل الباطنيّ سوف يسهّل كثيرا من مهمّته على نفسه إذا ثبت أنه قادر على التفكير في تلك المهمّة بلا توقف مثل المحبّ (المتيّم) الذي يفكر في حبيبته الغالية، على حدّ قول التقليد. يجب عليه في نفس الوقت أن يجاهد (بكلّ قوّته) لكي يوطد إقامته على الدوام داخل القفص. ويعنى ذلك أنه لا يجب عليه أن يعمل جاهدا ليظلّ في حالة من الحضور المستمرّة فحسب، بل (أن يعمل جاهدا) للبقاء أيضا في حالة من الحضور في حدّ ذاتها، والأمران مختلفان بلا شكّ. حيث إنّ الحضور (حالة) تناسب الوعي بالأنا في حين أنّ الحضور في حدّ ذاته (حالة) تناسب الوعي بـ: أنا موجود (أو أنا هو ذا).

عندما ينجرف الإنسان (داخليّا) وينسى نفسه بالتالي، يكون بكلّ بساطة قد اجترّه واحد من التيّارات النفسيّة التي تمرّ بداخله، ولكنه غير واع بما يحدث له، فهو يعتقد أنه يتصرّف (ويعمل) في حين أنه في الحقيقة محمول (بالتيّار) وهو غائص في النوم الذهنيّ. فإذا ما تمرّس على تطبيق "الرجوع إلى الحالة القياسيّة بعد ما كان عليه من "سكر" (باللغة الروسيّة "ترسفنييه" (tresvénié)أي إذ ما أصبح من جديد " حاضرا " فإنه يستطيع أن يدرك - على قدر ما يستمرّ في حالة الرجوع إلى صوابه هذه - أنه محمول، ولكنّ الأمر يقتصر على ذلك. حيث إنه يظلّ مع ذلك محمولا (كما كان). إلا أنه بالرغم من ذلك (يكون قد أحرز) تقدّما كبيرا، حيث إنه سوف يسمح له بالتركيز على الفكرة التجريديّة: أنا موجود (أنا هو ذا). وعندئذ سوف يستطيع أن يعمل أول مجهود للارتباط بالمستديم في نفس الوقت الذي ينقطع فيه عمّا هو وقتيّ. (باستخدامه) للعبارة أنا موجود (أنا هو ذا) سوف يعمل الإنسان للمرّة الأولى مجهودا لمقاومة التيّار أو التيّارات النفسيّة التي تحمله والتي يظلّ ألعوبة لها إن لم يفعل (أي في باقي الحالات). تلك هي نوعيّة المجهودات الواعية التي سوف يبدأ بها في بناء قفصه - مركز قيادته المستقبليّ.

- ٦ -

إذا وصل الإنسان إلى تلك النقطة، وجب عليه أن يسهر بكلّ عناية على ألا يدع المؤثرات " ا " تنفذ إلى داخل قفصه. (كما) يجب أن يظلّ (ذلك القفص) ركنا مقدّسا حيث لا يدخل إلا المؤثرات " ب " - "ج " - " د " - " هـ ". فإن لم يوف بهذا الشرط إيفاء دقيقا، تؤول كلّ جهوده الباطنيّة إلى الفشل مقدّما. لكن مع ذلك تظلّ المؤثرات "ا" خارج قفصه تعصف طويلا في عالمه الداخليّ مستجيبة للمؤثرات الخارجيّة ("ا" المماثلة لها). سيظلّ (الباحث) يحيا ويعمل في وسط تلك المؤثرات "ا"، إلا أنه في تلك الأثناء سيكون له - داخل نفسه - ملجأ آمن عليه أن يعمل المستحيل للزيادة من متانته، ليجعل منه كما سبق أن قيل مركزا للقيادة بمعنى الكلمة. لكنّ الأمر لن يكون ممكنا إذا تحقق الشرط المنصوص عليه (بكلّ صرامة) ألا وهو عدم دخول أيّ من المؤثرات "ا" داخل القفص، وذلك منذ بداية العمل الباطنيّ.

لكي يصل الإنسان لذلك (الهدف) من الواضح أنه يجب عليه أن يعرف كيف يميّز تلك المؤثرات. وهو شيء سهل في بعض الحالات. لكنّ الأمر يختلف تماما إذا ظهر فعل القانون العامّ على شكل تجارب وشكل فواتن وجواذب (أي ما يفتن ويجذب الباحث إليه، وهي ترجمة الكاتب نفسه للمصطلح الروسيّ "Prelest" الذي استخدمه في النصّ الفرنسيّ وفسّره بأسفل الصفحة)[11]. على هذا الشكل، تقدّم المؤثرات " ا " للباحث مقاما (أي نخبة مدرّجة) من الأشكال

---

[11] -وبعبارة أخرى برلستكنييه (PRELSTCHENIE) بما معناه فتنة، جذب، (شد). عقيدة التجارب عقيدة تجدها مطوّرة تطويرا

الدقيقة في تنوّعها. ابتداء بالفتنة في مظاهرها الكلاسيكيّة: المال- والنساء- و الطموح. فإذا قوبلت تلك (الأشكال الثلاثة) بمقاومة ناجحة اتخذت الفتنة والجذب أشكالا أكثر وأكثر إرهافا ودقة، يمكن اعتبارها - إذا جاز ذلك القول - بمؤثرات موازية (في وضعها) للمؤثرات " ب ". تتنوّع تلك الأشكال بما لا نهاية له تبعا للحالات الشخصيّة. (يمكننا أن نذكر) من بين تلك الأنواع الأكثر إرهافا على المستوى الانفعاليّ اعتبارات مشبّعة بالنبل والرغبة في الإحسان وبالرأفة (والمواساة)[١٢]، وعلى المستوى العقليّ اعتبارات تمتّ "للفهم الأصحّ للمصلحة الحقة" فيما يختصّ بالعمل الباطنيّ. هذه المؤثرات الموازية للمؤثرات " ب " وإن كانت طبيعتها من طبيعة المؤثرات "ا" يجب الكشف عن كنهها (بأعمال) انتباه مرهف، وعندئذ يجب اتخاذ وضع حازم لا التباس فيه نحوها.

- ٧ -

لقد قرّرنا (في الصفحة السابقة) أننا نواصل حياتنا بين المؤثرات "ا" التي تظلّ تشكل ظروف تلك الحياة، حتّى في أثناء موالاتنا البحث عن الطريق. ولكنّ وضعنا نحوها منذ لحظة البدء في البحث فصاعدا يبدأ في التغيّر. كنّا قبلئذ نسعى في كلّ حالة على حدة إلى التحكّم في مجموعة منها بالانطباق على مجموعة أخرى منها أيضا. أمّا الآن وقد أخذنا موضعنا داخل القفص المليء بمؤثرات "ب" فقط لا غير، وأصبحنا مشدودي الأزر بسلاحنا (أي) بالعبارة أنا هو ذا (أو أنا موجود) فإنّ وضعنا تجاه المؤثرات "ا" يتّخذ شكلا جديدا. إنّ (هذه المؤثرات) تظلّ بلا أدنى شكّ باقية داخل مجال عملنا، ولكننا لم نعد ننزل (كما كنّا نفعل من ذي قبل) إلى حلبة المصارعة لننطلق بلا تردّد (و وعى) في القتال، بل إننا قد أصبحنا نتصرّف بمثابة عملاء للمؤثرات "ب" نعمل لحسابها، ونسعى لتحقيق أهدافها تبعا لكلمة الملك داود: ليس علينا، يا سرمديّ (الخلود) نعم ليس علينا بل على اسمك (أنت) أسبغ مجدك[١٣].

(إلا أنّ مثل هذا) الانتقال من حالة لأخرى لا يتمّ بدون جهود واعية، ولا بدون عمل و نضال. حيث إنّ الإنسان الذي قرّر أن يشرع اليوم في السير فوق المسلك قد أصبح (منذ أن فعل) رجلا آخر، وإن كان في الواقع يظلّ فيما كان عليه بالأمس: وهينا وغافيا وجديرا بالشفقة. كيف سيتسنّى له (إذن) في مثل تلك الحالة أن يهزم مقاومة القانون العامّ ليصل إلى الطريق بصفة نهائيّة؟ إنّه لأمر مستحيل. لكي يبلغ غايته يجب عليه أن يجمّع مقدّما (قدرا من) القوى. هذا هو السبب الذي يجعلنا نلحّ على حتميّة التقدّم بصمت في العمل الباطنيّ، بشكل ألاّ نستثير ضغطا متزايدا من قبل القانون العامّ سرعان ما يستهلك مخزون القوى الجديدة التي جمّعناها بفضل الجهود المتواصلة أثناء النضال ضدّ نفس هذا القانون. علينا إذن أن نكسب وقتا، وأن نؤخّر على قدر الإمكان ردّ فعل القانون العامّ.

يكون الأمر أسهل إذا تمّ (داخل) دير. فإنّ فعل المؤثرات "ا" يكاد ينعدم إلى الصفر في الدير. حيث لا يوجد به قتال من أجل العيش، كما أنّ (المريد) يستفيد فيه بمساعدة رئيس الدير الدائمة، وهو شخص يفترض فيه أنّه قد بلغ درجة ارتقاء عالية. في حين أنّ العمل الباطنيّ الذي يواصل وسط الحياة العامّة لا يتضمّن بالطبع هذه المزايا. وجود مرشد (أو شيخ كما في الإسلام) لا يمكن أن يتمّ هذا العمل بدونه، لن يمنع مؤثرات الحياة التي سيظلّ (الباحث) معرّضا لها تعرّضا كاملا. إنّ بناء القفص واكتشاف مرشد (أو شيخ) لن يكونا كافيين بعد. حيث إنّ (الباحث)

مفصّلا في التقليد. فهي تنقسم إلى جزأين تجارب (من قبل) أصدقاء (أولياء) الله، وهم طيّبون (صالحون) وتجارب أعداء الله، وهم أشرار. ويمكننا العثور فيها على إشارات وتوضيحات عمليّة مفيدة إلى حدّ بعيد.

[١٢] راجع دستويفسكى، الإخوة كرامازوف، الحديث مع إبليس. المعرّب يذكر القارئ أنّ الكلمة الفرنسيّة " diable" عرّبت "إبليس"، وهي قوّة الشرّ على مستوى المركز الانفعالى

[١٣] -المزمور ١١٥ :١، العهد القديم ترجمة لويس سجوند

سيتعرّض لأزمات وصعاب في العالم بما لا يمكن تفاديه[14]. فسيقع على عاتقه أن يعثر على القوى (اللازمة) لمواجهة (هذه التجارب والأزمات والصعاب) بعد بذل الجهود اللازمة لتجميع تلك القوى.

يستطيع (الباحث) أن يحقق ذلك كله إذا التزم بسياسة باطنيّة ملائمة. تتكوّن هذه السياسة أساسا، أو قل إن أردت هذا الأسلوب التكتيكي، من التالي: يجب على الإنسان أن يستمرّ في حياته وسط الظروف (المحيطة) كما كان يفعل بالأمس، ولكن بدلا من الانجراف (مع تيّار) الحياة المصطنعة واعتقاد أنّها هي الحقيقة، عليه - إذا كان ذلك ممكنا - أن يعيش في حالة داخليّة من عدم الانجراف وعدم (التمادي في) الاعتبار، وذلك بصفة كليّة، في نفس الوقت الذي يظلّ يضاعف فيه من الاعتبار الخارجيّ.

الاعتبار الداخليّ والانجراف (مع أحد التيّارات النفسيّة المختلفة كما سبق أن قيل) هما النتيجتان المباشرتان (لحالة) التغافي (أو الإغفاء) الثابتة (التي يعيش فيها) الإنسان هذه الحالة التي تجترّ وراءها تلك الظاهرة الغريبة ألا وهي نسيانه الشبه دائم لنفسه. لقد جعل هذا التغافي (أو الإغفاء) وهو من آثار الخطيئة الأولى، حوّل الإنسان الآدميّ ممّا كان عليه من قبل - أي من فاعل إيجابي (ومن إنيّة إيجابية) بمقتضى الشرع الإلهي إلى (مجرّد) موضوع. (أي إلى مفعول به يعتقد أنّه فاعل كما ستوضّحه الجملة ألتاليه، وهو موضوع صعب الفهم ممّا يدعونا من أجل تقريبه للأذهان إلى تذكرة القارئ بما شرحته مرارا وتكرارا الفلسفة الغربيّة حينما وصفت الرجل بالايجابية في الإقدام والفعل في حين وصفت المرأة بالسلبية من حيث وقوع الفعل عليها الخ. وهاك العبارة بالفرنسيّة

(a fait de l'homme adamique, auparavant sujet de droit divin, un objet) هذه هي الكيفيّة التي وقع بها الإنسان مع العالم الحيواني والنباتي تحت سلطان (سطو) القانون العامّ. هذا أيضا هو السبب الذي أولجت المؤثرات "ا" إيلاجا بهذا العمق، وتوغّلت في عالمه الداخليّ فثبّتت عليه سلطانها الذي يريد الآن أن يتحرّر منه .

أمّا فيما يختصّ بالاعتبار الخارجيّ - ولندقق على هذه النقطة (لأهمّيّتها) - فانه يتطلب جهود تمييز واعية وحُكماً (صائبا)، وانتباها لا يتوانى، وهو ما يفوق قوى الإنسان الذي (تتّسم) ردود فعله بطابع ميكانيكيّ. فالاعتبار بالغير لا يصبح ممكنا إلا ببذل مجهود (للانتقال إلى حالة من) الحضور في حدّ ذاتها (التي تناسب كما سبق أن قيل: أنا موجود (أو أنا هو ذا). إنّ من يبحث عن الطريق و يتمرّس على (التواجد) في حالة الحضور في حدّ ذاتها بانتظام ومثابرة (كما يعمل) على تطويرها سوف يجنى من ذلك منفعة مزدوجة. فإنّ المجهود المبذول (للتواجد في حالة) الحضور في حدّ ذاتها يسرع السير نحو الطريق بواسطة الدورة التالية: حضرة في حدّ ذاتها - اعتبار خارجيّ- فحضرة في حدّ ذاتها ممّا يساعد على جعل تلك الدورة تنغلق على نفسها، وهي المنفعة الأولى. أمّا عن المنفعة الثانية، فإنّ هذا التدريب يعمل على بناء ذلك المصدّ (أو الحاجز) الذي سبق أن تكلمنا عنه أعلاه - ضدّ تأثير القانون العامّ الذي يمكن مقارنة دوره في هذه الحالة بدور الوزن (أو الثقل).

وهاك الكيفيّة التي يجب أن يوجّه التدريب بها للحصول على النتيجة المطلوبة. يجب أن يتّخذ الاعتبار الخارجيّ شكل التمثيل. فإنّ الإنسان الذي يسير نحو الطريق يجب عليه أن يفهم أنّه لن يستطيع أن يشارك بحماس من هذه الآونة فصاعدا في تلك الحياة التي لا تزيد عن كونها (خطوط) ومنحنيات يلغى بعضها البعض بصفة دائمة، وأنه يجب أن يزيد من الحذر والحيطة إن أراد ألا تسحقه قوى المؤثرات "ا" العمياء، تلك القوى التي قد تهدر وتثور على أثر حركات واعية لا زالت من الضعف بحيث ألا تستطيع بعد أن تسيطر على نفس هذه القوى، ولكنّها بعيدة جدّا عن التصرّفات الميكانيكيّة المعتادة، ولم يكن من الممكن أن تمرّ بدون أن تلحظ. وبناء عليه

[14] يوحنا، ١٦: ٣٣

فإنّه يجب على الإنسان ألا يعيش حياته كما كان يفعل من ذي قبل بل يحوّلها إلى تمثيليّة يؤدّيها بجهود واعية (لإتقان) الاعتبار الخارجيّ.
يجب عليه أن يمثّل دوره في الحياة . كلّ واحدا منا ولد ليمثّل دورا محدّدا. ولكنّ الذين يمثّلون دورهم بالأسلوب الصحيح قلّة (نادرة) وإن كان وازع الضمير الداخليّ على أتمّ استعداد دائما لتلقيننا إيّاه. إلا أنّ الإنسان يثق في صحّة استدلالاته الفكريّة وفي أحكامه (على الأمور) التي (أي الاستدلالات والأحكام) تشوّهها دائما حياة الكذب (المزمن) التي يحياها أكثر ممّا يثق في ذلك الصوت الداخليّ. وبذلك يفسد ويحرّف هذا الدور الذي لن ينطبق بعدئذ على أدوار المحيط (الذي يعيش فيه) وعلى الظروف أو الوسط اللذين يطلب منه أن يعيش ويعمل بينها. والإنسان ينسى هذا الدور إذ يشوّهه (بهذه الصيغة) بل وينسى أيضا أنّ المسرح الذي يمثّله عليه ليس بالحياة الحقة .
سوف نعالج هذا الموضوع المتشعّب والمعقد آنفا في مجرى الفصل المكرّس (لدراسة) فيلم الحياة والذي سوف نفحص فيه المضمون الصحيح (الغير مزيّف) لهذا الفيلم (كما سنفحص فيه أيضا) التشويهات التي أصابته، والكيفيّة التي يقاطع بها أفلام الأشخاص الذين يدخلون حياتنا بصفة أو بأخرى، الخ. لكن علينا الآن أن نؤكّد - بدون التعمّق بتلك الكيفيّة - أنّ الإنسان يجب عليه منذ أن يخطو أولى خطواته على المسلك أن يطبّق المبدأ الذي يقول: أطعم التمساح لكي لا تلتهم. يمكننا أيضا أن نعبّر عن نفس هذه الفكرة المجرّدة بأسلوب تصويريّ فنقول إنّ السلوك (في هذه الحالات) هو سلوك لاعب يشارك في لعبة كلّ قواعد اللّعب المعتادة معكوسة فيها - أي أنّ الرابح خاسر، وأننا يمكن أن نطلق عليها اسم: "اللعبة التي يكون الخاسر فيها هو الفائز". والتشابه بالقياس (بين الموضعين: وضع السائر فوق المسلك، والمشارك في اللعبة المعكوسة القواعد) يمكن العمل به (والاستفادة منه) إلى درجة كبيرة جدّا.

- ٨ -

في نفس الوقت يجب على الإنسان أن يتحرّى الالتزام بالهدوء، ولكن عليه أن يردّ الفعل في الخارج كأنّه ينجرف (مع التيّارات النفسيّة) مثلما كان يفعل من ذي قبل. فهدفه لفترة زمنيّة طويلة هو أن يبدو شبيها بالآخرين، وذلك للأسباب التي شرحناها فيما سبق: أن يبدو فقط لا أن يكون. فهو سيستطيع أن يفهم بسرعة، وقد تحصّن وراء جدران قفصه الذي تطهّر من كلّ أثر للمؤثرات "أ" (سيستطيع أن يفهم) ويقدّر كم هو سحيق البعد الذي يفرق ما بين هذين المعنيين اللذين كانا بالأمس فقط مختلطين في داخله.
في أثناء تمثيل الإنسان لدوره في الحياة بتلك الكيفيّة سوف يتعرّض لجذب يقع عليه من قبل هذا الدور، قد يصل به أحيانا إلى حدّ الانجراف من جديد معه، فيخطئ ويعتقد أنّ المسرح هو الحياة الحقة (أو الواقع الحقيقيّ) كما كان يفعل فيما مضى. فتكون تلك سقطات. أنّ هذه السقطات (أي) هذه الرجعات للسراب تكاد تكون أمرا لا يمكن تفاديه فهي ستظلّ تتكرّر لمدّة زمنيّة طويلة على فترات متفاوتة الأبعاد. فلا يجب أن تكون بالنسبة للباحث مثارا للمخاوف، و بالأحرى مدعاة للتوجّس خشية حدوثها. فعلى الباحث بعد الرجوع إلى صوابه، وبعد أن يكون قد أقرّ بما حدث موضوعيّا أن يعود ببساطة إلى دوره والى وضعه الجديد، وأن يتابع بلا تراخ ذلك الجهاد الغير مرئيّ الذي سوف يؤدّى به إلى الطريق كأن لم يكن قد حدث شيء يستحقّ اللوم.
إلا أنّه مع ذلك يجب علينا هنا أن نحرص على عدم الوقوع في فخّ. فإنّ مبادئ التمثيل (أي أداء الدور) ونسيان الماضي مبادئ مريحة جدّا (يسهل أن) نبرّر بها لأنفسنا أوهاننا وسقطاتنا. ولن يكون الأمر في هذه الحالات متعلقا بسقطات وقعنا فيها في وسط الجهاد الغير مرئيّ بل متعلقا بتلك التي تجيء نتيجة لتساهلنا مع أنفسنا (وتبنّينا الحلول الوسطى المغلوطة عمدا) وذلك من أجل إرضاء شهوات جسديّة أو جنسيّة أو غيرها، أو من أجل طموحاتنا، أو للتحصّل على ميزة أو مكسب ما. لن يكون من يتوق للوصول إلى الطريق قد التمس لنفسه عذرا بأن يقول: لقد كان الأمر أقوى منّي.

-٩-

الآن يمكننا أن نفهم وضع التقليد فيما يتعلق بالكذب فهما أدقّ. على الإنسان الذي يريد أن يصل إلى الطريق أن يكفّ إجباريا منذ أن يخطو أولى خطواته فوق المسلك عن الكذب على نفسه. وإلا فلن يتمكن من بناء قفصه، وان استطاع أن يبدأ في إنشائه فإنّ الجدران سوف تتهاوى حالما يشرع في مغالطة نفسه قصدا وعمدا. يجب عليه أيضا في حالة الوقوع في سقطة ألا يحاول أن يبررّ نفسه، في حين أنه يعلم في وازع ضميره داخليّا أنّ الأسباب التي يعطيها لنفسه لا قيمة فعلية لها. إنّ الوقوع في الخطأ بنيّة صادقة يحقّ الصفح عنه، أمّا الخطأ " الملفق " فهو يقضي على كلّ شيء. حيث إنّه واحد من مظاهر التجديف بالروح القدس، ذلك النفاق من الباحث في حقّ نفسه و الذي لن يصفح عنه لا في هذه الحقبة ولا في الحقبة الآتية[15]. يتعلق الأمر هنا بخميرة الفارسيين المشهورة، والتي بالرغم من كلّ ما بها من أخطار لا زالت تجد قلوبا بشريّة تستقرّ فيها.

يوجد بجانب الأمر القاطع بالامتناع عن الكذب على النفس قاعدة أخرى أقلّ صرامة، وإن كان العمل بها يعود بنفع كبير على من يمارسها. ألا وهي عدم (اقتراف) كذب لا فائدة منه. فانّه إذا كان الكذب على النفس يقتلع منذ البداية إمكان القيام بعمل باطنيّ فإنّ الكذب الغير عائد على صاحبه بفائدة (شيء) لا معنى له بالإضافة إلى كونه مضرّا ككلّ (أنواع) الكذب حيث ينتج عنه فقدان لأرقى الطاقات (وأكثرها إرهافا) وبالتالي لأثمنها قيمة.

عندما يكذب الإنسان لأنّه لا يستطيع أن يتصرّف بأيّة وسيلة أخرى، أو لكونه مدفوعا (كما يحدث في بعض الأحيان) بانفعالات واعتبارات إيجابيّة فإنّ من الممكن تبرير ذلك الوضع تبريرا جزئيّا: فإنّه يمكن بالفعل أن نقول في تلك الحالات إنّ "الغاية تبرر الوسيلة" أمّا الكذب لمجرّد الكذب فهو إثبات على وقوع مقترفه إلى آخر درجات التحلل (والانحطاط).

-١٠-

إنّنا نعيش عصرا يختلف (كثيرا) عن المعتاد والمألوف. فقد دخلنا كما يقال باللغة التقليديّة الحقبة الموضوعة تحت شعار (أو علامة) سر الإتمام. إنّ سرّ الإتمام هذا آخذ في التحقق على كلّ مستويات المقام الثمانيّ الجانبيّ من شعاع خليقتنا بدرجات متفاوتة. وهو (أي هذا السرّ) ينطبق انطباقا متكاملا على الحياة العضويّة فوق الأرض وهو ينطبق إذن على البشريّة التي يقع مركز ثقلها في العالم المسيحيّ.

سوف تنجو البشريّة إذن بأكملها من جديد، ويُستبعد التهديد[16] (بوقوع طوفان) النار الذي تنبّأ القدّيس بطرس بحلوله، وذلك إذا تكوّنت طليعة قياديّة جديدة مكوّنة من رجال بلغوا على الأقلّ مستويي ٤ و٥ وذلك في المستقبل القريب. (يجب ألا ننسى أنّ هذا الكتاب قد طبع في أوائل الستّينات: المعرّب).

أمّا إن لم يحدث ذلك فإنّ هناك عددا كافيا من الدلالات التي تشهد اليوم بقوّة ووضوح الرؤيا البعيدة التي أوحت للرسول بطرس الكلمات (التي جاء بها في رسالته الثانية): سوف يحلّ يوم الربّ كاللص بالليل، فتزول السماوات في ذلك اليوم بدوي وضجيج وتنحلّ العناصر المتأجّجة بالنار وتحترق الأرض بما تحتوي عليه من أعمال[17]. فإذا حدث ذلك يكون قد ثبت أنّ التجربة لم تكن مثمرة. فتبدأ الإرادة الإلهيّة من جديد - بعد محو كلّ ما سبق (واستبعاده تماما)، تجربة جديدة ابتداءً من الصفر.

---

[15] متى، ١٢: ٣٢، مرقص، ٣: ٢٩

[16] الرسالة ٢ لبطرس، ٣:١٠

[17] الرسالة ٢ لبطرس، ٩: ١٠

إلا أنّه لن يضيع جهد واحد من الجهود التي بذلت في البحث عن الطريق الذي يؤدّي إلى الحقيقة حتّى إذا حدث أسوأ ما يمكن أن يُتوقع، وليس لدينا من (البراهين والأدلّة) ما يثبت أنّ ذلك الأسوأ سوف يقع حتميّا. فإنّ إرادة المطلق في خلق وحدة ابتداءً من الصفر ستظلّ عاملا ثابتا على جميع المستويات بما فيها المستوى الفرديّ. إنّ رجال الداخل (أي الرجال الداخليّين) لا غنى عنهم لإتمام ذلك المخطّط فإنهم همُ الذين يحرثون حقل الربّ. لذلك على من يحرث أن يحرث برجاء[18،19].

---

[18] رسالة كورنثوس الأولى ٩: ١٠.

[19] يناقش هذا الفصل الظروف التي لا غنى عنها، والتي قد تؤدي بالإنسان إلى البحث عن الطريق: الإفلاس الأخلاقي المعنوي، الموت داخل الجسد الحيّ، المشاهدة الصادقة لسقوط حياة كاملة من الوهم والأحلام الضائعة التي لا تنفذ والجهة الأخرى الذاتية لكل هذا: العجز الكامل، "المُعاش" في وعي فائق التعاسة والشقاء. يتعلم الإنسان أن يفرق بين قيم العالم المسماة بالمؤثرات "ا" والقيم الثابتة ألا وهي المؤثرات "ب". فرحة بمفهوم العالم، مديح أو رضاء، تلغى بمنتهى السرعة ومنتهى الألم بواسطة مشكلة صغيرة، إهانة أو خيبة أمل، إن عاجلا أو آجلاً لمن تعلم القليل من التمييز. حُبّ الحقيقة، الإيمان بالله، معرفة حقيقية حيّة، جميع أنواع المؤثرات "ب" يجب أن تصبح للمحل الهندسيّ الخفي، ولكنه أكثر تأكيدا وأكثر صلابة من الظاهر، للمكان الذي سيؤسس فيه محل إقامته الدائم. يجب عليه أن يحتفظ بهدوئه الداخلي في حين أنه خارجيا يتصرف بنفس العنف، الميكانيكية والعمى الذي كان عليه قبل ذلك. هذا انتساب وتلمذة طويلا المدى. إدراك الوعيّ يتم على مرحلتين أو درجتين قريبتين جدا من بعضهما، ولكنهما غاية في التميز. المجهود الأول هو مجهود "الحضور" والثاني هو "الحضور في حد ذاته". يتطلب هذا أن نتيقظ من حالة السكر هذه التي نعيش فيها ونحن نتصور أننا في منتهى الواقعية وفي منتهى الانتباه. هذا هو المعنى العميق والصحيح للآية القرآنية التي تقول: "لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى" لأننا جميعا بدرجات متفاوتة ملوثين ملطخين بالسكر ولا يمكننا أن نقترب من الصلاة الحقيقية إلا إذا أردنا أن نتخلص من هذه الحالة. الشخص السكران غير مدرك للعالم البشري، أو حتى الغير بشريّ (الذي لا حياة فيه) المحيط به. هذا هو حالنا نحن الذين لا نعلم ما هو الموت وما هي الحياة في حين أننا بالطبع واثقين من عكس ذلك. سُكر أم سبات، هذه هي حياتنا الحقيقية ونحن لا نستيقظ منها إلا على هذه الحقيقة المؤلمة والمرعبة التي هي الموت. وقد عبر عنها التقليد بمنتهى الدقة في: "الناس نيام حتى إذا ما ماتوا أفاقوا".
إن الخطر الكبير الذي يهدد ويتربص بأي باحث، والذي يجب الهروب منه هو النفاق الذي يتلخص في تبرير نفسه بعد علمه بماهية الحقيقة، ووعيه بكذبه على نفسه المفزع. بيد أن الكل يكذب على نفسه، لدرجة أنه أصبح حاليا في منتهى الصعوبة أن تشرح لأحد ما هو الكذب على النفس. فإن من يشرع في السير فوق المسلك الذي يؤدي إلى الطريق لا يمكن أن يسمح لنفسه أبدا بمثل هذا الشيء: سوف تكون نتيجته سقوط مخيف.
عندما يؤكد القرآن ويعيد التأكيد على إنذار المؤمنين، فهو إنذار واضح وليس سطحيا ومخيفا. "وهل هناك أظلم ممن ظلم نفسه" نحن نظلم أنفسنا بخطورة ونحن نتحلى بصفات وفضائل لا نمتلكها، بنفس الطريقة التي يخصص بها قاضٍ لشخص ما ثروة لا يستحقها في حين أنه يحرم صاحبها الشرعي.

الفصل السابع عشر

الإنسان الخارجي يكذب ويسرق وهما طابعاه الغالبان - أنواع الكذب المختلفة - الكفّ عن الكذب على النفس هو الشرط الأوّل للنجاح في البحث عن الطريق - الوصول إلى الحبّ يلغي الكذب - الوصول إلى الحقيقة يعتق من العبوديّة - الاستقلال - الخلاص - يُحْصَلُ على النجاح بجهود واعية تتحد مع النعمة الإلهيّة - أربعة عناصر هي أساس إحراز التقدّم في البحث عن الطريق - المنهج السلبي والمنهج الإيجابيّ-

-١-

إنّنا نعيش في عالم يتحكّم فيه الكذب. فإنّ الكذب والسرقة هما العنصران الغالبان على الطبع البشري مهما يكن الجنس أو الطبقة أو الديانة المعتنقة. ومن يقول (أو يؤكّد) عكس ذلك يتفوّه بكذبة إضافيّة. يكذب الإنسان لأنّه لا يمكنه أن يفعل غير ذلك في عالم يتحكّم فيه الكذب. يجب علينا أن نضيف لذلك تلك الخاصيّة التالية التي قد تبدو لأوّل وهلة مفارقة ألا وهى أنّ تقدّم الحضارة، وهو ثمرة الثقافة العقليّة يزيد من الحاجة إلى الكذب بنسبة ذي قدر معتبر.

قال يسوع لليهود: إنّ أباكم هو إبليس وأنتم تريدون أن تحققوا شهوات أبيكم.... إنّه لا يثبت على الحقّ لأنّه لا حقّ فيه. فهو عندما يتفوّه بالكذب إنما ينطق بأصله الفعلي؛ فإنّه لكذّاب وأبو الكذب[١].

من الواضح أنّ تلك العبارة لا تنطبق على اليهود وعلى عصور التوراة فحسب بل تنطبق على الإنسان (عامّة) أيًا كان عصره والى أيّ الأجناس كان ينتمي طالما ينطبق على شخصيّته التي توجد تحت طاعة القانون العامّ. كان تاليران يقول إنّ اللسان قد أعطى للإنسان لكي يوارى به أفكاره.

ومع ذلك فانّ الإنسان يحسّ أنّه يجب ألا يكذب. فلا زالت تتردّد في وازع ضميره بداخله ذكرى باهتة لطهارة الضمير الذي لم يكن قد فسد بعد قبل سقوط آدم. فإنّ أيّ كائن قياسيّ وصحيح معافى يشعر أكثر من مرّة بالحنين إلى حياة لا يدبّ فيها الفساد، كما يشعر بندم مرير لكونه أسير آلة الغشّ الأخلاقي والمادّيّ.

ولكنّ الإنسان يترك نفسه فتزداد أغلاله في الحياة ضيقا، ذلك أنّ مَلَكَة الكذب هذه تعطيه انطباعا رائعا بالقدرة على إصلاح المواقف الصعبة إلى أحسن ما يمكن أن تكون. إلا أنّه ينسى أنّ كلّ كذبة يتفوّه بها تلزمه إلزاماً. فإنّ كل واقعة خياليّة يخلقها بتلك الكيفيّة تستلزم إطاراً مناسباً يجب أن ينطبق بدوره إنْ أمكن، أو على الأقل أن يتفق مع الظروف التي نعيش ونتصرّف في وسطها. فإن كان الأمر يتعلق بوقائع لا خطورة لها لن يترتب على الكذبة المعنيّة في أكثر الأحيان نتائجُ هامّة؛ ولكن أيّ كذبة فادحة على العكس، تؤدى بصاحبها حتميًا من جرّاء نقص إطار مناسب، إلى كارثة تتناسب في قدرها مع أهمّية المشكلة. إنّ ارتباط (الكذب) بإطار نفشل (عامّة في التنبّه إلى أهميّته) وأركانه لهو السبب العميق الذي ينطبق من أجله (علينا) بدقة مروّعة ذلك القانون الذي كان يسوع يجتذب الانتباه إليه عندما كان يقول: ليس من مستور إلا ويكتشف، ولا من سرّ إلا ويعرف وينشر في وضح النهار[٢].

ولقد كان يسوع وهو يكلّم تلاميذه بتلك الكيفيّة يضيف: قبل أيّ شيء آخر خذوا حذركم من خميرة الفارسيّين التي هي النفاق[٣] وهو شكل من أشكال الكذب - سبق أن رأينا في الفصل السابق - أنّه أخبثها وأشدّها ضرراً.

---

[١] يوحنا، ٨: ٤٤.

[٢] متى، ١٠: ٢٦ - مرقص، ٤: ٢٢ - لوقا، ٨: ١٧ و ١٢: ٢.

[٣] لوقا، ١٢: ١.

-٢-

يسمح تحليل الكذب - إذا استرجعنا جوانب (ومظاهر) مختلفة للموضوع - أن نميّز بين الكيفيات التالية منه:

الكذب على الآخرين؛

الكذب على النفس؛

الكذب المفيد؛

الكذب الغير مفيد.

لكن يجب إضافة حالتين أخريين خاصتين إلى الحالات النموذجيّة (النمطيّة) السابقة:

يتحلى النفاق بزيّ الفضيلة والمشاعر الحميدة بقصد التغرير بأشخاص صادقي النيّة،

أمّا الكذب المتكامل فإنّه خاصيّة الشخص الذي انتهى الأمر به - بعد أن ظلّ يكذب ويغشّ في كلّ مناسبة - أن أصبح يصدّق أكاذيبه هو ففقد بذلك كلّ إحساس بالحق.

هاتان الحالتان الأخيرتان أصعب الحالات شفاءً: فإنّه يجب أن يضرب النفاق جذوراً عميقة في شخصيّة الكائن البشريّ لكي يصبح عنصرا من عناصر تصرّفه (السلوكيّ). يستلزم التغلب داخليّا على هذه النزعة جهودا ضخمة وشاقة. إذ لن يثمر أبدا أيّ عمل باطنيّ بالنسبة لمن لم يتخلص مسبّقا من مثل هذه الرذيلة. بل إنّ الخطر يحفّ بالمنافق الذي يشرع في البحث عن الطريق. فإنّه محكوم عليه مسبّقا بالسقوط. وكذلك الأمر بالنسبة للشخص الذي أصبح فريسة للكذب المتكامل: ومع ذلك فإنّه إذا كانت كذباته ليست متلوّثة بالنفاق - أي إذا كانت كذباته خالية تماما من عنصر التعمّد والاستمرارية المرضية (والمبالغة في الاختلاق)[٤] فإنّ حالته هذه أيسر شفاء من الحالة السابقة.

يندر مع ذلك أن يبدى الأشخاص المصابون بمثل هذه المعايب اهتماما (جدّيا) بالتعليم الباطنيّ. فإنّه لكون ذلك التعليم يتّجه نحو (كلّ ما هو) صحيح فهو في نفس الوقت يولّد في كلّ الذين يعانون من هذه المعايب النفسية اللا- قياسيّة نفورا شديدا. لذلك يجدر بنا أن نركز كلّ انتباهنا على الحالات الأكثر شيوعا، والتي ترتدّ كلّها إلى النوعيّات الأربعة المرقمة أعلاه.

يمكننا أن نقول بصفة عامّة إنّ أيّ إنسان يكذب بالأربع كيفيّات المذكورة، ولا يشذ من يتقرّب إلى العمل الباطنيّ عن هذه القاعدة. إلا أنّ الإكثار (من تلك النوعيّة من الكذب أو من تلك) يختلف من شخص لآخر. نستطيع إذا تغاضينا عن حالات الكذب من أجل الكذب، أن نتميّز عند منبع الكذب سلسلة من الدوافع التي قد تُردُّ إلى سفالة طبيعتنا، أو قد تُستَلْهَمُ من أنبل المشاعر. فإنّ الحقيقة مثلا لا يمكن أن تُقالَ لمن يعانى من داءٍ لا أمل في شفائه. كذلك قد نكذب أحيانا من أجل تخفيف الأثر العنيف لأيّ خبر سيئ. كما أنّه يوجد من جهة أخرى حالات نسعى فيها إلى تحسين عرض الوقائع بواسطة الكذب لا على سبيل المنافقة، ولكن إذا جاز لنا أن نقول ذلك توقاً للعجيب وللمعجز. هذه حالات جديرة بالانتباه فهي تخرج عن المعتاد. لعلنا نذكر نصّ الصلوة الكهنوتيّة التي توجّه بها يسوع إلى أبيه قائلا: إنّ كلمتك هي الحقيقة[٥]. فإ٤نّ القوّة الخلاقة للكلمة "اللوجوس" التي هي عين طبيعة الابن تكمن أيضا فينا في قرار الوازع الداخليّ بنا.

يجب أن نلاحظ أنّه كثيرا ما نجعل الوعي الباطن مصدر ظواهر ورسائل تأتى في الحقيقة من المستويات العلويّة للوعي. إنّ الإنسان ذا النيّة الصادقة والقلب (الفيّاض) بالكرم يشعر أحيانا -

---

[٤] التعبير الفني الطبيّ للفرنسي هو: "mythomanie" وقد حاولنا نقل شتى معانيه بدون التقيد بإيجاد كلمة واحدة فقط.

[٥] يوحنا، ١٧: ١٧.

مدفوعا بترجاع ذكريات غامضة[٦] - بالحاجة إلى تقديم عزاء (وبثّ) رنّة من التفاؤل. فيشوّه الوقائع بعرضها على أحسن ممّا هي عليه. وهي بلا شكّ محاولة حميدة، وإن كانت غير مجدية بواقع ما هو مستخدمٌ من وسائل غير كافية. فإنّ كلمتنا ليست بعد كلمة الحقيقة، ولو كان لها قوّة كلمة يسوع لكانت كذبتنا أصبح لها قوّة المعجزات، ولكانت بالفعل حسّنت الوقائع نفسها. بيد أنّ الوقائع ظلّت على حالها في نفس الإطار الذي كانت محصورة فيه عندما حاول الإنسان الصادق النيّة أن يحسّن منها. يمكننا إذن أن نعرّف هذا النوع من الكذب على انه محاولة (صنع) معجزة (ولكن) بوسائل غير كافية.

-٣-

إنّ الكذب يضرّ بنفسيّتنا إضرارا فادحا؛ فهو يشوّه أعضاء الشخصيّة التي لم تكتمل بعد والتي ينصبّ عليها المجهود الذي يجب أن يقود إلى الولادة الثانية. إنّ مثل هذه الأعضاء في الإنسان الخارجي الذي يبدأ العمل الباطنيّ أوهن وأرقّ من الأعضاء الجنينيّة في بطن الأمّ. (لذلك) فإنّ كلّ كذبة تصيبها وتشوّهها. ممّا يستلزم بعد ذلك وقتا ومجهودات واعية لتقويم أثر هذه الصدمات الصحيحة وللعودة للحالة السابقة (لحدوثها). بل الأدهى هو أنّ الكذب يعود بالإنسان الذي يتوق للارتقاء إلى الخلف ويسدّ أمامه سبيل النموّ الباطنيّ بزيادة عدم التوازن الموجود بين المراكز السفليّة الثلاثة. بيد أنّ تلك الأعضاء المذكورة أعلاه هي التي تسمح - بالرغم من طابع عدم الاكتمال الذي تتسم به - بالتقاط المؤثرات "ب" وبالإحساس بالانجذاب إليها. (ولا شكّ) أنّ نموّ هذه الأعضاء إذا تمّ بطريقة قياسيّة وفي ظروف مواتية يضمن تكوين المركز المغناطيسيّ في الإنسان كما يضمن تطوّره.

إنّه بكلّ تأكيد أمر صعب إن لم يكن مستحيلا أن نستبعد منذ البداية الكذب ونحن نعيش في عالم يحكمه الكذب؛ هذا هو السبب الذي من أجله لا يتضمّن القانون الدينيّ تحريم الكذب بصيغة قاطعة. فإننا لا نجد بين الوصايا العشر ذات الطابع السلبي مثل: لا تقتل، لا تسرق، لا تزن الخ... لا نجد الأمر التالي: لا تكذب. ولا يعنى ذلك أنّ الكذب مقبول، ولكن لا سبيل إلى إنكار أنّ إزالته تماما مستحيلة على الإنسان الذي يعيش في محيط من الوهم: ذلك المخدّر الذي يثبّت القانون العامّ الإنسان بواسطته في مكانه (موثقا) بين عيون شبكة لا تترك سوى حيز ضئيل للتحرّكات الحرّة. فإنّ الوصايا العشر بالتالي لا تعيّن سوى قطاع ضيّق جدّا من العلاقات البشريّة تجعل الكذب فيه محرّما: وهو القطاع الخاص بشهادة الإنسان زوراً ضد أصدقائه. أمّا فيما يتعلّق بالعهد الجديد فإنّه وإن كان يثنى على الصدق والتعطش للعدالة[٧] والقلب النقيّ[٨] إلا أنه لا يوجد فيه تحريم للكذب بصيغة نهائيّة.

بذلك نرى أنّ دورة الابن كدورة الآب تقع في الفلك المختلط الذي لم يتحوّل بعد إلى شكله النورانيّ -أي في حوزة عالم ممتزج حيث يضيئ النور وسط الظلمات، وحيث لم تتخلّ الظلمات بعدُ عن جهودها للتملك من النور. أنّ الحياة في الحقّ فقط[٩] باستبعاد أيّ كذبة هي الخاصيّة المميّزة لدورة الروح القدس، (دورة) النور الذي لا ظلّ له.

ينطبق تحريم الكذب - في انتظار قدوم هذا العصر - على بعض الفرديّات: ونقصد بها الرجال الذين حققوا، أو على وشك أن يحققوا الولادة الثانية - أي الرجال الداخليّين. توجد بهذا الخصوص

---

[٦] الكلمة الفرنسيّة (Réminiscences) هي نفس الكلمة التي استخدمها أفلاطون عندما أثبت أنّ الإنسان لا يتعلم. بل يستعيد ذكرى ما كان يعلم دائما وهو غافل. والكلمة في هذا الإطار الخاصّ لها ثقلها ولم تستخدم جزافا.

[٧] متى، ٥: ٦.

[٨] متى، ٥: ٨.

[٩] آثرنا ترجمة الكلمة الفرنسيّة "vrai" بكلمة الحق بدلاً من الصحيح، وهو المعنى الأدق لها.

إشارة واحدة فقط في العهد الجديد كله، وإن كان نصّ القدّيس بولس الرسول لا يترك أيّ مجال للالتباس:

لا تكذبوا على بعضكم البعض وقد خلعتم عنكم الإنسان القديم وأعماله وارتديتم الإنسان الجديد الذي يتجدّد في المعرفة تبعا لصورة هذا الذي خلقه. فلا يوجد هنا يونانيّ ولا يهوديّ أو مختّن وغير مختّن ولا بربريّ أو سكيثيّ ولا عبد أو طليق، ولكنّ المسيح هو الكلّ وفي الكلّ[١٠].

هذا إنّ النهى القاطع عن الكذب، وإن كان يوجّه فقط للأقليّة المحدودة من الرجال الداخليّين في علاقاتهم مع بعضهم البعض - إلا أنّه يجب أن يُعمل به بكلّ صرامة عند الوصول إلى درجة من الارتقاء تؤهّل لتقبّل (الحقّ) الصريح. لذلك كان القدّيس بولس الرسول يكتب موجّها كلامه لتلاميذه من مدينة كورنثوس:

"توقوا إلى أحسن الهبات. وهاأنذا أبيّن لكم طريقا أكمل بكل معنى هذه الكلمة.[١١]

إنّ هذا الطريق وهو طريق الحبّ قد عرقه الرسول على النحو التالي:

"إنّ الحبّ صبور، مفعم بالطيبة؛ وليس بحسود؛ الحبّ لا يمتدح نفسه، ولا يكتظ بالكبرياء، ولا يعمل عملا بلا أمانة واستقامة، ولا يبحث عن مصلحته هو، ولا يستثار (أو يحتدّ)، ولا يختلق الشرّ بارتيابه، كما أنّه لا يفرح بالظلم بل يفرح بالحقيقة؛ الحبّ يسامح كلّ شيء، ويؤمن بكلّ شيء، ويرتجى كلّ شيء، ويتحمل كلّ شيء.

لن يهلك الحبّ أبدا حتّى إذا بلغت النبوات نهاياتها وكفت الألسن وتلاشت المعرفة[١٢]."

من يبلغ الحبّ لن يعرف للكذب سبيلا. ولكن الانتصار على الكذب يتطلب ثقافة باطنيّة ليست في متناول عامّة الرجال.

-٤-

إنّ التحليل الذي أجريناه في السطور السابقة يسمح لمن يشرع في السير فوق المسلك على أمل أن يبلغ الطريق، أن يرى برؤيةٍ أوضح معطيات مشكلة الكذب ذات الأهميّة الخاصّة. أما القتال ضد الكذب فإنّه مشروع طويل المدى[١٣]. فهو قبل كلّ شيء قتال ضدّ أنفسنا - أي ضد ميولنا التلقائيّة، وضدّ تلك الميكانيكيّة التي تعود بنا باستمرار إلى الكذب.

لقد درسنا باقتضاب في الفصل السابق حالة الكذب على النفس.

أمّا الكذب الذي لا فائدة منه على الآخرين فإنّه يُصنّف داخل فصيلة على حدة. والضرر الناجم عنه ضئيل جدّا بالمقارنة مع الضرر الذي ينجم عن الكذب على النفس كما أنّه يمثّل حالة يسهل التحكّم فيها وكذا شفاؤها، على عكس الكذب على النفس الذي يتّخذ أحيانا أشكالا في منتهى الدقة والإرهاف تتطلب انتباها كاملا ومتّصلا ومجهودات منهجيّة منظمة ومتوالية (تؤدّى) في حالة

---

[١٠] إلى أهل كولوستى، ٣: ٩ إلى ١١.

[١١] ١ إلى أهل كورنثوس، ١٢: ٣١.

[١٢] ١ إلى أهل كورنثوس، ١٣: ٤ إلى ٨.

[١٣] طويل المدى - أي يحتاج لطول نفس من يشرع فيه، بالفرنسيّة "de longue haleine".

الحضرة في ذاتها[١٤]. لا يتطلب الكذب الذي لا فائدة له على الآخرين أيَّ مجهود دائم من أجل القضاء عليه: بل يجب بكلّ بساطة أن نحرص على ألا نتركه يفلت في أثناء محادثاتنا مع الآخرين.

---

[١٤] ملاحظات المعرب على المصطلحين الحضرة - والحضرة في ذاتها:
إن المصطلحين التاليين وهما:
الحضرة - التي تناسب الوعي بالأنا - (الإنيّة)
الحضرة - في - حدّ - ذاتها - التي تناسب الوعي بـ: أنا أوجد أنا موجود - أنا موجود ومستمر في الوجود.
مصطلحان هامّان وصعبا الفهم. لذلك حاولنا في هذه الملاحظات أن نوضح معانيها للقارئ على قدر استطاعتنا والله الموفق.
إننا لم نعش هذا الشعور بالحضرة أو بالحضرة - في - حدّ- ذاتها. وليس لنا تمرس بهما. إننا نعيش بشخصياتنا، وأحسن وأشمل رمز لها هو الاسم - نعيشها في الظروف التاريخية والاجتماعية التي نجد أنفسنا في وسطها ولا نتساءل أبداً من "من نكون" - فإنه سؤال لا يخطر لنا على بال. فإذا تساءل لحدّ منا - وهو ما لا يحدث في الحياة إلا نادراً - عما تكون هويّته - يجيب نفسه قائلاً: أنا حسن أو كريم بن فلانة وفلان الموجود في النصف الثاني من القرن العشرين بكل ما يحتوى عليه من مغريات التكنولوجيا الحديثة الباهرة، والذي أسعده الله بأن ولد في عصر انطلاق الإنسان إلى الفضاء - يتصل بأسمى قبل كل شيء دخولي إلى عالم الجنس الرائع المثري الذي لا أطراف لما يوعد به... عشت تجارب عديدة خاصّة بي - جامعيّ - موظف مهضوم الحقّ، لا أستطيع أن اقتني كل ما أرغب فيه - كما أنني مع الأسف لم أعط الفرصة لكي أطوّر واظهر كل الإمكانيات والطاقات التي تتدفق بداخلي كما أنا متأكدٌ من ذلك ... الخ من مثل هذه الأنسجة التي هي حياة كلّ منا... إن كانت النساجة قويّة أو أوهى من شباك العنكبوت...
إن هذا الرجل الذي يمثل كلا منا يسير في حياته التي هي سكر أو سبات عميق، وهو يعتقد كما يقول المؤلف أنه "في منتهى اليقظة ومنتهى الواقعية" لا يعلم، ولا يريد أن يعلم أيّ شيء عن الحضرة أو الحضرة - في - حد - ذاتها. فالناس كما يقول الحديث الشريف نيامٌ حتى إذا ما ماتوا أفاقوا. وهم يكرهون بشدة كما يقول الحديث الشريف أيضا أن يموتوا قبل أن يموتوا. أيّ أن يموتوا للدنيا والوهم والجشع. ومع ذلك فان هناك طريقة سهلة وناجعة لكي يعلم هذا الإنسان إذا كان من أهل الطليعة، ما هي تلك الإنيّة أو ذلك "الأنا" الذي يخفيه عنه الاسم والكبرياء والكذب والاعتقاد الراسخ أنه أقرب الناس لله والحق والفضيلة.
أنا في استقامة الرأي والبعد عن الأوهام الصبيانية التي نعلل بها أنفسنا هي حالة الحضرة تلك - الوعي بهذه الإنيّة التي إذا برزت أكثر وأكثر في حياتنا لاحت لنا بواسطتها إمكانية للفهم والعمل بما فهمنا.
تلك هي "الإنيّة" التي تستطيع أن ترى كيف انطبقت بمحض جهلها على الأوهام الخاوية بغض النظر عن الكبرياء والشهوات المتأججة والجشع فتاهت وتاهت.
إن على كل منا في هذه الحياة وبهذا الجسد أن يكتشف بالفكر السليم أنه مثل كل شيء ذلك "الأنا" الذي بموافقته الحرّة يقع الإنسان في المحظور، أو يتحرّر ويكشف عن عوالم داخلية من السعادة التي لا يؤمن لحدّ منا أنها فعلاً موجودة في داخله.
ولنحاول من وجهة نظر أخرى أن نقرب للقارئ هذا المفهوم ذي الأهمية الحيويّة: مفهوم الحضرة - أي الوعي بالأنا المجرّدة.
إن جان بول سارتر من الفلاسفة الذين ساهموا بقوة لا مثيل لها في دكّ عالم الوهم فينا دكا قاتلا. فهو يصرّ في جميع مؤلفاته على هدم ما سمّاه بروح الجدّية في الحياة. ولهذا المصطلح تعريف دقيق في فلسفة سارتر. إنّ الإنسان الذي يقول بكل جدّية: أنا الطبيب أو أنا المهندس أو أنا المدرس - إنسانٌ قصير النظر يسجن نفسه في سجن دور الطبيب أو المهندس أو المدرس. في حين أن الإنسان يستطيع أن يكون طبيبا أو مهندسا أو مدرّسا فهو إذن ليس بطبيب أو مهندس أو مدرس. أي أن "الأنا" الإنسانية، الحضرة الإنسانية فوق كل الأدوار والتمثيليات الوهمية التي قد تعتقد في جديتها.
يمكننا أن نقول أن إدراك الأنا قصير ولا يستمر ألبتة، وهو غير ثابت وغير صلب. من الطبيعي أن يأمل الإنسان أن يستمر إدراك "الأنا" ويصبح متمكنا مستقراً. الإنسان - ونحن مازلنا نتكلم لغة طليعة وصفوة تتلهف أن تتطور - سوف يركز بمعنى سوف يطلب أن يدوم ويستمر هذا "الأنا" الموجود الذي يطوف فوق هذه الأمواج، وهو الذي سوف يصبح "أنا موجود" (Je suis) عندما يصبح دائما، خالدا، أبديّا (perpétué) أي بمعنى الحضرة في ذاتها بمثل هذا الإدراك "أنا موجود" يمكنه أن يعلو فوق الأمواج المتحركة للحياة الوهمية فيترك ما هو مؤقت، ومن يقول مؤقت يقول غير ثابت، وبالضرورة متغير (متقلب) سوف يتجه نحو ما هو دائم مستمر: ما يدوم ومستمر أعلى من ما هو غير ثابت ومتغير.
سوف يقول لنفسه وهو مذهول ومندهش: أنا موجود أنا موجود؛ وهو نور محض وهو الوعيّ بالكينونة (Conscience d'être) لا يمكن المساس به (هذا المنيع الحصين) وهذه هي الحضرة في ذاتها.
إن العمل الذي نترجمه لقارئ العربيّة يوجّه كلامه لطليعة مختارة - بطبقة من النبلاء لم يرثوا النبالة بل اكتسبوها بصدقهم مع أنفسهم ومجهوداتهم المتصلة وحدّة وجدّية تعقلهم للأمور. إن مثل هؤلاء الباحثين الصامدين سوف يحصلون على اكتشاف حالة الحضرة التي هي الوعيّ بالأنا، وقد تخلصوا من الكبرياء الذي يؤدى أكثر ما يؤدى إلى السبات العميق في وضح النهار، والى الانخراط في كل التيارات التي تؤدى بالإنسان إلى الحيوانيّة البلهاء بدلا من دفعه إلى الصراط الذي يعود به لخالقه - ولا نريد أن يظن القارئ إننا ننساق في الوعود المبالغ فيها. فالحصول على الحضرة مرحلة لا بد منها للارتفاع فوق السُكر وغفلة الجهل والأوهام.
إلا أن المجهود المضني الذي أدّى بالباحث إلى حالة الحضرة - أي للوعي "بالأنا" المجرّدة وليس كلّ ما هو منشود.
على الباحث أن يتقدّم لحالة الحضرة - في - حدّ - ذاتها التي هي الوعي "بأنا موجود"، "أنا أوجد". والحالتان ليست نفس الشيء كما قد يبدو لأول وهلة لمن يقرأ هذا الكلام بل أن هناك فارقا دقيقا ولكنه فارق هام -
إن من يصل إلى الحضرة أي إلى الوعي بالأنا المجرّدة - والتكرار هنا له فائدته المحققة - يستطيع أن يحقق بواسطة ما حصل عليه خطوة معتبرة. فإنه يستطيع أن يفيق لنفسه في أثناء انجرافه في تيار غضب دافق مثلاً. طوال الفترة الزمنية التي يكون واعيا فيها "بأناة" (إنيّته) المجرّدة. فيدرك أنه منجرف في تيار الغضب - وهي خطوةٌ كبرى في طريق الرقيّ - إلا أن الأمر يتوقف بالنسبة له عند هذا الحد. فهو مع إدراكه - لا يستطيع أن يتغلب على التيار الغضبيّ الذي يحمله. ولكنه يتوق بالطبع إلى السيطرة على هذا التيار. لن يتمكن من نيل ما يريد إلا إذا ركزّ على المعنى التجريدي: "أنا أوجد" - "أنا موجود" - "أنا مستمر الوجود". إنّ الباحث في حالة الحضرة - واع بإنيته يقول لنفسه: إنه

فإنّما يكفي لإيقافه في الآونة التي يكون قد تسرّب فيها إلى شفاهنا مجهود انتباه بسيط. هذا هو السبب الذي يوصى من أجله بالابتداء بتلك النوعيّة من الكذب في القتال من أجل الوصول إلى الصراحة الحقة.

يجب أن نتنبّه هاهنا إلى خاصيّة يتميّز بها العمل المتعلق بهاتين الفصيلتين من الكذب. من السهل أن نفهم أنّ الكذب على النفس أو القتال ضده أمران لا يمكن أن يلحظهما احدٌ من الخارج. ولا شكّ أن الموقف الداخليّ للإنسان تجاه محيطه، أو بصفة أعمّ تجاه الأشخاص الذين يتعامل معهم قد يعتريه بعض التغيّرات ما أن يشرع في القتال. إلا أنّ مثل هذه التغيّرات لا يجب أن تتخذ طابعا أوضح من اللازم. يجب أن نترك الزمن يجرى التسويات التأقلميّة اللازمة ما بين الارتقاء الداخليّ وردّ الوسط على ذلك.

عندما نمتنع عن الكذب الذي لا فائدة منه، فإنّ المحيط لا يلحظ ذلك أيضا. ممّا يسمح لنا أن نقول إنّ القتال من الوجهة العمليّة مع هذين النوعين من الكذب وهو قتال ناجع (فعّال) جدّا بالنسبة لمن يخوضه لا يؤثر في شيء على علاقات الإنسان بأشباهه. يمكننا إذن أن نخوض في هذا القتال بلا قيد على شرط أن ننفذ ذلك بتكتّم وتروٍ لكيلا نجتلب على أنفسنا الانتباه فنستثير بالتبعيّة ضغطا متزايدا من قبل القانون العامّ.

تصدر الصعوبة الوحيدة الحقيقيّة في حالة القتال مع الكذب الذي لا فائدة له من كوننا - وهو ما يحدث في كلّ حالات القتال الداخليّ السهل - لا نعير هذه المعركة انتباهنا في الوقت الذي يواصل اللسان فيه باليوم كالأمس حشوه (ولغوه) الكذوب. إننا سوف ندرك عامّة، بعد (الغرق) في ثرثرة مستطيلة، أنّ القرار بعدم التفوّه بكذب لا فائدة منه، قد سهونا عنه. إننا نكسب الكثير مع ذلك عندما نغلق هذا "الصنبور": إذ نحتفظ بذلك بكمّيّات لا يستهان بها من الموادّ الدقيقة.

أمّا الجهود التي تهدف إلى التخلص من الكذب على النفس فهي تأتي بنتائج لها أهمّيّة أخطر (وأجلّ). فإنّ هذا النوع من الكذب يلقى جذورا عميقة. وقد تعرض أحيانا في هذا المجال مواقف (مليئة) بالمفارقات يكون بعضها من الدقة السيكولوجيّة بحيث يتعسّر استخراجها من الظلمة (التي تكتنفها). يكفينا هاهنا أن ننوه إلى حالة الزيجات التي يفهم فيها أحد القرينين أنّ التزاوج كان خطأً ولكنّه يصمّم مع ذلك على محاولة إقناع نفسه بالعكس. فإذا كان ممّن يتمتّعون بطبيعة ودودة يضاعف من ملاطفته لقرينه كما لو كان الأخير حقّا هو الكائن المستقطب بالنسبة له. فتصل لا- معقوليّة الموقف إلى أسوأ حدّ لها إذا ردّ الطرف الثاني الفعل باتّخاذ موقف يتناسب مع موقف زوجه أو زوجته منه بدون أن يشعر ألبتة بأيّة دفعة صادقة وتلقائيّة من الحنان. تعود "لعبة الحبّ" هذه، بمعنى الكلمة، على القانون العامّ بأكبر فائدة كما هو واضح. خطورة مثل هذا الموقف من الوجهة الباطنيّة هو إعطاء هذه اللعبة من طرف أحد الزوجين أو من كليهما (بفعل) قوّة التعوّد، قيمة حبّ حقيقيّ. إنّ طبيعة هذا الشكل من الكذب على النفس مع الأشخاص اللطيفة ذوى النوايا الصادقة يستمرّ أحيانا عشراتِ السنين ويؤدّى في نهاية الأمر إلى خيبة أمل مأساويّة.

أنا الذي يجرفه تيار الغضب، ولا يستطيع أن ينفصل عنه.
أما في الحضرة - في - حد - ذاتها فهو يقول لنفسه: أنا موجود مستمر في موجوديتى ولا قدرة للغضب على جرفي معه. فإن كياني ووجودي لا يمت بصلة لهذا الغضب الغريب عليّ.
والقارئ يدرك معنا أن الباحث قد انفصل عن الغضب فإن القيمة التي كان تعلقه بها أثار غضبه لم يعد يعيرها مثل هذه الأهمية - والموضوع الذي كان تمسكه به يثير غضبه قد غدا غير ذي أهمية - فهو قد انسلخ عن القيم الزمنية المتغيّرة، وبدأ يتعلق بما هو دائم لا يتغير مع الزمن ذلك الشعور الآنيّ بالوجود - ذلك النور الوجودي بلا ضياع للأنا - الذي يسمى بالحضرة - في - حدّ - ذاتها.
إن رجل الطليعة الذي يتلهف للارتقاء سوف يركز بكل قواه على الوعي بالأنا المجرّد - لإطالته وجعله مستديما - أي لتحويله إلى "أنا موجود" - الحضرة - في - حدّ - ذاتها. فهو يعلم أن هذا النوع من الوعي يرفعه فوق هدير الزمان وموج الوهمّ. وإذ يحقق ذلك وينتابه تعجب ملئ بالنور والفرح يقول لنفسه: أنا هو ذا - موجودّ - موجودّ بوجود لا يتلاشى، وليس إلا نوراً لا ظلمة فيه.
هذه هي حالة الحضرة - في - حدّ - ذاتها على قدر ما سمحت لنا قوانا بشرحها.

يجب أن يُنبّه الإنسان الذي يبدأ قتاله ضدّ الكذب على النفس (إمكانية وجود) مثل هذه الصعوبات وإمكانية انهيار بعض القيم، أو حتّى كلّ القيم التي كانت ثمينة في نظره. ولكنّه قد يحدث أيضا أن تحصل مثل هذه الانهيارات الداخليّة لدى أشخاص لم يقتربوا من العمل الباطنيّ بل جاؤوا بعد ذلك إليه يبحثون فيه عن شيء أكثر صلابة ودواما. يجب على الكلّ أن يعلموا أنّ العمل الباطنيّ الصحيح يبدأ فقط بعد أن يكون الطالب المستجد (حديث التنصّر في المصطلحات المسيحيّة) قد مرّ من خلال إفلاس عامّ وتهاوت آلهته فوق الأرض أمامه.

-٥-

لقد بيّنّا الحتميّة المطلقة بالنسبة لمن يتوق إلى التطوّر الباطنيّ في أن يشفي نفسه بأسرع ما يمكنه من عادة الكذب على النفس المتأصّلة فيه. ولِننظر الآن إلى نفس هذه المشكلة من زاوية أخرى: زاوية النتائج الموضوعيّة الإيجابيّة التي يحصل عليها الإنسان الذي ينجح في الكفّ عن الكذب على نفسه.
سوف يشعر الباحث شعوراً جديدا كلما خطا إلى الأمام في ذلك العمل الذي يستلزم وقتا، ويتطلّب شجاعة مواجهة خيبات الأمل (المتوالية) كما يفترض الثقة في الذات والإيمان بالتعليم المتّبع. ولاشكّ أنّ الباحث سوف يعتريه أحيانا كثير من مرير الندم أمام تلاشي أحلامه الجميلة. ولكنّه في نفس الوقت سوف يزداد إحساسا بالتحرّر. حيث إنّ صدقه المتزايد تجاه نفسه سوف يقيم في حياته الداخليّة جوّا من الحقيقة. كما أنّ القانون الذي أعلنه يسوع: سوف تعرفون الحقيقة، والحقيقة سوف تعتقكم[١٥] سيكون ساري المفعول بكلّ صرامة بالنسبة له. يجدر بنا أن نركّز (انتباهنا) على تلك الكلمات لبرهة من الزمن. كان يسوع يعيش ويبشّر في عالم يحكمه نظام العبوديّة، وقد اختار هو كلمة تعتقكم لمضاهاتها مع حالة العبوديّة. إنّ الباحث سيشعر بعد كلّ عمليّة تصحيح داخليّة بشعور يزداد اتّساعا وعمقا مع الوقت فإنّه قد عتق من عبوديّة لا معنى لها ألبتّة لكونها عبوديّة بلا مقابل حوّلته بعد أن كان يتمتع بالحرية في كنف الحق الإلهي إلى عبد سلبيّ تحت طائلة القانون البشرى المزعوم.
سوف يفهم الإنسان الذي يبلغ مرحلة معيّنة من هذا التحرّر الداخليّ ملء القيمة والنفوذ السحريّ اللذين تعبّر عنهما كلمة الحريّة.

-٦-

يجب علينا أن نؤكّد أن وجوب الاستيلاء على الحرية الداخليّة هو الشرط الذي يستحيل مطلقا بدونه أن ننجح في العمل الباطنيّ حيث إنّه هو وحده الذي يفتح لنا إمكانية المراقبة الموضوعيّة لعمل المراكز السفليّة. تتمّ هذه المراقبة من (داخل) المركز المغناطيسيّ الذي هو مركز للقيادة، وحقل للمؤثرات "ب" التي ترتع فيه بلا شريك فيسمح وجودها (بإجراء) مراقبات (وإصدار) أحكام لا تحيّز فيها.
ما هو الموقف الذي يجب علينا أن نتّخذه من العالم ومن الأشخاص عندما يتطهّر عالمنا الداخليّ بنفاذ المؤثرات "ب" وهى أشعة الشمس الفلكيّة إليه، وعندما يكون القفص قد بُنى ونُظِمَ مركز القيادة فيه، وعندما نكون قد كففنا عن الكذب على أنفسنا؟ إنّ هذه المشكلة - كما سبق أن رأينا - لا يسهل - بل ما أعسر حلها. علينا أن نحاول تحديدها بمزيد من الوضوح. فإن ذلك سوف يقرب الحل (الصحيح) منا بلا أدنى شكّ. يجدر قبل كلّ شيء - لكي نعثر على حلّ يكون صحيحا، ألا نتعجّل الأمور. فإننا إذا كنّا نجد في النصّ التالي أنّ: "ملكوت السماوات يؤخذ عَنوَة، والمتعنفون هم الذين

---
[١٥] يوحنا، ٨: ٣٢.

يستولون عليه[١٦]، لا يجب أن ننسى أن نقارن ذلك النصّ بالمبدأ القائل بأن ملكوت الله في داخلنا وليس خارجا عنّا[١٧]. يليق بنا إذن أن نلجأ إلى القوّة والتعنّف تجاه أنفسنا قبل كلّ شيء آخر: إنه منهج مفيد على الدوام، ولا غنى عنه أحيانا لاستئصال جذور الوهم من داخلنا فهي أمّ الكذب على النفس. أمّا فيما يختصّ بالوسط الذي نعيش فيه فإنّنا يجب أن نبعد (بكل حذر) عن الاعتقاد بأنّ أشخاص محيطنا يرتقون بصفة آليّة معنا مرحلة تلو المرحلة، وأنهم موجودون في كلّ آونة على نفس المستوى الذي نكون قد بلغناه بعد جهود واعية ومتصلّة لم يبذلوا هم أيّ جهد منها. إنّ مثل هذا التصور العقلي يجب أن يوصف بلا شكّ باللا-معقوليّة: ومع ذلك ألا يعيش الإنسان (في وسط) اللا-معقوليّة؟

-٧-

إنّ الشعور بتحرّر حتّى إذا كان جزئيّا، والإحساس[١٨] بالفرحة التي تحصل بعد كل نصر يحوزه على نفسه يتعدّيان مفهوميّة الإنسان الخارجيّ المحدودة، والتي ما زالت بعدَ وهينة؛ (لذلك) فهو يحس بالحاجة إلى التغيير عنهما، وهى ولا شكّ حاجة مشروعة (إذا نظرنا إليها) من وجهة معيّنة. إلا أنّه يجب أن نكون مع ذلك حذرين. فإنّ القاعدة التي أعطاها التقليد في هذا الخصوص قاطعة (ونهائيّة): فلقد أمرنا بأن نمتنع عن الكلام. إلا أنه من الخطأ أن نعتقد أنّ التقليد بذلك يلزمنا بتعهّد صارم وكامل بالسكوت (عن الكلام). فانّ السكوت بمعناه الباطنيّ هو الكلام ولكن الكلام في حدود موضحة بدقة: يجب على الإنسان أن يقول ما يجب أن يقول في الوقت الذي يجب أن يقوله فيه (وللشخص) الذي يجب أن يقوله له. يستبعد ذلك - كما هو مفهوم - أي ثرثرة وأي استفاضة (غير مستحبة).

يرتبط بالقاعدة التي تأمر بالسكوت أمر آخر يجب أن نجتهد لاحترامه منذ الخطى الأولى في العمل الباطنيّ. إذا راقبنا أشخاصا يشاركون معاً في محادثة أو في مناقشة عامّة نستنتج موضوعيّا أنّ كلّ واحد من المشتركين بدلا من أن يستمع لذاته (أي لكي يتفطّن) ولكي يتعلم (ممّا سمع) ثم يجيب لإفادة الآخرين - إنّ كل واحد بلا استثناء - ولا نشذّ بالطبع من هذه القاعدة - يتكلم لذاته ويستمع للآخرين من أجلهم هم ومراعاة للذوق معهم. كلّ واحد منّا يريد أن يوجد فرصة ليقدّم تصوراته العقلية ويبحث عن المناسبة السّانحة ليفعل ذلك. فإنّنا نستمع - في انتظار أن تسنح تلك المناسبة - إلى ما يقال (حولنا) بقدر من الصبر والانتباه يزداد أحيانا وينفد أو يكاد أحيانا أخرى. إنّ محادثة تسير على هذا المنوال هي كما هو مفهوم محادثة صمّ فيما بينهم لا يمكن أبدا أن نتعلّم شيئا منها، ولا نتعلّم عامّة أيّ شيء منها. فإنّ كلا من المشتركين فيها ينصرف عند التفرّق حاملاً معه ما كان قد جاء به مع هذا الفارق أنّ مثل هذه المحادثات تتسبّب في فقد كميّات جديرة بالاعتبار من الطاقات الدقيقة (الثمينة).

وأخيرا فإنّه يُشار إلى الحاجة الماسّة للاحتفاظ بالجدّيّة في اتصالاتنا بأشباهنا. هذا الغرض يحتاج لبعض التعليق. الاحتفاظ بالجدية لا يعنى في هذه الحالة أن نظل عابسين (نكديين) ولا بالأحرى أن نظلّ صموتين. فإنّ العمل الباطنيّ يستلزم ذهنا يفيض شدّة (وحيويّة). المطلوب منّا أن نحافظ في داخلنا على اتجاه انفعاليّ إيجابي، وأن نحوز على السكينة داخليّا. يجب على الإنسان أن يحتفظ نحو الكلّ باتجاه ترحابيّ (صداقي)؛ فعليه أن يفرح مع السعداء، وأن يعطف على من يتعذّبون، وألاّ يكترث بالأشرار. ولكنّه يجب ألا يلعب دور المهرّج. فإنّ هذا الاتجاه - وإن بدا ذلك مدهشا - أضرّ

---

[١٦] متى، ١١: ١٢ - يقول النص السلافوني: إنّ ملكوت السماوات يؤخذ عنوة، والذين يتعنفون على أنفسهم، هم الذين يستولون عليه.

[١٧] لوقا، ١٧: ٢١.

[١٨] الكلمة الفرنسيّة التي ترجمناها هنا بالإحساس هي كلمة "éprouvée" - أي المختبرة - التي يعيشها صاحبها. وأما الإحساس فهو معنى تقريبيّ، ولكنه يؤدى المطلوب في هذا النص. كذلك في التعبير يحسّ بالحاجة إلى التعبير عنها الخ (المعرّب).

بمن يكثر ممارسته ممّا يعتقد. حيث أنّه يميل في واقع الأمر إلى الهبوط بشأن كلّ شيء إلى مستوى الحقارة والتفاهة. يتعارض التهريج، وهو من مشتقات التشكّك[١٩]، مع الحماس الذي لا غنى عنه لتعدّي الأوقات الصعبة التي لن يخلو العمل الباطنيّ من الكثير منها.

علينا إذن بالعمل بهذه القواعد. أمّا عن قاعدة السكوت فهي قطعيّة. كان يسوع يولى هذه القاعدة أهمّية كبرى. ممّا دعاه وهو يعرضها على تلاميذه اختيار قالب كلاميّ ذي قسوة (وخشونة) لم يتعوّدوها من قبل. وكان ذلك ليثبت بقوة في أذهانهم وجوب الحفاظ على برعم الحياة الجديدة - الحياة الحقة - ذلك البرعم الهشّ الرّقيق عند بزوغه في الإنسان على أثر أولى مجهوداته الواعية. قال يسوع: لا تعطوا الأشياء المقدّسة للكلاب ولا تلقوا بلآلئكم أمام الخنازير[٢٠]؛ وأوضح بعد ذلك العقاب: مخافة أن يدوسوها بالأقدام ويستديروا لكم ويمزّقوكم[٢١].

مع ذلك فإنّ الأشخاص الذين بدأ المركز المغناطيسيّ الظهور عندهم وأخذ يتطوّر يحسّون بالحاجة إلى الكلام عن ذلك. ذلك أنّ الفم يتكلّم بما يفيض القلب به[٢٢]. إلا أنّه عليهم ألاّ يشركوا في تجاربهم وفرحتهم إلاّ الذين شرعوا مثلهم في العمل الباطنيّ. أضف إلى ذلك أنّ قاعدة السكوت ليست ملزمة إلا في بداية التدريب الباطنيّ. فإنّ الإنسان سرعان ما يبدأ في الارتقاء - بفضل جهوده الواعية - فيدرك فراغ وعدم جدوى العلاقات في العالم. إنّ خلط ثمار الارتقاء بتلك الحياة لا يمكن أن يكون إلاّ خطأً على الدوام.

-٨-

لِنَعُدْ الآن إلى الشروط العامّة التي تستلزمها نفس طبيعة الطريق. إنّ الأنبا ثيوفان يدقق على هذه المسألة. فهو يقول أنّ النعمة الإلهيّة لن تعمل في داخلنا إن لم نبذل جهوداً من أجل الحصول عليها، كما (يقول) إنّ الجهود البشريّة وحدها لن تستطيع أن تحدث فينا أثرا يكون ثابتا أو دائما. فإنّ النتيجة كما يقول - يمكن الحصول عليها بازدواج الجهود مع النعمة[٢٣]. إن ما سبق لا يعدو أن يكون تعليقا (وتأويلا) صحيحا لكونه صدر عن شخص خولت له تلك السلطة[٢٤]. تعليق على أحد نصوص رؤيا (يوحنّا الرسول):

هاأنا ذا أقف بالباب وأدقّ (عليه). فإذا سمع أحدكم صوتي وفتح لي الباب لأدخلنّ إليه أتعشى معه وهو معي[٢٥].

---

[١٩] أو الشكيّة في الفلسفة.

[٢٠] متى، ٧: ٦.

[٢١] نفس المصدر.

[٢٢] متى، ١٢: ٣٤.

[٢٣] لا يتعلق الأمر هاهنا بالنعمة التي هي اتجاه واستعداد لغفران (الخطايا) بل إنها النعمة الإلهية - بلاجَودَات بالروسيّة التي ليست مجرّد اتجاه (واستعداد) بل هي قوّة حقيقية تتعين - وإن كان تعيّنا دقيقا (ومرهفا) جداً في شكل طاقة جوهريّة (تؤثر فينا) وتعمل بداخلنا إذا توافرت بعض الظروف المعيّنة - نستطيع أن نجد في التقليد إشارات (وتعليمات) دقيقة ومحدّدة للكيفيّات المختلفة التي يمكننا بها أن نتقبّل (هذه النعمة) أو التي يمكننا بها أن نستثير مفعولها في داخلنا.

[٢٤] إنهما كلمتان: Commentaire autorisé - أي تعليق صحيح مؤيد بالحقّ - لصدوره عن شخص خولت له سلطة التعليق والتفسير والتأويل بما لا يسمح بالطعن في سلطته في أيّة الحالات. هذا وقد أيدت الكنيسة الروسية الأرثوذكسية حكم المؤلف بوريس مورافييف على الأنبا ثيوفان الناسك فنصبته قديسا في سنة ١٩٨٨ أي بعد حوالي ثلاثين سنة من صدور هذا المؤلف الذي نُعرّبه.
Cf. The Heart of Salvation, Robin Amis - Praxis.

[٢٥] سفر الرؤيا، ٣: ٢٠.

إنّ النعمة الإلهيّة - في مظهرها الجوهريّ - تجعلنا تحت ضغط متواصل؛ ولكن (يتحتم) علينا نحن أن "نسمع الصوت" وأن "نفتح الباب" وإلاّ فلن يكون لها أيّ فعل في داخلنا[٢٦].

كلّ إنسان يستطيع أن يسمع الصوت. فإن فعل تبدأ المؤثرات "ب" بالنفوذ إلى داخله والإقامة فيه. إلا أنّه لا يعرف بعد كيفيّة التصرف من أجل أن يفتح الباب. يجب لذلك أن يعثر على مرشد يدلّه، رجل ذي تأثير "ج" يؤكد الأنبا ثيوفان بإلحاح أنّ طابع هذه المساعدة كونها لا غنى عنها مطلقا، ويعود ليقطع بكل قوة أنه بدونها لا أحد يستطيع أن يبلغ إلى الطريق: فإنها قاعدة من قواعد التقليد القاطعة الصريحة.

إنّ التلميذ (المريد) يختار أستاذه بمحض حريّته. ولكنّه يجب عليه من أجل بلوغ الهدف الذي يضعه لنفسه - أن يتتبّع بكلّ دقة التوجيهات (والتعليمات) التي يعطيها له أستاذه: هذه الحقيقة حقيقة واضحة ولكنّها كثيرا ما تهمل...

يقول القدّيس يوحنّا كليماك (أو السلمي) في هذا الصدد: إن أبصرت في أستاذك بصفته بشراً وإنسانا، بعض النقائص أو بعض (مواطن) الضعف فلا تطل وقفتك بها. اتبع لتوجيهاته (وتعليماته) وإلاّ فلن تبلغ أيّ شيء[٢٧].

ذلك أنّ التعليم الباطنيّ يقيّد من يقوم بتعليمه فإنما يتحتّم عليه أن يحفظ مبادراته بالضبط والتمام في (حدود) الإطار الذي يعيّنه المذهب كما يجب أن تساهم هذه المبادرات في بلوغ الهدف المقترح تنفيذه.

-٩-

إنّ الشروط اللازمة للبدء في البحث عن الطريق أربعة:
شهوة متأججة (ودافقة) للوصول للطريق؛
التمييز (ملَكة التميّز)؛
انضباط من حديد؛
المبادرة.

الشرط الأوّل شرطٌ قطعي: فلا داعي ألبتّة للاستمرار إن لم يتوافر. أمّا إذا تواجدت تلك الرغبة الدافقة (المتأجّجة) بما لا شك فيه يجب عندئذ علينا أن نعمل بجدّية على تطوير ملكة التمييز فينا بكلّ الوسائل. فإنّنا - كما سبق أن قلنا - نعيش (داخل) الفلك المختلط الذي تتشابك فيه (وتتقاطع) بلا أيّ نظام الوقائع والظواهر الحقيقيّة والتخيّليّة. تصدر صعوبة التفرقة ما بينها من كون التخيّليّ يشبه للواقعيّ كما يعكس الفراغ (الموجود) فيما وراء المرايا ما يوجد بالفعل أمامها. فما أسهل - إذا كنّا محاطين بالمرايا - فقداننا لمفهوم ما هو حقيقيّ. يمكننا باستخدام لغة الرياضيّات أن نكتب المعادلة (التالية):

$$ت = ح\sqrt{-١}$$

حيث يكون التخيّليّ "ت" مساويا للحقيقيّ "ح" مضروبا في العدد التخيّليّ الذي هو الجذر التربيعيّ لناقص واحد. إنّ التعرّف على $\sqrt{-١}$ حيثما وجد يعنى اكتساب التمييز. مع أنّ التخيّليّ يشبه إلى حدّ بعيد ما هو حقيقيّ إلا أنّه يوجد دائما بينهما فارق مرجعه أنّه تماما كما في حالة المرآة ستكون

---

[٢٦] في التقليد الهندي تستخدم في هذا الصدد الصورة التالية: يقال إن النعمة - باللغة السنسكريتية دايا Daya وهى ماء للتجدّد السرّي (الخفيّ) - وهو مفهوم يماثل بالقياس مفهوم المصطلح الروسي بلاجودات Blagodat - أنّ ماء التجدد السرّي (الخفيّ) هذا إذن - يقارن بالماء المحجوز لريّ الحقول، والموجود بالقنوات مسبقا، وإن كانت السدود الحابسة تحول دونه (ودون ريّ الحقول). تتسرّب (هذه المياه) من نفسها عندما يفتح زارع الأرض السدود الحابسة بفضل قانون الثقل (الجاذبية) - انظر سوترا باتنجالى ٤: ٣ مصحوبة بتعليق سوامى فيفيكانندا.

[٢٧] الفيلوكاليا، القدّيس يوحنّا كليماك، الموعظة ٤: ٦.

الصورة معكوسة بالنسبة للشيء الموضوع أمامها: وهو ما ينطبق على شتّى الأنواع المختلفة من منتجات اللا- حقيقيّ وما يهدينا لطريق الاستدلال عليها.

إنّ المؤثرات "ا" التي نعيش بينها هي بطبيعتها مؤثرات تخيّليّة؛ ولكنّها تستطيع أن تجترّ أو تحدث نواتج حقيقيّة. وهو ما يجرى بصورة ثابتة في الحياة. بهذه الكيفية يدفعنا التوجس من خطر تخيّليّ لاتخاذ إجراءات (فعليّة) عينيّة للحيطة. والسياسة الدوليّة في جميع العصور مثال واضح لما سبق.

يوصى التقليد بأحد المنهجين العمليّين الآتيين من أجل تطوير مَلَكَة التمييز: وهما منهجان يتناسبان مع النموذجين الأكثر شيوعا في حضارتنا هذه من نماذج الإنسان الخارجيّ:

المنهج السلبي، أو منهج الاستبعاد الذي ينصح باستخدامه للإنسان ٣ أو النموذج الإنساني العقلي؛

المنهج الإيجابي، أو منهج التكامل، وهو ينطبق على الإنسان ٢ أو النموذج الإنساني الانفعالي؛

قيمة كلّ من هذين المنهجين متساوية. والفارق بينهما هو أنّه إذا اتبع الباحث المنهج الأول لن يرى النور إلا عند نهاية مجهوداته؛ وإذا اتبع المنهج الثاني فستشجعه شراراتُ من الوعي بالإنيّة الحقيقيّة قد تصاحبه على طول المسار.

إنّ الإنسان ٣ من وجهة المبدأ يميل إلى عدم الاعتقاد[٢٨]؛ فهو ذو طبيعةٍ ارتيابيّة؛ يشرع بكلّ ارتياح (وتلقائيّة) في إجراء تحليل نقديّ متعمّق للوقائع والمشاكل التي تواجهه. فإنّ مركز ثقل حياته النفسيّة هو النشاط العقليّ. يعمل المنهج السلبيّ حساب هذه الاستعدادات: فهو يطبّق على قدر الإمكان التحليل النقدي الأبلغ دقة والأبعد ما يكون عن التحيّز عند مراقبته لحركات الحياة الداخليّة. فيتتبّع مجيء ورواح الإنيّات الصغيرة، أو مجموعات هذه الإنيّات الصغيرة، ويقرّ بأنّها لا- إنيّة بالنسبة له[٢٩]، فيحاول جاهدا ألاّ ينطبق عليها. يستبعد الإنسان بتلك الكيفيّة وبالتدريج ما لا يعبّر عن ميل حقيقيّ ودائم له من بين تيارات حياته النفسيّة.

سوف يدرك المراقب بعد العودة لمشاهداته مرارً وتكراراً والتأكد من صحتها أنّ بعد العناصر (فيه) دائمة، ولا يمكنه بكلّ موضوعيّة أن يخضعها لمبدأ الاستبعاد: فيجد نفسه عندئذ غير بعيد عن عتبة الإنيّة الحقيقيّة. يمكننا أن نرى أنّ هذا المنهج لا يتطلّب (وجود) مثل أعلى أو إيمان. ولكنّه يتضمّن خطرا مع ذلك: حيث إنّه يستلزم عدم تحيّز شامل في المراقبات وفيما يستدرج منها من مستنتجات. فإن لم يُراع عدم التحيّز هذا منذ البداية، يتعرّض الإنسان إلى خطر الوقوع في الوهم بصفة أشد عمقا ممّا كان عليه: فيزداد موقفه سوءاً عمّا كان عليه من قبل. ذلك أنّه سوف يكون قد حدث على أثر التدريبات التي أداها تغيّر معيّن في بنيان شخصيّته فتتراخى الروابط الموجودة بين المراكز، والتي سبق لنا أن تكلمنا عنها في الفصل السابع لتتساقط في نهاية الأمر. فإن لم يكن المركز المغناطيسيّ في تلك الأونة بالذات من الشدّة بحيث يفرض سلطته مباشرة على المراكز، يصبح هذا الإنسان بلا أخلاق وخطيرا على نفسه وعلى الآخرين.

هذه واحدة من الحالات التي ينطبق عليها المثل المرعب الذي ذكره يسوع والخاصّ بالسبعة أرواح الشريرة التي تجعل الوضع الأخير للإنسان أسوأ من الوضع الأول[٣٠].

أمّا المنهج الثاني فإنّه إيجابي ولا ينطبق إلا على الإنسان ٢ الذي يوجد فيه مركز ثقل الحياة النفسيّة في القلب: فإنّ هذا الشخص يمكن أن يكون له مثل أعلى يسعى للوصول إليه. وهو من أجل ذلك سوف يحاول أن (ينسّق) تجميع عناصر شخصيّته التي تتناثر فيها بذور مثله الأعلى. هذا المنهج

---

[٢٨] يجب أن نميّز ما بين المفهومين التاليين: الاعتقاد والحوزة على الإيمان فإنّ الاعتقاد ليس بشيء يذكر: فالشياطين يعتقدون ويرجفون (يعقوب، ٢: ١٩). كذلك فإنّ كلّ الناس يعتقدون في وجود الله أو في شيء ما على الأقلّ: كالمال مثلا. ولكنّ هذا النوع من الاعتقاد ليس له القوّة القادرة على زحزحة الجبال.

[٢٩] هذا الذي يراقب مجيئ ورواح الإنيّات - يكون خارجا عنها ولا ينطبق عليها. فهي ليست "هو" على الأقل أثناء مراقبتها. أي أنها لا-إنيّة.

[٣٠] متى، ١٢: ٤٣ إلى ٤٥ - لوقا، ١١: ٢٤ إلى ٢٦.

عكس المنهج السابق ما دام يسعى إلى التجميع والتحقيق الإيجابي، ولا يسعى كالسابق إلى استبعاد عناصر غير ثابتة. إن كان هذا المنهج يسمّى المنهج الحارّ فإنما يرجع ذلك إلى أنّ الإنسان في مجرى تطبيقه له يفتح المجال الحرّ أمام انفعالاته الإيجابيّة: فهو يتعارض بذلك مع المنهج البارد في التحليل النقديّ والاستبعاد. وهو لا يخلو كالمنهج السابق من الخطر ولكنّ طبيعة الخطر تختلف هاهنا: فالخطر يصدر فيه من خطأ أصليّ في اختيار المثل الأعلى، أو بالأحرى من الموقف المتّخذ عند البتّ في هذا الاختيار. ولا يتغيّر الأمر في شيء لكون المعلم (أو الأستاذ) قد وافق على ذلك المثل الأعلى. فانّ الأمر يتعلّق بعدم صدق الشخص تجاه نفسه. وقد يتسبّب التنافر العميق ما بين الهدف الذي يجاهر به الشخص المعنيّ والهدف الذي (يريده) ولا يقر بوجوده في تمزّق داخليّ قد يصل إذا ازداد واستفحل إلى إحداث ازدواج في الشخصيّة.

إنّ التحليل السريع لهذين المنهجين في العمل يوّضح بالتمام دور عدم التحيّز - وهو شكل من أشكال الموضوعيّة التي في قدرة الإنسان أن يعمل بها - كما يوضّح مرّة أخرى دور الصدق. إنّ عدم استخدامنا لهاتين الفضيلتين استخداما واعيا، وخاصّة تجاه أنفسنا هو منبع الأخطاء العديدة التي لا نعرف بعد ذلك كيف يمكننا أن نصلحها.

يوجد بداخلنا استعداد مهيمن إمّا لعدم التحيّز فيما نصدرْ من أحكام أو الصدق. يتناسب هذا الاستعداد مع النموذج (الإنساني) الذي ننتمي إليه كما أنّه يحدّد من وجهة المبدأ اختيار المنهج الذي يجب أن نتّبعه. ولكننا لا يجب أن ننسى أنّ طبيعتنا طبيعة مختلطة بواقع ولادتنا إلى العالم وبواقع تربيتنا وتكويننا. لذلك فإنّه يجب علينا أثناء ممارستنا للمنهج الأكثر تناسبا مع استعدادنا المهيمن ألا نغفل تماما المنهج المتبقي فإنّ الاثنين يجب أن يلعبا دوراهما في المجهودات التي نبذلها للارتقاء وإن اختلفت بالطبع نسبة كلّ استعدادٍ منهما لكلّ منّا (على حدةٍ).

هناك أيضا منبع آخر للخلط (بين الأمور) يلعب دورا هاماً من الوجهة العمليّة. كثيرا ما نظنّ أنّه يكفينا أن نتلقى المعرفة الباطنيّة النظريّة لتحدث فينا هي بعد ذلك مفعولها كالدواء الناجع بلا حاجة لأيّ مجهود آخر من قبلنا. وهو خطأ في تصوّرنا للأمور يكاد أن يكون عاماً. إنّ العمل الباطنيّ في واقع الأمر يستلزم مجهودات متّصلة من التحليل والتجميع لخلق كلّ ذرّة من النجاح نستطيع أن نحصدها في السير نحو الطريق وفوقه، ولتوطيد هذه الذرّة من النجاح. ذلك أنّ المؤثرات التي تضغط بها علينا الحياة - ذلك الطريق الكبير - ضغطا متّصلا هي مؤثرات مختلطة وللفساد فيها شقّ. لدينا لكي نستطيع أن نختار - متاع معيّن وكميّة من حريّة التصرّف، وقوّة تسمح لنا بإتمام هذا العمل الانتخابيّ. هذه القوّة هي الانتباه. إنّ الانتباه هو رأس المال الوحيد الذي نمتلكه. لكننا نستطيع أن نستخدمه بطريقة حسنة أو سيئةٍ. ولا يمكننا في كثير من الأحيان أن ندّعى أننا نستخدمه البتّة: فإنّنا نتركه يتشتّت. ومع ذلك فإنّ الانتباه لا غنى لنا عنه، وخاصّة للتحكّم في الانفعالات السلبيّة التي تفقرنا وتسبّب لنا خسائر قد تكون أحيانا جديرة بالاعتبار في القوى المكدّسة ببذل المجهودات المتصلة: وقد يتطوّر الأمر في بعض الحالات إلى حدّ إحداث انهيارات حقيقيّة بداخلنا. إنّ الانتباه المتيقظ يسمح بإيقاف هذه الانفعالات السلبيّة في الآونة التي تتولد فيها. وعندئذ ونحن فوق هذه البقعة المطهّرة نستطيع أن نترك العنان (لانطلاق) الانفعالات الإيجابيّة التي تثيرنا، وتسمح لنا بتكديس القوى اللازمة لمتابعة العمل الباطنيّ[٣١].

[٣١] الأسطر الأخيرة من هذا الفصل برنامج كامل هو محوّر معرفة النفس والتحرّر البناء: الانتباه المتيّقظ ومراقبة الانفعالات السلبيّة، ثم السيطرة عليها في آونة توالدها، ثم الإثراء بالفهم الاستيعابي، وهو من الانفعالات الإيجابيّة. (المعرب)

الفصل الثامن عشر

العلاقات بين الرجل والمرأة مَنظورٌ إليها من الزاوية الباطنيّة - دور المرأة في السقوط وفي الفداء - المرأة الملهمة - السبل الثلاثة المؤدّية إلى الطريق - الأهداف التي يمكن بلوغها - مشكلة الإنسان الجديد - النماذج الممثّلة للطليعة إذا تناولناها في الارتقاء التاريخيّ - أربع كيفيّات لإدراك ودراسة العالم الخارجيّ وللتأثير عليه: الفلسفة والدين والعلم والفن - تبادل النموذجين ٢ و ٣ في الماضي - يميل العصر الحالي إلى تهيئة كل الظروف المناسبة لظهور الإنسان ٤ فإنه المحرّك الدافع (لإنجاز) تجمع (عامّ) يهدف إلى حل المأزق (الحالي)... إما الكارثة (النووية) أو ظهور الأرض الجديدة (تبعاً لنبوءة القدّيس بطرس الرسول) - المركز المغناطيسيّ للبشريّة الذي هو في مجموعه في سبيل التكوين حالياً.

-١-

إن دراسة الطريق الذي علينا أن نكتشفه، وأن نسير فوقه ونحن في وسط الحياة تثير مشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة إذا أخذناها في الاعتبار من الزاوية الباطنيّة. لقد سبق أن تكلّمنا عن تلك المشكلة وسوف نعود إليها مرارا حيث إنّها مسألة من أهمّ المسائل بل تفوق أهميتها ما نعتقده عادة. بيد أنّه ما أكثر ما تمرّ أهمّ المسائل بدون أن تُلحَظ (ويُتَنَبَّهَ إليها)، وخاصّة فيما يختص بالمشاكل المتعلقة بالباطنيّة. يرجع السبب في ذلك إلى أنّ مستوى الكينونة فينا لا يسمح لنا باحتواء المعلومات المقدمة لنا.[1] بهذه الكيفيّة كان الإنجيل والعهد الجديد بصفة عامّة وظلا حتّى أيامنا هذه غير مفهومين وغير مستوعبين إلا بقدر طفيف جدّا. لا نبالغ أو نهدّد إذا أكدنا أنّ الكتب المقدّسة لم تستغلّ حتّى من قبل الأخصّائيّين إلا بنسبة لا تتجاوز خمسة إلى عشرة في المائة من محتواها الصحيح. ذلك أنّها تدرس بدون عمل أيّ حساب للمفاتيح التي تتضمّنها. إلا أنّنا بدون أن نذهب إلى هذا الشأن البعيد ندهش أحيانا لعدم الانتباه الذي قوبلت به بعض البيانات (والتعيينات) التي هي أوضح ما يكون.

إنّ القدّيس بولس الرسول صريح (وقاطع) فيما يتعلّق بالعلاقات بين الرجل والمرأة والمنظور إليها من الزاوية الباطنيّة. فهو يقول إنّ الرسل الذين كان يجب أن يصبحوا بعد العنصرة على المستوى ٧ أو على الأقلّ على المستوى ٦ كان يوجد إلى جانب كلّ منهم المرأة - الأخت[2]. ثمّ يعمّم قائلا أنه في الربّ لن تكون المرأة بدون الرجل ولا الرجل بدون المرأة[3]. إنّنا لنجد هنا من جديد نفس المعنى التجريدي الذي عبّر عنه أفلاطون في أسطورة "الأندروجين"[4].

يجب علينا أن نقولها بكلّ وضوح: إنّ الارتقاء الباطنيّ بطبيعته ارتقاء يلزم (حتميّاً) الرجل والمرأة معا. لم يكن السقوط كما يقال ذلك بصفة دارجة هو سقوط آدم (لوحده) بل سقوط آدم وحواء معا، علما بأنّ كلا منهما قد سقط بطريقته الخاصّة. كذلك لن يكون الفداء عمل الرجل وحده أو المرأة

---

[1] سبق أن نبهنا القارئ لكلمة Savoir - التي تحمل معنى العلم الذي لا يعدو أن يكون مجموعة منظمة من المعلومات الاستعلامية (أي المعلومات التي لم تمر بعد إلى مرحلة الفهم).

[2] الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، ٩: ٥. (المعرّب: لم يفهم هذا النص الواضح على ما يجب فإنّ المعلقين على هذا الكلام في نص العهدين القديم والجديد المشهور بنص توراة أورشليم يقولون: مسيحيّات يعشن على تلبية طلبات "خدمة" الرسل. صفحة ١٩٨٢ طبعة ١٩٧٥ Éditions du Cerf - Desclée De Brouwer.

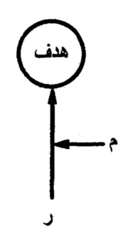
[3] نفس المصدر، ١١: ١١ - إنّنا لنلاحظ كيف أنّ هذا النصّ يتعارض على ما يبدو تمام التعارض مع بعض التطبيقات العمليّة (في المسيحيّة) وخاصّة مع التطبيقات العمليّة بالأديرة. سوف نعطي تفسير هذا التناقض الظاهريّ في مكان آخر. لم يكن إلى جانب القدّيس بولس الرسول كما لم يكن إلى جانب القدّيس يوحنّا المعمدان امرأة - أخت. ذلك أنّهما كانا ينتميان مع بعض شخصيّات أخرى من الإنجيل إلى تلك المجموعة من الكائنات ذات درجة ارتقاء عالية التي كانت قد فوضت لها مهمّة المشاركة الواعية في سرّ التتميم تحت قيادة يسوع - المسيح.

[4] راجع ما قيل عن الأندروجين في مدخل هذا الكتاب. (المعرّب)

وحدها بل عمل الاثنين معا مجتمعين، إذ أنّ كلّ زوج من الكائنات المستقطبة يشكّل نموذجا مختلفا من بين نماذج الزوج الأوّل التي لا يتناهى عددها.

فإذا كان الأمر كذلك، لنَنْظرْ إلى دور كلّ من الرجل كرجل والمرأة كامرأة في العمل الباطنيّ الذي يتجه نحو الفداء الأكبر. انه في المجموع دور يشابه الدور الذي كان قد لُعبَ بمناسبة السقوط. فلْنَنْظرْ إذن عن كثب كيف يجب أن نفهم هذا الافتراض.

إنّ الرجل في أوّل الأمر مؤهل (أي قادر على) للاتجاه مباشرة نحو الهدف (المقصود) أمّا المرأة فهي محرومة من تلك القدرة. فهي إذا كانت تريد أن تبلغ هدفا معيّنا يجب أن تجد رجلا يتابع البحث عن هذا الهدف للمتابعه معه. قد يكون ذلك الرجل زوجها أو أخاها أو معرفة أو مرشدا روحيّا راعيا كان أو قسّيسا، أو أستاذا في العمل الباطنيّ.



- شكل 50 -

المقاييس: دائرة الهدف = ١٦ مم.
سهم الرجل = ٢٧ مم.
سهم المرأة = ١٢ مم.
التقاطع = ١٣،٥ مم.

قلنا في السطور القليلة السابقة إنّ دور المرأة على خطّ منحنى الفداء يجب أن يكون مشابها للدور الذي لعبته على منحنى خطّ السقوط الذي زجّت إليه الاثنين معا. وقد كان دورها في ذلك دور الملهمة. فإنّ المرأة بعد أن صمّمت في مخيّلتها الخصبة الفنانة مفهوم الوهم° وتنوّقت ثماره قدّمتها لزوجها، وشرع بعد ذلك الاثنان معا، وقد وقعا هاهنا، شرعا في السير فوق سبيل طويل من الدراسات التي هي ثمار شجرة معرفة الخير والشرّ.

إنّنا نعود بذلك إلى التعليم الخاصّ بالتمييز الذي لا يمكن بدونه أن يَحْصَل الإنسان على أيّ شيء ملموس فوق السبيل الباطنيّ. تكمن الصعوبة في أنّ الإنسان لم يُزوّد بالقدرة على تكوين تصوّر مطلق عن الخير والشرّ. فانّ كلّ ضوء يلمع في عينيه يجتلب معه ظلمة. وهو ما يضلّل حتّى الكائنات ذات النيّة الصادقة والمزوّدة بعقول مرهفة (ودقيقة). فإذا ما أردنا بصدق أن نحلّ مشكلة بما يتّفق مع الإنصاف نعثر دائما في نهاية البحث والتحليل على نسبة مئويّة من الأسانيد المؤيّدة للحلّ المقترح تساوى النسبة المئويّة للأسانيد المفندة له. ممّا يجعل الإنسان لا يستطيع أن يبتّ في أمره؛ بل يتجمّد

° نستطيع أيضا أن نترجم هذا النص الصعب والهامّ كالتالي: فإن المرأة بعد أن صوّرت لنفسها في مخيلتها الخصبة، مخيلتها الفنانة الخ.

في الانتظار الأمر الذي يتحول في الصالح الأعظم لمجد إبليس ... إنّ الإنسان الذي لا تتجه نفسيّته (لتحقيق) فكرة يقتاد بها يظلّ عامّة متجمّدا إلى حين يتّخذ - تحت ضغط دَفعة عابرة في أكثر الأحيان - قرارات قد توجّه أحيانا حياته لمدّة عشرات من السنين.

أمّا بالنسبة لمن يشرع (جادّا) في البحث عن الطريق فإنّ كلّ شيء يتغيّر. حيث أنّ هذا البحث يشكّل هدفا دائما. يستطيع الإنسان عندئذ بدون أن يترك مجال النسبيّات مؤقتا أن يحدّد بصيغة مفيدة مفاهيمه لما هو إيجابي وما هو سلبيّ: فانّ كلّ ما يرشده إلى الهدف المنشود ويساعده على الوصول إليه أو يساهم في أن يبلّغه إياه هو بالنسبة له خير؛ أمّا عمّا يحيد به عنه أو يؤخره أو يوقفه أو يعود به إلى الخلف، ويخلق بصفة عامّة العوائق المادّيّة والسيكولوجيّة على السبيل المؤدّى إلى الهدف المنشود فهو بالنسبة له شرّ.

هذا التعريف تعريف عامّ؛ ولكنه ينطبق بصفة خاصّة جدّا على الأبحاث عن الطريق.

-٢-

تزداد شدّة (تأثير) الانطباعات الداخليّة على الباحث كلّما ازداد تقدّمه فوق سبيل الباطنيّة فتّتخذ أحيانا نسباً (من الشدة) تفوق الحدّ. فإنّ الصدمات الداخليّة التي كان الباحث من قبل يتعدّاها بدون أن يصاب بضرر يذكر تتسبب له بعدئذٍ في أزمات ضمير بكل معاني هذه الكلمات.

وقد يترك أحيانا العمل (الباطنيّ) لأنّه لم يعد يملك قوّة العزم اللازمة لمواجهة تلك المعركة الداخليّة بين التأكيد والسلب تلك المعركة التي تستحوذ على كيانه كلّه وتغرقه في غمار شكوك رهيبة. إلا أنّ هذه المعركة في الواقع ذات أهميّة قصوى (ولا غنى له عنها ألبتّة). فإنّها هي التي تحدث فيه توترا داخليّا يأخذ في التضخّم إلى أن يبدو في غالبيّة الحالات وقد تعدى طاقة الاحتمال الجسديّة للباحث. بَلْ إن الاحتكاكات بين شتّى عناصر الشخصيّة لا تصبح من الشدّة بحيث تطلق النار التي تشعل القلب إلا في هذه الآونة. إلى أن تتّخذ تلك النار حجم الأجيج المتأجّج داخليّا لينتهي بها الأمر إلى إحداث ذلك الالتحام الذي سبق أن تكلمنا عنه، والذي عندما يتمّ بطريقة صحيحة يكوّن أوّل نتيجة هامّة وملموسة للعمل الباطنيّ.

يكون دور المرأة إذا كان هناك اثنان يؤدّيان العمل معا - وإذا كان الزوجان مستقطبين - له نفس أهمّيّة دور الرجل. فإنّها بصفتها الملهمة سوف تساند الرجل أثناء نوبات تثبيط العزيمة التي لا يمكن ألاّ تحدث في مثل هذا النوع من العمل الذي يسير دائما تبعا لقانون سبعة عندما يؤدّى بطريقة صحيحة. كذلك فإنّ المرأة تأتى أيضا بالصدمات المكمّلة اللازمة في تلك الآونة التي ينتاب العمل فيها فترات توقف في تقدّمه بالرغم من مجهودات الرجل. يمكننا أن نقول إنّ تلك المساهمة إذا نجحت منذ البداية تشكّل دليلا جدّيا وإيجابيّا لاستقطاب هذين الكائنين.

يجب أن نضيف ونحن حاليّا على عتبة عصر الروح القدس الذي يجب فيه على كلّ ما هو خاطئ - حتّى لو كان خاطئاً عن صدق نيّة - أن يقع ويتهشّم، أنّ مشكلة الاستقطاب الحقيقيّ للزوجين قد أصبحت ذات أهمّـيّـة محوريّة. إلاّ أنّ الكائنين، أي الرجل والمرأة، لن يستطيعا أن يتأكّدا تأكّدا مطلقا (لصحّة) استقطابهما إلا في وقت لاحق عندما يكونان قد وصلا إلى مستوى الإنسان ٤، على عتبة المستوى ٥. ذلك أنّهما وإن كانا مستقطبين (فعلا) في ماهيّتيهما فهما يجرّان وراءهما كلّ على حدة ماضيا يغطّى إنّيّتهما الحقيقيّة بقشرة غير متشابهة. إنّ الكائنات المستقطبة من الأوّل[٦] (في ماهيتهما)

---

[٦] عن المعجم الفلسفيّ لمجمع اللغة العربيّة، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م. ص ٢٨ و ١٥٨ : الأولى: معرفة يفترضها الذهن وتسبق التجربة. قال الفارابي: "نحن نعرف في "الأول" أنه واجب الوجود بذاته معرفة أوّليّة من غير اكتساب". (التعليقات)
كما أننا ترجمنا قبل ذلك "a posteriori" يلاحق بدلاً من "بعدى" وهى ترجمة قواميس الفلسفة.

يجب أن يعملوا لذلك كلّ الحساب. وكلما انتزع الاثنان عنهما بالتدريج تلك القشرة، وفقط عند ذلك، كلما تلألأت بالنور ملامح ماهيّتهما واجتلب لهما كلّ اكتشاف دفقة من الفرح الذي لا يمكن التعبير عنه. فيتسع بذلك حبّهما اتساعاً يزداد على الدوام. ويحبّ كلّ منهما الآخر كلّ يوم أكثر، اليوم أكثر من الأمس وأقل بكثير من غد. إنّه سبيل النصر.

إنّ موقف المرأة المحبوبة - في قصّة الحبّ الحقيقيّة هذه - يساهم بالكثير إن لم يساهم مساهمة كلية في ظفر الفارس. فإنّ الحدس المرهف فيها والمطعّم بالفنّ هو الذي سوف يتفهم بإمعان كل ما تعنيه كلمة الحبّ، الحبّ بكلّ أوتار الكينونة، الحبّ الذي يصل إلى حدّ الانطباق المتكامل (للاثنين معا) في دفعة وضّاءة مجيدة نحو الهدف الواحد.

لا يجب إذن أن تقنع المرأة بالانتظار حتى تستبين الأمور، وتكتفي طوال هذا الوقت بترك نفسها لحب الطرف الآخر، هذه الملاحظة ملاحظة هامّة.

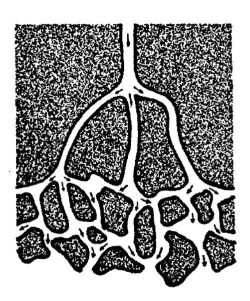
-٣-

علينا الآن أن نطّلع على التعيينات العامّة التي يعطينا إياها تقليد الأرثوذكسيّة الشرقيّة فيما يتعلّق بالطريق.

أن هذا التقليد يصرّح (بوضوح) - كما سبق أن قيل ذلك - أنّ الطريق واحد. ولكن السبل الموصله التي توصل إليه عددها ثلاثة وهو عدد النماذج الأساسيّة الثلاث للإنسان الخارجيّ. يمثّل الطريق على شكل نهر تنصبّ مياهه في المحيط بواسطة ثلاثة أذرع. يستمد النهر مياهه من بحيرة هادئة تقع في أعلى الجبال وتعكس جمال السماوات.

يجب من أجل الوصول إلى الخليج ذي الأذرع الثلاثة أن نجتاز خطّ ملتقى هذه الأذرع وأن نقود (مركبنا) وسط عدد كبير من الجزر الصغيرة والصخور المدبّبة.

إنّ المحيط الذي ينصبّ النهر فيه هو محيط الجهل. أمّا الأذرع الثلاثة فهي الأناجيل الثلاثة الأولى، والنهر الإنجيل الرابع أي الإنجيل تبعا للقدّيس يوحنّا، كما تشاكل بحيرة الصمت (سفر الرؤيا).



شكل 51

{عدد العوارض ١٤ + ٢ كبار؛ عدد الأسهم التي تمشى ضد اتجاهها المراكب ١٩ + ٣ عند انفصال الأذرع + ١ فقط في النهر الكبير قبل البحيرة. (عرض الرسم ٥٢٠ مم.) تعليق المعرّب}.

صمّمت الأناجيل الثلاثة الازائيّة[٧] بشكل أن يتلاءم كلّ منها مع نموذج الإنسان الخارجيّ المناسب له: ١، ٢، أو ٣. أمّا الإنجيل تبعا للقدّيس يوحنّا فهو وُجّه للإنسان ٤؛ في حين أنّ سفر الرؤيا موجّه إلى إنسان ٥: وقد أوحى به (أنزل) على (هيئة) صور ورموز بما يتناسب مع الكيفيّات الإدراكيّة للمركز الانفعاليّ العلويّ. ولكون إدراكات المركز العقليّ العلويّ ذات مرتبة متعالية، فإنّ الرسائل الآتية من مستوى الوعي هذا لا يمكن أن يعبّر عنها بواسطة الكلام البشرىّ. بذلك يكون سفر الرؤيا الحدّ الأقصى للرسائل التي يمكن أن يعبر الكلام عنها.

إنّ محاولة فهم سفر الرؤيا بواسطة مراكز الشخصيّة لا جدوى منها ألبتّة. فان الباحث سيستفيد من قراءته عندما يمرّ في أثناء ارتقائه بمرحلة الإنسان ٤ ليصبح إنسانا ٥.

قد وضِعَ كلُ من السبل الموصلة الثلاثة - أي أذرع النهر الثلاثة - التي تقود إلى الطريق ليكون خاصّا بواحد من النماذج البشريّة الأساسيّة: الأوّل لنماذج الإنسان ١، والثاني للنماذج ٢ وأخيرا الثالث للنماذج ٣.

صُمّمت الأناجيل الازائيّة الثلاثة - تبعا للتقليد الباطنيّ لتكون المرشد للوصول إلى السبل الموصلة والسير فوقها. زوّدت (هذه الأناجيل) بعلامات مميّزة تعمل بمثابة المفاتيح الأولى لها:

فإن لوقا يمثّل مع ثور إلى جانبه؛ وهو يتوجّه للإنسان ١؛

ويمثّل مرقص مع أسد مجنّح؛ وهو يتوجّه للإنسان ٢؛

ويمثّل متّي مع رجل؛ وهو يتوجّه للإنسان ٣؛

ويمثّل يوحنّا مع نسر؛ وهو يتوجّه للإنسان ٤.

إنّ الإنجيل تبعا للتقليد كتاب مختوم بسبعة أختام. وهو ما يرجع إلى القول بأنّه يجب أن يدرس على سبع مراحل متتالية، بتناول النصّ في كلّ مرّة من أوله إلى آخره بمفتاح جديد. أعطيت المفاتيح الأولى على شكل العلامات المفصّلة أعلاه. عندما يشتغل الباحث شغلا صحيحا على الإنجيل المناسب لنموذجه، سوف يعثر في كلّ قراءة جديدة لهذا الإنجيل على المفتاح الذي يفتح الباب الذي يفضى إلى المرحلة التالية.

نرى بذلك أنّ الارتقاء نحو الوعي هو التقدّم (والانتقال) من منطقة الآثار (أو المعلومات) إلى منطقة الأسباب (أو العلل). وبعبارة أخرى فهو تقدّم فوق السلّم الذي يتجّه من المنتجات نحو الإنتاج. أو أنّه أيضا السير من منطقة الوجود الذي (تتحكّم فيه الصيَغ) الميكانيكيّة التي هي الموت (عينه) نحو الوجود الذي يتحكّم فيه الروح الخلاّق الذي هو الحياة[٨].

-٤-

ترتبط مسألة الأهداف بالمواضيع التي قد فرغنا للتوّ من معالجتها. ما هو هدف الحياة؟ ماذا يمكن أن يكون هذا الهدف؟ إنّ الحياة بلا هدف لا معنى لها من وجهة النظر الباطنيّة. إنّ وجهة النظر هذه تميّز بين الهدف الغير مباشر والهدف المباشر للوجود البشرىّ.

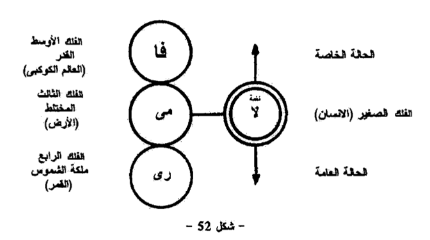
---

[٧] تدعى الأناجيل الثلاثة الأولى بالفرنسيّة Synoptique أي الأناجيل التي تذكر نفس الوقائع والأحداث وغيرها. لكنّ هذه الوقائع والأحداث وغيرها تختلف إذا كان راويها إنسان عقلي أو انفعاليّ أو غرائزيّ (المعرّب).

[٨] يوحنّا، ٥: ٢٤.

يتجاوب الهدف الغير مباشر مع الحالة العامّة (التي هي) حالة النوع البشرىّ كلّه: فيها يسير الإنسان مع تيّار الحياة ويخدم وهو لا يعلم مصالح الطبيعة فيساهم من خلال تناوب الولادة والحبّ والموت، في نموّ شعاع الخليقة.

أمّا الهدف المباشر فهو يتكوّن من الحالات الخاصّة. فإنّ الإنسان هاهنا يسير ضدّ تيّار الحياة العامّ ليصعد صعوداً فرديّاً سلّم الأفلاك بعد أن يكون قد عادل في داخله التأثير الذي يحدثه القمر على الحياة العضويّة خدمة لغايات عامّة. لا يمكن للإنسان أن يتفهّم تماما الهدف المباشر وأن يحدّده بوضوح ثمّ يسعى إلى تحقيقه إلا ببذل مجهودات واعية. هاتان الإمكانيتان المتفتحتان أمام الإنسان متمثّلتان في الشكل التخطيطي التالي:



- شكل 52 -

إنّ الهدف المباشر واحد، ولكنّه مقصد منشود طويل المدى لا يمكن بلوغه سوَى على عدّة مراحل. إلاّ انه يجب على الشخص الذي يسعى للوصول إلى الطريق أن يحدّد لنفسه فوق هذا المسار أهدافا مباشرة قصيرة المدى أو متوسّطته. هذه الأهداف يجب أن يوافق الأستاذ (أو الشيخ) عليها. لن يمكنه أن يحقق إلا هدفا واحداً فقط في المرّة الواحدة كما يجب ألا يتعدّى ذلك الهدف قوى الباحث. إن المماثلة بالقياس التي يمكن إقامتها بين هذا المنهج والمنهج المستخدم في تحضير الرسائل الجامعيّة تقرّب بينهما بشدّة.

وهاك أمثلة بعض الأهداف المباشرة الممكن (اختيارها):

أن يصبح الباحث متحكّما في نفسه؛

أن يكتسب الروح الخلاّق مصدر الإلهامات؛

أن يرفع العمليّات الفسيولوجيّة إلى مستوى وعى الاستيقاظ؛

أن يكتسب ملَكَات جديدة (هبات الروح القدس التي ذكرها القدّيس بولس)؛

أن يشارك في عمل باطنيّ بصفة عضو عامل؛

أن يجدد ويطهّر ويستعيد حيويّة كينونته بصيغة متكاملة؛ الخ[٩].

---

[٩] كلمة régénerer للفرنسيّة تحتوى على كلّ المعاني التي ذكرناها ... الخ. (المعرّب).

يجب أن نكيف على قدر تقدّم التطوّر الباطنيّ - الهدف الذي تحدّد عند البداية في شتى صيغه، وأن نُعدّل من اتساعه وشموله. يجب (أيضا) أن يُستشار الأستاذ عندما تتطلب تحركات وعي التلميذ (أو المريد) هذه التعديلات.

-٥-

يجب علينا أثناء عرضً (موضوع) الأهداف الفرديّة، أن نعطى بعض البيانات (والتعيينات) التي تتعلق بالشروط العامّة المؤديّة إلى العمل الباطنيّ. إنّ الباحث - حتّى إذا عثر على أستاذ يقبل أن يكون المرشد (والدليل) بالنسبة له - لن يتقدّم كثيرا إلي الأمام إذا كانت مجهوداته تستهدف أن تتملك فقط من المعارف وفن الإنجاز. هذه الحالة شبيهة تماما بحالة شخص يتابع دراسات جامعيّة: فإنّ الطالب عندما ينتهي من هذه الدراسات، يسعى عامّة، وقد تزوّد بشهادة رسميّة إلى أن يطبّق المعارف والاستعدادات المكتسبة في الحياة. وهو نفس ما يجب أن يحدث في المجال الباطنيّ: يجب على التلميذ الذي أقرّ الأستاذ بمقدرته أن يسعى إلى (تطبيق) المعارف التي كدّسها (تطبيقا) عمليّا. وهو وإن كان يجب عليه أن يستشير الأستاذ إلا أنّه يجب ألاّ تغيب عن عينيه القاعدة الرابعة أي قاعدة المبادرة الشخصيّة: يجب ألاّ يقف (مكتوف اليدين) بل يجب أن يتصرّف بشكل أن يلتحق بواحد من الأعمال الباطنيّة التي تتمّ في العالم. يمكننا بالنسبة للعصر الحَاليّ أن نذكر اثنين من هذه الأعمال: أولهما يماثل بالقياس بناء وإعداد سفينة نوح الذي يرجع تاريخها إلى حوالي ٤٠٠٠ سنة قبل عصرنا هذا. يتكوّن هذا العمل كالعمل السابق من ضمّ حاصل جمع المعارف والخبرات المكتسبة في شكل مكثّف وتخطيطيّ عامّ للمحافظة عليها، ولتوصيلها بعد ذلك إلى البشريّة الجديدة.

هناك أيضا عمل آخر باطنيّ يتابع (تنفيذه) بطريقة أكثر مباشرة وأكثر شدّة منذ بداية القرن الحالي وخاصّة منذ قيام الحرب العالميّة الأولى، وهو يهدف إلى المشاركة في تكوين نموذج بشريّ جديد. إنّ مشكلة الإنسان الجديد مشكلة وضعها أمامنا منطق التاريخ. فلنحاول أن نفصل (ونبيّن) عناصر هذه المشكلة التي سوف يترتّب على إيجاد حلّ (صحيح) لها مصير بشريّة الغد.

إنّ التحليل (المعنىّ) يفوق أهمّية ما يمكننا أن (نتصوّر) إذ أنّه يجب علينا وان كنّا لا نعمل عامّة حسابا (صحيحا) لهذا الأمر - أن نعدّ بسرعة ودقة الصيغ (اللازمة) لتحضير المستقبل. فإنّ الجيل الصاعد بالفعل وهو الجيل الذي تدفع الحياة به منذ الحرب العالميّة الثانية يمكنه بل يجب عليه أن يزوّد (العالم) بأوّل عناصر الطليعة التي تستطيع أن تقوم بالمسؤوليات منذ بداية دورة الروح القدس التي سوف تحلّ محلّ الدورة الحاليّة. يجب على التحليل الذي سوف نشرع في إنجازه أن يسمح لنا خاصّة - بعد النظر للمشكلة في مجموعها أن نحدد وضعها في إطارها التاريخيّ - كما يجب أن يسمح لنا بعد ذلك - عند انتقالنا من العامّ للخاصّ - بتفهّم معنى العمل الباطنيّ تفهما أعمق - وهو العمل الذي يجرى متابعته في العالم لتكوين الطليعة الجديدة (المنشودة) - (وأخيرا) باكتشاف كيفيّة مشاركة الذين يشرعون في البحث عن الطريق مشاركة مفيدة في هذا العمل ليساهموا بقسطهم الضئيل فيه.

-٦-

إنّ صورة هذا العالم تنقضي. فكلّ شيء في تغيّر. بل إنّ هذه التغيّرات تقوّض أمام أعيننا أسس النظام القديم. كما أنّ تطوّر التقنية[١٠] (أي التطبيق العملي للعلوم النظريّة) يتابع سيره بإيقاع يزداد

---

[١٠] لن يضرّ هنا أن نكرر أن التقنيّة هي التطبيقات العملية للعلوم النظرية، مثل المصابيح الكهربائية أو التليفونات. أما التكنولوجيا فهي تحدّد تطوّر وتضخم التقنيّة نفسها.

سرعة (كلّ يوم) ولن يستطيع أحد أن يوقف سيره، أو أن يحدّ من سرعته. إنّ المصادر الجديدة للطاقة التي لا يكاد يوجد لها حدود بالإضافة إلى تعميم الآليّة في الإنتاج الصناعي قد غيّرت، أو هي على وشك أن تغيّر مظهر الحياة والمجتمع البشريّ من أسفله لأعلاه. ليس من التهوّر أن نقول - اعتبارا بما سبق - أنّ المعركة من أجل العيش (أي معركة الوجود) التي تعمل بمثابة أكبر منظّم للحياة البشريّة سوف تتحوّل في مستقبل قريب إلى ذكرى من ضمن الذكريات التاريخيّة. بل إنّ الإنسان سوف يزوّد بواقع ولادته للحياة بكلّ ما سوف يحتاج إليه: وما يعتبر اليوم كماليّات سيمنح إياه بدون مقابل.

إنّ مثل هذا المنظور (للمستقبل) قد يبعث الفرح (فينا)؛ ولكنّه يمكن أيضا أن يكون مرعبا. فإنّ حتميّة سعي الإنسان وراء الرزق التي ظلت حتّى الآن شاغله، ووضعت رابطا لغرائزه المتوحّشة بصفة آليّة سوف تمّحى (بين يوم وآخر). فماذا سوف يصنع إذن وقد تحرّر من مشقة العمل اليوميّ؟ يمكننا أن نقرّر موضوعيّا منذ اليوم أنّ هناك ازديادا (مّطردا) في (نسبة) الإجرام يصاحب التخفيض العامّ في ساعات العمل. كما أن فترة الأجازات تتسّم بعدد متزايد من الحوادث وبتراخ ذي دلالة بيّنة في الأخلاقيّات. إنّ مثل هذه المؤثرات يجب أن تدفعنا إلى التفكير. فهلاً يمكننا أن نشغل وقت الإنسان "الحرّ" بإعادة تنظيم أوقات فراغه؟ نعم، ولكنّه سوف يملّ بسرعة من وجود أربعة أو خمسة (أيام عطلة) آحاد في كل أسبوع من أسابيع حياته حيث يمكننا مع تعميم الآليّة في الإنتاج الصناعي أن نتنبأ بأنه سوف يُكْتَفي حينئذٍ بأربع إلى ستّ ساعات عمل يومين أسبوعيّا.

بأيّة وسيلة سوف يمكننا أن نوازن الحياة الاجتماعيّة عندما يلغى ذلك الصمام للأمان الذي هو الحاجة الجبريّة للسعي وراء الرزق؟ لا أحد يدرى. بل يبدو أنّه لا يوجد بهذا الخصوص أيّ تصوّر يكون بمثابة القاعدة كما أنّ المسئولين عن الحياة الصناعيّة والاجتماعيّة والسياسيّة لم يتقدّموا حتّى الآن بأيّ عرض جادّ لحلّ تلك المشكلة. ومع ذلك فإنّه من الواضح أنّ الإرغام الذي ترغم الطبيعة الإنسان به (على الكدّ) أو بعبارة أخرى الذي ترغمه به الإرادة الإلهيّةُ لا يمكن أن يحلّ محلّه إرغام بشريّ بما معناه ضغطٌ بوليسيّ. يجب إذن أن نبحث عن حلّ للمشكلة على مستوى أعلى.

علينا حصْرَ المسألة بصيغة أكثر إحْكَاماً. إنّ من أولى نتائج تعميم تطبيق آليّة الإنتاج أن تضعف بنفس النسبة السلطة السياسيّة والاجتماعيّة للمال. لماذا نحن نسعى بالفعل حتّى يومنا هذا إلى كسب المال؟ ذلك أنّ المال يمثّل ما يساوى في القيمة الجهد البشرى (المنتج)، فإنّه يسمح بالتحصّل على ثمار هذا الجهد بلا عناء. بيد أنّنا إذا حصلنا على نفس هذه الثمار (أي المنتجات) بواسطة تعميم الآليّة - أي بدون تدخّل العمل الإنساني تقريبا، يفقد المال بالتدريج قوّته الشرائيّة. سوف يضمن تقدّم التقنيّة (التطبيق الفني للعلوم) لكلّ مولود جديد بواقع مولده حياة ميسّرة وإشباعا لحاجاته الماديّة لا يكاد يكون له حدود.

إنّنا نستطيع إذن لتوافر تلك الظروف أن نقول إنّ الإنسانيّة قد وصلت بدون شكّ إلى أهمّ منحنى في تاريخها. فإنّ المال إذا فقد قوّته الشرائيّة سوف يفقد بما لا يمكن إيقافه سلطته السياسيّة والاجتماعيّة أيضا. إنّ السلطة الحقيقيّة اليوم في العالم تحتكم عليها أقليّة تمتلك المال - أي الرأسماليّة - أو تتحكّم في استثمار المال - أي الشيوعيّة. سيفقد النزاع الرأسماليّ - الشيوعيّ (بتعميم) الآليّة من معناه يوما بعد يوم. فتصبح كبرى مجادلات اليوم[11] وقد تاه موضوع الخلاف مُتَعَدّاةً بدون أن تكون قد حُلّتْ بعد. إنّ المسألة مسألة معرفة من هم الذين سيكوّنون الطليعة القياديّة في العصر الجديد؟ أي بعبارة أخرى بأيّ قوّة جديدة سوف تُستبدل قوّة المال التي ستكون عندئذ في النزع الأخير لها.

---

[11] أي التساؤل عمن سيسيطر الكتلة الشرقيّة أم الغربيّة. وبالفعل فقد سلبت الحركات الإصلاحية الأخيرة روسيا، وما تلاها من اضطرابات وتفتت في الجمهوريات السوفيتيّة وأزمات مالية وسياسية كانت كلها متوقعة - سلبت هذا التساؤل كلّ أهميته (المعرب)

إنّ آخر منحنى كبير من منحنيات الحضارة المسيحيّة الذي يمكن أن نشبّهه - مع حفظ النسب بالطبع - (بمنحنى) ارتقائنا الحالي (هو منحنى) انتقال العصر الوسيط إلى الأزمنة الحديثة. فإنّ هذا الانتقال الذي تمّ بين القرن الرابع عشر والقرن السابع عشر قد استهل مع بداية القرن الثامن عشر صفحة التاريخ المعاصر. لا شك أننا بالنسبة لدراستنا هذه سنتعلم الكثير من إجراء فحص مقتضب لعمليّة استبدال الطليعة القديمة للعصر الوسيط بالطليعة الحديثة.

كان رجل طليعة العصر الوسيط هو الفارس. فلقد كوّنت الفروسيّة طبقة النبلاء التي كانت الطبقة القياديّة في هذه الحقبة (الزمانيّة) التي لم يكن المال فيها قد احتكم بعدُ على أعنّة الحياة العامّة والخاصّة: فالنبيل هو من ليس له أيّ مصلحة. كان النبيل حينئذ يتميّز بالقوّة الجسديّة والعضليّة. كان يجب أن يكون قادرا على لبس الدروع ألجانبيه واستخدام رماح وسيوف ثقيلة. فإذا استبعدنا بالنسبة للنبلاء حالات الانحراف واستغلال السلطة، يمكننا أن نقول أنّ الفارس الذي كانت قوّته الجسديّة ومدى فاعليّة[12] أسلحته تجعله سيّدا على محيطه، كان يطيع بدوره بأوامر الكنيسة. كان يجب عليه أن يكون المدافع عن الضعفاء والمضطهدين المظلومين، والمنظّم للحياة العامّة القائمة على عمل الفلاّحين والحرفيّين.

لم يكن النموذج المألوف لفارس بدايات العصر الوسيط يتميز بتاتاً من جهة العقليّة. فكثيرا ما كان كبار النبلاء لا يعرفون القراءة ولا الكتابة. ولم يكن مستواهم الذهني يفوق كثيرا المستوى الذهني لأبطال الملاكمة في أيّامنا هذه. كانت مباريات هذه الأزمنة التي تشبه كثيرا "مباريات" اليوم تعمل بمثابة امتحانات كفاءة لأهل الطليعة. فكانت تقام تلك المباريات في بلاط الملوك وتحت أعين السيّدات. ولم يكن الشعب يهتم بها كثيرا.

أخذ المثل الأعلى للعصر الوسيط وهو الفارس يتضاءل بمجيء النهضة التي أشاعت علمانيّة الأذهان إلى أن أصبح الفارس موضوع سخريةٍ للطليعة التي كانت في مرحلة التكوين حينذاك. وقد سدّد (الكاتب الأسباني) ميجل سرفانتيس بكتابه دون كيشوت الضربة القاضية للتصوّرات القديمة. وحلت قوّة العقل الآخذة في التضخم محلّ القوّة الجسديّة لإقامة نظام اجتماعيّ درجي فتح رجل الحقبة الحديثة الواثق من نفسه والواثق من تفوّقه بالنسبة للنموذج النفسي السابق (أي الفارس) - فتح قطاعات أخرى (وجديدة) للنشاطات البشريّة. فأصبح استكشاف الطبيعة وأصبحت الاحتسابات[13] بشتى أصنافها - وحب واحترام الاستنفاع والكسب المالي اللذين كانا محتقرين من ذي قبل وأصبح آخرا مفهوم استجد في هذه الحقبة، وهو مفهوم ترف المعيشة والبذخ الذي يتعدى بذخ الشرق نفسه، أصبح كل ذلك جزءاً (فعليّا) من القواعد والفئات الذهنية الفكريّة التي تأسس عليها منذ تلك الآونة تدرّج القيَم. فغدا المال، الذي كانت تعاليم القدّيس توماس أكويناس القائمة باسم المبادئ الدينيّة تُحَرِمُ على الفارس التعامل به، هو الهدف الرئيسيّ لنشاط الطليعة: وقد تمّ ذلك بطريقة لا تكاد تكون محسوسة. واجتهد الإنسان الجديد في الدفاع عن مصلحته هو قبل أن يدافع عن المصلحة العامّة وكان الأخير هو واجب الفروسيّة المقدّس.

انهار (بذلك) النظام الموجود حينذاك. فتركت قوّة الفارس الجسديّة الطبيعيّة وتركت سلطة الكنيسة التي كانت معترفا بها في شئون الدنيا المحلّ لتحتلّه القوّة العقليّة. فنشأ (ما يسمّى) بالمذهب العقليّ: وبما أنّ العقل هو بطبيعته لا-أدريّ فقد تخلّى الدين الذي كان فيما قبل القوّة العليا عن مكانه للعلم.

---

[12] كلمة force ترجمناها دائما بقوّة - أما كلمة puissance فلقد ترجمناها هنا بمدى فاعلية - وقد نستخدم لها أيضا طاقة ومقدرة الخ. بما يتناسب مع النص التي استخدمت فيه هذه الكلمة، مع تنبيه القارئ إذا كان ذلك لازما (المعرّب).

[13] ترجمنا كلمة Calculs التي تترجم عامة بحسابات بكلمة احتسابات لما تحمل في هذا الإطار من معاني التخطيط مسبقا، وفتح مجالات جديدة للأعمال والاستغلالات العلمية وغيرها ..الخ.

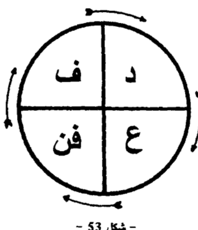
لم يكن نصر العلم نصرا هيّنا. فإنّ الدين على مدى نزاع دام قرونا وقرونا حاول أن يدافع عن أولويّة أوضاعه (ومواقفه). إلا أنّه - الأمر الذي أدّى إلى اندحاره نهائيًا - قد فعل ذلك (باستخدام) وسائل كانت قد تُعِدّيتْ: أي أنّه لجأ إلى القوّة الماديّة: فضمّ إلى سيف الفارس الذي تضاءلت فاعليّته من جرّاء ظهور الأسلحة الناريّة، نيران محاكم التفتيش. وبذلك قضى الدين على أسس سبب كيانه. استثار ذلك التناقض الداخليّ في الدين ثورة العقل اللا-أدريّ التي عبّرت عنها الحركة المعروفة في الكنيسة باسم الإصلاح. وساد مذهب العقل اللا-أدريّ في كلّ المجالات. فرُفع (الكاتب والفيلسوف) فولتير في المجتمع الجديد إلى قمّة الأمجاد بدلا من أن يحكم عليه بالحرق حيًا كما حكم على جيوردانو برونو بذلك في سنة ١٦٠٠ أي قبل ذلك بمائتي سنة. فأصبحت الجامعات والمدارس المتخصّصة التي كانت قد تأسست فيما مضى تحت حمى الكنيسة قلاعا للعلم العلمانيّ والفكر المتحرّر. أرست الطليعة الجديدة قواعد نصر مذهب سيادة وأولويّة العقل (اللا-أدريّ أيضا) على القوى القديمة بقدرتها قبل أيّ شيء آخر على حساب وتثمين القيم الماديّة. وكانت تصوّراتها التي دوّنتها في دائرة المعارف الفرنسيّة المشهورة تدفع العالم الحديث دفعا محتوما نحو الثورة التي حلّ بواسطتها محلّ النبلاء أفراد الطبقة البرجوازيّة الكبرى وأصحاب مذهب سيادة العقل. وكان ذلك التتويج الرسميّ لعمليّة تكوين طليعة جديدة طال مداها.

حتّى إذا ما وصل الإنسان المستكشف البارع في الحساب إلى السلطة، فقد أخذ يوّجه كلّ ما هو أساسيّ في أنشطة الغرب نحو الثورة الصناعيّة التي كتب لها مرّة أخرى أن تغيّر وجه العالم. إلا أنّ العلم الذي أنتج منذ تلك الفترة البعيدة من الزمان روائع في مجال الوسائل لم يعيّن حتّى الآن الطرق العمليّة التي قد تسمح بالتحكّم في هذه الوسائل. فهو يعد بتوفير كلّ الكماليّات بدون مقابل ولكنّه لم يشيّد بل لم يرسم مجرّد الخطوط العامّة للتنظيم الجديد للمجتمع الذي سوف يكون الناس فيه قد تحرّروا من عبوديّة كسب خبزهم بعرق جبينهم.

إنّ رجل العلم المؤمن بسيادة العقل قد خلق الآلة التي قد أصبحت اليوم قوّة لم يعد هو يقدر على التحكّم فيها. لذلك فإنّ طبقة قادة الأمس ترى أنّها متعدّاة وغير قادرة على الاضطلاع بمسؤولية السلطة في عالم الغد. وبهذا يفرض التاريخ تكوين طليعة قياديّة جديدة. بقيَ علينا أن نحدّد ما يجب أن تكون عليه المميّزات الأساسيّة للإنسان الجديد والكيفيّة التي يمكننا أن نتصوّر بها نظام الأمور الخاصّ بالعصر الجديد الذي أعلنت الصواعق قرب مجيئه، كما كانت قد أعلنت قديما هبوط الشريعة بجبل سيناء. إلا أنّ صواعق الحروب العالميّة ونار هيروشيما ونجازاكى وألهبتها هي في هذه المرّة بين أيدي البشر.

فلنستخدم المماثلة القياسية في تفكيرنا (المنطقيّ). لقد قلنا أنّ تحوّل الطبقة القياديّة منذ أعالي العصر الوسيط حتّى فترة دائرة المعارف الفرنسيّة قد اعتمد على ظهور إنسان من نمط جديد: الإنسان العقليّ، رجل العلم. وبنفس الطريقة التي تخلت الفلسفة بها في العصر القديم عن مكانها السياديّ في صالح الدين، تلاشى الأخير بعد العصر الوسيط (ليتّخذ مكانته) العلم.

بيد أنّه لا يوجد سوى أربع كيفيّات فقط لا غير لإدراك ودراسة عالم الإنسان الخارجيّ وعالمه الداخليّ: الفلسفة والدين والعلم والفنّ. كما يمكننا أن نرى أنّ الحضارات تتوالى بموجب تحرك مركز ثقل نشاط الطليعة من مجال من هذه الأربعة إلى الآخر. بذلك تنشأ وتستقرّ الدوريّة في تاريخ الحضارات.



- شكل 53 -

يمكننا أن نلاحظ - عبر تتالي الحضارات - تبادلا في سيادة كلّ من النماذج ٢ و ٣ للإنسان. فنرى بذلك مثلا كيف أنّ الفترة الأفلاطونيّة تحمل بكلّ وضوح السمة العقليّة، وهو ما يمكن أن يشاهد (موضوعيّا) في أعمال كمحاورة المائدة لأفلاطون التي كان يمكن أن ننتظر أن نجد فيها سمة الانفعاليّة على أنقى حالاتها. ثمّ تجئ الفترة التي يتأجّج فيها الشعور المسيحيّ الذي قد وصل إلى ذروته في العصر الوسيط وعبّر عن نفسه أساسا بواسطة رجال النموذج ٢، ما إذا كان الأمر يتعلّق بالفارس أو بشاعر الملاحم والحبّ المتجوّل أو ببنّاء الكاتدرائيّات. لقد كانت هذه الحدّة الانفعاليّة واضحة تماما منذ تأسيس المسيحيّة وتبدّت جليّة في شخصيّة الرسل. ثمّ نعود لنجد النموذج ٣ (يسيطر) في (عصر) النهضة؛ ويترعرع في مذهب الاعتماد على الفكر المنطقيّ (اللا-أدرىّ) ومذهب سيادة وأولويّة العقل في القرن التاسع عشر على أيدي الفيلسوف الفرنسيّ أوجست كونت مثلا وهو بلا أدنى شكّ واحد من أبرز ممثّلي هذين المذهبين. ليرجعنا اقتراب دورة الروح القدس أخيرا إلى الإنسان ٢، أي إلى السمة الانفعاليّة المسيطرة. وإن كان الفرض الأخير صحيح جزئيّا: فإنّ العصر الجديد في الواقع له طابع التجميع: فهو يجنح إلى التحرّر من التبادل الخاصّ بالفترات السابقة كما يسعى إلى وضع النماذج ٤ من الإنسانية في المقدّمة، تلك النماذج التي قد تحقق فيها التوازن بين الميول الحركيّة والاحساسيّة والعقليّة: ولا شكّ أنّ الإشارة الأخيرة هذه تلقى الضوء على بعض زوايا سفر الرؤيا، وخاصّة تلك التي تتعلّق بالألف سنة بلا حروب التي يكون فيها الشيطان مغلولا بالسلاسل[١٤].

يجب علينا أيضا أن نلاحظ أنّ كلاّ من هذه الفترات تعبّر عن سمة مسيطرة ولا تعبّر عن (أمر) مطلق: هكذا (يمكننا مثلا أن نرى) العالِم يعبّر إذا خرج من معمله عن ميول فلسفيّة وفنّيّة أو حتّى دينيّة. ومن الصعب أن نحسب القدر الذي تنعكس به تلك الميول في أعماله العلميّة مهما تكن رغبتة في جعل تلك الأعمال موضوعيّة. إنّنا إذا أخذنا في الاعتبار بمجموع التحقيقات العلميّة التي تمّت في فترة زمنيّة معيّنة فإنّه ليستحيل في نهاية الأمر أن نحدّد قوّة تأثير التصوّرات الفلسفيّة السائدة حينئذ أو قوّة تأثير ردود الفعل الفرديّة فيما يختصّ بهذه التصوّرات على النظريّات العلميّة. يمكننا أن نطبّق نفس هذا الفكر المنطقيّ على الفترات التي كانت السمة المسيطرة فيها دينيّة أو فلسفيّة لنبيّن أنّه لا يمكن اعتبار أيّ فترة من هذه الفترات بمثابة فترة تجلّ مطلق النقاوة لإحدى الميول البشريّة بل كفترة خليط لعدّة ميول تختلف نسبة كلّ منها عن الأخرى - الأمر الذي يتمشّى تماما مع طابع الفلك المختلط الذي هو فلكنا.

---

[١٤] سفر الرؤيا، ٢٠: ٢.

وُضع العالم القديم تحت العلامة العامّة للفلسفة فأصبح الدين والعلم فيه - إذا جاز القول - "مُفلسَفين" حيث أن رجل هذا العصر يتميّز بصفة خاصّة بكونه تأمليًا لا يعتبر "كسب الوقت" والمال واجبا إلزاميًا عليه. أمّا العصر الوسيط وقد وضع تحت علامة الدين فانّ الفلسفة والعلم فيه قد أصبحا "مُديّنَين". وقد حلّ أخيرا على الفلسفة والدين أن يصبحا "مطبوعين بالعلم". يتميّز الفنّ عن الثلاثة مجالات السابقة بكونه يتضمّنها كلها بدون أن يشوّهها. إنّ الأنشطة البشريّة الثلاثة السابقة سوف تسير - عندما تحلّ الفترة الموضوعة تحت حمى الفنّ - (في طريق) انطلاقها فتتخذ أشكالها الطبيعيّة بلا انكماش ولا تضخّم مكمّلة كلّ منها الأخرى في مجموع متناسق. سوف يلعب الفنّ الذي هو حاليًا متحلل ومطبوع بطابع العقل اللا-أدريّ في العصر الذي سيحلُ الدور الأولّي المتميّز الذي يلعبه العلم الآن. كما أنّه سوف يتخلل كلّ أنواع الوعي البشريّ؛ فتستوعب الاستيتيكا (دراسة الجماليّات) حتّى الأخلاقيّات نفسها. فيكون دور المرأة دورا أساسيًا عند مجئ العصر الجديد نهائيًا. إلا أنّ هذا التتميم يستلزم طليعة الغد مكوّنة من رجال - فوق - مستوى - البشريّة العاديّة: الأمر الذي لا يجب أن يلقى الخوف فينا. إنّ علماء وفنّيي اليوم هم في نظر فارس من عصر بطرس داميان بما لديهم من وسائل للبناء والهدم والنقل وتوصيل الفكر خلقوها بأنفسهم وأصبحت في خدمتهم - رجال فوق مستوى البشريّة العاديّة بلا شكّ. هذا أنّ (هؤلاء العمال والفنيّون) قد تطوّرت فيهم ملكات جديدة وهى الملكات العقليّة التي كانت توجد في حالة كامنة لدى الفارس. تكمن بنفس الشكل لدى العناصر القياديّة في الفترة الحاليّة، والتي لا زالت تكوّن كوادر مصيرها إلى التلاشي ملكات جديدة ترقد في حالة جنينيّة سوف تُظهر عند ترعرعها (وانطلاقها) الإنسان الجديد الذي سوف يتميّز عن رجل الدولة الفنّي أو رجل المال أو الدبلوماسيّ أو عمداء الجيش أو الأستاذ الجامعيّ في زماننا هذا بنفس القدر الذي تميّز به الإنسان العقليّ المعاصر عن فارس العصر الوسيط.

كانت الملكة الرئيسيّة - إلى جانب حبّ الاستطلاع - التي خلق تطوّرها الإنسان العقليّ هي القدرة على الحساب والمؤالفة بالمزج. أمّا السمة المميّزة الجديدة لدى رجل الطليعة في الدورة الآتية فسوف تكون استعداده للتمييز بين الصحّ والخطأ تلقائيًا بلا (حاجة) لشهادة أو لسند دليل. كذلك يمكن لهذا الرجل أن يكون مزوّدا بالهبات الروحيّة التي يتكلم القدّيس عنها[١٥]. ومن الواضح (البيّن) أنّ الذين سوف يضيفون إلى الثقافة الموجودة ملَكات بتلك الطبيعة سيصلون بصيغة آليّة إلى قمّة المجتمع البشريّ. كما أنّ قدرتهم سوف تقبل كما قبلت سلطة الإنسان العقليّ عندما حلّ الفارس ولنفس السبب: تفوّق بيّن.

-٧-

إنّ تقدّم التطبيقات الفنيّة يضع العالم بصيغة تزداد وضوحا يوما بعد يوم أمام الاختيار ما بين أمرين اثنين: إذا كان التوازن المهدّد منذ الآن بين مختلف نوازع القرن الماضي سوف يزداد (خللا أو ثباتا) فإنّ حياة الغد إمّا أن توضع بأكملها تحت تأثير إبليس وتمّحى في الكارثة التي تنبأ بها القدّيس بطرس الرسول من ذي قبل[١٦]، أو تصبح حياة قدسيّة لكي تقام كما قال بطرس أيضا سماوات جديدة وأرض جديدة تسكن فيها الحقيقة[١٧]. لقد تجمّعت لدينا الآن مسبّقا الظروف اللازمة لكي يتحقق الفرع الأول من الازدواج (الموجود أمامنا) ولكي ينزلق العالم نحو نكبة عامّة. وما أبعد ما نحن فيه الآن عن مجئ القدسيّة. يجب - لكي تقام أرض جديدة - أن يُسَيْطَرَ على غرائز الإنسان الوحشيّة في نفس

---

[١٥] ١ إلى أهل كورنثوس، ١٤: ١.

[١٦] ٢ بطرس، ٣: ١٣.

[١٧] نفس المرجع.

الآونة التي سوف يتوفر فيها لدى الحشود (الكثيفة) من جرّاء تحرّرها من (عبوديّة) العمل - قدر ضخم من أوقات الفراغ. إنّ الظروف الجديدة التي يمكن أن يتنبأ بها منذ الآن فيما يتعلق بالاقتصاد يجب منطقيًا أن ينجم عنها فترة فوضى عميقة، عندما تنهار معا سلطة المال وبنفس المناسبة سلطة الطبقة القياديّة. ستكون عندئذ حالة زوال السلطة (والهرج والمرج) فاتحة (حلول) النكبة.

سوف يؤول عندئذ على الطليعة الجديدة أن تبعد الخطر القاتل الذي سوف يتهدّد البشريّة، وإن كانت تلك الطليعة لن تتكوّن إلا بفضل مجهودات واعية لا غنى عنها في اكتساب الصفات الجديدة التي تكلمنا عنها أعلاه. كما سوف يجب أن تكون تلك المجهودات كافية القدر من أجل إشباع مبدأ التوازن الذي يقضي بأن يدفع الثمن الصحيح عن كل شيء. أمّا عن رجل الشارع في العصر الجديد فإنّه سوف يواصل حياته خارج الحقيقة كما يفعل اليوم، على القدر الذي سوف يمكنه به أن يواري أفكاره التي سوف يسهل مع ذلك قراءتها، على كلّ شخص يكون قد بلغ درجة من الثقافة يمكن مقارنتها - مع حفظ النسب - بالدرجة التي يمنحها اليوم التعليم الجامعيّ.

إنّ الثقافة الجديدة سوف تفترض بالفعل، استيعاب تجربة البشريّة التي تمتدّ عبر الآلاف من السنين كما سوف تفترض أيضا تطويرا منظما لملكات جديدة - لم تراع تنميتها بعناية لليوم ممّا جعلها لم تظهر حتّى الآن ظهورا متفرّقا وجزئيًا ولم تجد للآن تطبيقا عمليًا في تنظيم المجتمع البشريّ، في حين أنّ رجل طليعة الغد سوف يكون مولودا مرّتين حسب كلمة يسوع المشهورة لنيقوديموس[١٨].

-٨-

يعلّمنا التقليد الباطنيّ أنّ أيّة حضارة ليست سوى إسقاطا للوعي بالإنيّة لدى رجل الطليعة فوق العالم الخارجيّ. تختلف إنيّة الإنسان العقليّ بالطبع عن إنيّة الفارس. لذلك فإنّ رجل الطليعة في العصر الآتي الموضوع تحت علامة فنّ يستلهم من المقدّسات سوف يحمل وعيا بالإنيّة يختلف تماما عن وعى الفترات الثلاث السابقة. سوف يكون له كما سبق أن قلنا ذلك، وعى بالإنيّة الحقيقيّة أي بإنيّة دائمة لا تتزحزح بدلا من الوعي بالإنيّة الشخصيّة الغير ثابتة ذات التراكيب (الغير متجانسة) التي يتقبّلها ويمجّدها زماننا. بذلك سوف يشاد مبنى الحضارة المستقبلة بمعرفة تلك الطليعة الجديدة ليس فوق الرمل كما هو حاصل الآن، ولكن فوق صخرة[١٩] الوعي بالإنيّة الحقيقيّة التي هي شرارة إلهية.

-٩-

يسهل علينا (بلا شكّ) رؤية الميزة التي تتوفر لدى الإنسان ٢ في الفترة الزمنيّة الانتقاليّة التي نعيش الآن فيها. إنّ التكوين وظروف الوسط (البيئة والعشرة) اللذين يؤكدان أهميّة المجهود العقلي - على الأقلّ في العالم الغربيّ كلّه - أوّلا والتربيّة البدنيّة ثانيا يسمحان له أن يوازن بسهولة أكثر كيانه النفسيّ الحيّ. حقا أنّ الإنسان ٢ في العالم الحاليّ الذي (يدمغ) بسمة عقليّة متطرّفة، يُجْرَحُ باستمرار ونادرا ما يكون بين الذين يصلون إلى القمم. إلا أنّه إذا علم - عوضا عن ذلك - كيف يضعف في نفسه فعل المؤثرات "ا" بالتشبّث تشبّثا متزايدا بالمؤثرات "ب"، فسوف تسمح له طبيعته الانفعاليّة بالوصول بطريقة أسهل وأسرع إلى موازنة مراكزه السفليّة: وما أصعب ذلك على الإنسان ٣ الموجود في "عالم ٣"، حيث أنّ بنيانه النفسيّ الذي يزداد قوّة من جرّاء التربية والتعليم والبيئة العقليّين تؤدّى في نهاية الأمر إلى جعله كائنا ذا وجهة واحدة فقط. هذا هو السبب العميق في وهن

---

[١٨] يوحنا، ٣ : ٣.

[١٩] متى، ٧: ٢٤ إلى ٢٩ - لوقا، ٦: ٤٨.

الطبقة القياديّة الحاليّة التي لا تستطيع أن تثبّت وتوازن حياة المجتمع البشريّ وان كان تقدّم التطبيقات الفنيّة يوفر كلّ الوسائل الماديّة اللازمة لبلوغ (تلك الغاية).

كذلك فإنّ المرأة وهي مزوّدة بانفعاليّة مرهفة توجد في ظروف تسمح لها بتحقيق تقدّم سريع على المستوى الباطنيّ في العالم الحديث. فإنّ النزعة إلى تطوير الصفات العقليّة في حضارتنا هذه بالفعل تساعد على موازنة المراكز فيها، ولكن على شرط ألا تنبهر ببريق العلم (الخلاب) فتفقد انفعاليّتها الأنثويّة وتنساق أكثر من اللازم في حساباتها. إنّ المحافظة على أنوثتها عثرة (تتهدّدها) واختبار في مسابقة يتمّ الاختيار تبعا (لنتائجه) بصفة آليّة. كما أنّها يجب عليها أن تحرص لكي لا تكتسب (القالب) الذهنيّ للرجل وأن تنطبق عليه، فإنّ روح الذكر التي توجد في جسد أنثويّ يمنع تماما التطوّر الباطنيّ. إنّ هذا النوع (المثال) type من النساء الذي أصبح مع الأسف شائعا إلى حدّ لم يكن يُتَّصَوَر من قبل يمثّل مع الصنف المتأنث من الرجال ما يطلق التقليد عليه اسم الجنس المحايد الخامل. إنّ الاتحاد الذي يتمّ بين أشخاص قد انحرفوا بهذه الكيفيّة عن (الوضع)القياسيّ يمثّل عكس حالة الأندروجين الذي هو قمّة القوّة (والعزّة) البشريّة المؤلّهة. لذلك فإنّ ملكوت الله مغلق أمام وجههم[٢٠].

-١٠-

إنّ ارتقاء الفلك الثالث أي ارتقاء الحياة العضويّة مواز من وجهة المبدأ لارتقاء الفلك الصغير أي بعبارة أخرى لارتقاء الإنسان الأرضيّ. لقد حللنا فيما قبل مراحل الارتقاء الممكن بالنسبة للإنسان. يجدر بنا الآن أن نفحص الكيفيّة التي ترتقي بها البشريّة في مجموعها، بما أنّها تكوّن العنصر الأساسيّ للحياة العضويّة وأنّ نفس مصير الكوكب يتوقف اليوم على موقف البشريّة من المشاكل التي تواجهها. لقد سبق أن رأينا أنّ مصير البشريّة يتوقف هو الآخر على تكوين طليعة جديدة قادرة على حلّ مشاكل هذه الفترة من الزمن. إننا لنجد أنفسنا دائما - مهما كانت الكيفيّة التي ننظر بها للأمور - ملزمين بمواجهة مشكلة الإنسان الجديد.

لقد رأينا سابقا أنّ ارتقاء الإنسان باطنيّا يبدأ بتكوين المركز المغناطيسيّ فيه، وهو مركز جديد للوعي يدعى أحيانا أيضا بالمركز الرابع. ينبع رجوع التسمية الرمزيّ للمغناطيسيّة من أنّ هذا المركز عندما يبلغ درجة معيّنة من التطوّر، "يمغنط" الـ ٩٨٧ إنيّة الصغيرة التي تكون عامّة في حالة تشتّت ويسوقها بذلك إلى الدوران في فلكه والى اتباع الاتجاه الذي قد حاز هو عليه من جرّاء تجاوبه مع المؤثرات "ب". يمكن للمركز المغناطيسيّ أن يتطوّر تطوّرا قياسيّا: ولقد سبق أن وصفنا مراحل هذا التطوّر في الفصل السادس. وقد يحدث أيضا في بعض الحالات الاستثنائيّة أن يمتصّ ويتلاشى؛ ولكنه في مثل هذه الحالات ينزع عامّة إلى التكون من جديد كما سنرى ذلك حالا. للامتصاص والتلاشي نفس السبب دائما. فهو ينبع من ازدواج في نوازع الفرد عندما كان ذلك المركز في تكوّن. إذ أنّ بعض المؤثرات "ا" الأنانيّة كانت قد جاءت حينئذ فدنّست طهارة المركز المغناطيسيّ وهو في بدء تكوّنه. ينجم من ذلك بالنسبة للإنسان منازعات داخليّة وضروب من العذاب لا يمكن أن تهدأ إلا إذا امتصّ هذا المركز وتلاشى: لذلك فهو عند إعادة تكوّنه يعمل حساب التجربة المكتسبة. إلا أنّ ولادة هذا المركز من جديد تسبقها دائما في مثل هذه الحالات إفلاس أخلاقيّ يتكرّر عدّة مرّات إذا لزم الأمر، إلى حين تبدو المؤثرات "ب" بمثابة الملجأ الوحيد الممكن فتتبنّى تماما (إعادة تكوين) ذلك المركز: ليغترف الإنسان - بعد أن يكون قد أشرف على حافة الهاوية - من نبع الخلاص الأوحد.

---

[٢٠] ١ إلى أهل كورنثوس، ٦: ٩.

إنّ هناك عمليّة تماثل بالقياس (عمليّة) تكوين المركز المغناطيسيّ قد بدأت تتجلى حاليّا في البشريّة إذا اعتبرناها في مجموعها كيانا موّحدا (أو كنها موحّدا). يصاحب ذلك التكوين ضروب من النضال والعذاب والقلق، أي كلّ عوارض الإفلاس العامّ. لقد نشأت فكرة منظّمة دوليّة تحكم البشريّة تبعا لأسمى المبادئ منذ أمد بعيد. إلا أنّ أوّل محاولة عمليّة في هذا الاتجاه كانت المحالفة-المقدّسة التي كانت نوازعها أبعد ما تكون عن المثاليّة الخالصة وسرعان ما انفضّت. ثمّ وجّهت روسيا الدعوة للقوى الكبرى الرئيسيّة (بأوربّا) في سنة ١٨٩٨ أي بعد حوالي مائة سنة للاشتراك في مؤتمر لاهاي الذي عرضت فيه للمرّة الأولى على الصعيد الدوليّ مشكلة الحد من التسلح: فبدت تلك الفكرة المجرّدة حينئذ من الثوريّة بحيث أن استبعدتها القوى الكبرى المدعوّة في نهاية الأمر. فاقتصرت نتائج هذا المؤتمر الأوّل بلاهاي على اتّفاقيّة تخص تشغيل المرأة. إلا أنّه حدّد أيضا موعد المؤتمر الثاني الذي انعقد بالفعل في سنة ١٩٠٨ بدون أن يتوصّل إلى نتائج عمليّة تذكر. واتخذت التدابير لعقد المؤتمر الثالث الذي لم يتمّ بسبب قيام الحرب العالميّة الأولى. فرضت الفظائع التي حدثت في تلك الحرب على رجال الدولة المسئولين فكرة حتميّة قيام هيئة دوليّة دائمة تزوّد ببعض السلطات (المدعّمة بالقوّة). فكانت هيئة الأمم. ولقد امتصّ وتلاشى ذلك الجنين للمركز المغناطيسيّ الدوليّ على أثر عدّة أزمات اقتلعت سلطتها التي كانت وهينة منذ ولادتها. فتحطّمت في سنة ١٩٣٩. وكان أن اجتمع في سنة ١٩٤٥ بمدينة سان فرانسيسكو مؤتمر جديد وافق على ميثاق الأمم المتّحدة، على أثر تلك الحرب العالميّة الثانية التي كلفت البشريّة حوالي ٥٠ مليونا من القتلى. إنّ الأمم المتحدة لا تشكل حتّى الآن ما يمكن أن نسمّيه بالفعل بمنظّمة عالميّة. كذلك أيضا لا يتملك المركز المغناطيسيّ في الإنسان من سلطته على المراكز السفليّة الثلاثة بمختلف أقسامها في الحال والتوّ. فإنّ النموّ أيّا كان نوعه يستلزم وقتا. إلا أنّ الأمر المحقق هو أنّه لا يوجد أحد بالرغم من النقد المرير الذي تتعرّض له الأمم المتّحدة يودّ اليوم تصفيتها. لا يعنى ذلك أنّ أحدا راض عن النتائج المكتسبة، أو أنّ أحدا يعتقد - باستثناء بعض المتحمّسين - أنّ هناك مستقبلا باهرا ينتظر المنظّمة السياسيّة الدوليّة، ولكن الجميع يدركون بكلّ وضوح أنه إذا اختفت الأمم المتّحدة فإنّ الموقف الدوليّ سوف يزداد سوءا كما أنّ فرص قيام حرب عالميّة ثالثة سوف تتضاعف. بيد أنّ قيام حرب عالميّة جديدة سوف يؤدّى كما هو بيّن منذ الآن إلى حريق عامّ لكوكبنا المتأجّج بنار ولهيب الانفجارات الذرّيّة.

إنّ الأمم المتّحدة تمثّل حاليّا مركزا يماثل بالقياس جنين المركز المغناطيسيّ في إنسان يواصل العمل الباطنيّ. وهو مركز لن يمكن من الآن فصاعدا أن يهمل أو أن يصفي إلا إذا أصيب قادة أحد المعسكرين الكبيرين بالجنون. إنّ هذه المنظّمة الدوليّة يجب في الحالات القياسيّة أن تخرج مضاعفة القوى من الأزمات والمخاطر التي يتحتّم عليها أن تمرّ من خلالها. بل إنّه يمكن أن نرى بعض العلامات التي تجعلنا نتحسّس مقدّما أنّ تلك المنظّمة تستطيع أن تصبح مع الزمن منظّمة عالميّة حقيقيّة قادرة على التحول بعد ذلك إلى سلطة فوق دوليّة تضمن (وتدعّم) نظاما عادلا ومستمرّا فوق كوكبنا هذا.

إنّ هذه المهمّة لن تستطيع المنظّمة الدوليّة أن تضطلع بها وتحققها تماما إلا بواسطة الأجيال التالية، عندما يكون الإنسان الجديد قد أمسك بأعنّة السلطة (بين يديه).

لن يفيدنا في شيء داخل إطار دراستنا هذه أن نتابع فحصنا الحاليّ أكثر من ذلك يكفينا أن نجلب انتباه القارئ على المماثلة القياسيّة الواضحة ما بين تكوين مركز مغناطيسيّ في الإنسان وبين تكوين نفس هذا المركز على شكل منظّمة دوليّة داخل جسد البشريّة بأكملها.

-١١-

إنّ هذه الاعتبارات تبيّن لنا المكان الذي يقع فيه اليوم مركز ثقل العمل الباطنيّ: إنّه يقع في تكديس المجهودات التي تسعى إلى تكوين إنسان من نوع جديد. بيد أنّ تكوينا كهذا الذي نتكلّم عنه لا يمكن أن ينفصل عن عمل كلّ منّا على ذاته: فهو مشروط به ويبدأ به: بل هو خيط آريان بالنسبة له[٢١].

إنّ المجهودات الشخصيّة الواعية، وخاصّة مجهودات اثنين معا فيما بين كائنين مستقطبين، كما أنّ المجهودات المشتركة للأشخاص الذين قد تقدّموا مسبّقا في البحث عن الطريق، لهى لافتات إرشاد على مسار الذين يريدون أن يقدّموا خدماتهم، وأن يشاركوا مشاركة مثمرة في العمل الفدائيّ الذي يريد العمل الباطنيّ أن يتمّمه اليوم في العالم بأكمله.

[٢١] آريان فتاة من شخصيّات الأساطير الإغريقية. حُكِمَ على حبيبها أن يقتل ثورا بشريّا يعيش داخل تيه في جزيرة كريت، وتقدّم له القرابين البشريّة بصفة دوريّة، كما يشيع الرعب في قلوب الأهالي بشراسته، الخ...فأعطت آريان لحبيبها طرف خيط طويل تمسك هي بالطرف الآخر منه لكي يستطيع بعد أن يقتل هذا الثور - المينوتور - أن يخرج من التيه مسترشدا بخيط آريان.

الفصل التاسع عشر

الكينونة والتظاهر بالكينونة - اختلاط هذين المفهومين لدى الإنسان الخارجيّ - مبدأ عدم الكمال كشرط أوّل للخليقة - يكمن معنى الخليقة وهي تُبدأ بالصفر - في أن تحقيق وحدة شبيهة باللامتناهي تتركب من عدد لا يتناهى من الوحدات النابعة عن أصفار غير كاملة تمثل النفوس بعد السقوط - الإتمام - القيامة العامة والارتقاء الباطنيّ - مذهب الحاضر - يقع الحاضر خارج الزمان - حاضر الإنسان الخارجيّ - الشق - أبعاد الحاضر الثلاثة - .

-١-

يوجد فارق أساسيّ بين المعرفة الباطنيّة وبين المعرفة العقليّة المحضة. فالأخيرة تكون مستقلة عن خصال الطالب أو العالِم الأخلاقيّة. فإنّ كون (الطالب أو العالم) شرسا أو منافقا لا يمنعه بتاتا من تحقيق أيّ اكتشاف علمي؛ لذلك لا تتعدّى المعرفة العقليّة مستوى الاستعلام كما أنّها من جهة أخرى لا تدعى أنها تريد أكثر من ذلك. فهي تتطلب لكي تُستوعب مجهودات عقليّة فقط لا غير. أمّا المعرفة الباطنيّة تختلف في طبيعتها. فإنّ فهم النظرية وحسن استيعابها يستلزم لا المجهود العقليّ بمفرده بل أيضا مشاركة الكينونة. أمّا بالنسبة للممارسة العمليّة التي تكوّن الجزء الأساسيّ من العمل، فالقاعدة السابقة أكثر انطباقاً. لن ننسى أيضا أن المعرفة الباطنيّة التقليديّة ثمرةُ للمكاشفة وكلمة حيّة إذا تقبلها الإنسان تظلّ تعمل في داخله حتّى إن كان لا يُفكر فيها، إن نام أو استيقظ إلى أن يتشبع بها.

إنّ المعرفة العقليّة طبيعتها موضوعيّة بمعنى أنّها لا تعتمد على شخصيّة الطالب أو العالِم: فهي تقع خارج هذه الشخصيّة. أمّا المعرفة الباطنيّة التي تتخذ الطالب نفسه موضوعا لدراستها فهي بالطبع ذاتيّة. لن تصبح موضوعيّة إلا عندما تبلغ شخصيّة الطالب نفسها المستوى الموضوعي للكينونة بتلاحمها مع الإنيّة الحقيقيّة. يسمّى التقليد هذا النوع من المعرفة ماء حيّا[1] على عكس المعرفة العقليّة المحضة، الماء الميّت. إلا أن هاتين الدرجتين من المعرفة لا يمكن الاستغناء عنهما في العمل الباطنيّ. لذلك فإنّ التكوين الأكاديميّ يمّهل كثيرا هذا العمل بما يفرضه من ضبط للفكر وبالمنهج الذي يلقنه. الأمر الذي تثبت صحته بصفة خاصّة إذا كان التعليم الباطنيّ يكثر من استخدام المنهج السيكولوجيّ كما هو الحال في هذا المؤلف. لا يجب أن نستنتج ممّا سبق أن دراسة المذهب الباطنيّ إذا ظلت دراسة استنباطية ونظرية محضة أي بالتالي دراسة عقلية محضة تستطيع بمفردها أن تقود (الطالب) فوق طريق الارتقاء. فانّ العلم الباطنيّ يصل إلى ما وراء (مرحلتي) علم وفهم اللتين هما المقصدان المشتركان في العلوم كلها؛ فإنّ بلوغ هذيّن المقصدين من وجهة نظره لا قيمة له إلا على قدر يسمح بالقدرة على فن أو مهارة-الإنجاز. إذا نظرنا إليه من تلك الزاوية يكون العلم الباطنيّ في طبيعته مشابهاً لطبيعة العلم التطبيقيّ ولكن مع هذا الفارق أنّ العالم ورجل التطبيق الفنّي للعلوم بصفة عامّة يسعيان إلى التحكّم في عناصر العالم الخارجيّ بوسائل خارجيّة في حين أنّ الرجل الداخليّ يتوصّل إلى نتائج مماثلة بالقياس لها بل ربمّا إلى نتائج أكبر أيضا باعتماده على التحكّم في عناصر عالمه الداخليّ. والمبدأ الموضوع تحت التطبيق في كلتا الحالتين مبدأ واحد: يجب على النظريّة المحضة أن تترك مكانها (للتطبيق) العمليّ؛ ولا يعتد في الحالتين إلا بالنتيجة.

---

[1] يوحنا، ٤: ١٠.

-٢-

عندما يراقب الإنسان الخارجيّ نفسه ويراقب غيره بواسطة الوسائل التي يوفرها له وعى الاستيقاظ، فكثيرا ما يخلط بين مفهومي الكينونة والتظاهر بالكينونة. فإنّ الواقع الحقيقيّ يبدو وكأنه نسبيّ إذا نظرنا إليه من خلال منشور الشخصيّة، وهى كيان حيّ لم يتطوّر تماما بعد، وبالتالي غير كامل. إنّ التمييز بين الأوّل والثاني يستعصى بصفة خاصّة على الإنسان ١، ٢ أو ٣ الذي لم يعثر على محكّ يسمح له بالتمييز المطلوب فقال كل شيء نسبيّ وهو تأكيد ليس له إلا قيمة نسبيّة.

يجب علينا لكي نستطيع أن ننفذ إلى المعنى العميق للفارق بين مفهومي الكينونة والتظاهر بالكينونة (أي مجرد مظهر الكينونة) أن نعود لمنابع ولنفس أصل الخليقة. عندما يبدو التجلي على شكل الكون المخلوق، تستبدل النسبة (الموجودة قبل الخليقة) بين اللامتناهي إلى الصفر بنسبة كمّيّة لا-متناهية في الكبر إلى كمّيّة لا-متناهية في الصغر: إن هذا التقريب يمثّل كمّا تغيُرا في منتهى الصغر وكيفاً تغيّرا يعتد به. عندما نخلط بين هاتين النسبتين بدلاً من أن نجعلهما متميزتين عن بعضيهما، ينتقل ذلك الخلط من درجة إلى أخرى حتّى يصل إلى نقطة يتسبب عندها عدم التمييز بين الكينونة ومجرد مظهر الكينونة اللذين يمثّلان انعكاسا باهتاً متباعداً للصيغتين الأوليين. إنّ النسب بين الأفلاك المتجاورة ليست نسب الصفر إلى اللامتناهي الكبر كما قيل ذلك أحيانا، بل هي نسب لا-متناه في الصغر إلى لا-متناه في الكبر. ولكن لا يعتبرُ اللامتناهي في الصغر الموجود في هذه النسب كمّيّة يمكن التغاضي عنها (أو إهمالها أو تجاهلها). فإنّ الحيوان المنويّ (الواحد) أي الفلك الأصغر ليس بصفر بالنسبة للفلك الصغير الذي هو الإنسان. فإنّ الإنسان من نتاج حيوان منويّ واحد. كذلك لا يمكن أن يعتبر الإنسان أيضا بدوره صفرا إذا قوبل مع الفلك الثالث الذي هو الحياة العضويّة فوق الأرض. فإنّ الإنسان يحوّلها تحويلا عميقا بل يأمل جدّيّا في أن يتحكّم فيها تحكّما كاملا. ذلك أنّ الأفلاك الثلاثة المتتالية تكوّن مجموعا بل تكوّن دورة مغلقة في بعض الأحوال. بنفس الكيفيّة أيضا فإنّ أيّة مجرّة كمجرّتنا اللبنيّة مثلا التي هي فلك كبير تكوّن مع مجموع الشموس أي مجموع الأفلاك الثواني التي يتركّب منها (كلّ فلك كبير) ومع النظم الكوكبيّة التي تَتْبَعُ كلاً من هذه الأفلاك الثواني وقد سمّيت بالأفلاك الوسطي تكونّ دورة مغلقة. وبعبارة أخرى فإنّ المجرّة هي عضو من أعضاء الفلك الأكبر، وهو الكون الكبير. أمّا القوانين التي تتحكّم في هذا النظام المكوّن من ثلاثة أفلاك متتالية تحيط بها المجرّة - الفلك الكبير - فهي كما سبق أن رأينا ذلك (الفصل التاسع، القسم الخامس) أكثر مرّتين عددا من القوانين التي تحكم العلاقات بين المجرّات في مجموع الفلك المقدّس الذي يحيط به الفلك الأوّل. فإنّه في حين تكون كلّ مجرّة محكومة بواسطة ستّ مجموعات من القوانين، يكون الفلك العلويّ وهو الفلك المقدّس محكوما بثلاث مجموعات فقط من القوانين. إنّ بعض قوانين الطبيعة التي تخضع الأفلاك السفليّة لها ليس لها أيّ مفعول على الأفلاك العلويّة[٢]. يجب أن نلاحظ أنّه داخل المجموعات المكوّنة من ثلاثة أفلاك لا يحدث تأثير من الواحد على الآخر إلا من درجة إلى الدرجة المجاورة. لذلك لا يكون للفلك الأصغر أيّ تأثير (أو مفعول) على الفلك الثالث.

-٣-

إذا نظرنا للعلاقة بين اللامتناهي في الصغر واللامتناهي في الكبر ديناميكيّا أي على شكل حركة دوريّة مستديمة، فإن ذلك سيوصّلنا في أقصى درجات التجرّد إلى الشكل التخطيطيّ التأسيسيّ للخليقة كما انه سيضع سبب وجودها في متناول العقل. إنّ الشرط الأوّل للخليقة هو التطبيق الفعليّ

[٢] قد تفسّر تلك الواقعة النظريّة الحديثة التي تقول إنّ قانون نيوتن ليس بقانون يسرى على الكون كله، بل ينطبق داخل قطاعات محدودة من الكون.

لمبدأ عدم الكمال[٣] ولمبدأ عدم التناظر الذي يشتقّ منه. (يشكّل) هذان المبدآن بدوريهما شرط بزوغ ودوام الوجود في المكان وفي الزمان.

أن النسبة بين اللا-متناهي وبين الصفر الكامل هي صيغة الثبات الكونيّ كما أنها تعبّر عن المطلق في حالة عدم تجلّيه:

$$\frac{\infty}{\text{صفر}} = \infty \qquad (١)$$

إنّ معنى الخليقة يكمن في تحقيق وحدة مشابهة للّا-متناهي ابتداء من الصفر. يمكن إذن التعبير عن التصورّ الأوّل للتجلي بالمعادلة التالية التي تمثّل فيها "ألفا" الوحدة:

$$\frac{\text{ألفا}}{\text{صفر}} = \infty \qquad (٢)$$

حيث يمكننا بالمقارنة بين (١) وبين (٢) أن نستنتج:

$$\frac{\infty}{\text{صفر}} = \frac{\text{ألفا}}{\text{صفر}} \qquad (٣)$$

وبالتالي فإن:

$$\infty = \text{ألفا} \qquad (٤)$$

إنّ هذه السلسلة المكوّنة من أربع معادلات تشير بلغة الرياضيّات إلى:

المطلق الغير متجلٍّ؛

الفكرة المجرّدة للخليقة؛

صيغة ما قبل-الخليقة (أي بالمصطلحات العقائدية الكائن المولّد والغير مخلوق)؛

الخليقة وقد بلغت تمامها. وبعبارة أخرى سيكون الكون وقد أصبح تاماً في هذا الطور قد قطع المسافة التي تفرقه عن الله الخالق. هذان هما معنى وهدف التجلي.

إنّ (الكيفيّة) الفنّيّة في (تنفيذ) الخليقة هي تقسيم الصفر الأول العام الذي جُعل بصيغة إرادية غير كامل إلى عدد لا يتناهى من الأصفار المختلفة. هذا هو ما يسمّى بسقوط الأرواح. لم يكن هذا السقوط متساويا (للكلّ) إنما اختلف عمق السقوط بالنسبة للأرواح المختلفة كما بيّن التقليد ذلك. وهو (أي هذا الاختلاف في عمق السقوط) شرط التغاير (أي التباين) اللا-متناهي في الكون ذلك التغاير المرتب والموزع تباعاً لنظام الأفلاك.

إنّنا لنفهم الآن أنّ المنبع لكلّ واحد منا هو إحدى تفاضليّات الصفر العامّ الذي جعل (إراديا) غير كامل: هذه (الكمّيّة) التفاضليّة هي شخصيّتنا. إنّ معنى ومهمّة حياتنا إذن هي أن نخلق - في تفاضليّة الصفر - تفاضليّة للوحدة. عندئذ تتّخذ المعادلة الرابعة بالنسبة للمجموع الشكل التالي:

$$\text{ألفا} = \int_{\text{صفر}}^{\infty} \text{د. ألفا} \qquad (٥)$$

أي بالنسبة لكلّ حالة خاصّة على حدة:

$$\text{د. ألفا} = \text{د صفر. ألفا} \qquad (٦)$$

نلاحظ أنّ العرض الذي سردناه الآن هو نقطة البداية لدراسة فرع هامّ (من فروع) العلم الباطنيّ ألا وهو مذهب الأعداد.

[٣] قارن بالفصل الرابع عشر للقسم الثاني.

-٤-

إنّ الشخصيّة إذن ليست إلا تفاضليّة من الصفر الذي جعل إراديًا غير كامل، فهي لا تملك بسبب عدم كمالها التأسيسي (أي من عند الأساس) سوى وجوداً مُعَاراً. هذا أيضا هو السبب الذي يجعل التظاهر بالكينونة بالنسبة لها يكون له قيمة الكينونة.

إنّ نقطة الارتقاء التي يوجد الكون بأكمله فيها حَاليًا بكلّ ما يتضمّنه بما في ذلك كلّ واحد منّا، تقع بين ما قبل-الخليقة والخليقة النهائيّة المتممّة. إنّ المعادلة (٦) تسمح لنا أن نفهم أنّ خلق فرديّة جديدة (د. ألفا) ابتداء بالشخصيّة (د. صفر) بواسطة العمل الباطنيّ (∞) يساهم في الارتقاء العام للكون. إنّ عمليّة الخلق تساهم بالفعل بفضل ما تدفع به من تفاضليّات تتبع من الواقع (الحقيقيّ) - أي ما تدفع به من تفاضليّات (د. ألفا) تساهم في إكمال محتوى الصيغة التالية: $\int_{\text{صفر}}^{\infty}$ د. ألفا التي سوف تصبح في النهاية مساوية للتالي:

$$\int_{\text{صفر}}^{\infty} \text{د. ألفا} = \text{ألفا} \qquad (٧)$$

إنّ المفاهيم التجريديّة التي قد عرضناها أعلاه تجلي العيون (وتنبّه الأذهان) على جرأة الخليقة وعلى عمقها. لعلنا نستطيع الآن أن ندرك بإحساس يتفجّر بالحماس الدافق القيمة التي تفوق كلّ تقدير قيمة الدَيْن الإلهي الذي وهبنا إيّاه، ذلك الجسد الذي هو المستودع الأمين للشخصيّة. والذي يؤهلنا أن نتحول إلى وحدة حقيقيّة. ولا شكّ أنّنا سوف ينتابنا أيضا شعورٌ بالوجل ونحن نعود لنتذكر مدى الاستخفاف الذي نستخدم به هذا الدين. إنّنا ندع حياتنا تنساب منسلتة بدون أن نفكر في مشكلة الحياة (ومعناها وهدفها) وبدون أن نفكر في حلول الأجل الذي يستحق فيه الدفع (عن) دين الحياة. ولو توقفنا برهة للتأملّ في هذه المفاهيم التجريديّة لتفهّمنا بطريقة جديدة المعنى الصحيح لِمَثَلِ الوزنات[٤].

علينا أن نحاول إذن أن نتملك الوسيلة العينيّة (العمليّة) التي تسمح لنا - في إطار البحث عن الطريق - أن ننجز فعليّا هذا التحويل الرائع من المفتعل إلى الحقيقيّ وأن نربح خمس وزنات بخمس أو على الأقلّ اثنتين باثنتين كما يبيّن لنا المثل ذلك.

-٥-

معنى الكينونة (ومعنى أن نكون) هو أن نكون في الحاضر. فإنّنا في المستقبل لم نتواجد بعد وما عدنا كائنين في الماضي. لكن ما هو إذن الحاضر؟

إنّ إنيّة الشخصيّة التي ليست سوى دينا (مسلفا) إنيّة مؤقتة يستعملها الإنسان لعدم وجود الإنيّة الحقيقيّة. وهو يعيش مع تلك الإنيّة الخاصّة بالشخصيّة إمّا في المستقبل أو في الماضي حيث أنّ الشخصيّة ليست لها حاضر: وإنما يبدو لها ذلك الحاضر كخطّ برزخيّ متلاش فإذا ما بلغ المستقبل هذا الخط تحوّل عنه بصيغة خفيّة إلى ماض. هذا هو السبب الذي يبدو من أجله وجود الشخصيّة مفتعلا وغير حقيقيّ. إنّ ما نطلق عليه في لغتنا اليوميّة الدارجة اسم الحاضر ليس في الواقع سوى جزءاً من الماضي القريب نحشر فيه توقعاتنا الخاصّة ببعض العناصر الجائز حدوثها في المستقبل القريب؛ ولكنّ وجود حاضر حقيقيّ يبدو لنا مستحيلا. أنّ هذا التصوّر بالطبع تصوّر مغلوط. فإنّ تتابع الحوادث داخل الزمان في الواقع أي التاريخ في كلّ مظاهره متوالية غير منقطعة لجزيئات غير مرتبطة بغيرها ومستقلة بذاتها من الحاضر الحقيقيّ. وبعبارة أخرى فإنّ تمثّلنا للحاضر على أنّه خط تخيّليّ يتحدد عنده تحولّ المستقبل إلى ماض تمثّل خاطئ. كذلك فإنّ التصوّر الكلاسيكيّ الذي لدينا

---

[٤] متى، ٢٥، ١٣ إلى ٣٠.

عن المستقبل والماضي هو أيضا تصوّر خاطئ. فإنّ كلّ ما هو موجود يوجد بالفعل داخل الزمان. فإنّ أيّ جسم له أبعاد الفراغ الثلاثة وصلب التكوين يحتاج أيضا لعنصر الزمان وهو العامود الرابع من أجل أن (يوطّد) ويؤكّد به وجوده. فإن لم يمنح لحظة واحدة من الزمان لن يمكنه أن يوجد. لذلك فإنّ الحاضر إذن له حتميًا مساحة امتداد. هذا الامتداد قصير جدّا بالنسبة للإنسان الخارجيّ، كما أنّه من جهة أخرى يختلف بالنسبة لكل فرد. إلا أننا إذا جعلنا هذا الحاضر الصغير جداً صفراً والجميع يعتقد فعلا أن قيمته صفرٌ يكون ذلك بكلّ بساطة كاملا ومحض التوقف للوجود، وما من شكّ أنّ حلول الموت يحدث بتلك الكيفيّة.

إنّ وجودنا وكذلك وجود العالم الذي نعيش فيه بأكمله يمكن أن يعبّر عنه في شكل رياضيّ بواسطة الصيغة التالية:

$$\text{ى} = \int_{\text{و}}^{\text{م}} \text{د.ح}$$

حيث تمثّل "ى" الحياة وحيث "و" و "م" أي الولادة والموت هما حدّا التكامل و"د.ح" هي تفاضليّة الحاضر.

تسمح لنا هذه الصيغة أن نفهم مليّا أنّ الإنسان - شأنه في ذلك شأن كلّ كائن - ليس سوى سلسلة من القطاعات المتتابعة لكائن متكامل يمتدّ وجوده داخل الزمان من لحظة ولادته إلى لحظة مماته. ولسوف نرى فيما بعد أن الإنسان له شكل آخر يوجد به وهو وجوده في الأبديّة بل وشكل ثالثُ أيضا على مستوى المبادئ في قلب المطلق.

يقول التقليد في تعليمه أنّ فيما سبق (من التعاليم) ضمان وبرهان الوعد بالقيامة العامّة بحلول (يحل) التتميم (الإتمام) حين يصل الكون بأكمله ويصل كلّ ما ويصل كلّ من يسكنونه إلى ذلك الهدف الذي هو صعود الغير كامل والغير متناظر إلى الكمال. والكمال من وجهة النظر التي تهمّنا الآن هو الوجود داخل الحاضر الحقيقيّ الذي يغطّى بالنسبة لكلّ فرديّة كلّ ماضيها وكلّ مستقبلها.

إنّ التتميم نهاية الارتقاء العامّ وهو ارتقاء بطئ ومأساويّ، تتابع لا يكاد ينتهي من الولادات والعذاب والميتات تتوالى عبر حقب من الحبّ والكدّ. يحكم هذا الارتقاء في مجموعه قانون سبق أن درسنا مظاهر أخرى له وهو القانون العامّ الغيور على حفظ كلّ في مكانه والذي يقود مجموع الخليقة نحو القمّة على مراحل حُدّدت بشكل أن تسمح بتقدّمٍ يشترك الكل فيه بالرغم من الاختلافات في الإيقاعات الفرديّة.

لكنّ الارتقاء الباطنيّ يسير تبعاً لقانون آخر ويتبع طريقا آخر عموديّا - إذا جاز القول - على الأول. إنّه يتبع قانون الاستثناء الذي يقدم إمكانية التجدّد الفرديّ الأسرع. ولكنّه سبيل شديد الانحدار وخطير يستلزم شجاعة كبيرة لسلوكه ولا تُحصد النتائج السريعة فيه إلا ببذل مجهودات كبيرة. بالإضافة إلى ذلك فإنّ ميزة تعدّى القانون العامّ بالقوّة والسير فوق السبيل الضيّق[5] والتمتّع بمساعدة مرشد (ودليل) يستحيل الصعود بدونه - أنّ ذلك كلّه لا يمنح إلا بشرط صريح وواضح: يجب على من أتت مجهوداته الفرديّة بثمارها أن يكون على استعداد لإعادة العمل من جديد للمشاركة في الارتقاء العامّ. ولتلك القاعدة لازمة تهدف إلى ضمان اتصال العمل الباطنيّ بإقامة سلسلة متواترة: لا يمكن لأحد أن يعبر إلى الدرجة التالية من الارتقاء ما لم يكوّن (ويربّى) ويضع شخصا آخر في المكان الذي سيتركه.

[5] متى، ٧: ١٤.

-٦-

إنّ امتداد الحاضر في الكائنات الحيّة خاصا بكلّ فرد على حدة. فهو بالنسبة للإنسان الخارجيّ يمتد بما يعادل تقريبا امتداد التنفس الواحد. وهو ما يساوى في الحالات القياسيّة الهادئة حوالي ثلاث ثوان. لقد توصّلت العلوم الوضعيّة تجريبيًا إلى تصوّر شبيه عن طريق إدخال مفهوم الحاضر الذهنيّ في علم النفس. يمكن تعريف هذا المصطلح بأنه امتداد زمنيّ يمكن للفرد أن يظلّ يحيط بمجموعه في وحدة إدراكيه واحدة تستوعب عدة استشارات متتابعة معاً. وقد قدّر هذا الامتداد الزمنيّ بحوالي خمس إلى ستّ ثوان[٦].

يشير العلم الباطنيّ الذي لا يعتد بالخواصّ الثابتة للشخص على قدر ما يعتدّ بإمكانياته للتطوّر، إلى أنّ الحاضر الفرديّ يمكن أن يضيق أو أن يتّسع. إنّ الإيقاع التنفسي القياسيّ بالنسبة للإنسان الخارجيّ في حالات هدوئه يعيّن لنا من خلال هذه الثواني الثلاثة أو الأربعة الحدّ الأقصى للحاضر بالنسبة لهذا النوع الإنسانيّ.

يكفي بعدئذ أن يشعر هذا الشخص بانفعال لكي يتّخذ تنفسه إيقاعا مسرعا. فانّ أيّ خبر لم يكن متوقعا "يقطع النفس"؛ ويمكن أخيرا أن يسرع التنفس إسراعا لا يستهان به على أثر (تأدية) مجهودات جسديّة. يعترى الحاضر في تلك الحالات كلها ضيق يتناسب مع زيادة سرعة الإيقاع. يجب من أجل أن يستعيد ذلك الشخص حالته المعتادة على المستويين النفسيّ والأخلاقيّ أن تكون إيقاعات جسده وخاصّة إيقاعه التنفسيّ قد عادت من جديد إلى حالاتها القياسيّة. إلا أنّ الشخص الذي يستطيع عوضا عن ذلك أن يثبّت إيقاعاته الجسديّة على حالتها وهو في وسط ظروف استثنائيّة فإنه سيحفظ - بمحافظته على حاضره المُتَكامل - هدوءا وعدم اندفاع يسمحان له باتخاذ قرارات منطقيّة. ولاشكّ أنّ مقدار التحكّم هو الذي يعيّن تفوّق الكائن. هناك حكمة مأثورة تصف لنا في قالب تصويريّ ذلك الموقف: ينتصر في المعركة الفارس الذي يسمع وقع حوافر فرسه.

أمّا بالنسبة للذي ينجرف مع التيّار - أي بالنسبة للذي يترك نفسه للظروف فإنّ الحاضر ينكمش إلى حدّ التلاشي، فإذا اتّخذ حينئذ قرارات سوف يندم على ذلك بعد حين بلا شك. وإذا كان الانجراف مع تيّار أيّ مركز من المراكز السفليّة التي ازدادت سرعتها ينجم عنه زيادة في سرعة التنفس ويحدث بالتالي انكماشا في الحاضر، فإنّ التركيز على جميع أشكاله يساهم بالعكس في توسيعه. فكلما ازداد التركيز شدّةً كلما ازداد التنفس بطئا إلى أن يصبح في حالة التأمّل لا يكاد يلحظ.

-٧-

إنّ مذهب الحاضر يسمح لنا بفهم المعنى الصحيح للصورة المقطعيّة للإنسان عند أي آونةٍ زمنيّة فهماً أحسن، وهى الصورة المقطعيّة التي يرى الإنسان بها نفسه ويبدو بها أمام أمثاله.

إننا لنجد فيلما بأكمله وراء هذه المقاطع المتتالية والتي يمثّل كلّ مقطع منها آونة زمنيّه تتوهّج خلالها - مع كلّ عمليّة تنفس - تفاضليّة الحاضر. يُمثّلُ هذا الفيلم في داخل الحدود المحصورة بين الولادة والموت حياة كلّ واحد منّا مع كلّ الكائنات (البشريّة) التي قابلناها فيها ومجموع الظروف المادّيّة والأخلاقيّة التي أحاطت بنا. وهو ما يشبه ما يجرى عندما نراقب فيلم مشكال[٧] من خلال شقه الضيّق الأمر الذي يوهمنا أنّ هناك حركة تجرى داخل الزمان. يماثل اتّساع شق المراقبة هذا بالقياس تفاضليّة الحاضر.

---

[٦] راجع معجم كلمات علم النفس (بالفرنسيّة) نشره بالتعاون مع رابطة العاملين العلميين، هنرى بيرون المدرّس بالكوليج دى فرانس، ومدير معهد علم النفس بجامعة باريس، المطابع الجامعيّة بفرنسا، ١٩٥١، ص. ٢٢٢ (من الطبعة الفرنسيّة بالطبع).

[٧] مشكال ترجمة الكلمة الفرنسيّة. "Kaléidoscope"

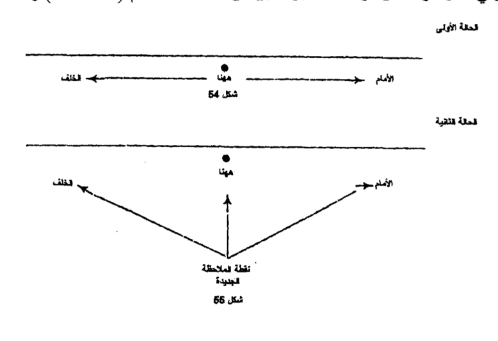
إنّ مثال آلة المشكال سيسمح لنا بتحديد مفهوم امتداد الحاضر تحديداً دقيقاً. إنّ الحاضر في واقع الأمر يتعذر عليه تماما أن يدوم، وهو بالفعل لا يدوم لأنّ كلّ ما يدوم يوجد داخل الزمان فيقع بالتالي وقوعا آليّا في مجال المستقبل - الماضي. إنّ التعبير: امتداد الحاضر تعبير اتفاقيّ يسهل به على عقلنا الذي يعتبر الزمان مقولة مطلقة[8] النفوذ إلى مفهوم الحاضر والحاضر بدوره مقولة أخرى مختلفة تقع في الواقع خارج الزمان. لا يجب أن يغيب عن نظرنا هذا الاعتبار عندما نستخدم من الآن فصاعدا هذا اللفظ ألاتفاقيّ: امتداد الحاضر.

لقد قلنا إنّ مثال آلة المشكال يسمح بإعطاء هذا التعبير ألاتفاقيّ معنى حقيقيّا. فإنّه يحق لنا بالفعل أن نقيس الحاضر الفرديّ بواسطة وحدات الزمان؛ ولكنّنا لا نقيس بتلك الكيفيّة الحاضر نفسه حيث أنّه لا يمكن قياسه بل نقيس اتساع الشق الذي نراقب من خلاله فيلم آلة المشكال أي فيلم الحياة. وها نحن نسوق مثالا آخر اخترناه لتحسين فهمنا لهذا النظام الميكانيكيّ الذي يسيطر علينا.

لنتخيّل كائنا لا أبعاد له أي لنتخيّل نقطة حيّة ومزوّدة بعقل (أي بفهم) البعد الأول. ولنفرض أنّ هذا الكائن يعيش فوق خطّ هندسيّ وليكن منحنى. إنّ مفهوم الفراغ كلّه بالنسبة لهذا الكائن ينحصر في ثلاث تمثّلات: ما يقع إلى الأمام وما يقع في الخلف وما هو هاهنا. كذلك فهو يعتقد أنّ المنحنى الذي يعيش فوقه خطّ مستقيم لأنّ ذهنه يعوزه مفهوم البعد الثاني اللازم لتصوّر الانحناء[9].

إنّ الكائن البشريّ ثلاثيّ الأبعاد في الفراغ ولكن ذو بعد واحد فقط في الزمان: فهو يعيش إذن داخل الزمان فوق خطّ ولا يدرك أيّ شيء يجرى خارج هذا الخطّ. بل ينحصر كلّ مفهومه عن الزمان بالمماثلة القياسيّة مع المثال المذكور أعلاه في ثلاثة تمثّلات: إلى الأمام - المستقبل، إلى الخلف - الماضي؛ وأخيرا هاهنا - الحاضر الذي يتصوّره بلا اتساع (ولا حيّز).

إذا تسنّى لنقطتنا الحيّة بواسطة تمرينات مناسبة أن تحصل على الإحساس بالبعد الثاني وإذا انتزعناها بعدئذ من فوق الخطّ الهندسيّ الذي تعيش فوقه وهي تعتقد أنّه لا يوجد أيّ شيء غيره خارجه لقرّرت موضوعيّا بدهشة في هذه الآونة أنّه لا يمكنها أن تراقب نقطة هاهنا فقط فحسب بل أيضا وفي نفس الوقت أن تراقب قسمين اثنين من الخطّ قسما أمام (هذه النقطة) وقسما آخر خلفها.



شكل 54

شكل 55

---

[8] بالمعنى الفلسفي لهذه الكلمة: كلّ تصوّر ذي مفهوم واسع تندرج تحته الأفكار والوقائع... (المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربيّة، القاهرة ١٩٨٣).

[9] البعد الأول هو الطول والثاني هو العرض والثالث الارتفاع والرابع هو الزمان كما سبق للكاتب أن بين ذلك الخ. ...

إنّ التماثل القياسيّ في هذه الحالة مع الإنسان الخارجيّ الذي يعيش فوق خطّ من الزمان تماثل قياسيّ كامل[١٠].

(ولا شكّ) أنّنا سوف نتذكر أنّ هذا الخطّ ينحني بما يتّفق مع قانون سبعة. بيد أن ذهن الإنسان، وهو ذو بعد واحد في الزمان لا يستطيع أن يرى أنه عبر المستقبل سوف ينحرف هذا الخطّ. فهو لا يستحضر المستقبل (في ذهنه) على شكل خط ينحني كلما استطال وتقدم بل على شكل خط زمني مستقيم هو المماس للحظة الحاضرة. هذا هو سبب من الأسباب الرئيسيّة التي تجعل الإنسان يخطئ عند سابق توقعه للمستقبل.

بيد أنّ الباحث إذ يمرّ من خلال مرحلة الإنسان ٤ ليصل إلى مرحلة الإنسان ٥، يأخذ وهو لا يزال يتقدّم نحو الطريق - في اكتساب ملَكَة إدراك البعد الثاني للزمان. وهو عندئذ وبنفس الكيفيّة التي يتمّ بها ذلك في مثال النقطة المنتزعة من فوق خطّها، يراقب في نفس الوقت اللحظة الحاضرة والمستقبل والماضي. وهو ما يرجع إلى القول بأنّ التصوّر للمستقبل والماضي تصور نسبيّ خاصّ بعقل الإنسان الخارجيّ المحدود في حين أنه في الواقع وبكلّ موضوعيّة لا يوجد سوى الحاضر: فيلم يتضمّن بالنسبة لكلّ دورة على حدة كلّ المستقبل وكلّ الماضي.

نستطيع الآن أن نحسن فهم تلك الجملة المحيّرة التي لا تستقيم البتّة من وجهة القواعد اللغويّة التي قالها يسوع: قبل أن يكون إبراهيم، أنا هو ذا[١١].

إنّنا لندرك بعد ما قيل أعلاه أنّ التطبيق العملي الباطنيّ (لكلّ منّا) على ذاته مقصده الأساسيّ هو توسيع الشق الفرديّ الذي ينفتح على الحاضر.

إنّ التتابع الغير منقطع لتفاضليّات الحاضر " د. ح " يسمح للإنسان بالعيش فوق خطّ للزمان. ولكن الشق الخاص بالإنسان الخارجيّ لا يكفي لكي يدرك (به) المستقبل- والماضي ويجمعهما معاً داخل حاضر كبير لكي يتمتع بهذا الوجود الدائم. يجب لكي يتمّ ذلك أن يوسّع الشقّ (توسيعا) مناسبا.

إنّ إدراك الإنيّة في حاضر يشمل المستقبل والماضي بتلك الكيفيّة ليس سوى الوعي بالإنيّة الحقيقيّة. فإنّ الحاضر المصوّر بتلك الكيفيّة هو الحياة؛ والشق ذا الثلاث ثوان هو ذلك الباب الضيّق الشهير.

قال يسوع: ادخلوا من الباب الضيّق. واسع هو الباب وبرح هو السبيل اللذان يؤدّيان إلى التهلكة. كثيرون هم الذين يدخلون منهما. فإنّ الباب الذي يؤدّى إلى الحياة ضيّق والسبيل إليها مكتنز والذين يهتدون إليهما قلّة[١٢].

والأمر يتعلّق أيضا بثقب الإبرة الشهير[١٣].

-٨-

إنّه لمن المفيد - ونحن بصدد فحص (ودراسة) العناصر التي تيسّر أو تمنع بلوغ الطريق - أن نعلق على آخر نصّ ذكرناه وهو يكمّل ويفسّر النصّ المذكور قبله: رفع يسوع صوته قائلاً أثناء

---

[١٠] يمكن للتماثل القياسي بين شيئين لن يكون صحيحا بنسبة ٥٠% لو اقل او اكثر. ولكنه في هذه الحالة صحيح بنسبة ١٠٠% (المعرّب).

[١١] يوحنا، ٨: ٥٨. (إنّ الجملة الفرنسيّة لا تستقيم من وجهة قواعد اللغة. لأن فعل الكينونة فيها صُرّف في صيغة الحاضر مما يجعل استدامة كيان يسوع تتعالى عن الماضي، وتتخطى المستقبل في حاضر أبديّ ازليّ - أي لا تعرف له بداية، ولن تكون له نهاية، مما جعل اليهود في تتمة الفصل يقولون له: لم تتعد الأربعين، وتدّعى أنك أكبر من أبينا إبراهيم، وحاولوا أن يفتكوا به...الخ. فهم لم يفهموا ولم يعوا... المعرّب).

[١٢] متّى، ٧: ١٤.

[١٣] مرقص، ١٠: ٢٥ - لوقا، ١٨: ٢٥.

محادثته مع شاب غنيّ: أولادي، ما أصعب الدخول إلى ملكوت الله على الذين يركنون إلى الثقة بالأموال[١٤].

ثم أضاف:

أسهل على الجمل أن يمرّ من ثقب الإبرة من على الغنيّ أن يدخل إلى ملكوت الله[١٥].

علينا أن نسأل: من هو الغنيّ؟ يعتبر غنيًا بالمعنى الباطنيّ (كلّ) من يعطى القيمة الحقيقيّة لشخصيّته، ومن يضع فيها ثقته وآماله. وذلك بغض النظر تماما عما إذا كان ثريّاً أو لا يملك شيئاً (من متاع الدنيا).

يجب حتميًا على الإنسان لكي يبدأ السير فوق الطريق أن يكون قد مرّ من خلال الانهيار الداخليّ للشخصيّة، وهو ما نسميه بالإفلاس الأخلاقيّ. عندئذ يكون قد عرف وهم الكبرياء الباطل والقيمة الحقيقيّة للتواضع. ليصبح بتلك الكيفيّة ما إذا كان غنيًا أو متسوّلا فقيرا بالروح. عندئذ يتسنى له أن ينزلق بدون عناء من خلال ثقب الإبرة. فلقد قيل:

طوبى للفقراء بالروح إنّ ملكوت السماوات ملك لهم[١٦].

---

[١٤] مرقص، ١٠: ٢٤ و٢٥ - لوقا، ١٨: ٢٤ و٢٥.

[١٥] متى، ١٩: ٢٣ و٢٤ - مرقص، ١٠: ٢٥ - لوقا، ١٨: ٢٥.
والآية القرآنية في صورة الأعراف: [إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتّحُ لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلجَ الجَمَلُ في سَمّ الخياط] (٤٠) تفسير الطبرى، الجزء الخامس ص ٥٤٣ من طبعة دار الغد العربي:- يلج أي يدخل، السَم بمعنى الثقب، الخياط فإنه "المخيط" وهى الإبرة (المعرب)

[١٦] متى، ٥: ٣.

الفصل العشرون

تهدف التدريبات الباطنيّة إلى اكتساب الحاضر الحقيقيّ - السيطرة على الجسد والشخصيّة وإقامة الاتّصال بالمستويات العلويّة للوعي - ثماني مجموعات من التدريبات الطبيعيّة الجسديّة والنفسيّة يكون المعبر بينها التدريبات التنفسية الفنية - المشاهدة السلبيّة - المجموعة العلويّة من التدريبات: التركيز والتأمّل والخروج عن الأحاسيس الخمسة أي حالة الفناء - الشكل التخطيطيّ للطريق - المقاطع السبعة والعتبات الثلاث: يؤدّي عبور الأولى من الأدغال إلى الدرج أو السلّم الذي يؤدى بدوره إلى العتبة الثانية التي يدخل التلميذ أو الطالب بعد عبورها إلى الطريق بملء معنى هذه الكلمة فيوصلّه إلى العتبة الثالثة - نهاية الارتقاء الممكن وسط الظروف الأرضيّة - وصف مراحل الطريق-

-١-

صُمِّمَ نظامُ التدريبات الباطنيّة من أجل أن يتمكّن الأشخاص الذين سبق أن حصلوا بالفعل على قدر معيّن من المعارف النظريّة بدء الممارسات العمليّة. تأسّس هذا النظام على مذهب الحاضر كما قُسِّمَتْ تلك التدريبات إلى ثلاث مجموعات بما يتمّشى مع بنيان الشخصيّة. وتنزع هذه المجموعات الثلاث إلى بلوغ هدف عامّ واحد: ألا وهو الحصول على الحاضر الحقيقيّ. تختصّ التدريبات المذكورة بالمستويين الجسديّ والنفسيّ. يتحتّم من أجل أن يمكن للتدريبات النفسيّة أن تكون مثمرة أن نجعل الجسد - ذلك بواسطة سلسلة من التدريبات الجسديّة - قادرا على تحمّل العمل المطلوب (منه). لا يجب أن ننسى أنّنا نعيش داخل الجسد الذي يمثّل - عندما يخضع للمران والضبط اللائقين - أداة رائعة، هي أيضا الأداة الوحيدة التي يمكننا استخدامها للوصول إلى الهدف الموضوع أمامنا. كذلك يجب ألا ننسى أيضا أنّ التطوّر الباطنيّ يستلزم جهودا لا يستهان بقدرها جهودا تتعدّى كثيرا كلّ الجهود التي نبذلها عامّة في الحياة.

إنّ مجموعات التدريبات الثلاثة التي يجب ممارستها على طول امتداد الطريق تهدف إلى المقاصد التالية:

السيطرة على الجسد (والتحكّم فيه)؛

السيطرة على الشخصيّة (والتحكّم فيها)؛

إقامة اتّصال بالمستويات العلويّة للوعي؛

أنّ هذه التدريبات تُعنى بإنيّات الإنسان الثلاث: فإنّ (المريد) بمداومة التمرين القائم على الضبط الصارم لإنيّة الجسد ولإنيّة الشخصيّة يفتح لنفسه منفذا للاتّصال بالوعي بالإنيّة الحقيقيّة. هذه هي النظريّة (التي يقوم عليها العمل). أمّا عن الممارسة العمليّة فلقد صيغت محكمة منذ قديم الأزل: وهى تتضمّن ثماني مجموعات متدرّجة من التدريبات.

-٢-

تتعلّق المجموعة الأولى بالنظافة الخارجيّة: يجب أن يغسل الجسد بكلّ عناية يوميّا؛ ويكرّس انتباه خاصّ لنظافة الصرة والقدمين والأعضاء التناسليّة. يجب أيضا أن يغسل الرأس بصفة منتظمة. كذلك يجب أن يجلى المنخاران تماما لكي يمرّ الهواء من خلالهما بلا قيد.

-٣-

تستهدف المجموعة الثانية النظافة الداخليّة: يجب أن نراعى مراعاة صارمة إخلاء المجرى الهضميّ (من الفضلات) إخلاء كاملا ومنتظما. فإنّ الإمساك يسمّم الكيان الحيّ تسمما عميقا. كما أنّه

بسبب تعطيل الوظيفة الهضميّة التي تسير في الحالات القياسيّة تبعا لقانون سبعة - يحول دون تحوّل الهيدروجينات وبذلك يحرم الكيان الحيّ من أثمن جزء من الطاقة الشمسية بالنسبة للعمل الباطنيّ. فتقلت حينئذ من الإنسان إمكانية الارتفاع فوق المستويات السفليّة للوعي.

هاتان المجموعتان من التدريبات لهما أهميّة كبرى وان كانت قيمتها - إذا جاز ذلك القول - سلبيّة؛ حيث أنّهما لا تؤدّيان في حدّ ذاتهما إلى الارتقاء الباطنيّ. إلا أنّهما شرط لا غنى عنه من أجل ذلك الارتقاء. لذلك يجب ممارستهما بكلّ عناية.

إنّ صيانة النظافة الداخليّة تسهل (علينا إذا مارسنا) تدريبات طبيعيّة يوميّا: كالمشي والرياضة وإتباع نظام تغذية ملائم. تسمح التجربة بتحديد ما يكون بالنسبة لكلّ منّا في هذا المجال القدر الصحيح (المطلوب): فإننا في هذا المضمار أيضا يجب أن نحاذر من المبالغة. يحدد (المريد) القدر الصحيح (المطلوب) بما يحدثه من إحساس بالاكتفاء (والرضا). يجب أن يكون النشاط ونظام الغذاء اللذين نخضع أنفسنا لهما صحّيين ومقوّيين ومستحبّين لدينا. الهدف من ذلك هو إعادة توازنه الطبيعيّ إلى الكيان الحيّ فينا، ذلك التوازن الذي يختلّ عامّة من جرّاء الظروف الاصطناعيّة التي نعيش ونعمل في وسطها. كذلك فإنّ الاحتفاظ بوزننا في المعدّلات والحدود القياسيّة له يشهد أيضا باختيار صحيح لأسلوب حياتنا.

أمّا عن ممارسة الحياة داخل الأديرة فإنّ هناك قواعد حُدّدت منذ مئات السنين تُطبّق تحت إشراف الايجومين (أي رئيس الدير) وتعيّن بدقة شروط حياة متوازنة للجميع. في حين أنّه يجب في حالة متابعة العمل الباطنيّ في الحياة المدنيّة (خارج الأديرة) أن يدرس الباحث ويطبّق تلك الشروط بنفسه.

-٤-

تهدف المجموعة الثالثة من التدريبات إلى إحراز وضع جسديّ صحيح. تستلزم التدريبات النفسيّة أن يكون الجسد أثناء أدائها في أكمل حالة ممكنة من التوازن، لكي يتسنّى للانتباه بأكمله أن يتركّز على موضوع التدريب. لذلك يجب أن يُدرس أفضل وضع جسديّ، ويطلق عليه في التقليد اسم الوضع الجسديّ للحكيم، وأن يمارس عمليّا إلى أن يتسنى الحفاظ عليه في (حالة) ثبات كامل (للجسد) طوال المدّة الزمنيّة المطلوبة؛ وهو يُمارسَ في وضع الجلوس فوق مقعد صلب لا يتعدّى ارتفاعه ما يقرب من ثلاثين سنتيمترا، وتكون الساقان متقاطعين والركبتان منفرجتين واليدان بما يتمشّى مع موضوع التدريب (والقصد منه).

والشرط الأساسيّ أن يوجد الرأس والعنق والعامود الفقريّ على خطّ مستقيم عموديّ. يجب أيضا أن يلقى بالكتفين إلى الخلف، وأن يظلّ الرأس مرفوعا. يراعى بالنسبة لمستطيلي الجمجمة[1] أن تكون قمة الرأس على الدوام على خطّ أفقيّ.

يجب أن ترخى كلّ العضلات، ويمكن التحكّم في ذلك بقبضها أوّلا مجموعة تلو الأخرى بأقصى قوّة ممكنة، ثمّ بإرخائها بعد ذلك فجأة. يجب أيضا أن تكون القامة منتصبة. فإذا ما روعيت التعليمات المشار إليها نجد الظهر والرأس يقعان بشكل طبيعيّ في الوضع الصحيح لهما على خطّ مستقيم. كما يجب أن نتفادى بأيّ ثمن كان انحناء الظهر أثناء التدريبات. فإننا إذا اكتسبنا تلك العادة السيئة قد نصيب الجهاز (العصبيّ) المخّي-النخاعي بالتلف. بالإضافة إلى ما سبق يجب أن نكون متنبّهين ألا يبرز (أي ينتأ) العامود الفقريّ. يراعى أخيرا أن تكون عضلات الأطراف أي اليدين - بما في ذلك الأصابع - والقدمين - بما في ذلك أصابعهما - مرتخية ارتخاء تامّا.

---

[1] مستطيلي الجمجمة = Dolichocéphales ؛ قمة الرأس = sinciput (المعرّب).

يجب أن تظل العينان ثابتتين. غير أنّ وضعيهما يتوقف على موضوع التدريب المعطى. ولكن بصفة عامّة يجب أن نوجّه النظر مستقيما إلى الأمام على خطّ مواز للأرض. للتأكد من ذلك تقاس المسافة الموجودة بين العينين والأرضيّة في وضع الجلوس، ثمّ يثبت على الجدار المواجه، والذي يبعد حوالي أربعة أو خمسة أمتار ما يطلق عليه في التقليد اسم الشمس: أي دائرة سوداء عديمة اللمعان طول قطرها ثلاثة سنتيمترات رسمت على كرتونة بيضاء. لا تكتسب السيطرة على العينين منذ البداية بل إنهما عامّة آخر عضو يخضع للانضباط. لذلك تبدأ دراسة الوضع الجسديّ للحكيم والعينان مغلقتان. وحتى عندما تفتحان بعد ذلك ببعض الوقت يمكن التغاضي عن حركتهما على شرط ألا يخرج النظر عن حدود الشمس. لنتوصّل في النهاية إلى ثبات النظر.

هذا هو الوصف المقتضب للوضع الجسديّ للحكيم. ولكننا سوف نصطدم عند الممارسة العمليّة بالعديد من الصعوبات الصغيرة: ولا يجب أن نقلق لذلك أو نفقد عزمنا. يجب على كلّ واحد منّا - بإتباع التوصيات المعطاة - أن يبحث عن الوضع الجسديّ المتوازن الخاصّ به حتّى يعثر عليه. وهو - كما سبق أن قرّرنا - ما لا يتأتّى في التوّ والحال. فإذا ما عثر أخيرا، وبعد محاولات متكرّرة على هذا الوضع الجسديّ، وأمكن بعد ذلك استعادته بسهولة يتم التعرف عليه حينئذ بواسطة العلامة التالية: إحساس بالاسترخاء والراحة لا يعطيه النوم نفسه.

إنّ الممارسة العمليّة للوضع الجسديّ للحكيم يعطى بمثابة الشرط الذي لا غنى عنه لنجاح التدريبات التي تهدف إلى التحكّم في (شتّى) العمليات الفسيولوجيّة والى ضبط الحياة النفسيّة. هذا هو السبب الذي يجب من اجله أن نعمل باجتهاد وبمثابرة على البحث عن ذلك الوضع، وعلى تحسينه حتى يبلغ الكمال.

يعلّم التقليد أيضا أوضاعا مختلفة وحركات مختلفة: شتّى أنواع الركعات والسجدات، ستولبوستويانيي (بالروسيّة)[٢] وهي تتلخّص في الوقوف منتصبا كالعامود. وقد كان ذلك الوضع يستعمل في الكنيسة المصريّة الأولى بصفة خاصّة. حيث كان يتمّ اختيار أمكنة تتميّز بارتفاعها الشاهق كقمم الأعمدة مثلا لممارسة ذلك النوع من السبق المأثور الذي يستلزم قدرا لا يستهان به من التحكّم في الجسد والأعصاب يفوق بكثير قدر التحكّم الذي يجب أن يتوفر لدى البحّارة المتخصّصين في العمل فوق سواري المراكب الشراعيّة الضخمة.

إنّ الوضع الجسديّ للحكيم يكون إذا استخدم استخداما صحيحا القدر اللازم والكافي لأداء المجموع الكلّيّ تقريبا من مستلزمات التمرين (المطلوب). ممارسة المنهج السيكولوجي المعروف في التقليد باسم الطريق الملكيّ[٣]: فإنّه يمكن أداء الغالبيّة العظمى من التدريبات النفسيّة وجزء كبير من التدريبات الجسديّة ابتداء بذلك الوضع الجسديّ.

-٥-

تختصّ المجموعة الرابعة من التدريبات بالتنفس. يمثّل التنفس عجلة القيادة إذا اعتبرنا الكيان الحيّ آلة. فهو ينظّم قيام الكيان الحيّ بوظائفه ويحافظ على الإيقاع الذي يحدّده عمل القلب. كذلك يؤثر التنفس تأثيرا مباشرا على التمثيل الغذائيّ ويساهم في إنتاج الكيان الحيّ لأرقى أنواع الطاقات اللازمة لإقامة الاتصال بالمراكز العلويّة. يمكن أن نُضاعف التأثير المشار إليه بقدر لا يستهان به بواسطة التحكّم في التنفس وخاصّة بالممارسة العمليّة للتنفس التوقيعيّ. وهي إمكانية مفتوحة أمامنا بواقع كون حركات القفص الصدريّ التي تجعل التنفس متّصلا تتمتع بتنظيم مزدوج: غرائزيّ آلي

---

[٢] Stolpostoyanié

[٣] Le Raja Yoga, La Voie Royale.

من جهة وإراديّ من الجهة الأخرى. إنّ إمكانية الانتقال من التنظيم الأول إلى الثاني تضع معبرا بين الوظائف الفسيولوجيّة والوظائف النفسيّة. وليس ذلك بالمعبر الوحيد وإن كان ذا أهمّيّة كبيرة جدًا.

ألا أنّ التدريبات التنفسيّة وان كانت تفسح لنا آفاقا مغرية نحو الارتقاء الباطنيّ فقد ينجم عنها إن لم تؤدّ بطريقة موفقة نتائج غير مرغوب فيها بل ونتائج خطيرة مثل تمدّد الشعب الهوائيّة أو اختلال تأديّة القلب لوظائفه.

إنّ أول التعليمات المتعلقة بتنظيم التنفس (والتحكم فيه) بسيط. فهو يلقننا أنّ الرئتين إذا امتلأتا يجب حفظ الهواء بداخليهما. يمكن العثور على هذا الإيضاح في نصوصٍ للتقليد الأرثوذكسي ترجع إلى عصر بعيد جدًا: إلا أنّ المدّة (الزمنيّة) التي يجب إيقاف الإيقاع التنفسيّ خلالها لم تحدّد بها. لذلك فقد صيغت بعد ذلك وبكلّ عناية سلسلة كاملة من مختلف الوسائل المتعلقة بالممارسة العمليّة لهذا التعليم. ولكنّه نظرا لما تتضمّنه من مخاطر إذا طبّقت بدون تمييز فإنّه لا يمكن استخدامها إلا تحت الرقابة والمتابعة الشخصية لمعلم (كفء).

يوجد بالأسواق منذ بداية هذا القرن كميّة من الكتب الصادرة عن (المدارس) الهنديّة أو البوذيّة أو غيرها تتضمّن شتّى التعليقات بقلم مؤلفين غربيّين في غالبيّة الحالات تعالج كلّها مسألة التنفس المنظم والمُوقع. يجب أن نؤكد هنا - بدون أن نخوض في التحليل النقديّ لكلّ النظم والإيضاحات التي تعطيها تلك الكتب - على خطورة تطبيق التدريبات التنفسيّة باتباع هذه الوصفات الكتبيّة المبسّطة لها بدون وجود مرشد كفء يواظب على الإشراف علينا.

للترتيل الطقوسيّ في التطبيق العمليّ الأرثوذكسيّ داخل الأديرة - وخاصّة في الفرع الروسيّ من التقليد - دور هام فهو يعتبر تدريبا تنفسيًا. فإنّ هذا الترتيل في بعض الأديرة مثل دير لور بتشيرا بمدينة كييف يؤدّى بصوت قويّ. ويجب على الكورس في نفس الوقت أن يركز على مضمون الترتيل. إنّ هذا التدريب مختلط فهو تدريب جسديّ ونفسيّ وروحيّ في نفس الوقت كما أنه يستخدم وسائل تتميز بالقوّة ويعطى نتائج جديرة بالنظر.

-٦-

أمّا المجموعة الخامسة من التدريبات فإنّ موضوعها هو المشاهدة (المعاينة الموضوعيّة). ونكون بهذا التدريب قد دخلنا بكلّ وضوح إلى مجال النفسيّة. فإننا به نواجه بالفعل وبطريقة عمليّة مشكلة دراسة ألذات.

إنّ كلمة شاهد تعنى تعرّف على حالة شيء أو على حالة ظاهرة، وتعنى أثبت واقعة ما، بدون أن يطبّق في حكمه أيّ رأي شخصيّ.

تتضمّن إذن عملية المشاهدة مع مجرد المراقبة لواقعةٍ ما إدراكا واعيا بالذات في نفس الوقت. وبتلك الكيفيّة تستلزم المشاهدة - وفي هذا يكمن معناها الباطنيّ - تستلزم استخداما مزدوجا للانتباه: الانتباه للموضوع ولنفس ألذات. يتطلب هذا التدريب كلّ ما نستطيع أن نُعْمِلَهُ من عدم التحيّز. وإلاّ انحط التدريب إلى (مستوى) إخبارية صحفيّة، أو إلى عملية (تتحيّز) لوجهة واحدة فقط وأصبح تدريبا لا يهدف إلى شيء من وجهة النظر الباطنيّة.

تتضمّن المشاهدة مجموعتين من التدريبات:

المشاهدة التي توصف بالخارجيّة، عندما نراقب موضوعا خارجيًا واحدا أو مواضيع خارجيّة متعدّدة، بما في ذلك مراقبة ذواتنا أي عندما ننظر إلى ذواتنا - إذا جاز ذلك القول - "من الخارج"؛

المشاهدة التي توصف بالداخليّة، عندما نراقب سمة أو سماتٍ ووقائع وظواهر من نفس حياتنا الداخليّة.

-٧-

تحتوى المشاهدة على شتى الكيفيات التي تطرأ على الإنسان في موقفه الجديد عندما يشرع في العمل الباطنيّ أي يشرع في النضال الدائم ضدّ تملك حالة الغفو الذهنيّ منه. إننا نعلم أنّ المرء يستطيع أن ينظر بدون أن يرى: بل تلك هي الخاصيّة المميّزة لغالبيّة انطباعات الرؤيا فينا. نستطيع أيضا (بالطبع) أن ننظر ونرى أي بعبارة أخرى أن نراقب. وبالمراقبة نكون قد أحرزنا تقدّما لأننا نكون إذ ذاك قد بدأنا باستعمال الانتباه؛ ولكن المراقبة لا تكفي للحصول على نتائج باطنيّة فعليّة، إذ إنه في أثناء الانتباه مازال موضوع المراقبة قادراً على استهوائنا إلى حدّ إفقادنا وعينا بأنفسنا. لكن إذا كنا نراقب ونبذل جهداً واعيا يتّجه في نفس الوقت نحو الخارج والداخل نتوصّل إلى المشاهدة الصحيحة التي تنتج هي مفعولاً باطنيّا. إنّ الاحترام (الدائم) لتلك القاعدة العامّة المتعلقة بالانتباه المزدوج فرض لا غنى عنه على طول امتداد الطريق إلى قمّة الارتقاء الباطنيّ. هذه هي (الممارسة العمليّة) لما يسمّيه التقليد بالترسفنيية[٤] الذي سبق أن تنوّه إليه[٥]. إنه مجهود متواصل للتيقظ، أي لحفظ الفكرة التجريديّة الخاصّة بالإنيّة حاضرة (في داخلنا) في نفس الوقت الذي نواصل فيه كما كنّا نفعل من ذي قبل - بل بطريقة أفضل - نشاطنا الخارجيّ. إنّ قاعدة ونقطة بداية المشاهدة هي التعليم العامّ الذي وجّهه يسوع لتلاميذه: إنّ ما أقوله لكم أقوله للكلّ: تيقظوا[٦].

إلا أننا قد سبق أن رأينا أنّ الإنسان الخارجيّ يعيش غائبا عن نفسه، يعيش في الأحلام: أحلام الليل وأحلام النهار.

إننا ننام في الحياة بل ننام نوما عميقا. فكيف نخرج من الوجهة العمليّة من مثل هذا الموقف؟ إنه لأمر صعب وهاك أسباب صعوبته. إنّ الإنسان النائم يحتفظ في نفس الوقت بتجربة حياته وهو في حالة الصحو وبذكرى اسمه الذي هو رمز لشخصيّته. فيسمح له ذلك عندما يقوم من نومه أن يعثر من جديد بلا صعوبة على وعيه أثناء الصحو. إلا أنه لكي يعبر من وعيه أثناء الصحو إلى مستوى الوعي الأعلى أي إلى الوعي بالإنيّة الحقيقيّة يعوزه العنصران الأساسيّان التاليان: خبرة الحياة ومعرفة الاسم الخاصّين بذلك المستوى (الأعلى). فإذا عمل الإنسان بلا تراخ "كالحلزون في العمق" وأخذ يطبق باستمرار تلك المشاهدة التي تتضمّن وتفترض مجهوداً واعيا لكي يصل إلى حالة الحضرة ويرتفع بعد ذلك إلى حالة الحضرة في حد ذاتها[٧]، سوف يمكنه أن يبلغ الولادة الثانية ولادة الفردية وهو ما يعنى التحاماً لا يمكن أن ينحلّ للشخصيّة وقد تطوّرت ووُلِدَتْ بالإنيّة الحقيقيّة. فيحصل من هذه الآونة على اسمه الجديد ويتعرّف بالتدريج على التجربة الجديدة التي لم يكن من ذي قبل يتصوّر وجودها والتي يشير إليها سفر الرؤيا:

لمن سينتصر لأعطينّ ... حجرا أبيض دُوِّنَ عليه اسمه الجديد الذي لا يعرفه سوى من يُعطى إيّاه[٨].

---

[٤] Tresvénié إن هذه المصطلحات الروسيّة الموجودة بالروسيّة في النص الفرنسي - من المصطلحات الفنيّة للفرع الروسي من التقليد الشرقي الأرثوذكسيّ. ولها بدون أي شك أهميتها. (المعرّب)

[٥] الفصل ١٦ القسم ٥ وخاصّة الملحوظة المطولة للمؤلف رقم - ١٠-. (المعرّب)

[٦] مرقص، ١٣: ٣٧.

[٧] الحضرة = Présence أو حالة الحضور.
الحضرة في ذاتها = Présence en soi أو حالة الحضرة المعمقة.

[٨] سفر الرؤيا، ٢: ١٧.

-٨-

يمكن أن تكون المشاهدة الخارجيّة سلبيّة. فتنصبّ حينئذ على الأشياء التي تعرض أمامنا وعلى الفيلم الخارجيّ للحوادث بدون أن نختار بمعرفتنا من بينها.

ويمكن على العكس أن تكون إيجابيّة. فنختار عندئذ الموضوع الذي تنصبّ عليه. إنّ المشاهدة الخارجيّة في شكلها الإيجابي يمكن أن تستخدم منهجا خاصّا يساعد كثيرا إذا مارسناه بصفة منتظمة على معرفة الانطباع الذي نعطيه للآخرين. إنّ هذا التدريب وإن لم يكن هدفا في حدّ ذاته، إلا أنه وسيلة للتخلص من الجزء الأكبر من التمثلات الخاطئة التي نرى بها أنفسنا. هذا النوع من المشاهدة يمكننا أن نسمّيه المشاهدة بالانعكاس أو أن نسمّيه أيضا الحصول على لقطات مقطعية خاطفة لأنفسنا. تكون لهذه اللقطات أحسن النتائج إذا حصلنا عليها أثناء الاجتماعات في الوقت الذي نتحدّث فيه. يسمح لنا حينئذ القيام بمشاهدة فجائية أن نحس بأنفسنا على الشكل الذي يرانا به المحيط في هذه اللحظة. كما يسمح لنا تكوين "ألبوم" من تلك اللقطات الخاطفة المقطعية أن نعيد بالنظر الذهني بناء الصورة التي نقدمها للآخرين. يمكن أيضا لمعرفة نفس هذه الصورة أن نؤدّي تدريبا بسيطا يجرى بواسطة مرآتين معا. فهو تدريب مفيد جدّا. إنّ صورتنا في المرآة معكوسة: إذ يصبح اليمين يسارا واليسار يمينا. فإذا نظرنا إلى أنفسنا في مرآتين معا تعود بذلك صورتنا إلى طبيعتها الأولى. وهي تسبّب لنا عامّة انطباعا غريبا، إذ تزداد فيها عيوب الوجه وضوحا لأنّ العين لم تعد قادرة على إجراء ذلك التصحيح الآليّ لملامحنا التي تعوّدت عليه بالنسبة للصورة المقلوبة.

يسمح لنا أيضا هذا التدريب المُؤَدَّى بواسطة مرآتين معا أن نرى أنفسنا رؤيا جانبيّة لا نعرف شيئا عنها. ولا شكّ أنّ مثل تلك المناظر الجديدة تضيف دائما شيئا إلى ما لدينا (عن أنفسنا).

إن الممارسة العملية في الأرثوذكسيّة (الباطنيّة) قد عرفت وحفظت شكلاً من أشكال "الترسفنييه" أي شكلاً من أشكال المشاهدة الخارجيّة الإيجابيّة التي استخدمتها استخداماً واسعاً: أنها صلاة يسوع وصيغتها كالتالي:-

يا يسوع المسيح يا ابن الله

كن رحيما بي فأنا خاطئ.[٩]

من السهل أن نرى أنّ هذه الآية تتضمّن الغاية المزدوجة التي يجب أن ينصب الانتباه عليها: طلب النعمة والوعي بالذات كخاطئ. ممّا يجعل العنصرين اللازمين للمشاهدة (الصحيحة) يجتمعان، على شرط أن تُتلى الصلوة بالطبع لا بصيغة ميكانيكيّة بل بمجهود واع (للمثول في حالة) حضرة. إنّ الأنبا ثيوفان يقول في تعليقاته أنّ قوّة تلك الصلوة لا تكمن في كلماتها - فإنّه يمكن أن تبدّل الكلمات - بل إنّ القوّة النافذة لذلك التوسّل هي في مشاهدة حالة التدهور التي نعيش فيها أمام الله وهو في ملء كماله. نودّ أن نضيف أن الجهد المبذول للمشاهدة المتزامنة يخلق ما قد سبق أن أطلقنا عليه اسم فرق الجهد الذي يولد تيّار النعمة. إنّ صلاة يسوع يكرّرها المريدون المجاهدون إذا كانوا رهبانا أو علمانيّين عددا كبيرا جدّا من المرّات قد يصل إلى عشرة آلاف مرّة، أو عشرين ألف مرّة يوميّا.

-٩-

تتضمّن المجموعة الثانية من المشاهدات، المشاهدات الداخليّة. إنّه حقل واسع من التدريبات التي لا غنى عنها والتي بالإضافة إلى التدريبات السابقة تثبّت قدمي (الطالب) فوق المسلك الذي يقود إلى السبيل الموصّل ومن ثمّ إلى الطريق.

إننا لنجد فيما يتعلّق بالمشاهدات الداخليّة نفس الفرق الموجود في المشاهدات الخارجيّة بين التدريبات السلبيّة والإيجابيّة.

---

[٩] النصّ مترجم عن الروسيّة.

إنّ المشاهدة الداخليّة التي يجب أن نمارسها يوميّا، ويفضّل أن يكون ذلك في الصباح، وعلى قدر الممكن في نفس الساعة، تتكوّن في شكلها السلبيّ من التالي: يجب أن نَمكّث في الوضع الجسديّ للحكيم الوقت اللازم للإحساس بعدئذ بالعضلات وقد انبسطت، وبإيقاع الجسد، وقد أصبح قياسيّا ومنتظما - ثم نبدأ المشاهدة السلبيّة لكلّ ما يدور أمام النظر الذهنيّ. إنّ هذا التدريب يستلزم مرانا. فقد يحدث في البداية ألاّ نرى شيئا أو أن نرى قليلا جدّا. لكنّنا بالمثابرة نكتشف شيئا فشيئا عالما كاملا غنيّا بالحياة والألوان. يصبح هذا العالم بعد ذلك حقلا للعمل من أجل تنظيمه لنتسيّد عليه في النهاية أي لننتصر عليه بتعبير لغة الباطنيّة. لكن يجب قبل ذلك أن نخرجه بأكمله من كواليس وعي الاستيقاظ. نحقق ذلك بواسطة تلك المشاهدة السلبيّة الهادئة الغير متحيّزة. ويتحتم بصفة خاصّة (توافر) عدم التحيّز فإنّ الإنسان يُباغَت عامّة عندما يكتشف في داخله بعض الحركات الانفعاليّة والغرائزيّة المعيّنة وبعض الأفكار المجردّة الغريبة عليه في حالته القياسيّة أي في حالة صحوة - الذي - هو - نوم. يتعلّم الباحث بالتدريج كيفيّة اكتشاف محتواه الأخلاقيّ. فيتأكد له انه لا يشاهد إلاّ جزءا ضئيلا من هذا المحتوى يظهر فوق مسرح وعي الاستيقاظ في حين أنّ الجزء الرئيسيّ منه يظلّ متروكا في خبايا كواليس النفس. ثمّ يكتشف بدهشة وأحيانا بهلع أنّه يوجد بداخله وفي نفس الوقت - الأمر الذي يبدو بالنسبة له مستحيلا أو لا معنى له - شاعر (رقيق) ومتهكّم وقح أو بطل وجبان. ويدرك بوضوح أنه أصلا (وأساسا إنسان) أنانيّ على (أتم) الاستعداد لأن يبرّر لنفسه بأضلّ وسائل المنطقة الفكريّة أيّة حالة نفسيّة فيه يجزم إذا رآها في الغير بحقارتها وبجرمها.

إنّ مثل هذه السمات، ويوجد منها عدد وفير كلٌ أمقت من الأخرى - يُلقى بها في خلفيات الوعي وتوارى بطريقة غرائزيّة بين "الكواليس"، وذلك لسببين اثنين. فإنّ الإنسان من جهة - وهي الحالة العامّة - يكوّن لنفسه عن نفسه تمثّلا يبعد كثيرا جدّا عن الحقيقة الواقعة، ويستبعد تماما وبكلّ بساطة ما لا يتناسب فيه مع تلك الصورة. إلا أنّ تلك المميّزات الخاصّة التي يرفضها تظل بالطبع مميّزاته الخاصّة. كذلك فإنّ الإنسان من الجهة الأخرى يخشى (مواجهة) ما هو عليه في الواقع. ولا يحتاج إذا بقي في الحياة الخارجيّة لإجراء استبطان يؤدّى به إلى النظر لحياته الداخليّة وجها لوجه. كما أنّه في الحالات النادرة التي تضعه فيها ظروف غير متوقعة وجها لوجه أمام نفسه لفترة يسيرة، يتحوّل بنظره الذهنيّ ليعود في الحال إلى الصورة التي خلقها لنفسه بنفسه. يتسلسل ذلك كلّه بالطبع في كذب الإنسان المنظم (والدائم) على نفسه، وإن كان ذلك ليس بالمدهش فأنّ الإنسان الخارجيّ يولد في الكذب ويعيش في الكذب ويموت في الكذب. ليس هناك سوى العمل الباطنيّ وحده الذي بمقدوره أن يقوده خارج هذه الأدغال، أي خارج الغابة المليئة بالحيوانات المفترسة التي يعيش في داخلها. لكنّه لن يكون حينئذٍ إنسانا خارجيّا.

يعطينا تدريب المشاهدة هذا نتيجة أخرى هامّة: ألا وهي التعرف على السمة الرئيسيّة للشخصيّة.

لكلّ شخصيّة سمة رئيسيّة هي المحور الذي تدور حوله كلّ محاسنها ومعايبها. لا يتحتم أن تكون تلك السمة بارزة (تجلب الانتباه)؛ بل قد تكون تافهة أو حتّى مضحكة. إنّ الإنسان لا يقبل إلا بصعوبة أن يتعرّف على نفسه في هذه السمة الرئيسيّة، وهو أمر جدير بالملاحظة. إلا أنّ التعرّف عليها وتقبّلها شيء هامّ. يمكننا أن نقول بلغة الصور أنّ الإمساك بها هو الإمساك بطرف الخيط الذي يسمح بفكّ البكر. إنّ الإنسان سوف يمكنه - بواسطة التعرّف على سمته الرئيسيّة وبواسطة دراستها - أن يحدّد النموذج (البشرى) الذي ينتمي إليه، وأن يتعرّف عليه، وأن يعيّن كذلك بكلّ دقة مركز ثقل شخصيّته في أحد الأقسام الثمانية عشر الموجودة بالمراكز السفليّة. إنّنا حينئذ نخرج من المجال النظريّ للشروع في العمل التطبيقيّ، وذلك بالتعرّف على أداء المراكز الثلاثة لوظيفتها، وبضبط ذلك الأداء. إنه العمل الذي يتمّ على امتداد ما أسميناه بسبيل التوصيل.

إنّ الممارسة العمليّة المتواصلة للمشاهدة، وخاصّة على شكلها السلبيّ كما وصفناه في الأسطر السابقة أداةُ للتمييز (بين الضعفاء والأقوياء). فالضعفاء يديرون ظهورهم للعمل ويتخلون عن بحثهم

عن الطريق لينغمسوا في الوهم أكثر وأكثر. أما الأقوياء فهم على تمام العلم بتلك الحقيقة الرهيبة التي تتمثل في مضمونهم الأخلاقي. كما إنهم يفهمون - لا فلسفيا كما لو كان الأمر يتعلق بشخص آخر غيرهم - بل يفهمون في أعماق نفوسهم المنقلبة رأساً على عقب أن الوقت قد أزف لتدوين الحساب ووضعه بين أيدي القاضي. لكنه أمر يتطلب شجاعة.

لقد أشرنا قبل ذلك عدّة مرّات أنّه لا يمكن الوصول للطريق إن لم يكن الباحث قد تقبّل الإفلاس الأخلاقيّ وتعدّاه. إننا الآن أقدَرُ على فهم سبب ذلك وما تعنيه تلك الحتميّة. إنّ للإنسان كلّ الصالح في إقامة ميزانيّته الأخلاقيّة منذ بداية العمل الباطنيّ: فإنّ جمع عناصر هذه الميزانيّة بالتدريج أقلّ مشقة عليه من تجميعها دفعة واحدة. ومهما اختلف المنهج المستخدم فإنّ الميزانيّة يجب أن تدوّن بكلّ أمانة لتسلّم بعد ذلك. فإنّ الباحث إذا بلغ مستوى الإنسان ٤ - أي بلغ نهاية السبيل الموصّل ليشرع في السير فوق الطريق لا يستطيع أن يظلّ حاملا لصورة كاذبة عن نفسه. بل يجب أن يصبح كالطفل أيْ أن يتجرّد من الكذب ومن الوهم تجاه نفسه، وأن يتخلص من كلّ المصطنع الذي ترسّب في داخله من جرّاء تعليمه وتربيته وخبرته للحياة. هذا هو معنى كلمات يسوع: أنّني لأقولها لكم بالحقّ إن لم تعودوا وإن لم تصبحوا كالأطفال الصغار فإنكم لن تدخلوا ملكوت السماوات[10].

إنّ هذا التدريب الخاصّ بالمشاهدة الداخليّة هو الأداة التي تسمح للباحث الشجاع المثابر أن يصبح من جديد طفلا وأن يدخل بقدم ثابتة إلى طريق الخلاص.

أما في شكلها الإيجابي فإنّ المشاهدة الداخليّة هي اختيار موضوع من مواضيع حياتنا الداخليّة نوجّه انتباهنا إليه؛ كما أنّها في الشكل النموذجيّ لها فحص الضمير على ما يجب أن يؤدى به عملياً.

إنّ الهدف هاهنا هو نفس هدف المشاهدة الخارجيّة الإيجابيّة.

إنّ أيّا من هذين التدريبين يؤدّى إلى التركيز ما إذا كان الموضوع داخليّا أو خارجيّا ما دام ملكوت الله هو في نفس الوقت في داخلنا وخارجا عنّا (أنظر الشكل ٢٧).

-١٠-

إنّ المشاهدة إذن يمكن أن تتخذ أشكالا تختلف تبعا للموضوع أو للموقف الذي نختاره. لكن الانتباه المزدوج إجباريّ دائما.

إنّ التدريب الخاصّ بالحضور (الحضرة) مجهود (يبذل) من أجل التيقظ. بل هو - كما سبق أن رأينا - ذلك المظهر الرئيسيّ لهذا التدريب. فإذا أدّيناه كلّ يوم على شكل المشاهدة السلبيّة وصل بنا إلى معرفة ذواتنا. إلا أنّه - نظرا لأنّ (حالة) الحضور (الحضرة) يجب أن تُصبح على قدر الإمكان (حالة) دائمة - وأنّنا لنشدّد على هذه النقطة نظرا لأهميتها - يجب على الباحث أن يمارس عمليّا الانتباه المزدوج على قدر ما يمكنه ذلك في أثناء قيامه (بكلّ) مشاغله. سيلاحظ مع مرور الزمن أنّ هذا المجهود للتذكر - أي للحضور، لا يعرقل قيامه بنشاطاته بل على العكس يوفر له عونا جوهريّا في إنجازها.

إنّ حالة الحضور (الحضرة) تتخذ شكلين ضمن شتّى أشكالها الأخرى يجب علينا بصفة خاصّة أن نعمل على اتباعهما: وهما (حالة) عدم الانجراف مع التيّار من جهة (أي اللا-انجراف) (وحالة) عدم الاعتبار (أي اللا-اعتبار).

لقد علقنا على هذين الموقفين في ظروف مختلفة. إلا أنّه يتحتّم علينا أن نعود من جديد إلى مظهر خاصّ من (شتّى مظاهر) الاعتبار.

---

[10] متى، ١٨: ٣.

يجب أن نعنى عناية دقيقة بحالة اللا-اعتبار الداخليّ بشكل أن تصبح شاملة. ولكننا لا يجب أن نخلط بينها وبين حالة اللا-اعتبار الخارجيّ. يكون الإنسان الخارجيّ عامّة وخصوصا عندما ينجرف مع التيّار مليئا بالاعتبار الداخليّ في حين يفتقر عندئذ للاعتبار الخارجيّ. يجب أن نحاذر من الوقوع في ذلك. إنّما يجب الزيادة من الاعتبار الخارجيّ على قدر الممكن. حيث أنّ الحياة الخارجيّة تتميّز بالطابع الميكانيكيّ على المستوى النفسيّ بنفس تميّزها به على المستوى الطبيعيّ. إننا لنعلم أنّه يجب علينا ألا نضع إصبعا لنا بين تروس آلة دائرة: فإنّه سيتهشم ويسحق وقد نتعرض أيضا لفقد الحياة. وهو ما يمكن أن يحدث كذلك على المستوى النفسيّ. يجب أن يظلّ انتباهنا مستعداً ويقظا فأننا آلات ويجب علينا أن نتفادى الاصطدام بالآلات النفسيّة التي تحيط بنا.

هذان هما في خطوطهما العريضة معنى وسبب وجود تدريب المشاهدة والغايات التي يسمح بالبلوغ إليها. يمكننا الآن أن نفهم لماذا يجب أن يمارس بلا انقطاع طوال الطريق. فهو يعمل في البدء بمثابة الوسيلة لبلوغ الطريق، ثمّ يعمل بعد ذلك كأداة لضبط ورقابة النتائج التي تكتسب في كلّ مرحلةٍ من مراحله (أي الطريق).

-١١-

تخصّ المجموعة السادسة من التدريبات التركيز وهو تدريب نفسيّ إيجابي. (أساسه) استبعاد الانتباه عن كل ما ليس بموضوع التركيز، معنوياً كان أم طبيعيا.

-١٢-

تتعلّق المجموعة السابعة بالتأمّل الذي يُوصل إليه إذا تمكنا من الاستمرار في التركيز على نفس الموضوع فترة زمنية محدّدة.

-١٣-

أمّا المجموعة الأخيرة فهي ترمى إلى بلوغ (حالة) الفناء. إنّ التركيز الذي يتلوه تأمّل مطوّل يؤدى بالإنسان إلى الفناء وهى حالة من حالات الوعي يكون الإنسان فيها، ما دامت مستمرّة، خارجاً عن الأحاسيس الخمسة[١١].

-١٤-

لا يمكن أن يستفيد المريد فعلاً من ممارسة المجموعات الثلاث الأخيرة من التدريبات ابتداء بالتركيز إلا إذا كان قد تحصّل مسبقا على نتائج ملموسة بواسطة الممارسة العمليّة المطوّلة للمشاهدة.

يجب علينا أن نوجه جهودنا قبل ذلك إلى ما يمكن التوصّل إليه وما لا غنى عنه للحصول على مستوى الإنسان ٤. فإنّه عندئذ كما حاولنا جاهدين أن نثبت ذلك سينفتح طريق الارتقاء الباطنيّ أمام الباحث وفقط عندئذٍ.

---

[١١] يوحنا، ١١: ٣٣؛ ١٣: ٢١.

-١٥-

علينا أن نتناول الآن من جديد بعض العناصر التي سوف تقودنا إلى فحص الشكل التخطيطيّ العامّ للطريق.

يَعيش الإنسان في الجسد الطبيعيّ. توجد في هذا الجسد شخصيّته التي هي كيان حيّ دقيق مزوّد بإنيّة مؤقتة. نجد وراء ذلك الكيان الحيّ الأعضاء العلويّة للوعي بالإنيّة الحقيقيّة والوعي وهي أعضاءُ مكتملة التكوين.

يجب أن نجلب الانتباه هاهنا على حتميّة استخدام مصطلحات محددة في معناها بكلّ دقة. كان اوريجين (١٨٥ - ٢٥٣) في كتابه المبادئ يحذّر تلاميذه بخصوص عدم الوضوح المقصود لمعاني بعض التعبيرات المعيّنة المستخدمة في النصوص فقال: هكذا كان الرسل يتكلمون أحيانا عن الجسد وهم يعنون النفس والعكس بالعكس. ولكنه أضاف: إلا أنّ الحكماء يعرفون كيف يميّزون بينهما.

بيد أنّه بالنسبة للإنسان الخارجيّ يحدث خلطٌ حقيقيّ مصدره الحالة الغير مكتملة لشخصيّته. فهو - فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة - لا يعرف عمّا في داخله سوى الشخصيّة التي تتمثل له كالنفس في مقابل الجسد. إلا أنّ الشخصيّة من جرّاء موقفها المعادي للإنيّة الحقيقيّة ترتبط بالجسد برباط أوثق من الرباط التي ترتبط به بالإنيّة الصحيحة. فينتج عن ذلك أن تصير النفس-الشخصيّة قابلة للموت.

فيما سبق تفسير التناقض الظاهريّ الذي ينتج عن وصف النفس بأنها لا تموت في نفس الوقت الذي نتكلم فيه عن خطر الهلاك الذي يداهمها وعن الالتزام الذي يقع على عاتقنا أن ننشغل بخلاصها. لا يوجد بالفعل سوى وسيلة واحدة للخلاص بالنسبة للنفس-الشخصية: ألا وهى اتحادها الوثيق بالنفس الصحيحة السرمدية - التي لا تموت، (الروح في المصطلح العربيّ الدقيق الذي يعوز اللغة الفرنسيّة كما أشار إلى ذلك المؤلف فيما بعد - المعرّب) - وتتجلى عند الإنسان في ظروف معيّنة من خلال المراكز العلويّة للوعي.

إنّ النفس - الشخصيّة ليس بها نور ولكنها تستطع من جرّاء الالتحام (المذكور أعلاه) بنور النفس التي لا تموت لتصبح الاثنتان حينئذ فصاعدا واحدا. وتحوّل قوّة الإنيّة الحقيقيّة الإنيّة الشخصيّة التي انطبقت عليها إلى إنيّة لا تموت. هذا هو معنى مصطلح الخلاص. وهذا أيضا هو معنى الخليقة كما حللناه في الفصل السابق.

-١٦-

إننا لنعلم أنّ اتّحاد الشخصيّة بالمركز الانفعالي العلويّ لا تتحقق إلا عند الولادة الثانية التي لا تحدث إلا على أثر عمل طويل على الشخصيّة من أجل اكتمالها.

ممّا سبق يمكن تعريف السبيل الموصّل: يتكوّن السبيل الموصّل من اكتساب تدريجيّ للمعلومات ولفن-الإنجاز ممّا يسمح باكتمال تطوّر الشخصيّة التي تحقق عندئذ مع الولادة الثانية اتّحادها الوثيق بالإنيّة الحقيقيّة. فتشرع الفرديّة التي تكون هكذا قد ولدت في السير بعدئذ فوق الطريق بمعنى هذه الكلمة.

إننا لنرى أنّ هذا التعريف يغطّي جزءا واحدا من الطريق بالمعنى العريض لهذا المصطلح ألا وهو سبيل التوصيل. إلا أنّ هذا الجزء هو الأهمّ بالنسبة للباحث فإنّ النضال الذي سار فيه ضدّ الموت ينتهي عندئذ بالانتصار.

يمكننا أيضا أن نقول أنّ هذا الانتصار هو (عملية) امتصاص المركز الانفعاليّ العلويّ للمركز المغناطيسيّ الذي يمتصّ المركز الانفعالي السفلى بعد أن يكون قد نظم (وضبط) ووازن مراكز الشخصيّة الثلاثة.

يتضمّن الجزء التالي من الطريق، بعد الانتصار، أي يتضمّن الطريق، بملء معنى هذا المصطلح، عملاً يتمّ في ظروف مُخْتَلِفَةٍ تماما وخارجة عن أيّ تسلط أو أيّ تأثير للموت وللظواهر المصاحبة له.

-١٧-

يتضمّن الطريق في مجموعه سبعة مقاطع تقع بين ثلاث عتبات. وهو يؤدى تبعا لمصطلحات الإنجيل من الموت إلى الحياة.

صُمّم الطريق تبعا لقانون سبعة وهو ينتقل من الحياة الخارجيّة حتّى العتبة الثالثة - التي هي الحدّ النهائيّ لارتقاء الإنسان الأرضيّ - على عشرة مراحل. يتعدّى الإنسان كلاً من هذه المراحل بواسطة مجهودات يركزها على عمل خلاق يصمّم تبعا لقانون ثلاثة.

يمكننا إذا عدنا إلى استخدام مصطلحات المسيحيّة الأولى أن نميّز ثلاث حالات[١٢] في هذه المراحل العشرة:

- طالبوا العماد (المسالك العديدة)	- وهم الذين تميّزوا المؤثرات "ب" ونجحوا في خلق جنين المركز المغناطيسيّ في داخلهم؛
- المؤمنون (سبل التوصيل العديدة)	- وهم الباحثون الذين يتقدمون نحو العتبة الثانية بعد أن عبروا العتبة الأولى؛
- المسيحيّون (الطريق)	- وهم الذين يرتقون نحو العتبة الثالثة بعد أن عبروا العتبة الثانية.

التقدّم فوق الطريق هو وضع الباطنيّة موضع التطبيق. ولنذكر القارئ أن هذا المفهوم ينطبق على طالبي العماد والمؤمنين والمسيحيّين الذين يواصلون ارتقاءهم الفردي بالمعنى الذي كانت الكنيسة الأولى تفهم به تلك الكلمات. يمكننا تميّز عدّة رتب تتمثّل في الثلاث دوائر المشتركة المركز المحاطة بمنطقة ترمز للأدغال[١٣] بما معناه الحياة الخارجيّة في الشكل التخطيطيّ التالي[١٤].

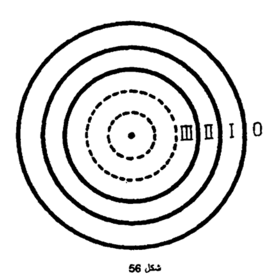
---

[١٢] يمكن مقارنة "الحالة" الموصوفة هنا بما يطلق عليه في الباطنيّة الإسلامية اسم الحال. وهو أحد المصطلحات الإسلامية الباطنيّة الثلاثة: الحال والمقام والمنزل الخ (المعرّب).

[١٣] فضلنا ترجمة Brousse بالأدغال، وأن كانت كلمة الأحراش انسب. والأحراش منطقة زرع كثيف ولكن قصير نسبيّا تتخلله الأشجار وتسكنه حيوانات عديدة. أما الأدغال فهي مناطق أشجار كثيفة ومتشابكة تغوص في زرع كثيف أيضا، وتشتهر بالحيوانات المتوحشة المتنوعة والمستنقعات الخ (المعرّب).

[١٤] لا يجب أن نخلط ما بين المناطق على النحو الذي عرّفناها به وما بين النظام التدرجيّ في قلب الكنيسة الذي كان يتضمن - أو كان يجب أن يتضمن سبع رتب:

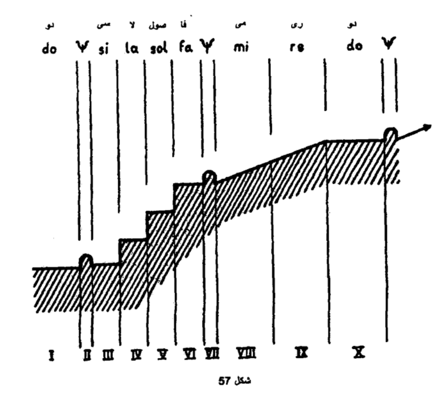
١) الرسل
٢) الأنبياء
٣) رؤساء الكنيسة (وكانوا يسمون أيضا ملافنة الكنيسة Docteurs de L'Eglise).
٤) الأساقفة.
٥) الكهنة (القساوسة).
٦) الشمامسة.
٧) المؤمنون.



شكل 56

صفر - الخارج، الأدغال، منطقة الانسان الخارجيّ؛
1 - الحلقة ، منطقة طالبي العماد؛
2 - الحلقة الوسطى، منطقة المؤمنين؛
3 - الحلقة الباطن بمعنى الكلمة، منطقة المسيحيين، رجال الداخل

تنقسم المنطقة الثالثة بدورها إلى ثلاث دوائر مشتركة المركز خصّصت على التوالي لرجال المستويات الخامس والسادس والسابع في الوسط.
وهاك الآن الشكل التخطيطيّ للطريق بكامل طوله:



شكل 57

صمّم الطريق في هذا الشكل التخطيطيّ تبعا لسلم (نغميّ) يبدأ من نغمة دو حتّى الدو التالية ويكوّن طبقة ثمانيّة. تكوّن الفاصلتان بين دو وسي ثمّ فا ومي بالإضافة إلى الفاصلة بين دو وسي من الطبقة الثمانيّة التالية العتبات الثلاث.
نَنتَقِلُ الآن إلى التعليقات على المراحل العشرة التي ترتسم لنا في هذا الشكل التخطيطيّ.

-١٩-

المرحلة الأولى

يمثّل الفراغ الموجود على يسار العتبة الأولى الحياة الخارجيّة التي تتميز بفوضى المراكز الثلاثة للشخصيّة. إنّ التمييز الدقيق المحدّد ما بين المؤثرات "ا" و"ب" يخلق جنين المركز المغناطيسيّ الذي ينجذب الباحث تحت تأثيره نحو العتبة الأولى.

المرحلة الثانية

فإذا ما وصل الإنسان إلى تلك النقطة يكون قد شرع في السير فوق مَسْلك. ويكون قد وضع وجها لوجه مع "الحياة": مع حياته هو بمشاكلها التي يمكن حلّها والتي "لا يمكن حلّها".
هذا هو أول اختباراته (امتحاناته) الباطنيّة. ويتكوّن هذا الاختبار من (عمليّة) إعادة تقدير عامّة للقيم. تعتمد النتيجة التي يحصل الباحث عليها في هذا العمل على مقدار ما يأتي به من موضوعيّة وشجاعة. يجب علينا أن نضغط بمجهود واع على أنفسنا لكي لا نكذب على أنفسنا خلال إعادة تقديرنا للقيم ولكي لا "نزوغ ذات اليمين واليسار" (أثناء إجرائه). يجب أيضا أن ننظر مليّا لمحيطنا وأن نحلله، وأن نواجه الوقائع ونعطيها قيمتها الذاتيّة (فقط) بلا (التجاء) إلى حلول وسطى وبلا شفقة على أنفسنا وعلى الآخرين. على الطالب بالطبع أن يحتفظ لذاته بنتائج إعادة تقديره للقيم.
فإذا ما تمّ المطلوب وجب علينا أن نستخلص النتائج. هل فقد الطالب الاهتمام بالحياة الخارجيّة التي تتوالى تحت تأثير العوامل "ا" فقط؟ وما مقدار فقدانه هذا؟ هل تزحزح مركز ثقل الشخصيّة نحو المركز المغناطيسيّ؟ هل يولي الباحث حقا هذا المركز بالاهتمام المستوجب؟ (الشكل ٢٠)
يجب في هذه الآونة أن نختار.
أفضل لنا أن نتراجع قبل أن نتخطى العتبة الأولى من أن نعزم الإرادة بعد عبورها على الرجوع ثانية إلى منطقة السعادة البرجوازيّة. إنّ الطريق يسير في اتّجاه واحد فقط. بعد (تخطّي) العتبة لن يكون هناك سوى بديل واحد: إمّا التقدّم فوق الطريق أو السقوط.ولكن العودة إلى الحالة الأولى تكون بعدئذ ممنوعة. إذا كان المركز المغناطيسيّ طاهرا (نقيّا) ومن التماسك بالقدر الكافي فسوف يظهر الرجل ذو التأثير "ج" (الشكل ٢٠). فيتخطى الباحث العتبة الأولى تحت قيادته.

-٢٠-

المرحلة الثالثة

بعد عبوره للعتبة الأولى سيكون الباحث قد تخطى حلقة من حلقات سلسلة التأثير الباطنيّ. إنّ طالب العماد يُعتبر إذا أصبح مؤمنا قد نجا بالرجاء[١٥]. وهو مع ذلك لا يختلف كثيرا عمّا كان عليه من قبل. فإنّ حاصل جمع المجهودات الواعية التي بذلها قد سمحت له بتخطي العتبة وهى بلا شكّ خطوة ضخمة إلى الأمام. ولكن الرغبة الصادقة في الخروج من الحياة الخارجيّة وهى الرغبة التي دفعته لذلك لا تكفي لوحدها لتحريره من المؤثرات "ا".

إنّ الباحث الذي وصل إلى النغمة سي (على يمين) العتبة الأولى يواجهه إنجاز العمل الخاصّ بالدورة الباطنيّة الوسطى. يجب عليه أن يركز بمتانة على هذه النغمة وان يصوب وجهه إلى الأمام. حيث أنّ من يضع يده فوق المحراث ثمّ يستدير للخلف ليس لائقا بملكوت الله[١٦]. إن المهمّة في نغمة سي بالنسبة لكلّ التلاميذ أن يستعيدوا ويراجعوا بكلّ عناية فيلم حياتهم من أجل الوصول إلى نتيجة مزدوجة:

أن يميّزوا موضوعيّا على قدر ما يستطيعون أن يفعلوا ذلك في هذا الطور من أطوار ارتقائهم - ما بين العناصر الدائمة السرمدية والعناصر الوقتيّة والصادرة عن الكرما؛

أن يثيروا في داخلهم - بمعاونة هذا التحليل - الرغبة المتأججة في التوصّل إلى العتبة الثانية.

إنّ عنف (تدفق) هذه الرغبة وحزم القرار هما الضمانان الوحيدان للنجاح. هذا هو السبب الذي يوجب على التلميذ أن يعلق أهمّيّة خاصّة جدّا على العمل في نغمة سي من الطريق. خاصّة وأنّ هذه النغمة نغمة قصيرة: فهي ليست بالفعل سوى نصف تون.

يجب على الإنسان قبل العتبة الأولى أن يتنبه لموقفه تجاه الحياة الخارجيّة بصفة عامّة. فإذا ما تخطّى تلك العتبة، يجب أن تصبح غايته فيلم حياته هو وليس تلك الحياة بأوهامها.

-٢١-

المراحل الرابعة والخامسة والسادسة

وهى تناسب النغمات الثلاث: لا وصول وفا من الطريق والتي تكوّن بإضافتها إلى نغمة سي السبيل الموصّل إلى الطريق بكلّ معنى هذه الكلمة.

إنّ هذا الطور بما فيه نغمة سي يُتمثّل (في هيئة) سلّم على الإنسان أن يصعد (درجاته) [قارن الفصل الخامس عشر القسم ٥].

إنّ لهذا السلّم الباطنيّ خاصيّة مميّزة يجب أن نجعلها دائما حاضرة في ذهننا. ليس من الممكن أن نقف على أية درجة من درجات السلّم مدّة أطول من اللازم. فإنّ هذه الدرجة تنهار (من تحتنا) بعد انقضاء مهلة معيّنة هي في حدّ ذاتها أكثر من كافية لإتمام المهامّ التي تستلزمها كلّ من النغمات المعنيّة.

على المؤمن خلال الارتقاء عبر النغمات لا وصول وفا وهو يصعد السلّم درجة درجة إنجاز المهامّ التالية:

- نغمة لا - أن يجعل الشخصيّة تنمو إلى أقصى حدّ ممكن؛

---

[١٥] الرسالة إلى أهل روميّة، ٨: ٢٤.

[١٦] لوقا، ٩: ٦٢.

- نغمة صول - أن يطوّرها؛
- نغمة فا - أن يوازن الثلاثة مراكز السفليّة باستبدال الروابط الميكانيكيّة الموجودة بينها بروابط واعية بين كل مركز مع المركز المغناطيسيّ الذي تصبح المراكز السفليّة من هذه اللحظة فصاعدا تابعة له.

وهكذا يصل المؤمن وهو يصعد السلم مبتدئا بنغمة سي ومارّا بنغمتي لا وصول إلى نغمة فا. فيصبح إنسانا ٤ بإتمامه لمهامّ هذه النغمة كما عرّفناها في السطور السابقة.

فيحلّ محلّ الأخلاقيّات الملغاة مفعول الوازع الداخليّ فيه وهو بمثابة تعبير جنينيّ للوعي بالإنيّة الحقيقيّة التي ينفذ بالتدريج إشعاعها من خلال المركز المغناطيسيّ إلى الشخصيّة كلها.

يجب أن يُشار إلى أنّ الإنسان ٤ يظلّ إنسانا خارجيّا من عدّة وجهات مختلفة؛ كما أنّه يظلّ أيضا قابلا الموت. ولكنّه على استعداد تخطّى العتبة الثانية التي يبدأ فيما وراءها الطريق بمعنى الكلمة، (أي الطريق) الموضوع في مأمن من المؤثرات "ا" ومن قانون العرض.

فإذا ما وصل التلميذ إلى تلك الدرجة أصبح إنسانا ذا تأثير "ج" (الشكل ٢٠).

لا يجب أبدا أن يغيب عن أنظارنا أنّ كلّ ما يفعله الإنسان يفعله بطريقة غير كاملة. فإن الإنسان ٤ من الوجهة النظريّة يجب عندما تتردّد نغمة فا بملء تردّدها أن يكون قد أصبح مسيطرا سيطرة مطلقة على نفسه وأن يكون نموّ وتطوّر شخصيّته قد بلغا أقصى حدودهما. ولو حدث ذلك فعلا لتمّ امتصاص المركز المغناطيسيّ للمركز الانفعالي السفليّ في حالة فرحة عميقة. بيد أنّ ذلك لا يحدث إلا نادرا. أنّ الإنسان وهو دائما وأينما كان في تأخير لا يستطيع عامّة أن ينجز مهمّته على كلّ درجة من درجات السلم إنجازا متكاملا. وبما أنّ المهلة المعطاة له (لإنجاز) عمله على كلّ درجة مهلةٌ محدودةٌ فإنّه يجد نفسه ملزما بالصعود للدرجة التالية خشية حدوث انهيار، فيصعد وهو يسحب وراءه جزءا يكون أحيانا لا يستهان به من معايب الكرما الخاص به.

يُسمح بذلك ولكن على شرط التطهّر تطهّرا مطلقا في نغمة فا.

-٢٢-

المرحلة السابعة

وجد طالب العماد نفسه "وجها لوجه أمام الحياة " عندما وصل إلى العتبة الأولى. ليجد بوصوله إلى العتبة الثانية أنّه "وجهٌ لوجه أمام نفسه".

فإنّه بعبارة أخرى سيرى شخصيّته في مجموعها وفي كلّ تفاصيلها. كما أنّه سيرى أيضا كلّ نتائج الكرما الخاصّ به، وكلّ التشويهات التي أحدثتها تلك النتائج في كيانه، وخاصّة تلك التشويهات التي تنبع من نفاقه تجاه ذاته ومن عديد الكذبات التي كذب بها على نفسه. هذه هي أصعب العناصر عند المشاهدة وبالتالي أصعبها عند معادلتها.

هذا هو ثاني اختبار كبير (للتلميذ).

فإنّه لأوّل مرّة في حياته سيرى نفسه رؤيا موضوعيّة على ما هو عليه بلا تجميل، بلا أدنى تسامح أو حلّ وسط، وبلا إمكانية للفرار.

إنّ هذا الاختبار بالنسبة للإنسان العادل (البارّ) ملئ بفرحة يعجز الكلام عن التعبير عنها. فهو يبدو له كنور الفجر.

أمّا بالنسبة للإنسان الظالم (الشرّير) - وهى الحالة العامّة - فإنّ رؤياه لنفسه تبدو مرعبة.

حيث أنّ التوازن الكامل للشخصيّة لا يمكن أن يُصلّ إليه إلا عند معادلة نتائج الكرما معادلة كاملة وهى (عمليّة) قد لا يستطيع (المريد) الذي يتوق، إلى التحرّر - وان كان صادق النيّة - أن يقدّر

طبيعتها وأهميتها. فهو لكونه مولودا في الخطيئة قد يعتبر بل ويعتبر فعليًا بعض مظاهر (أو جوانب) ذلك الكرما شيئاً بشريّاً وقياسيّاً.

إنّ كل ما يُتَلَقنُ ميكانيكيًا يفقد قوّته أمام العتبة الثانية؛ يجب أن نحطّم وأن نلفظ كلّ مواصِّ الصدمات وكلّ الأجهزة الآليّة لطمأنة الذات. يجب أن تدفع كلّ الديون وأن تدفع نقدا وبلا زيف.

يجب على المؤمن في نفس الوقت أن يتخلص من الواجبات الوهميّة التخيّليّة التي قد تتّخذ أحيانا قوّة إيحاءات التنويم المغناطيسيّ والتي يعطيها الكائن البشرىّ قيمة حقيقيّة.

إنّ هذه المواجهة للنفس تأخذ عامّة مجرى مأسوياً من جرّاء وصمات (وتشويهات) الكرما الذي يحمله كلّ منّا. إلا أنّها مواجهة لا يمكن تفاديها.

إنّ على الإنسان حينئذ أن يعمل قائمة الجرد لكلّ متاعه النفسيّ حيث أن الجزء الأعظم من هذا المتاع ظل حتّى تلك الآونة خارج مجال مراقبته، (مدسوسا) في مكان ما من أرشيف وعيه الباطن. ولسوف يدهش عند مشاهدته لمحتوى ذلك الوعي الباطن. فقد يكتشف فيه آثار أعمال بطوليّة أو ربما آثار أحطّ الجرائم (وأبشعها) أيضاً.

فإذا فرّ هاربا أمام ذلك الوحش الذي يجب أن يتعرّف على نفسه فيه سيسقط سقطة بأسوأ الأخطار.

يجب أن يتخذ موقفاً هجوميًا. وعندئذ سوف يتخاذل ويستسلم هذا الوحش - الشخصيّة. فيصبح الإنسان في هذه اللحظة (السيّد) المسيطر على نفسه. وبهذه الكيفيّة يثبت ويتكرسّ الوضع الممثّل في الشكل التخطيطيّ رقم ٥٦.

هذه هي اللحظة الحاسمة. فعلى الإنسان من الآن فصاعدا وقد تقوّى بالنصر الذي حاز عليه إنجاز مهمّة هي تغيير وجه شخصيّته (استخدم المؤلف كلمة جعل الشخصيّة تتجلى وهو المصطلح المستخدم في الأناجيل لوصف تجلي الربّ يسوع فوق جبل طابور: المعرّب). يجب عليه أن يبعث فيها صورة الجمال المشعّ. يقال بلغة التقليد أنّ الخطيبة سوف تزدان حينئذ بثوب العروس. فإذا تمّ ذلك تكون خطيبة المسيح مستعدّة لاستقبال الخطيب.

-٢٣-

تعتبر الشخصيّة المطوّرة المنسّقة قد ولدت (بالفعل) بتخطيها للعتبة الثانية. إنّها الولادة الثانية التي تماثل بالقياس من كلّ وجهات النظر ولادة الجسد الطبيعي. حيث أنها تمرّ بنفس الأدوار. يقيم المذهب بين العمليّتين (أي الولادتين) مقارنة مفصّلة تسمح للتلميذ ولمرشده أن يتحكما في انتظام الارتقاء. يتضمّن كتاب نيقوديموس أغيوريت الجهاد الغير مرئيّ واحداً من أحسن الوصوفات في هذا الصدد.

تتّحد الشخصيّة بعد تخطّي العتبة الثانية بالإنيّة الحقيقيّة. فتصير إنيّتها المؤقتة التي لم تنهدم بل تطوّرت إلى أقصى حدّ لها واحدا إلى ما لا نهاية مع الإنيّة الحقيقيّة: فيصبح الإنسان "٤" حينئذ إنسانا "٥".

يكوّن ذلك الاتحاد الذي لا يمكن أن ينحلّ الفرديّة. يصير للإنسان وجودُ حقيقيّ ابتداء من هذه اللحظة أو قل يكتسب الكينونة ابتداء من هذه اللحظة التي يستطيع بعدها أن يقول بكلّ ثبات: إنني سعيدُ حقاً بأن ولدت على الأرض.

فإن التجربة التي طالما تكررت قد انتهت هذه المرة بالنجاح.

-٢٤-

إنّ الشخصيّة البشريّة لها ثلاث حالات تماثل بالقياس الحالات الثلاث الخاصّة بالمادّة.

إنّ إنيّة الشخصيّة قبل العتبة الأولى تكون في حالة صلبة. وهو ما يعنى أنّ قوى الجذب الخاصّة "بالجزيئات" تتغلب فيها على القوى الطاردة المركزيّة. تتميّز هذه الحالة من الوجهة السيكولوجيّة

بالأنانيّة: كلّ شيء لي. إنّ الإنسان في تلك الحالة الصلبة لا يمكنه أن يفهم أيّ شخص آخر. وفي بعض الحالات - التي هي والحقّ يقال نادرة نسبيًا - يكون صلبا كالحديد ويعتقد أنه دائما على حقّ كما يعزى خيباته إلى الآخرين أو إلى "العوارض" (والحوادث). فهو واثق من نفسه.

في حين[17] أنّ الباحث عند الوصول إلى العتبة الأولى يكون خارجاً عن هذه الحالة الصلبة حيث أنّه لم يعد يؤمن بالقيمة المطلقة للمؤثرات "ا". لقد كان يجب أن تتخلله الشكوك منذ أن تفطّنَ إلى وجود المؤثرات "ب" وبَدَأ يميّزها من المؤثرات الأخرى. فهو إذ يصل إلى العتبة الأولى لم يعد كما كان صلْباً؛ بل يكون قد أصبح ليّنا.

تصبح الإنيّة النفسيّة بواسطة العمل الذي يتمّ بين العتبتين أكثر وأكثر مرونةً لتصبحَ سائلة عند نغمة فا. تستطيع (القوّة) الذهنيّة السائلة - بنفس الطريقة التي يستطيع بها أيّ سائل طبيعيّ أن يتخذ شكل الوعاء (الذي يصبّ فيه) - تستطيع أن تفهم الآخرين كما تفهم ذاتها بأن تتشكل بأشكالهم. توصف حالة مثل هذا الإنسان في اللغة الدارجة بالتعبير التالي: الإنسان ذو "الذهن المتفتّح" (والعقليّة المتفتّحة).

بعد العتبة الثانية يكتسب الإنسان ٤ وقد أصبح إنسانا ٥ الحالة النفسيّة الغازيّة النافذة إلى كلّ شيء والتي تسمح له أن يفهم كلّ الكائنات وكلّ الأشياء.

-٢٥-

المراحل الثامنة والتاسعة والعاشرة

يبدأ الطريق بمعنى الكلمة بعد العتبة الثانية. ويتضمّن ثلاثة مقاطع توضع على التوالي تبعاً لنغمات مي وري ودو.

ينفذ الإنسان الداخليّ تحت حمى نغمة مي إلى المنطقة العلويّة من التعليم الباطنيّ وهى المرحلة الثامنة. فتبدأ بالنسبة له عندئذ ضرورة تعليم الآخرين. ليكتسب من خلال تعليمه (الآخرين) في هذه المرحلة ملَكات جديدة تتناسب مع المميّزات الخاصّة لفرديّته. هذه هي هبات الروح القدس تبعا لمصطلحات القدّيس بولس[18].

يصبح الإنسان في هذا الطور إذا نُظر إليه من أسفل معلماً (أو شيخا أو أستاذا)؛ أمّا إذا نظر إليه من عل فهو يلقب بمساعد.

إنّ أول ملَكة جديدة قاعديّة، وهى ملَكة مشتركة بين كلّ الفرديّات - كما أنّها تتطوّر على امتداد مرحلتي مي وري - هي أهليّته على التمييز تلقائيًا ما بين الصحيح والمغلوط. إن هذه الأهلية ستصبح أيضا العلامَة المميّزة للإنسان الجديد في دورة الروح القدس.

أمّا في المرحلة التالية أي التاسعة، وهى موضوعة تحت حمى نغمة ري فإنّ على الإنسان ٥ وقد اكتسب الملكات الجديدة المناسبة لفرديّته أن يطوّرها إلى أن يعطيها شكلها المتكامل. فيحصل بذلك على الوعي الذي يتجلى فيه عن طريق المركز العقليّ العلويّ عبر المركز الانفعاليّ العلويّ.

فيصبح بواقع ذلك إنسانا ٦.

أمّا المرحلة العاشرة التي هي المرحلة الأخيرة من الطريق فهي التي يصبح الإنسان ٦ فيها إنسانا ٧. وهى تتميّز بتكريس (أي بترسيخ) النتائج المتحصّل عليها.

---

[17] الترجمة الأضبط للكلمة الفرنسية: Cependant هي في حين أن ...الخ. ولكنها يمكن أن تترجم: غير أن - أو بالرغم من..أو ما شابه ذلك.

[18] ١ إلى أهل كورنثوس، ١٤: ١.

انّه العماد بالنار وبالروح[١٩] . قال يسوع: لقد جئت لكي أنزل النار على الأرض ولكم أريد أن تكون قد اشتعلتْ فعلا[٢٠].

يحدث هذا التكريس (أي الترسيخ) بتسامي الجنس. وبذلك تكون الدائرة قد انغلقت من جديد. إنّ كلّ تجليات الحياة تبدأ بعمليّة جنسيّة؛ ولسوف يتجلى نشاط المركز الجنسيّ من جديد في نهاية الدورة ولكن على مستوى رفيع - أي مستوى المراكز العلويّة، وهو المستوى الذي يمتّ إليه بنفس طبيعته.

-٢٦-

للعمل الباطنيّ خلال المراحل الأولى مظهرٌ سلبيّ قبل كلّ شيء آخر، بما معناه أنّ الإنسان يسعى إلى التخلّص ممّا يعرقل ارتقاءه. أمّا الارتقاء فوق الطريق ابتداء من الولادة الثانية فهو على العكس لا يتضمّن سوى زيادة إثراء واكتساب صفات حميدة جديدة يُحصل عليها حتّى بواسطة (إنجاز) أعمال موازية للأعمال الباطنيّة بمعنى هذه الكلمة. إنّ هذه المراحل موضوعة في معزلٍ عن قانون العرض. ولكنّ السقوط يكون ممكنا فيها دائما.

إنّ الإنسان ٧ أي الإنسان التامّ أو الكامل تبعا لمصطلحات القدّيس بولس الرسول لن يصبح آمنا من كلّ إمكانية للغلط وبالتالي من السقوط إلا في المرحلة العاشرة على أثر التكريس بالنار والروح.

فإنّه من تلك الآونة فصاعدا سيحوز بداخله على الإنيّة وعلى الوعي وعلى الإرادة.

سوف يكون حينئذ قد وصل إلى العتبة الثالثة التي هي حدّ الارتقاء الممكن بالنسبة للإنسان الأرضيّ والفلك الثالث. إنّ المزيد من الارتقاء بالنسبة له أمر بلا شكّ جائز فإنّه ليمكنه أن يصبح إنسانا ٨ وإنسانا ٩. غير أنّه فيما وراء العتبة الثالثة يكون نطاق (ومجال) الفلك الثاني قد بدا بالفعل.

إلاّ أنّ الذين قد بلغوا المستويات ٥ و ٦ و ٧ نظرا للتأخير في سير ارتقاء البشريّة الأخلاقيّ يظلّون محتجزين لكي يعملوا وسط المجتمع البشريّ.

-٢٧-

هذا هو الإنسان الخارجيّ: ضعيف، جدير بالشفقة وان كان شرها قاسيّا: يعزى دائما إلى الغير أو إلى الظروف مسؤوليّة فشله المتكرّر. إنّ العالم كله مذنب بل إنّ كلّ شيء أيضا مذنب فيما عداه هو بالطبع. وقد نتمادى في سعير إلقاء اللوم (على الآخرين) إلى حدّ لوم يسوع الناصريّ لكونه لم يخلّص البشريّة خلاصا فعليّا...

إننا نستطيع أن نشترى الأطعمة للغير؛ وأن نحضّر بها وجبة؛ لنقدّم لهم هذه الوجبة؛ ثمّ نقوم بتهيئتها وبتقطيعها، كما نستطيع أخيرا أن نتخيّل وضع هذا الغذاء داخل فمهم بنفس الطريقة التي نستخدمها مع الأطفال أو المرضى. إلا أنه يجب على كلّ واحد منّا عند هذه النقطة أن يبذل المجهود اللازم لامتصاص الغذاء؛ فما من أحد يستطيع أن يحلّ محلّ الآخر لعمل ذلك.

صحيح أنّ القانون العام يحتجز الإنسان في مكانه، فإذا تحرّك منعه من التقدّم أو الرقيّ. وهو أيضا القانون الذي يميته. ولكنّ الإنسان لا يجب أن ينسى أنّه نفس القانون الذي جعله يولد والذي يجعله يعيش. كما أنّه يمنحه على الأقلّ ثلاثة أضعاف الوقت اللازم لكي يطوّر شخصيّته تطويرا كاملا،

---

[١٩] متى، ١:١٢ - مرقص، ١: ٨ - لوقا، ٣: ١٦ - أعمال الرسل، ١: ٥ و ٢: من ٢ إلى ٤.

[٢٠] لوقا، ١٢ : ٤٩ مذكورا تبعا للنصّ السلافوني. توصف نفس هذه الظاهرة في التقليد الهنديّ بهبوط الدارما ميجا - أي غمامة الفضيلة على اليوجيّ الذي تحصّل على درجة الكمال المطلوبة.

ولكي يستعيد بالولادة الثانية إنّيته الحقيقيّة ويشرع بعد تخطّيه العتبة الثانية في السير فوق المقطع العلويّ من الطريق.

قال القدّيس بولس الرسول: عندما كنت طفلا كنت أتكلّم كالطفل، وأفكر كالطفل، وأستدل بمنطق الطفل؛ وحينما أصبحت رجلا فقد تخليت عمّا هو بالطفل وحده خليقُ [٢١].

إنّ الإنسان الخارجيّ طفلٌ من وجهة النظر الباطنيّة. بل هو طفل شرّير مؤذ في غالبيّة الأحوال. لن يصير كامل الرجولة إلا بعد أن يصعد السلّم ويتخطّى العتبة الثانية. حينئذ سوف يتخلى عمّا هو بالطفل وحده خليق.

أمّا بالنسبة للمريد الذي شرع بعد تخطّيه العتبة الأولى في السير فوق السبيل الموّصل فإنّ ردّ عريفة معبد دلف على سقراط: اعرف نفسك[٢٢] يظلّ الأمر (الذي لا غنى له عن العمل به).

إلا أنّه لا يجب أن ينسى وهو يستعدّ للشروع في السير فوق هذا السبيل أنّه ذو اتّجاه واحد وأنّه سيوضع وهو فوقه أمام أحد حلّين: إمّا النجاح الباهر أو السقوط المرعب.

---

[٢١] ١ أهل كورنثوس، ١٣: ١١.

[٢٢] ترجمنا عبارة "Connais - toi - toi -meme" باعرف نفسك لتفادى ما تقتضيه ترجمة ابعد واقرب للأصل. فانّ كلمتي اعرف نفسك تفيان باللازم.

الفصل الحادي والعشرون

الهوّة (الحفرة) الموجودة بين الإرادة والمقدرة في الإنسان الحديث - يسمح الارتقاء بملء تلك الهوّة (الحفرة) - التعلّم/ الفهم / فن الإنجاز - الاندروجين - العودة إلى الوحدة قبل-الآدميّة بالتحام فرديّتين مستقطبتين - توقف نموّ وتطوّر الشخصيّة هما بمثابة عائق يمنع حدوث ذلك الالتحام - يجب تطوير الشخصيّة على امتداد السلم حتى أن تصل إلى شكلها المتكامل - الرغبة والأيمان والقوة والتمييز - الحبّ - مستوى الأبديّة هو بمثابة مجال الممكن - التحقيق داخل الزمان - تكرار التجسّد الكاذب - تكرار التجسّد الصحيح: وهو واع وإراديّ وخاصّ بالفرديّة كما أنه يقع بأكمله داخل الزمان - الفيلم الأوّل على الشكل الذي يُصمّمَ به في الأبديّة - إدخال هذا الفيلم في الزمان - عودة (الإنسان) غير المنتهية (على الأرض) فيما سمّي زيفاً بالتجسّد، وهى عودة غير واعية غير إراديّة ولا فرديّة- الأفرقة (جمع فريق) - تحركات الإنسان الخارجيّ الحرّة تثقل الفيلم الأول - الكرما - تستطيع المجهودات الواعية أن تغير شكل الفيلم الذي يمكن أن يوصف تقريبا بأنّه يدور في مسار حلزونيّ - تكرار التجسّد الجماعيّ الكاذب والعمل الواعي على (محتوى) الفيلم، ومعادلة الكرما والعودة إلى الفيلم الأول - مسار باطني مختصر بالعمل المتضافر والجهود الواعية لكائنين مستقطبين يكوّنان فيما بينهما فلكا صغيرا (إنسانا صغيرا) - الأولويّة والأهميّة (القصوى) للعثور على الكائن المستقطب والتعرّف عليه - الشرط المسبق (لذلك): (الإقلاع) التنازل (نهائيّا) عن التحركات الحرّة - معايير (ومحكّات) الاستقطاب - يتطلب تخطّى العتبة الأولى تخليّا وتنازلاً، ويتطلب تخطّى العتبة الثانية برنامجا إيجابيّا -

-١-

لقد قلنا في الكلمة الافتتاحيّة أنّ الدراسات الباطنيّة تساعد على النفوذ إلى معنى الارتقاء الحالي للإنسان وللمجتمع البشريّ. الأمر الذي يفسّر الاهتمام المتزايد الذي تثيره هذه العلوم في الأوساط المثقفة، وبصفة خاصّة بين الذين يبحثون عن تفسير وعلاج لمتناقضات الحياة الحاليّة، تلك المتناقضات التي أخذت مظاهرها وتأثيراتها تستفحل استفحالا واضحا كما إنها أخذتْ تضغط بثقل يتزايد يوما عن يوم على مصير الإنسان.

إنّ حدوث مثل هذه الاضطرابات والأرجحة (في اختيار النهج السليم) أمرٌ يطابق القاعدة في فترة انتقاليّة كالتي نمرّ بها. كذلك سبق ظهورَ الشمس دائما ازدياد بيّن لبرودة الليل. لقد تمّ مجيء المسيح على أثر قرن من الحروب الأهليّة التي مزقت العالم القديم.

إنّ الإنسان يحسّ اليوم إحساسا حادّا بالتعارض الموجود بين التقدّم الهائل في التطبيق الفنّي للعلوم وبين القصور الأخلاقيّ الواضح للبشريّة. إذ بينما تسير الحياة فعلا على المستوى المادّيّ وفق إيقاع تزداد سرعته من جرّاء الثورة السياسيّة والاجتماعيّة والصناعيّة التي تمّت منذ سنة ١٧٨٩، لم يتقدم الإنسان أيّ تقدّم ذي أهميّة على المستوى الأخلاقيّ. لذلك يجد نفسه (الآن) أمام ضرورة ملحّة في إجراء ثورة داخليّة، وفي تغيير شكل كينونته (موجوديته) تغييراً شاملاً يسمح له بإعادة التوازن المفقود بين المستويين الفني والأخلاقي إلى ما كان عليه بعد أن اختل اختلالاً أكثر من خطير.

إنّ كلّ كائن يفكّر اليوم يحسّ بتعاسته؛ فإنه إذا كانت طاقته على المقدرة قاصرة إلا أنّ حساسيّته المتزايدة تجعل إرادته أكثر إلحاحا في الطلب وأكثر إرهافا. وهو من جرّاء ذلك يرى تطلعاته تذبل قبل أن تكون قد أوتيت القوّة اللازمة للانطلاق (والرعرعة).

ليس لدينا سبب واحد معقول يدعو أن نأمل في أن ينصلح الموقف الحاليّ من تلقاء نفسه. بل كلما ازدادت - على العكس - سرعة التقدّم الفنّيّ كلما اتّسعت الهوّة الموجودة بين الإرادة والمقدرة في الإنسان الحديث. يمكننا رؤية هذا التناقض على كلّ المستويات. فإنّ كون العالم على سبيل المثال، وبعد مرور خمسة عشر عاما على نهاية الحرب العالميّة الثانية لا يستطيع أن يخرج من موقف ليس بحرب ولا بسلام، يشكّل في حدّ ذاته إثباتا بليغا لعجز العناصر المسئولة: وهو ما يحدث فعلا في جميع المجالات.

يجب على الإنسان الآن - لكي يصلح الموقف، ويستجيب للمستلزمات التي يفرضها عليه سير الزمان - أن يكتشف منابع جديدة للطاقة الأخلاقيّة بنفس الطريقة التي أوجد بها مصادر جديدة للطاقة الطبيعيّة عندما عثر بفضل الثورة الصناعيّة على البخار والكهرباء والذرّة.

يكمن حلّ المشكلة - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك - في تكوين طليعة قياديّة جديدة تكون قد طوّرت وربت بعناية فائقة ملَكّات أخلاقيّة كانت كامنة حتّى ذلك الوقت داخلها. إنّ هذه الملَكّات التي سوف يتميّز الإنسان الجديد بها ستسمح له أن يتفوّق على الإنسان العقلانيّ وعلى رجال الدولة الفنيّين تماما كما تفوّق هؤلاء على رجل الكنيسة وعلى الفارس اللذين تفوّقا في بداية العصر الوسيط.

-٢-

لقد زوّدنا (القارئ) بمفاهيم عامّة عن البنيان النفسيّ للإنسان الخارجيّ، وعن وضعه في الكون ووضعه بالنسبة للحياة العضويّة على الأرض. كما درسنا الإمكانيّات المفتوحة أمامه في بعض الظروف المعيّنة لكي يتطوّر تطوّرا نفسيّا تدريجيّا يهيئ له مدخلا إلى مستويات الوعي العليا.

إنّ التعليم والفهم ومهارة الإنجاز (فنّ الإنجاز) وكلهم ضروريين للوصول إلى ذلك الهدف أُحتُفِظ بهم على مدى القرون وخاصّة في الأرثوذكسيّة الشرقيّة. يكوّن الثلاثة في مجموعهم الطريق الذي قد حللنا محتواه في جميع أجزائه. أمّا فيما يختص بالتدريبات فقد أعطيت التعيينات اللازمة لكي يتمكن كلّ الذين يريدون أن يُثروا ويحيوا معارفهم النظريّة أن يشرعوا في العمل التطبيقيّ. عندما أخذت جذوة المسيحيّة الأولى المتقدة تخبو بمرور القرون ظلّ العمل الباطنيّ - فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة - متّصلا ولكن كالمصباح السهّاريّ الخافت، أي متّصلا على المستوى الفرديّ ما إذا كان ذلك وسط العالم أم داخل الأديرة: وبذلك فانّه حتّى عندما كان عدّة رهبان يعملون تحت هيمنة رئيس-"ايجومين" (أي مرشد ومعلّم - "ايجومين") واحد فإنّ كلا منهم كان يحدّد لنفسه هدفا خاصّا ويتابعه من نفسه. إلا أن المعنى الباطنيّ لعمل الرهبان (في الأديرة) أو عمل النسّاك (المنعزلين) كان بمثابة المجهودات التحضيريّة: فانّه كان يهدف إلى أن تتكدّس على المستوى النجميّ (الشمسي) الطاقات اللازمة لتسهيل عبور البشريّة لكبرى منحنيات التاريخ.

-٣-

انه لجدير بالملاحظة أن تكون تلك التغييرات في الاتجاه، وما تستلزمه من مجيء (وحلول) عصر جديد قد تميّزت باستمرار بالدور البارز الإيجابي الذي لعبته المرأة فيه على أشكال مختلفة. إنّ الأناجيل تشهد بهذا (الدور الفعلي) للمرأة. فلقد أعلن يسوع للمرّة الأولى أنّه المسيح لامرأة هي المرأة السامريّة قرب بئر يعقوب إذ قال لها: إنّني أنا هو ذا الذي يكلّمك [1]. كما أن المسيح قد أظهر نفسه (وتجلى) لامرأة أيضا هي مريم المجدليّة بعد القيامة، وذلك عندما ناداها فعرفته هي على اثر ذلك [2].

يمكننا كذلك أن يقابلنا مبدأ تدخّل المرأة (على الدوام) في كلّ الفترات التاريخيّة ذات الأهمّيّة الفاصلة. تقع عامّة ولادة العصر الوسيط في عهد حكم الإمبراطور جوستينيان الأكبر الذي تأثر كلّ العمل (الذي أنجزه) تأثيرا كبيرا بزوجته الإمبراطورة ثيودورا ذات الشخصيّة الفائقة القوّة. فقد لعبت ثيودورا دورا شبيها بدور أسْبَزْيَا عند وقوفها إلى جانب بريكلاس. فهي عندما أيدت وساندت الإمبراطور في لحظات الوهن التي لا يسلم منها أشدّ الطباع صلابة سمحت له بإعطاء العالم

---

[1] يوحنا، ٤: ٧ إلى ٢٦.

[2] يوحنا، ٢٠: ١١ إلى ١٦.

المسيحيّ تلك الدفعة فوق العاديّة التي ازدهرت نتائجها على مجرى القرون التالية. لا يجب أن ننسى أيضا لا الدور المخصب الذي لعبته النساء في بلاط ملوك العصر الوسيط، ولا دورهنّ كملهمات بالنسبة للفرسان اللائي شغلن بَالهم.

إنّ الفترات الزمنيّة التي يمحى في حياة المجتمع فيها دور المرأة الذي من شأنه أن يحث على النبل - فترات تتميّز بسوقيّة الأخلاقيات، ويظهر ذلك جليّا وبصفة خاصّة في تذوق الواقعية المتطرفة. إنّ اختفاء بلاط الملوك، وكذا الصالونات السياسيّة والأدبيّة التي كانت المرأة حتّى مطلع القرن العشرين تلعب دورا بالغ الأهميّة فيها قد حرم العلاقات الدوليّة من عامل إيجابي للتفاهم، وحرم الدبلوماسيّة من مرونة لا غنى عنها في تسوية المشاكل السياسيّة.

-٤-

إنّ العلاقات البشريّة تعانى اليوم من انحراف فعليّ للدور ذي الأهميّة القصوى الذي يؤول على المرأة أن تلعبه إلى جانب الرجل: فإنّها بدلا من أن تكون في تلك العلاقات القوّة الايجابيّة وعنصر الإلهام المخصب فتكمل الرجل، قد أصبحت المرأة تجنح إلى أن تسير بموازاة الرجل: وهو ما لا يمكن أن يسمح لها بإنجاز رسالتها الخلاّقة. وما كانت دورة الروح القدس لتسمح باستمرار مثل هذا الخلل في الاتزان. إنّ صورة بزوغ عصر الروح القدس التي أعطانا إيّاها القدّيس بطرس الرسول تتضمّن إشارة دقيقة. فإنّ الرسول قد وصفها (على شكل) سماوات جديدة وأرض جديدة تسكن الحقيقة فيها [٣].

إنّ ذلك النصّ الذي سبق لنا أن ذكرناه يتطلب الآن تعليقا من وجهة نظر مختلفة. إنّ الإنسان في دورة الابن ينطبق على إنيّة شخصيّة غير مطوّرة، وينعزل بذلك عن إنيته الحقيقيّة، ويعيش خارج صدر الربّ. أي أنّه يستمر بعبارة أخرى في حالة السقوط التي هي نتيجة للخطيئة الأصليّة: حيث يتهيأ له الوهم حقيقة. لقد تسبب هذا الانطباق على إنيّة الشخصيّة في تصدع وحدة الوعي التي كانت لآلاف من السنين غير قابلة لذلك - والخاصّة بالكائنين المستقطبين، أي الرجل والمرأة اللذين كانا يكوّنان هما الاثنان معا كائنا واحدا يتمتع بالوعي بالذات الحقيقيّة؛ وقد وصف هذا الكائن في أسطورة الاندروجين.

إن إنيّة الشخصيّة الغير كاملة الغير مكتملة والعاجزة تهيم وسط الحياة بلا إيمان صادق ولا عاطفة صادقة فتنتقل من خطأ إلى آخر، ومن ضعف إلى آخر، ومن كذبة إلى الأخرى. إنّ الإنسان من جرّاء كونه مسجونا - وربما كان مسجونا بإرادته وان كان ذلك لا يغيّر شيئا من وضعه - لا يعمل في الحياة ما يريد أن يعمل بل (على العكس) يعمل ما يمقت[٤] فيطيع بطاعة عمياء (أوامر) إبليس الميكانيكيّة التي تتحكم بأشكالها الثلاثة: الخوف والجوع والجنس [٥] في حياته. لا حقيقة في هذا الوجود المصطنع من أوله إلى آخره سوى إمكانيّة الارتقاء التي تظل كامنة فيه، والتي تشكل موضوع الدراسات والممارسات العمليّة الباطنيّة. فإنّ كلّ شيء في الحياة الخارجيّة - فيما عدا تلك البذرة - يقوم على الكذب. في حين لن يستطيع أي شيء كاذب أن يقاوم الجوّ الباعث للحياة في السماوات والأرض الجديدة المعلن عن (حلولها) في العصر القادم. سيختفي قبل كلّ شيء الكذب الذي يهيمن على العلاقات (القائمة) بين الرجل والمرأة، والتي يعتبر الوهم أقلّ أشكالها المحكوم عليها بالاستبعاد.

---

[٣] ٢ بطرس، ٣: ١٣.

[٤] الرسالة إلى أهل رومية، ٧: ١٥.

[٥] قارن بالفصل الثامن أواسط القسم الثالث.

إنّ عزلة الكائنين المستقطبين التي تسير وقد فرّق وحدتهما السقوط الذي هو النتاج المباشر لانطباقهما على إنيّة الشخصيّة، إن هذه العزلة لمنبع ضعف البشر وقد أصبحوا محكوما عليهم بالموت. في حين أنّ العودة للوحدة تبدو بمثابة منبع لا ينضب من الطاقات الجديدة الضروريّة للإنسان، والتي يجب عليه أن يبحث عنها ويقتنيها ليحاول أن يصلح بها توازن الحياة العامّة والحياة الخاصّة حاليّا، وقد اختلّ الاثنان اختلالاً خطيراً.

إلا أنّ عودة الكائنين المستقطبين إلى الوحدة الكاملة لا تتمّ إلا بدفع ثمن ذلك. بل هي (أي العودة) ميزة من تخطّوا، أو هم على وشك تخطى العتبة الثانية من الطريق. إنّ الخطيئة الأصليّة يمكن أن تفدّى بل يجب أن تفدّى بأن تحقق فرديّتان مستقطبتان وصلتا إلى الولادة الثانية الوحدة الكليّة والغير قابلة للتحلل لإنيّتهما الحقيقيّة. هذا هو حل مشكلة الحياة الخاصّة (للإنسان) وحلّ مشكلة الحياة العامّة في نفس الوقت. كما أنّها أيضا سلام الربّ [٦].

أليست الإنيّة الحقيقيّة، وهي روح النفس ونواة الفرديّة فينا - سوى شرارة إلهيّة وجزءاً صغيراً من جسد المسيح؟ هذه هي الكيفيّة التي يجب أن نفهم بها معنى نصّ القدّيس بولس الذي ذكرناه في مقدّمة هذا العمل: في الرب لن تكون المرأة بدون الرجل ولا الرجل بدون المرأة [٧]. وقد ذكرنا أيضا: فإنّه كما استخرجت المرأة من الرجل، يكون وجود الرجل بالمرأة وكل شيء يأتي من عند الله [٨].

-٥-

بهذه الكيفيّة إذن يكون حل المشكلة التي قد عرضناها في بداية هذا الفصل ألا وهى مشكلة البحث عن مصدر جديد للطاقة الأخلاقيّة. لقد توصّلنا له عن طريق المنهج الإيجابي للدراسات الباطنيّة. يمكن أيضا التوصّل لنفس الحل عن طريق المنهج السلبي، وكان موضوع دراسة في الفصل السابع عشر في بداية القسم التاسع والأخير من هذا الفصل.

إنّ للإنسان الخارجيّ - إذا ظل شخصيّة لم تتطوّر بعد - نطاقاً للبحث والعمل تحدّه ملَكَات المراكز السفليّة الثلاثة.

إنّ المركز الحركيّ الذي يعمل منذ (مرحلة وجوده) داخل الحيوان المنويّ، مركز متطوّر تطوّرا متقدّما في الإنسان. ولكنّه يمكن أن يضاف المزيد لهذا التطوّر بحيث أن يتعدّى بكثير المستوى الذي يعتبر معيارياً (أو قياسياً أو معهوداً). فإنّه يمكن مثلا أن نرفع الحياة الغرائزيّة من مستوى وعى هذا المركز إلى مستوى وعى الاستيقاظ، وأن نقوم بتنظيم (وضبط) بعض العمليّات الفسيولوجيّة. فإذا تم ذلك التدخّل في الحياة الغرائزيّة وتوبع بكفاءة (وجدارة) استطاع أن يحسّن الصحّة ويطيل العمر. إلا أنّ تأثيره يتوقف عند هذا الحدّ. (نستطيع أن نؤكّد) إذن أنّ تطوّر استعدادات المركز الحركيّ تمنح الإنسان جسدا صحيحا ومتفجّرا بالنشاط، ولكنه لا يزوده بمصدرٍ جديدٍ للطاقة الأخلاقيّة. والملحوظ في حضارتنا هذه أننا لا نهتمّ بتاتا بالتطوّر الكامل للمركز الحركيّ. بل إنّنا نعيش داخل جسد غير مكتمل يتعرض للعديد من الأمراض ويشيخ وهو لم يكد يتمّ نموّه. أضف إلى ذلك أن الإنسان لا يسعى لمحاربة تلك المضارّ بوسائل طبيعية، بل يتقبّلها بسلبيّة وكأنها (عوائق)لا يمكن تفاديها.

يركز الإنسان المعاصر كلّ جهوده على تطوير وتربية المركز العقليّ. فقد نُظّم كلّ شيء من أجل إكمال هذا المركز قسما قسما بإتباع المنهج (المناسب). فإنّ التعليم الابتدائيّ - الذي يهدف إلى تزويد الإنسان بأداة للعمل - يدرّس القسم الحركيّ من المركز العقلي بصفة خاصّة. أمّا التعليم الثانويّ الذي

---

[٦] يوحنا، ١٤ : ٢٧.

[٧] ١ إلى أهل كورنثوس، ١١: ١١.

[٨] نفس المصدر، ١١: ١٢.

يريد أن يزود التلميذ بثقافة عامّة فهو يعمل خاصة على تشغيل القسم الانفعالي من المركز العقليّ فيضيف بذلك عمله لعمل القسم الحركي من نفس المركز. صممّ التعليم العالي ليكون مدخل الطالب لثقافة تخصّصيّة (أيّا كان نوعها) وهو ما يحدث عند تطوير القسم العقلي من المركز العقلي بصفة خاصّة جداً فيتحول الإنسان على أثر كلّ هذا التطوّر إلى ما نسمّيه بالرجل العقلانيّ. إلا أنّ سعة موارد وإمدادات وحيل المركز العقلي التي تسمح له بإتيان المعجزات في مجال العلوم الوضعيّة ما إذا كانت بحتة أم تطبيقيّة تقتصر على ذلك، وعلى ذلك فقط. لقد بيّنت أعمال كانت وفيرشو أن مجال عمل العقل البشرى محاط بسور إذا جاز أن نقول ذلك لا يمكن النفاذ منه.

لم يتبقّ لنا سوى أن نفحص بسرعة وضع المركز الانفعاليّ. من أغرب المشاهدات بخصوص هذا المركز ترك نموّه وتطوّره كليّا في حضارتنا المعاصرة لمحض الصدفة. إنّ الحياة الانفعاليّة التي يعوزها التكوين المنظّم المنهجيّ تكون بالنسبة للإنسان مصدراً لغير المتوقع الذي يندر أن يكون مستحباً، ويندر أكثر أن يجلب التوفيق كما أنه يصعب حمل النتائج التي تترتّب عليه (أي غير المتوقع هذا). إنّ المركز الانفعاليّ - نظرا لعدم فرض تكوين انفعاليّ إجباريّ في حضارتنا هذه كتلك التي تفرض علينا لتكوين المركز العقلي - يظلّ غير مطوّر ومهملاً فيقع تحت تأثير المراكز الباقية في الإنسان الخارجيّ: الحركيّ والعقليّ، وأخيرا الجنسيّ. ولا نبالغ إذا قلنا أن وضع المركز الانفعالي في حياة الإنسان النفسيّة وضع القريب الفقير (أي المتطفل المخزي الغير مرغوب فيه) ومع ذلك فإنّ الإنسان لن يستطيع أن يفجر لنفسه مصدرا جديدا للطاقة الأخلاقيّة التي هو في أمس الحاجة لها إلا بتطوير ذلك المركز تطويرا ملائما.

إنّ التحكم في المركز الجنسيّ، وتمرين المركز الانفعاليّ هدفا العمل الرئيسيان من أجل الوصول لهذا المصدر.

-٦-

لنفحص الآن - قبل أن ننتقل لفحصٍ أعمقَ لمشكلة الارتقاء وشروطها - لِنَفْحَصْ توصية هامّة يجب أن نعمل بها منذ البداية وحتى الولادة الثانية. هذه التوصية هي إحدى القواعد الذهبية في التقليد: على الإنسان أن يزاوج (وأن يجمع) ما بين عمل المركزين العقلي والانفعالي. وهذه هي كيفيّة الوصول لذلك:-

إذا كانت المسألة المطلوب دراستها وحلّها تقع في حيز المجال العقليّ، على الإنسان بعد أن يكون ألمركز العقليّ قد أضاء (جميع جوانبها) وقبل أن يتبنّى النتيجة أو القرار النهائيّ لينتقل إلى الفعل عليه أن يستشير مركزه الانفعاليّ. كما أنّه يجب على العكس ألاّ يتصرّف وهو تحت تأثير دفعات أو تأثير المركز الانفعاليّ لوحده: بل عليه ألا يشرع في العمل إلا بعد أن يستشير مركزه العقليّ.

يجب على الإنسان بصفة عامّة أن يربّى في داخله بكل عناية مقدرته على تفهّم أيّة ظاهرة أو مشكلة من مشاكل العالم الخارجيّ أو الداخليّ بواسطة مركزيه الانفعالي والعقلي في نفس الوقت.

-٧-

يتوقف نمو الشخصيّة الطبيعيّ قبل أن يتمّ بفترة طويلة: فإنّ لهذا النموّ حدّا فرديّا يتوقف على مجموع عدد من العوامل يمكننا أن نذكر من بينها الحضارة والجنس (البشرىّ) والطبقة والبيئة العائليّة والاجتماعيّة، وأخيرا التربية والتعليم.

لا يمكن أبدا أن يتعدّى تطوّر الشخصيّة الحدّ المذكور بدون مجهودات واعية ومتصلة. إنّ كلّ ما يأتي به الإنسان عند ولادته استعدادات (فقط) أي بعبارة أخرى هبات. تظهر تلك الاستعدادات جليّة

بنموّ الشخصيّة. ولكنّ الأمر يتوقف عند ذلك الحدّ. يجب من اجل دفع تطوّرها القيام بمجهودات واعية.

هناك قانون واضح (صارم): من لا يطوّر هباته يفقدها [٩].

إنّنا نسعى عامّة إلى تطويرها بواسطة التعلم. والشخصيّة بالفعل تواصل نموّها ما دامت تواصل دراساتها أو أبحاثها، وإن كان هذا النموّ يعوزه التناسق في كثير من الأحيان. إلا أننا إذا وضعنا حدّا للدراسة أو للبحث، وإذا بدأنا في استغلال المعارف المكتسبة بطريقة روتينيّة، يتوقف تطوّر الشخصيّة.

إنّ أهم وأصعب مرحلة يتخطاها (المريد) على الطريق هي السلم الذي يسمّى (أيضا) بسبيل الوصول ويؤدى إلى مستوى الإنسان ٤ [١٠]. إنّ الذي يسعى إلى تسلقه يجب أن يجعل هذا المجهود هدف حياته الرئيسيّ. يجب أن يصبح العمل الباطنيّ محور وجوده، والمحور الذي يجب أن تدور حوله الظروف الداخليّة والخارجيّة للحياة عندئذ فصاعدا.

إن الأمر المطلق (أي الغير مبرّر بتنفيذ ما سبق) يجب ألاّ يكون (مصدر) تخوّف. كما يجب أن نعلم أن التجارب (والاختبارات) تبدأ منذ الدرجة الأولى للسلم.

يجب على الإنسان لكي يجتاز العتبة الأولى أن يمرّ بنجاح - وبدون أن يلتفت إلى الخلف [١١] - من التجربة الأولى: ألا وهى الاتقاد برغبة متأججة في التخلص من هذا التخبط (والتماوج) الذي يلغى بعضه البعض، والذي هو عين الحياة وسط الأدغال من أجل أن يلقى بنفسه (في أغوار) المجهول بحثا عن حياة جديدة متعقلة وحقيقيّة.

تستطيع هذه الرغبة المتأججة في التحوّل (الشامل) إذا كانت من القوة والحدّة بالقدر الكافي أن تملأ الفاصلة بين نغمتي دو وسي التي هي العتبة الأولى لينتصب الباحث واقفا على أولى درجات السلم بقدم ثابتة.

إنّ النغمات الأربع إلى تكوّن ذلك السلم ترتبط ببعضها البعض ارتباطا عميقا حيث أن رنينها (وترددها) من الدفعة الأولى للرغبة وهى دفعة المبادرة (والبداية). وبناء عليه فإن لم تطو تلك الرغبة الأولى تحت طوعها وجود الإنسان كله وان لم تستول على كيانه بأكمله، فمن الفضل بالنسبة له أن يتوقف والوقت مازال سانحا وألا يتخطى العتبة. فإن الطريق - ولا مانع من تكرار ذلك - سبيل بلا عودة. بذلك نتبيّن كلّ أهميّة تجربة الرغبة. يقول التقليد أنّ الرغبة يجب أن يكون لها قوّة العطش.

فإذا ما وصل الإنسان إلى الدرجة الأولى مرّ بتجربة الإيمان. إنّ مجرّد التصديق لا يكفي؛ يجب أن نمتلئ بالإيمان. يكمن (معنى) التجربة في أنه يجب على الإنسان أن يتغلب على خوفه من "الاعتماد الكلى" على الإيمان. كان يسوع يطمئن رعاياه بهذا الخصوص (قائلا): لا تضطربوا ولا تقولوا: ماذا سنأكل؟ ماذا سنشرب؟ ماذا سنرتدي؟ فإنّ كلّ هذه الأشياء إنّما يبحث الكفرة عنها. إنّ أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون لها. ابحثوا قبل كل شيء عن ملكوت الله وعن حقيقته وستعطون ذلك كله بالإضافة [١٢].

أمّا تجربة القوّة فهي تنتظر الصاعد على الدرجة الثانية من السلم. قال يسوع: إنّ ملكوت السماوات يقتحم بالقوّة وإنّما يستولى عليه المتعنّفون [١٣].

---

[٩] متى، ٢٥: ١٤ إلى ٣٠ - مرقص، ٤: ٢٥ - لوقا، ١٩: ٢٦.

[١٠] قارن بالفصل ١٥ القسم الخامس بأكمله - والفصل ٢٠ القسمين ٢٠ و ٢١ بأكملهما، وكذلك بالشكل ٥٧.

[١١] لوقا، ٩: ٦٢.

[١٢] متى، ٦: ٣١ إلى ٣٤.

[١٣] متى، ١١: ١٢ - لوقا، ١٦: ١٦. يوجد في النص السلافوني: والذين يتعنفون على أنفسهم يستولون عليه.

للدرجة الثالثة تجربة التمييز والتحايل (اللباقة الحذقة، والمهارة الخ...). يجب لفهم ما تتكوّن منه تلك التجربة أن نتأمّل في معنى مَثَل الوكيل الغير أمين[١٤] وهو مثل يبدو صعب الفهم. إنّه (بالفعل) اختبار. إنّ من يستطيع أن ينسق ما بين محتواه وبين التعليم (الإنجيلي) القائل: لن تستطيعوا أن تخدموا الله وممّون معاً[١٥] يكون أكثر تهيؤاً للصمود لتلك التجربة.

يجب على الدرجة الرابعة أن نجابه تجربة الحبّ، الحبّ الصحيح الذي يبعث الحياة، وهو نار ملتهمة، ولكم تختلف عن النار التي تسرى في الهشيم. أمّا عمّا هو الحبّ الحقّ، فلقد سبق أن بيّنّاه عندما ذكرنا القدّيس بولس الرسول[١٦]. يجب أن نحفظ هذا النصّ عن ظهر قلب. فهو سيف وهّاج يحرق لهيبه كلّ سبيكة (مخلوطة) وكلّ ما يعتبره الإنسان حبّا في داخله أو من الغير له وليس بحبّ. إذا احتفظنا بتلك الكلمات حاضرة في أذهاننا نستطيع أن نحكم في الحال على كلّ حركة من حركات القلب ونعلم إذا كانت تحتوى على آثار حبّ صحيح أم لا.

حتّى إذا ما اجتاز الإنسان تلك التجربة فإنّه لن يكون في داخله إلا الحبّ الخالص الذي يتضمّن عناصر الرغبة المتسامية والإيمان والقوّة والتمييز[١٧].

إنّنا لنرى (بذلك) أنّ التجربة على الدرجة الرابعة هي الحاسمة. فإنّه يمكن للإنسان قبلها أن يجرّ بل وهو عادة يجرّ معه وصمات ماضيه: الكذب والوهن والإشفاق على نفسه والحلول الوسطى الداخليّة. يكون لديه عامّة الوقت والفرص وإمكانيّة التخلص منها (أي من وصماته) قبل أن يصعد إلى الدرجة الرابعة؛ ولكنّه لثقل هذا الماضي يضيع الوقت ويترك الفرص التي تسنح له تفلت ولو جزئيّا منه. إلاّ انه يجب فوق الدرجة الرابعة أن تحدّد الميزانيّة العامّة وأن تسوّى الحسابات. يُقبل الإنسان وقد وقف عند العتبة الثانية فقيرا عاريا ولكن على شرط أن يكون متماسكا ونقيّا. (الشرط) الأساسيّ أن يكون متماسكا، بما معناه أن يحتوى في داخله على الحبّ الصحيح، فإنّ كلّ ما هو كاذب (ومغلوط) سوف يحرق في داخله بلهيب السيف الوضّاء...

ممّا يستدعى الملاحظة أنّ هذه التجارب تحدث كلّها معا وفوق كلّ درجة من درجات السلّم. ولكنّها توزّع بطريقة متساوية تبعا لخاصيّات شخصيّة كلّ منّا. وإن كانت كلّها تقع تحت لواء (أو في حمى) الرغبة. لكلّ درجة من الدرجات نبرة خاصة بها تجعل هذا المجموع يتردّد (ويتجاوب) مع النغمة المناسبة: نغمة سي في البدء وبعدها لا و صول و فا.

يجدر بنا حقاً أن نستعيد ما عرفناه عن مذهب الكرما، لكي ندرس بمزيد من التعمق عناصر التقدّم فوق السلّم حيث إنها تكوّن من الوجهة الشخصيّة فيلم الحياة.

إنّ قانون الكرما المشتقّ من مبدأ التوازن قد عرّفه القديس بولس الرسول في التقليد (على النحو التالي): لا تنخدعوا بهذا الخصوص؛ إنّ الله لا يُستَهْزأ به. وما يزرعه الإنسان سوف يُجنيه كذلك[١٨].

ولنتذكّر من الجهة الأخرى الكلمات التي حذّرنا بها يسوع تجاه الكرما وبيّن لنا الموقف الذي يجب أن نتّخذه لمعادلته (أي لإلغاء تأثيره)، إذ قال: تَرَاضَ بسرعة مع خصمك وأنت لا زلت تسير على السبيل معه، مخافة أن يسلمك للقاضي فيسلمك القاضي لضابط العدالة[١٩] وأن تودع في السجن. فإنّني الحقّ أقول لك لن تخرج من السجن إلا وقد دفعتَ آخر فلس عليك[٢٠].

---

[١٤] لوقا، ١٦: ١ إلى ١٣.

[١٥] متى، ٦: ٢٤؛ لوقا، ١٦: ١٣.

[١٦] ١ لأهل كورنثوس، ١٣: ٤ إلى ٨؛ راجع الفصل السابع عشر نهاية القسم الثالث.

[١٧] الرسالة إلى أهل رومية (للرومان)، ١٣: ١٠.

[١٨] رسالة بولس إلى أهل غلاطية، ٦: ٧.

[١٩] الكلمة في النص السلافوني هي المعذِب.

[٢٠] متى، ٥: ٢٥ و٢٦ ـ لوقا، ١٢: ٥٨ و٥٩.

يعيش الإنسان في الحياة الخارجيّة بالاستدانة من أكثر من وجهة نظر، ذلك إن لم يعش على إكراه الآخرين. يجترّ وراءه بدون أن يتفطّن لذلك تلك الوصمة الأخلاقيّة الخاصّة بالديون الغير مدفوعة وبانتهاكاته لمبدأ التوازن. يجب سداد كلّ هذه الديون وكلّ النتائج الناجمة عن الكرما تسديدا متكاملا قبل العتبة الثانية.

إن فعل الكرما فعل ميكانيكيّ؛ فهو بالفعل يهدف في كلّ حالة على حدة إلى إعادة حالة التوازن بصيغة آليّة لاختلالها بسبب التحرّكات الحرّة. وبالتالي فإنّ الكرما يعمل على التعويض لا بصفة شاملة بل بصفة مستقلة على مستوى كلّ قسم من أقسام نشاطات الإنسان على حدة.

-٨-

عندما يبدأ الإنسان صعود السلّم لكي يصل إلى العتبة الثانية ويتخطّاها، فهو يلتزم بذلك بموقف جديد تجاه نفسه: فقد أصبح من هذه اللحظة فصاعدا يمسك بمصيره بين يديه.

إنّها مهمة ثقيلة ودقيقة (في آن واحد). فإنّ الإنسان بالفعل لا يعيش في فراغ، ولكنّه يعيش وسط الظروف محاطا (بالناس) أمثاله. لذلك فإنّ أخذه لمصيره بين أيديه يفترض في الإنسان ويستلزم منه موقفا متعقلا وواعيا يستبعد القرارات الاندفاعيّة والبسيطة (إلى حد البلاهة) تجاه محيطه.

إنّ المشاكل التي تواجه عندئذ الإنسان تبدو عامّة بلا حلّ. وهي مع ذلك يجب أن تُحلّ. لكنّها في كل الظروف لن يكون حلّها حلاّ إيجابيّا بالمعنى الباطني إلا إذا وجد كلّ شخص من الأشخاص الموجود في المحيط حسابه[21] تبعا لأهمّيّة الدور الذي يلعبه. يجب أن نتصرّف بهذا الخصوص بما يتّفق مع التوجيهات التي أعطاها يسوع، والتي ذكرناها أعلاه.

إن احترام هذه المبادئ ليس بأمر سهل، ولكنّه ممكن على شرط ألاّ يكذب الإنسان على نفسه، وألاّ يسمح من هذه اللحظة فصاعدا بدخول أيّ أثر للنفاق والغشّ داخل قلبه.

-٩-

إنّ حياة الإنسان فيلم. يصعب بلا شك على أذهاننا الديكارتيّة أن تتقبّل ذلك المفهوم. فالأذهان ثلاثيّة الأبعاد تتكيّف تكيّفا سيّئا بالأفكار التجريديّة والوقائع التي تخصّ مجال السرمديّة (الأبدية).

مهما يكن الأمر غير مفهوم إلا أنّ حياتنا فيلم بمعنى الكلمة صممّ حسب سيناريو (معيّن). يدور هذا الفيلم "عرضا مستمرّا" بلا توّقف. بشكل أنّ الإنسان في لحظة مماته يولد من جديد، والأمر الذي يبدو (بالتأكيد) بلا معنى، هو أنّه يولد في نفس الموضع في نفس التاريخ الذي كان قد ولد فيه ومن نفس الأبوين. ويتوالى عرض الفيلم.

-١٠-

يولد إذن كلّ كائن بشرّى بفيلمه الخاصّ، وهو يمثّل حقل العمل الذي يدعى الإنسان لتطبيق مجهوداته الواعية عليه. ليست إعادة الفيلم تجسّدا من جديد، وان كان هذان المفهومان كثيرا ما يختلطان (في الذهن). إنّ الإنسان الخارجيّ الذي يعيش تحت حكم المستقبل والماضي - نظرا للأسباب التي سبق أن عرّضنا لها - لا يستطيع أن يحيط بمجموع فيلمه، أو حتّى بجزء فيلمه الذي يتضمّن المستقبل المباشر. يجب من أجل أن يستطيع عمل ذلك أن يوّسع شق حاضره. قد يحدث

[21] راجع الفصل الحادي عشر، القسم الخامس منه.

للإنسان مع ذلك أن يشعر أمام بعض الأحداث بانطباع وكأنه سبق له أن رأى ذلك أو من سبق له أن عاش ذلك. يرى البعض في ذلك إثباتا لصحّة (النظريّة) المزعومة والخاصّة بتعدد التجسد. إلا أنّ الظواهر التي تكون من هذا النوع هي في الواقع نتيجة لدفعة فجائيّة ووقتيّة من الطاقات الراقية الدقيقة في الكيان الحيّ: فيتسع حينئذ شق الحاضر الفرديّ لبعض اللحظات وتنفذ إلى وعى الاستيقاظ بذلك بعض الوقائع المؤثرة من وقائع المستقبل القريب: هذه هي كيفيّة ولادة انطباع عودة ماضٍ قد انطوى.

إنّ الأمر إذا نظرنا إليه بطريقة معيّنة هو بلا شك كما قلنا؛ إلا أنّ الانطباع بأنّنا قد سبق أن عشنا هذه الواقعة لا سبب له سوى أنّ الفيلم يدور بطريقة ميكانيكيّة. أمّا إعادة التجسّد فإنّنا يجب أن نفهم من هذا التعبير أنه ظاهرة تختلف تماماً في رتبتها. فإنّه في حين أن الفيلم النظريّ يدور دورانا متكاملا على مستوى الإمكانيّات بما معناه في الأبديّة، يلتصق فيلم الإنسان الخارجيّ بمستوى التحقيق أي بالزمان وإن كان ذلك بالقدر الضروريّ فقط للإيفاء بأغراض شعاع الخليقة. بيد أن إعادة التجسّد الصحيح يقع داخل الزمان بأكمله كما أنّه يخصّ بصفة متكاملة نطاق الحقيقيّ وذلك بالطبع في الإطار العامّ للتجلي. لقد أكّدنا كثيرا أنّ الشخصيّة البشرية ليست حقيقة بالمعنى الفعلي لهذا المصطلح، بل هي إمكانيّة. وهي تلعب دورها على هذه الحالة في الفيلم الذي ترتبط به والذي لن تختفي منه إلا في لحظة الولادة الثانية. لكن الشخصيّة لم تعد منذ تلك اللحظة شخصيّة حيث أنّها باتحّادها اتّحادا لا يتحلّل بالإنيّة الحقيقيّة تكون قد تبدلت (تبدّلا نورانيّا) وأصبحت فرديّة.

إنّ الفيلم يظلّ يدور بالنظام الآلي الصارم مادام الإنسان يعيش داخل الأدغال منغمسا في الأوهام والأكاذيب وراضيا عن نفسه. وتبقى الشخصيّة مساوية لنفسها. تبدأ الظروف في التغيّر عند اللحظة التي يتخطى الإنسان فيها العتبة الأولى. يمكننا أن نقارن عبور (هذه العتبة) إلى (بدء) الحمل بالفرديّة المستقبلة. أمّا السلم فهو يرمز إلى فترة نمو الجنين ويمثّل عبور العتبة الثانية الولادة الثانية: ولادة الفرديّة. تسعى تلك الفرديّة في فترة تطوّرها التالي مما يتناسب مع نغمتيّ مي و ري من الطريق إلى الاندماج المتكامل التدريجي في الأفلاك العلويّة. فتشارك تدريجيّا - باكتسابها عندئذ لهبات الروح القدس التي تتناسب مع طبيعتها - تشارك في الوجود الحقيقيّ الموضوعيّ الذي سوف يميّز كينونتها. هذا هو الخلاص بما معناه التحرّر من سيطرة الفيلم.

إن إعادة التجسّد بالمعنى الصحيح لهاتين الكلمتين أي التجسّد الفرديّ من جديد لا يكون ممكنا إلا عند تلك النقطة من الارتقاء فقط. فإنّ التجسّد من جديد ليس ميكانيكيّا بل يتم عن وعيّ وذلك لإتمام مهمّة ما.

لقد أعطانا الإنجيل مثالا للتجسّد من جديد. فإنّه في أثناء تحادث يسوع مع بطرس ويعقوب ويوحنّا وهم يهبطون معا من فوق الجبل بعد تجلي (يسوع)، سأله التلاميذ هذا السؤال: لماذا إذن يقول الكتبة أنّ إيليا يجب في بادئ الأمر أن يجئ[٢٢]؟ فأجاب قائلا: انه لصحيح أنّ إيليا يجب أن يجئ ليحضّر كل شيء. ولكنني أقول لكم أن إيليا قد جاء فعلا وأنهم لم يتعرّفوا عليه وعاملوه كما أرادوا. كذلك أيضا سوف يعذب ابن الإنسان على أيديهم. ففهم التلاميذ حينئذ أنّه كان يكلّمهم عن يوحنّا المعمدان[٢٣].

وقد تكلّم يسوع في غير هذا الموضوع عن يوحنّا المعمدان فكان (فاصلا) قاطعا إذ قال: إذا كنتم تريدون أن تفهموا فإنّه هو إيليا الذي كان يجب أن يجئ. ثمّ أضاف قائلا: من له أذان ليسمع فليسمع[٢٤].

فانّه لأمر هامّ بالفعل أن نتملك بكلّ وضوح من فهم الفارق الذي يوجد بين الفيلم وهو تمازج وتلاقٍ وتقاطع إمكانيات[٢٥] وبين التجسّد من جديد داخل الزمان وهو يخصّ مجال الحقيقيّ، كما أنّه

أمر هامّ أيضا أن نفهم معنى ذلك كله. إنّ الإنسان يفلت من قبضة الفيلم في لحظة الولادة الثانية بما معناه بتخطّيه العتبة الثانية ويدخل بذلك داخل نطاق الفداء. فيقبل حينئذ داخل أخويّة الكائنات الأحياء المقدّسة، وتدعى في التقليد بالأخويّة الباطنيّة الكبرى. يقول القدّيس بولس الرسول: إننا لنعلم بالإضافة أنّ الأشياء تتضافر ساعية كلها إلى خير من يحبّون الله الذين قد دعاهم هو بما يتّفق ومقصده. فإنّ الذين قد عرفهم مسبقا قد اصطفاهم أيضا مسبقا ليكونوا أشباها بصورة ابنه حتّى يكون ابنه بكرا للعديد من الإخوة [٢٦].

إنّ الأخويّة الباطنيّة الكبرى قوّة لا تتزحزح؛ والذين يصبحون جزءا منها لن يكونوا بعد ذلك عرضة لا للمرض ولا للكدر كما أنّ الموت يفقد سيطرته عليهم. فإنّهم على التدريج الخاصّ بهم قد انتصروا هم أيضا على العالم عملا بمثل الربّ [٢٧].

-١١-

إنّ الفيلم الذي يولد الإنسان فيه ويعيش فيه يمكن أن يظلّ يدورُ من وجهة نظر المبدأ حتّى نهاية العالم على شرط أن يكون الإنسان فيه سعيدا وراضيا عن نفسه. يمنح نفسه كلّ الصفات الفاضلة ويحمّل الآخرين أسباب أخطائه ومصائبه. إنّ مثل هذا الوجود لا يمكن أن نعتبره وجوداً بشريّا بالمعنى الخاص بهذا المصطلح. لقد سبق أن وصفناه فقلنا إنه يقترب من وجود الإنسان [٢٨] (أي أنه يختلط بكثير من الحيوانيّة). إنّ استخدام ذلك المصطلح له مبرراته حيث أنّ الإنسان الخارجيّ المنغمس في الاكتفاء يمثّل (القمّة التي) تتوّج ارتقاء نوعه الآلاف من السنين، ابتداء (بسلالة) أجداده الحيوانيّة، في حين أنّه من وجهة نظر الارتقاء الباطنيّ لم يزل إمكانيّة لم تتحقق بعد.

إذا واجهنا مشكلة الارتقاء الباطنيّ من وجهة نظر الفيلم وشتى الأوضاع التي يمكن للإنسان أن يشغلها فيه، يبدو بوضوح أنّ هذا الارتقاء يظلّ مستحيلا مادمنا نستطيع أن نعتبر الفيلم من الوجهة التطبيقيّة) العمليّة يدور في نفس الدائرة. فإنّ الشخصيّات فيه سبق أن أسميناهم ألقريبيّ الشبه من الإنسان أو دمى (تتحرك بواسطة الخيوط) أو أمواتا تبعا لكلمة يسوع وان كانوا يعتقدون أنّهم أحياء [٢٩]. يبدأ الارتقاء الباطنيّ عندما يثبت الإنسان بمجهوداته الواعية مقدرته على كسر الدائرة ليحوّلها إلى حلزون تصاعديّ.

---

[٢٢] ملاخى، ٤: ٥.

[٢٣] متى، ١٧: ١٠ إلى ١٣ - مرقص، ٩: ١٣.

[٢٤] متى، ١١: ١٤.

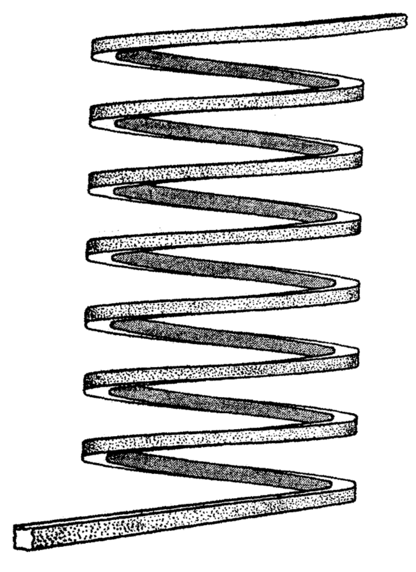
[٢٥] تمازج وتلاقى وتقاطع إمكانيات ترجمة للكلمات: jeu de possibiltès .

[٢٦] متى، ٩: ١٤.

[٢٧] يوحنا، ١٦: ٣٣.

[٢٨] يقترب من وجود الإنسان ترجمة للكلمة الفرنسيّة Anthropoide.

[٢٩] متى، ٨: ٢٢ - سفر الرؤيا، ٣: ١.



- شكل 58 -

يمثّل هذا الحلزون[٣٠] التصاعديّ حالة تتوسّط بين الوضع الذي توجد فيه الشخصيّة البشريّة الملتزمة بالفيلم الذي يدور دورانا ميكانيكيّا لا يكاد يفرقه شيء عن مستوى السرمدي - وبين وضع الفرديّة الكاملة الحرّة القادرة إذا عرضت الحاجة لذلك على أن تتجسّد من جديد تجسّدا واعيا داخل الزمان.

إنّ هذه الحالة حالة وسطى بمعنى أن الفيلم يبتعد بعد ذلك ابتعادا بيّنا واضحا عن مستوى السرمدي بما معناه عن مستوى الإمكانيّات. فيتحوّل منحنى الحياة الذي لا يختلف من الوجهة العمليّة عن الدائرة بالنسبة للإنسان الخارجيّ إلى حلزون، ولا ينتهي كما كان يفعل من ذي قبل عند نقطة بدايته بالتقريب: بل إنّ البعد بين هاتين النقطتين (البداية والنهاية) بعد الكسر الحادث، يعين تقدّما بيّنا وواضحا في الزمان. إنّ الفيلم ذا الشكل الحلزونيّ خاصّ بالذين يصعدون السلم. لقد سبق أن رأينا أن الانفصال الكامل عن الفيلم يحدث أثناء تخطى العتبة الثانية. إذا توصّل الإنسان إلى ذلك في مجرى حياة واحدة، وإذا كسر الدائرة منذ المرّة الأولى، فإنّه لا يعود لها من جديد. هذه الحالة نادرة جدّا: إنها

---

[٣٠] حلزون ترجمة للكلمة الفرنسيّة spirale؛ ولفة واحدة من لفات الحلزون هي ترجمة لكلمة spire (المعرّب).

الميزة الخاصّة بالعادلين (أو الأبرار). يستلزم عامّة هذا الانتزاع أكثر من حياة واحدة أي أكثر من دورة[٣١] في الحلزون.

والقاعدة العامّة وقوع كل دورة داخل الزمان فتبدو بالتالي وكأنها تجسّد جديد. إلا أنّ الأمر يتعلق في الواقع بعودة داخل الحياة الخارجيّة. إنّ هذا التجسّد الكاذب مَا هو بواع أو بشخصيّ: بل هو عودة لفريق المشاركين في الفيلم ولكن بدون أن يتذكروا الاختبارات (عديد التجارب) السابقة.

إلا أنّ التغيّر يصبح ممكنا حالما تهدف مجهودات الإنسان الواعية إلى الزيادة من أهمّيّة عامل الزمان بواسطة إدراك أوسع للحاضر.

إنّ محتوى القصة المسرحيّة في فيلم تتوالى (أحداثه) هكذا على امتداد دورات الحلزون يتغيّر بل ويتغيّر تغيّرا مزدوجا: أوّلا في مجرى الحياة (الواحدة) بما معناه خلال الدورة الواحدة ثمّ من لفة إلى الأخرى على الحلزون. فإنّ تركيب الفريق والظروف والديكور تتبدّل كلها. إلا أنّ عنصرين يظلاّن (كما هما) على الدوام: الهدف العامّ أولا وهو التوصّل إلى العتبة الثانية وتخطيها؛ ثمّ الشرط المطلق لتخطّي هذه العتبة والذي يجب تبعاً له أن تُعَادلُ وتصفي كلّ وصمات الكرما التي تراكمت في الحياة الحاليّة وكذلك أثناء اللقات الحلزونيّة السابقة. يقول التقليد: يجب تمثيل كلّ دراما حتى نهايتها قبل العتبة الثانية.

انه عمل قاس وصعب لأنّ الإنسان يرتكب أخطاءً باستمرار. إن القارئ المتنبّه قد فهم أنّ تتبع الحلزون أو صعود السلم وقفٌ على من سبق لهم استيعاب كمّيّة معيّنة من المؤثرات "ب" وأصبحوا يملكون مركزا مغناطيسيّا قد بلغ قدرا معقولا من التطوّر. لكن تلك الحالة -ونحن ننبّه بشدة لتلك النقطة - لا تؤمّن صاحبها بتاتا من الخطأ. صحيح أنّ الإنسان منذ اللحظة التي يشرع فيها في صعود السلم يكون تحت المراقبة وخاصّة إذا كان يبذل مجهودات صادقة بقدر جدير بالاعتبار. فتمدٌّ له الأخويّة الباطنيّة الكبرى يد المعونة. إنّ الوسائل التي تعبِّر عن هذه المساعدة هي لقاءات معينة وتضافر ظروف مواتية. إلا أن هذه الإسعافات لا تعفيه من أن يعمل بنفسه وان يواصل الجهود الواعية. يجب أن نقول أيضا أنّ المساعدة المعروضة (على المريد) لا تستخدم في كثير من الأحيان إمّا لأن الإنسان لا ينصت إلى ما يسدى إليه من نصائح، أو لأنّه لا يتفهم معنيات الظروف المواتية وإمكانيات التقدّم التي تتفتح أمامه. فإنه لكونه لازال ملكا لنطاق الوهم بنسبة تفوق خمسين في المائة كثيرا ما يستمرّ في اتّخاذ قرارات اندفاعيّة ويسير في عكس اتّجاه الهدف المنشود. فهو إذا كان يحملُ بعض المواقف على مستوى كلّ لقة من الحلزون إلا أنه في أكثر الحالات يدخل أيضا في الفيلم تعقيدات جديدة وخاصّة في العلاقات مع المحيط. لذلك يجب أن نفهم تماما أن الإنسان ما دام لم يبلغ ولم يتخطَ بعدُ العتبة الثانية يجب عليه أن يعيد كلّ شيء من جديد. عليه أن يعيد من جديد كلّ لفة حلزونيّة داخل الأدغال، وأن يتميّز المؤثرات "ب" ويتخطى العتبة الأولى ثمّ يصعد السلم درجة درجة. صحيح أنّ أيّ مجهود واع لا يضيع، ولكن الخبرة المكتسبة في اللقة الحلزونيّة الواحدة لن تظهر في اللقة الحلزونيّة التالية إلا على شكل استعدادات (أو قدرات) شخصيّة تلقائية (أي مولودة معه) أو على شكل تذكرات مبهمة فيما يتعلق بأشخاص الفريق.

يكمن واحد من اكبر العوائق التي (تعترض) الارتقاء في أنّ الإنسان لا يتهيأ عامّة للارتقاء الباطنيّ إلا في سنّ النضوج بعد أن يكون قد كدّس في حياته الحاليّة حاصلا لا يستهان بقدره من الأخطاء والتعقيدات الجديدة. فكثيرا ما يدخل في مجرى التمثيل شخصيّات جديدة غريبة على معنى حياته العميق، وغريبة على سبب وجود الفريق. ويلتزم أحيانا بالتزامات تقيّده قيدا وثيقا في حين أنّه

---

[٣١] كلمة دورة هي الترجمة للكلمة الفرنسيّة revolution

Mouvement qui part d'un point et y revient, e.g. Révolution du Terre autour du Soleil.

أحوج ما يكون لكل حرية التصرف التي لديه لكي يعوّض الوقت المبذر في مشاريع، أو من أجل قضايا لا دخل لها ألبتّة في الارتقاء الباطنيّ.

سيأتي اليوم الذي يتدارك فيه (حقيقة) موقفه. فالويل له حينئذ إذا خاف فسعى لقطع الروابط التي ربطها بكل عنف. فإنّه بذلك وبدلا من أن يبلغ الحريّة التي يتوق إليها سوف يقع في عبوديّة جديدة أكثر قسوة وأكثر بلاهة تضاف إلى العبوديّة القديمة. لقد زوّدنا (القارئ) في الفصل السادس عشر بفكرة إجماليّة عن الموقف الذي يجب على الإنسان أن يتخذه من محيطه. سوف نحاول الآن أن نبيّن الإجراءات التي يمكن أن تتخذ للبحث عن نهاية (أي عن حل للعقدة).

يجب أن يعلم الإنسان أنّه عند نهاية كلّ لفة من الحلزون تقام مقارنة بين الفيلم كما كان قد صمّم في لحظة الولادة، وبين ما آل إليه في لحظة الممات. تتم الميزانيّة التي تقارن بين هاتين الحالتين بالكيفيّة المعمول بها في (دفاتر) المحاسبات (أي) ببندي: ما له وما عليه يتلوهما حساب الأرباح والخسائر. فتبيّن هذه الميزانيّة نتيجة الحياة المنقضية بكل موضوعية. كما أنّها تمدّ بالعناصر القاعديّة لتركيب فيلم اللفة الحلزونيّة التالية عند نقطة بدايته. فإذا استطعنا أن نتفادى في الاختبار الجديد (أو المحاولة الجديدة) الأخطاء والتعقيدات التي تحدث على أثر التحركات الحرّة، لأصبح من الممكن أن نواصل ارتقاءنا الباطنيّ على منحنى تصاعديّ متناسق وهو ما لا يحدث عامّة. فإنّ الإنسان - كما كنا نقول - يقبل على ما يبدو أو يعود في الواقع إلى الفكرة التجريديّة للارتقاء بعد أن يكون قد زاد من تعقيدات الفيلم الذي أصبح يخصّه. إلا أنّه لا يمكن أن يحدث ارتقاء صحيح إلاّ على أساس الفيلم الأصليّ، بما معناه بعد إزالة كلّ العناصر التي أضيفت له اصطناعيًا. وهى عملية مشروطة بالعودة إلى طهارة (ونقاوة) المراكز، وخاصّة المركز الانفعالي المؤتمن الوحيد - على الأقلّ عند البداية - على المؤثرات "ب" ومقرّ (كرسي) المركز المغناطيسيّ. يجب أن يكون القلب إذن طاهرا (نقيّا) فإن لم تكن تلك حالته يجب أن يطهّر (وينقى). هذا هو الشرط الذي لا غنى عنه للنجاح. إنّ كلّ التعيينات (والإشارات) التي يتضمّنها الفصل السابع عشر وقد كرّسناه للكذب بكلّ مظاهره، قد أعطيت أصلا لتوضيح وإثبات الضرورة الجبريّة لتطهير (وتنقية) القلب وللعمل على إعادة تربية المركز الانفعالي تربية تسير في اتجاه إيجابي.

تفسّر لنا هذه الضرورة معنى جملة يسوع: إن لم تغيّروا أنفسكم بأنفسكم (أي تتوبوا) وإن لم تصبحوا مثل هؤلاء الأطفال الصغار لن تدخلوا إلى ملكوت السماوات[٣٢].

إنّ هذه الآية تستهدف الحياة الانفعاليّة قبل كلّ شيء. إلا أنّه منذ زمن الكنيسة الأولى كانت توجد هناك نزعة تفسرّ إشارة الربّ هذه على أنها تحثّ على الحدّ من تطوير الحياة العقليّة. وهو (بلا شك) خطأ. فإنّ العقل يجب أن يطوّر وأن يُشحذ، أمّا تأنيب يسوع كونوا مثل الأطفال فإنه كان يستهدف طهارة (ونقاوة) المراكز لا الدعوة لتركها على حالتها البدائيّة. لقد زوّدنا القدّيس بولس الرسول بخصوص نفس هذا الموضوع بتعليق دقيق (ومحدّد) ولا يترك مجالا للالتباس حيث قال: أيها الإخوة لا تكونوا أطفالا بالنسبة (لنضوج) الحكم[٣٣]؛ كونوا أطفالا في الخبث (والمكر)، لكنّكم إزاء الحكم (على الأمور) كونوا رجالا مكتملي البنية[٣٤]. كان الرسول - يجتلب أيضا - ممّا يتمشى تماماً مع توبيخه المذكور أعلاه، يجتلب انتباه معاصريه إلى واقعه أنّ الإنسان حتى ذلك العهد كان لا يزال في تأخرّ كبير على طريق ارتقائه. فقد قال بالفعل: كان يجب بالنسبة للزمان الحالي أن تكونوا قد أصبحتم أربابا في العلم؛ إلا أنكم لازلتم في حاجة لتلقن البدايات البدائية لما أنزل الله من النبوئات؛ لقد وصل

---

[٣٢] متى، ٢٨: ٣.

[٣٣] يوجد في النصّ السلافوني: بالنسبة للعقل.

[٣٤] ١ إلى أهل كورنثوس، ١٣: ٢٠.

بكم الحال أن صرتم في حاجة إلى اللبن لا إلى الغذاء القويم. بيد أنّ من يظلّ يعيش على اللبن ليس له خبرة بكلمة الحقّ[35] [36].

لا شك أن الإنسان قد فشل بالطبع حتى الآن في تعويض التأخير الموجود من أيّام القدّيس بولس. فإذا كنّا نريد اليوم أن نحصل على نتيجة ملموسة من وجهة النظر الباطنيّة يجب علينا أن نسرع في التخلي عن نظام (الاكتفاء) باللبن ونقبل خطر العدول إلى نظام الغذاء القويم.

هذا هو ما نحاول جاهدين أن نعمله بعرضنا المذهب على القارئ عرضا مسلسلا منظّما، وليس على شكل أمثال: إنه الغذاء القويم المقصود وقد بقى علينا الآن أن نزوّد القارئ في نفس هذا الشكل بالبيانات الخاصّة بإمكانيّة إتّباع درب مختصر يوصّل بسرعة للعتبة الثانية. لقد سبق لنا أن أشرنا إلى أنّ تلك الإمكانيّة مفتوحة أمام الكائنات المستقطبة أي أمام تلك الأزواج التي كان التقليد القديم يلمّح إليها من خلال أسطورة الاندروجين. سنتناول الآن هذه المشكلة بطريقة أكثر تحديدا ودقة من وجهتي النظر النظرية والعملية على التساوي.

-١٢-

يمكن على أساس التحليل السابق أن توصف المعطيات الأصلية لفيلم أيّ شخص بالطريقة التالية. إن هذا الشخص بوصفه بطل قصّة حياته يظهر حتميا في هذا الفيلم (في صورة) الممثّل الرئيسيّ. ولكنّه يمكن أيضا أن يشارك بصفة ممثّل من المستوى الثاني في فيلم أشخاص آخرين يلعبون دورا إضافيّا في الفيلم الخاصّ به. وبذلك يتداخل كلّ فيلم من أفلام أخرى تعود نفس الشخصيّات فيها ولكن في مواقف تختلف تمام الاختلاف. يجب - بالإضافة إلى ما سبق - أن نميّز بين نوعين من الممثّلين. يكوّن النوع الأوّل جزءاً حقيقيّا من التوزيع الذي يكون لهم فيه دور محدّد حيث أنّهم يرتبطون بالفيلم ارتباطا عضويّا. أمّا الآخرون (النوع الثاني) فإنهم لا يظهرون في الفيلم إلا بطريقة عرضيّة تدفعهم لذلك تحرّكات البطل الحرّة. ويزداد هذا التعقيد سوءاً لأنّ بعض الممثّلين بين الأصليّين الفعليين لا يحسنون تمثيل دورهم في حين أنّ البعض الآخر يمثّلون دورا ليس بدورهم. إنّ مثل هذه المواقف تحدث بكثرة في عامة الحالات. فلنفحص إذن تلك الظاهرة من عن كثب.

إنّ الشخصيّة البشريّة كما نعلم جيّدا كيان حيّ ذو جزيئات متعدّدة أو ذو وُجَيْهَاتٍ (أو أوجه صغيرة) متعدّدة، وعددها ٩٨٧ بالضبط. تكون الـ ٩٨٧ وجيهة - في الحالة المثاليّة التي لا تتحقق في غير الكائنات المستقطبة الحالة الوحيدة الناجعة (والخصبة) من وجهة النظر الباطنيّة - تكون تامّة الاستقطاب بين الرجل والمرأة. فإنّهما الزوج والزوجة المقدر لهما من ذي قبل أن يخلقا باتّحادهما زوجا بمعنى الكلمة. ومع ذلك فإنّ التوزيع يتضمّن شخصيّات أخرى تدخل في الفيلم لتمثّل فيه أدوارا ترتبط ارتباطا عضويّا بدور البطل ولتصل بمجموع الفيلم إلى أجله. إنّها النفوس-الصديقة، والنفوس-الإخوة، والنفوس-الأخوات، والنفوس-المعاونة، والنفوس-الخادمة الخ. لشخصيّات كل من هذه النفوس عدد معيّن من الوجيهات المطابقة لوجيهات البطل بالنسبة للممثّلين من نفس الجنس من الوجيهات المستقطبة بالنسبة للمثلين من الجنس المقابل. وقد يصل عدد الوجيهات المطابقة أو المستقطبة في حالة الإخوة والأخوات إلى النصف أو يفوق ذلك. إنّ الافتقار إلى التمييز وعدم الصدق تجاه أنفسنا والرغبة الفطرية في العثور على التجاوب الكامل لخلجات (أو تردّدات) أنفسنا مع

---

[35] الرسالة إلى العبرانيين، ٥: ١٢ و١٣.

[36] تبريراً لاختلاف ترجمتنا لنصوص العهد الجديد عن التراجم الموجودة في الكتب الشائعة والمتداولة للعهد الجديد، وكلها تراجم سيئة للغاية مع الأسف نسوق للقارئ الكريم ترجمة النص المذكور أعلاه لكي يحكم بنفسه على بعدها السحيق عن المعنى الفعلي:
"لأنكم إذ كان ينبغي أن تكونوا معلمين لسبب طول الزمن تحتاجون أن يعلمكم أحد ما هي أركان بداءة أقوال الله، وصرتم محتاجين إلى اللبن لا إلى طعام قوى. لأنّ كلّ من يتناول اللبن هو عديم الخبرة في كلام البرّ لأنّه طفل".

الاستعجال الناجم عما سبق بالإضافة لتأثير القانون العام المستمر (علينا)، إنّ ذلك كله يدفع بنا في الغالبية الساحقة من الحالات إلى توثيق ارتباطات لا يمكن أن تؤول بنا إلاّ إلى مواقف لا رأس لها ولا ذيل (ولا معنى لها). إننا نجد أنفسنا - بدلاً من أن نقاوم السراب، وبدلاً من أن نتريّث (وأن نتأنى) في البحث - نجدُ أنفسنا قد تورّطنا في ارتباطات تكون مصادر عذاب للشريكين والأطفال. بالإضافة إلى أن مثل هذه الارتباطات تبدّل معنى الفيلم في مجموعه وتفسد الحياة الشخصيّة لكلّ ممثلي الدراما. وفي النهاية فإن النتائج الباطنيّة المترقبة والتي عمل حسابها منذ أولى مراحل التأليف الأصلي للفيلم تصبح في خطر داهم.

تشبه حياتنا في أكثر الأحيان مسرحيّة صمّمت تصميما محكما، ثمّ انقلبتْ بعد ذلك الأدوار فيها رأسا على عقب بمعرفة شخص يجرى وراء اللامعقول، إلا أن كلاً منّا هو ذلك الكائن الشرير المؤذى، أو الكوميدي الرخيص.

نرتكب أكبر قدر من أخطائنا وأثقلها ثمنا على المستوى ألزواجي بواسطة (شتّى) الاعتبارات أو على المستوى الجنسيّ المحض من جرّاء عدم الاعتبار. حتّى ذوو النيّة الصادقة ليسوا بمأمن من الأخطاء. إنّ اتّخاذ أخ أو أخت زوجا أو زوجة يخلق وخاصّة من وجهة النظر الباطنيّة موقفا معقدا جدّا ويزداد تعقيدا عندما يتولد من هذه الزيجات أطفال.

تأخذ الحياة بعد ذلك طابعا خاصّا لدوام (اكتفاء) الإنسان بينه وبين نفسه بالحلول الوسطى. يؤثر هذا الموقف على صحّة "أزواج الصدفة" الأخلاقيّة والجسديّة الطبيعيّة: فينتاب التغيّر المركز العقلي عن طريق الغشّ والكذب؛ ويصاب القلب إذا كان المركز الانفعالي حسّاسا لازال يتوق إلى الحقيقة؛ وتظهر أخيرا أمراض غامضة المصدر، ومنها السرطان الذي يصيب الجسد في أكثر المواضع ضعفاً. تتسبب هذه الظروف بأي كيفيّة من الكيفيّات في فقد الإنسان على الدوام للطاقات المرهفة بما لا يمكن تفاديه ممّا ينجم عنه سرعة الشيخوخة والموت المبكر.

لكن المواقف المتولدة من أخطائنا لا يجب - مهما كانت صعبة - أن تمنع من يشرع بحماس في العمل الباطنيّ من إيجاد الشجاعة (اللازمة) داخل نفسه للنظر إلى الأشياء وجها لوجه والبحث عن مخرج ملائم. فإنّه إذا كان إبليس - القانون العامّ - يسعى لدفعنا من جديد لاعتناق الخطأ لسدّ سبيل الارتقاء الباطنيّ أمامنا فإنّ الربّ يمدّ لنا دائما يد العون المترفقة والحازمة في نفس الوقت. إلا أن استغراقنا ذهنياً في العقلانية الاستدلالية اللا أدرية المتطرفة يمنعنا في كثير من الأحيان من الإحساس بهذه المساعدة.

لقد سبق لنا أن بيّنا الخاصّيّة المميّزة والموضوعيّة للحلّ المتكافئ (والعادل) بالنسبة للمشاكل التي يواجهنا بها موقف تزيد أخطاؤنا من تعقيده: يجب فكّ العقد الغورديّة لا قطعها. بشكل أن يشعر الشركاء المقيدون بنفس العقدة بالارتياح عند اختفاء موقف لم يكن سوى مصدر للعذاب للكلّ.

فإذا تمّ ذلك كما يجب وكان تقويم الموقف قد تنفذّ بالفعل لما فيه صالح كلّ من كان يهمّهم الأمر، يتم العثور من جديد على المعنى المنبعيّ للفيلم وعلى تطوّره القياسيّ.

-١٣-

إنّ مجموع الأشخاص الذين يرتبطون ارتباطا عضويّا في فيلم ما يكوّن فريقا. يجبُ على هذا الفريق - تبعا للتصميم الابتدائي للفيلم - أن يبلغ هدفا محدّدا بتنفيذ المشاركين فيه لأدوارهم في الكوميديا - التي - هي - الحياة. يختلف هذا الهدف عن الأهداف التي يُسعَى لتحقيقها في الحياة تحت سيطرة المؤثرات "ا" وهى أدوات القانون العامّ من أجل تطوير شعاع الخليقة. فانّ الغاية المقصودة في الحالات الأولى لها دائما معنى باطنيّ: فإنّ الشخصيّات التي يتركّب (الفريق) منها يمكن بالفعل أن تكون مختلفة كلّ الاختلاف (عن بعضها) إلا أنّها لها جميعا ميل مشترك عميق واحدّ وهو الرغبة

في أن تخلص نهائيا من الكذب ومن الأوهام وتخرج من سيطرة المؤثرات "ا" وتبلغ في شكل أو في الآخر الوجود الموضوعيّ حيث يجد الإنسان إنّيته الحقيقيّة وينطبق عليها.

يجب أن نبيّن هاهنا القانون الرئيسيّ الذي يكون بمثابة القاعدة حين تكون هذه الفرق. إنّ أعلى الأجور على المستوى البشريّ يكون من نصيب (الرئيس) الآمر. ولكنّه يكون على العكس في الباطنيّة من نصيب من يعرف كيف يحسن الخدمة. والخلط بين المفهومين الفكريين الرئيسيين ألا وهما: أمر وخدمة قد يتّخذ أحيانا مظهراً دراميا. ويمكن ملاحظة ذلك حتّى بين تلاميذ يسوع. فلقد كان التساؤل بينهم لمعرفة من الأكبر (قدرا) منهم يؤرقهم وقد عدّد الإنجيل ذلك أكثر من مرّة[٣٧].

-١٤-

يجب من أجل أن نحسن فهم معنى تركيب الفريق (أي فريق كان) وفهم طابع المهمّة التي يمكن أن توكل إليه أن نتذكر أن حلزون الفيلم يمتد في وضع يتوسّط ما بين الدوران بلا مخرج على مستوى السرمدية وما بين التقدّم في الزمن الخاصّ بالتجسّد الواعي من جديد.

كلّما كان الفريق أكثر ارتقاء كلّما أصبحتْ المهمّة التي توكل إليه أكثر أهمّيّة. إنّ التاريخ يزوّدنا بأمثلة للعمل الذي ينجزه فريقُ (متضافر) في جميع المجالات: التشريعيّ والسياسيّ والحربيّ والدينيّ. يتّخذ دور النساء في الفريق أهميّة بيّنة بصفة خاصّة في الفترات المحورية الحاسمة من تاريخ الشعوب.

ولنتأمل أوّلا مثلين بارزي الأهمّيّة للفرق العلمانيّة.

إنّ المعطيات التاريخيّة الموجودة لدينا بخصوص حياة الإسكندر الأكبر تسمح لنا - بالرغم من الأساطير التي أخذتْ تطمس معالمها - بأن نتميّز معنى المهمّة التي كانت قد ألقيت على عاتقه. فلقد كان على فريقه الذي كان أبوه قد جمّع الجزء الأكبر منه أن يخلق عالما جديدا هو العالم الهلّينستيّ (ذلك الجمع) الهائل من المستمعين الذي كان مقدراً له أن يتلقى بعد مرور ثلاثة قرون كلمة الإنجيل وان يصبح مهد الحضارة المسيحيّة. لقد اعتبرت بعض الكنائس الأولى والقرآن نفسه بعد ذلك أن الاسكندر الأكبر رسول وقديسُ وذلك بإعطاء هذا المظهر الأساسي من عمل (الإسكندر وفريقه كلّ أهميته).

أمّا عن تاريخ فريق بطرس الأكبر فإن لدينا عنه معرفة اضبط وأدق بكثير. يبدو أنّ القيصر (الروسي) كان واعيا منذ سنّ حديث جدّا للدور الذي كان يجب أن يلعبه. لقد توصّل كليوتشفسكى وهو واحد من أفضل المؤرّخين للإمبراطور إلى نتيجة نهائية لا معنى لها ألبتة خاصّة وأنها بدرت من إنسان لا تعوزه الروح النقديّة ولا الأمانة العلميّة: فيقول هذا الكاتب أننا يجب من أجل أن نفسّر ما قام بعمله بطرس الأكبر أن نسلّم بأنّه كان قد جاء إلى هذا العالم يحمل معه خطّة إصلاح منسّقة من ذي قبل. انّه لمن الواضح إذا أردنا أن نفهم الأهمّيّة التاريخيّة الخاصّة بعهده انه يجب ترك الاعتبارات العقلانية الاستدلاليّة التي قد تفي بالمطلوب في حالات أخرى وهى في هذه الحالة غير كافية. كان فولتير يقول أنّه بعد محمّد (رسول الله) لم يوجد مشرّع أكبر من بطرس. وهو (إطراء) وليس بتفسير. لقد أراد بطرس أن يصفي توابع قرنين ونصف قرن من نير الاستعمار المغوليّ. والإمبراطور ببعثه الحياة من جديد في روسيا - البلد الأخير المتبقي على قيد الحياة من الشرق القديم والوريث الأخير له - كان يحث أيضا الشرق كله على الاستيقاظ من سباته ويبين له سبيل عصر نهضته الجديد. هذه هي الكيفيّة التي يمكن أن تفهم مهمّته بها.

[٣٧] متى، ٢٠: ٢٠ إلى ٢٨ - ثمّ ٢٣: ١١ - مرقص، ٩: ٣٤ - ثمّ ١٠: ٤٣ إلى ٤٥ - لوقا، ٩: ٤٦ - ثمّ ٢٢: ٢٤.

إنّ عطاء المرأة لعمل بطرس الأكبر جدير بالاعتبار. فلقد استند عليها لإصلاح الحياة الاجتماعيّة فأخرجها من داخل الحريم الذي كانت تعيش به في معزل عن مجتمع الرجال. كما أنّه أشركها في جمعيّاته الشهيرة وفي حياة البلاط. لقد كان دور كاترين إلى جانب بطرس دورا رئيسيّا كما وضّح ذلك س.م. سولوفييف (بصفة نهائيّة). سمّاها الإمبراطور صديقة القلب وقد كانت إذا جاز قول ذلك جزءاً من نفسه شاركته أفراحه وأسوأ الأخطار.

تخلى الجميع عن بطرس بالتدريج في نهاية حياته القصيرة نسبيّا - فقد مات في الثانية والخمسين من عمره. وهذا هو المصير الخاصّ بالأبطال الأنبياء. ومع ذلك فإنّ شجاعته وقوّته الروحيه وإدراكه الوضّاء للأمور لم يتخلوا عنه: فلقد أملى آخر فرمان قيصريّ له قبل وفاته ببضع ساعات.

إنّنا لنجد فيما سبق مثالا لعمل فريق يستهدف غاية محدّدة بدّقة. الحقّ يقال أنّنا لا نعرف ولن نعرف أبدا التفاصيل الداخليّة الدقيقة للعلاقات بين أشخاص فيلم بطرس. إنّنا نعلم أنّ العمل المشترك كان يصادف أحيانا صعوبات وفشلا. ولكن الصعوبات والفشل المتكرّر كانا يستثيران طاقة بطرس. ولقد كان هو يستثير بإيمانه الذي لا يتزحزح إيمان فريقه وشجاعة الشعب بأكمله. فإذا كان فريق بطرس الأكبر قد بدت عليه عند نهاية وجوده علامات خَوَر (ووهن) فإنّنا لا يجب أن ننسى أنّ مبدأ عدم الكمال يسود العالم. ومهما يكن من الأمر فإنّ هذا الخور (والوهن) لم يظهرا إلا بعد أن كان العمل قد اكتملتْ خطوطه العريضة.

تضمّن العهد القديم أكثر من وصف لعمل تمّ بواسطة فريق وكثيراً ما كان هدف هذا العمل علمانيّا ودينيّا في نفس الوقت. إنّنا لا نعرف إلا قليلا جدّا عن تركيب فريق نوح. تقول النصوص المقدّسة فقط أنّ السفينة قد استقبلت زوجا لكلّ جنس من الأجناس. بالنسبة لعمل موسى وهو عمل حربيّ وتشريعيّ معا فإنّ المعطيات عن فريقه أدقّ، أما المعطيات الخاصة بالملك داود فهي أكثر دقة. وإذا كان دور المرأة يبدو باهتا بالنسبة لنا في حالة موسى، فهو في حالة داود أوضح بكثير.

إنّ المثال الذي لا شبيه لعظمته على كلّ المستويات وخاصّة على المستوى الديني هو المثال الذي أعطانا إيّاه فريق الرسل تحت قيادة ربّنا يسوع المسيح. كان عمله أن يجعل العالم بأكمله يولد من جديد في دورة الابن وأن يرسي بذرة دورة أخرى هي الدورة الأخيرة أي دورة الروح القدس. إنّنا لنعلم - ولقد تم ذلك بلا شكّ بإرادة (الرب) - أنّ كلّ الأمور حتّى في (مثل) هذا الفريق لم تكن تسير بدون صعوبات أو أخطاء أو نقص إيمان. ذلك أنّ أعضاءه كانوا يعملون داخل العالم ويقعون تحت تأثير مبدأ عدم الكمال. ولقد كان يسوع وحده مع أمّه كاملا بلا أدنى دنس لا يتراجع أو يتردّد في حين أنّ الرسل أبدوا في أكثر من موضع علامات خَوَر (ووهن). إلا أنّ عملهم قد تمّ، ونحن على ذلك اليوم بعد مرور عشرين قرنا شُهُودُ: فإنّ كلمة يسوع التي يجب تبعا لها أن تُبَشّرَ كلّ الخليقة بالبشرى الطيّبة قد أطاعها الرسل وها هي قد تحققت[38] حاليّا: إنّ الإنجيل بالفعل قد انتشر في العالم بأكمله. وبانتشاره أصبحت مبادئ الحضارة المسيحية معترفا بها في كل مكان يزداد قبولها بالتدريج حتّى لدى العالم اللامسيحيّ. وبذلك يكون قد تحقق الشرط اللازم لكي ننتقل للدورة الأخيرة دورة الروح القدس.

إنّ ما نشاهده (موضوعيا) من عدم الكمال في عمل فرق مثل فرق الإسكندر، أو بطرس، وبالأحرى في فريق الرسل مدعاة لكثير من الارتياح والتشجّع بالنسبة لنا. يبيّن لنا كلّ ذلك انه لا يجب أن نستسلم للإحباط أمام ما نبديه من تقصير ووهن مادام الأساسيّ قد عُملَ. إنّ فشلنا وسقوطنا المتكرّر يجب أن نحلله، وأن نجعله بمثابة الدرس لنا. علينا أن نعود من جديد وبكلّ شجاعة للتمثيل لا تشغل أذهاننا إلا فكرة واحدة متسيّدة: أن نزيد من تفهّمنا لدورنا، وأن نمثّله للنهاية، وقد استعاد معناه الأصلي (الأول).

---

[38] مرقص، ١٦: ١٥.

-١٥-

لازال الفيلم الذي خلص من عناصر الكرما التي أقحمتها عليه تحرّكاتنا الحرّة في مجرى حياتنا الراهنة، لا زال يحتوى أيضا على كارما الاختبارات السابقة. نحن نولد بعبارة أخرى ومعنا سيناريو متقل من البداية بنتائج تحرّكات حرّة سابقة، حيث أنه لا يضيع شيء في هذا الكون. إنّ العناصر الخاصّة بالكارما وآثار المجهودات الواعية المبذولة تظهر (كلّها) من جديد عند ولادتنا في شكل يكمن داخل الوعي الباطن ويحدث تأثيرا معيّنا على حياتنا يبدو في شكل استعدادات وميول أو كراهيّات (ونفور).

إنّ الإنسان لن يرى محتوى كينونته المتكامل - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك - إلا عند قمّة السلّم في نغمة فـا من الطريق، يراه على حقيقته وبكلّ تفاصيله. إلا أن العمل الباطنيّ منذ عبور العتبة الأولى يجب أن يهدف إلى كشف المعنى الحقيقيّ للفيلم. يجب على الإنسان أن يعمل على إجراء تحليل غير متحيّز لمحتواه: فإنّ دور كلّ واحد من الممثّلين فيه وقيمة هذا الدور يجب أن يفحصا بكلّ دقة. يتكشف الطابع الإيجابي أو السلبي لمختلف هذه الأدوار بطريقة تزداد وضوحا كلما تقدّمت عمليّة التعرية هذه، وعلى أثر ذلك تأخذ العوامل الغير متجانسة في الاختفاء من فوق المسرح. لن يتضمّن الفيلم إلا عددا محدودا من الممثّلين عند نهاية التحليل الذي يسير بتلك الكيفيّة. لكنّهم سيكونون كلّهم مرتبطين ببعض ارتباطا عضويّا كما سيكونون مرتبطين مع البطل بواسطة محتوى المسرحيّة على الشكل الذي كانت قد صمّمت به في الأصل (عندما بدأت) الإنيّة الحقيقيّة تواصل تجاربها العديدة عبر القرون بل عبر آلاف السنين. يجب حينئذ أن نمثّل المسرحية حتى النهاية (أي حتّى أن تحل العقدة).

إنّ مهمّة الإنسان الجديرة بالأولوية (المطلقة) بعد عبور العتبة الأولى هي أن يضع نفسه في مأمن من تأثيرات الكرما أي من نتائج الأخطار المرتكبة عند قيامه بشتى التحرّكات الحرّة في الحياة الحاليّة أو قبل ذلك. كان الباحث فيما مضى يأوي إلى دير من أجل تسهيل المهمّة على نفسه أو يهيئ لنفسه أيضا صومعة أي "صحراء" بلغة التقليد الأرثوذكسيّ. وبذلك كان (المريد) الذي يمارس العمل الباطني يجد نفسه في مأمن من جزء كبير من المؤثرات "ا" ممّا كان يسمح له بتركيز مجهوداته على العمل ألاستبطاني تركيزا أفضل. ولكنّ تلك الصيغة قد أصبحت في عصرنا هذا رثّة (غير معمول بها). ومهما يكن من الأمر فإنّ الأديرة والصوامع لم تعد كما كان من ذي قبل ميسّرة وفي متناول الكلّ. إنّنا يجب علينا اليوم أن نعمل على المستوى الباطنيّ ونحن على حالتنا العلمانيّة. بالإضافة إلى ذلك فانّ إيقاع الحياة الحاليّة قد اختلف (عمّا كان عليه). إنّ عصرنا هذا يستلزم وسائل مليئة بالطاقة وسريعة.

-١٦-

السؤال الأخير الذي يجب أن نلقى الضوء عليه هو: هل يوجد سبيل باطني مختصر لتخطى السلّم الموجود بين العتبتين بوسيلة سريعة ونحن نعيش ونعمل في وسط العالم[٣٩]؟

إنّ هذه الوسيلة موجودة. ولقد لمّحنا لها أكثر من مرّة: عمل اثنين معا. يبدو مؤكّدا أنّ تلك الوسيلة في العصر الجديد الذي أصبح وشيكا ستحظى بالتفضيل والحماية لتصير في النهاية الوسيلة الوحيدة المستلزمة. إلا أنّه لكي يشرع اثنان في هذا العمل ولكي يواصلان بنجاح فإنّه لا غنى عن كون الكائنين المشتركين فيه أي الرجل والمرأة مستقطبين استقطابا متكاملا.

---

[٣٩] في وسط العالم ترجمة للكلمة الفرنسيّة: dans le siécle.

إنّ منهج العمل هاهنا عكس المنهج المعروض فيما سبق، والذي لا مناصّ للإنسان فيه عند النهاية من العثور على الكائن المستقطب استقطابا متكاملا معه أي زوجته الشرعيّة التي يتّحد بها آنذاك وكان قد توصل إليها بعد العديد من الاستبعادات المتتالية نتيجة لتحليله المستفيض الدقيق لفيلمه.

أمّا في الحالة التي نحن بصددها فإنّ الإنسان يبدأ بالبحث بحثا واعيا عن الكائن المستقطب. فإذا عثر عليه يستطيع الاثنان أن يبدآ العمل معا على الفيلم المشترك بينهما منذ الأصل.

إنّ الرجل بمفرده غير كامل. لكن الكائن المستقطب قويّ في هذا الذي يكون الرجل فيه ضعيفاً. فهما في مجموعهما يكوّنان كائنا متكاملا: يحدث اتّحادهما التحام شخصيّتيهما وتبلورا أسرع لجسديهما ألنجمي (أي الشمسي) الكامل والمتّحد في ولادتهما الثانية المشتركة. هكذا هو فداء الخطيئة الأصليّة (الأولى).

صُمّم نظام الأفلام بشكل أن يتقابل الكائنان المستقطبان إلزاميًا في الحياة وقد يتقابلان في حالات معيّنة أكثر من مرّة. تتسبب الروابط الغير متجانسة التي يعقدها كلّ من الاثنين على حدة على أثر تحرّكات حرّة ونتائج الكارما (الناجمة) عن اختبار سابق أو عن عدّة اختبارات سابقة - تتسبب في إحجام الرجل أو المرأة عن الكائن الأوحد الذي يمكنه أن يكوّن معهما فلكا صغيرا.

لو لم يكن هناك وصمة الكارما لتمّ كلّ شيء كأبدع ما (يمكن أن يُتَخَيّل): أي لكان التقى كائنان شابّان في أنسب بيئة عائليّة واجتماعيّة ولكانا اتّحدا معا في قصّة مثل قصص (ألف ليلة وليلة)[٤٠]. إلا أنّ الواقع يبعد كل البعد عن ذلك. فإن الكائنين المقدر لهما كل ذلك بإطاعتهما لمبدأ عدم الكمال واستجابتهما لتأثير القانون العامّ يرتكبان أخطاء. ثم ينغمسان في الكذب فلا يصبح في مقدورهما عامّة بعد ذلك أن يقيّما الهبة التي وُهبا إياها حقّ قيمتها أو أن يتعرّفا حتّى على بعضهما.

فإذا كان الأمر على هذا وهو بلا شكّ على هذا فإنّ هناك سؤالا مقلقا: هل يوجد وسيلة أو أكثر وما هي لاستبانة كائننا المستقطب؟ إنّ مقابلة كائننا المستقطب مع عدم التعرّف عليه أو مع تركه لحال سبيله أسوأ خطأ يمكننا أن نرتكبه: فإنّنا سنقبع بعد ذلك في حياتنا الاصطناعيّة التي لا نور فيها. ألا يمكن بل ألا يجب حتّى أن يُضَحّى بكلّ شيء في صالح هذا الاتّحاد الذي هو الفرصة الوحيدة في حياتنا: (تحقيق) الوعد بالعودة إلى الفردوس المفقود؟

لِنَحْذَرْ مع ذلك آخر فخّ (يُنصَبُ لنا) في اللحظة التي يبدو لنا فيها أنّ السعادة التي يعجز الكلام عن وصفها تبتسم لنا. إنّنا كنّا نقول منذ برهة يجب أن يُضحّى بكلّ شيء؛ لم نقل يجب كسر كلّ شيء. فإذا تغلب الكائنان المستقطبان بعد أن يتعرّفا على بعضهما - على هذه التجربة الأخيرة - وكثيرا ما تكون أضنى (وأتعب) تجربة، ستنفتح الحياة الجديدة أمامهما حيث أنهما ستكتب لهما أن يصبحا واحدا على الأرض وفي السماوات.

نعود الآن للسؤال التالي: ما هي الكيفية التي (يمكن بواسطتها) ألا يمرّ (كل واحد منا) مَرّ الكرام بعد أن يكون قد قابل إنّيته الأخرى الصحيحة وهى ضمان السعادة والخلاص؟

إنّ (لدينا) سلسلة كاملة من العلامات (والدلائل البيّنة) الذاتيّة والموضوعيّة التي تسهّل التعرّف على الكائن المستقطب. فإنّ الاستقطاب يتجلى على جميع المستويات في آن واحد: الجنسيّ والجسديّ والنفسيّ والروحيّ.

يجب أن نأخذ في الاعتبار بعنصرين اثنين.

العنصر الأول عنصر موضوعي. وهو تبعة من توابع مبدأ عدم الكمال الذي يتجلى في هذه الحالة وفي غيرها بوصفه إحدى كبرى المبادئ التي تشرط وتحكم الحياة. فإنه إذا كان صحيحاً أن الرجل والمرأة المقدّر لهما من ذي قبل أن يكونا لبعضهما كائنان مستقطبان استقطابا مطلقا إلا أن هذا الاستقطاب ليس بالبسيط حيث أن الرجل يتضمن قدراً معيّنا من أعضاء وخصائص المرأة وكذلك

---

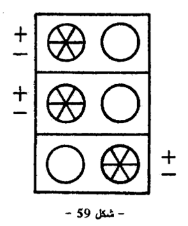
[٤٠] في النص الفرنسي يوجد : un veritable conte de fée ، وقد قابلناها مجازاً بالعربية قصة من قصص ألف ليلة وليلة.

المرأة تتضمن قدرا معيّناً من أعضاء وخصائص الرجل على المستويات الجسديّة والنفسيّة والروحيّة. أما عن هذا القدر أو هذه النسبة فإنهما لازمان وكافيان في نفس الوقت. تكون لازمه للسماح لكل كائن يأتي إلى هذا العالم بأن يحمل في داخل ذاته صورة المستقطب. يتم التعبير عن هذه الصورة في كلّ من الحالات بواسطة أعضاء الجنس المقابل الموجودة على حالة غير متطورة في كل كائن. فإن كلا منا يحمل في داخل ذاته - إذا جاز ذلك القول - جزءاً من لحم ودم كائنه المستقطب. وتكون النسبة كافية أيضا لأنها تمثل اقل كميّة لا غنى عنها لعدم المساس (والإخلال) بالاستقطاب الكامل فإن نسبة تواجد أعضاء وخصائص الجنس الآخر في كلٍ من الكائنات المستقطبه نسبة متكافئة تكافؤاً دقيقا وصارماً[٤١].

أمّا العنصر الثاني، وهو عنصر ذاتيّ فهو تشويه شخصيّتنا الذي يُعزى إلى الانحرافات الواعية أو اللاواعيّة التي وقعت عليها أثناء حياتنا، أو بتعبير أدقّ في مجرى وجودنا وذلك بالنسبة للفيلم الأصليّ (في البداية)؛ ومن شأن هذه التشويهات إمّا أن تزيد من صعوبة نفس التعرّف على الكائن المستقطب أو من جعل الإرادة تعمل بكل ما لديها للاتحاد به.

-١٧-

فلنفحص الآن الظاهرة الأولى للخليقة (أي) استقطاب الأجناس في تطبيقها على الإنسان. إنّنا لنعرف الشكل التخطيطيّ الكامل للكائن البشريّ:

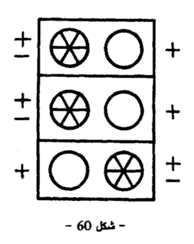


- شكل 59 -

إنّ هذا الشكل التخطيطيّ لا يبيّن اتّجاه المراكز الغير قابلة للانقسام (أي علامة الموجب أو السالب التي تحملها المراكز المعنية). أمّا إذا حدّدنا اتّجاه المراكز العلويّة والجنسيّة (أي علاماتها) فإنّ الشكل التخطيطيّ للرجل سوف يكون كالتالي:

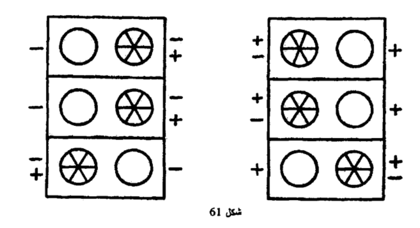
---

[٤١] قولنا "يتضمّن مختصر خصائص وأعضاء الآخر" ترجمة "هرمفروديتيّة" Hermaphrodite التي تترجم بالعربيّة مع كلمة "اندروجين" سواء بسواء بكلمة تخنث وخنثى ومشتقاتهما. وقد سبق أن تفاديناها لما تعلق بها من معان غير لائقة وغير صحيحة. لمّا عن الكلمة الفرنسيّة "هرمفروديت" فإنها تتكوّن من "هرمس": الإله الأغريقيّ الذي يمثّل للرجولة المكتملة ومن "أفروديت" الآلهة الإغريقية ذات الأنوثة الدافقة. والطبّ الحديث يستخدم لفظة "هرمفروديت" لوصف من يولدون بالأعضاء الجنسيّة للجنسين معا. وكان الإغريقيّون يقتلون مثل هؤلاء المواليد لاعتبار ذلك لعنة من الآلهة. كما كانوا يكرّسون تلك الكلمة لمعان أخرى سامية وبعيدة كلّ البعد عن التشويه الخَلقيّ الذي يُعنَى الطبّ الحديث به.



- شكل 60 -

يكون الشكل التخطيطيّ للمرأة بطبيعته مستقطبا بالنسبة للشكل التخطيطي للرجل. (وبالتالي) فإذا وضع الشكلان التخطيطيّان جنبا إلى جنب تتكوّن أمامنا الصورة التالية:



شكل 61

يمثّل الشكل التخطيطيّ الأخير في مجموعه الكائن الكامل. وهو يعكس في حالته تلك عكسا متكاملا - (أي من جميع الأوجه) - المطلق المتجليّ في الكون المخلوق.

إننا لنرى بكلّ وضوح أنّ الاندروجين هو الذي يشكّل (ويؤلف) الفلك الصغير - لا الرجل أو المرأة كلّ بمفرده يتضمّن هذا الفلك الصغير في ذاته، لكن على مقياس متناه في الصغر كامل العناصر التي يحتوى الفلك الأكبر عليها بنسب غير متناهية في الكبر. يمكننا أن ننبّه هاهنا إلى أنّه تبعا للعهد القديم (التوراة) قد تمّ خلق الإنسان على صورة الله وعلى شبهه في شكل الاندروجين: فإنّ هذا التوضيح بالفعل وضع في زمان سابق لسقوط آدم، بما معناه قبل تفكّك الجسد ألنجميّ (الشمسيّ) للكائنين المستقطبين [٤٢].

(لذلك) فإنّ الخلاص النهائيّ (ويسير في عكس التفكك) مشروط بالنسبة للرجل كما هو مشروط بالنسبة للمرأة برجوعهما (الكامل) داخل الفلك الصغير كما بيّن ذلك القدّيس بولس بصراحة في النصّ الذي سبق أن ذكرناه: في الربّ لا تكون المرأة بدون الرجل ولا الرجل بدون المرأة [٤٣]. فإنّ

---

[٤٢] سفر التكوين، ١: ٢٧ - السقوط، نفس المصدر، ٣: ٧.

[٤٣] ١ إلى أهل كورنثوس، ١١: ١١. قارن أيضا بالقسم الرابع من هذا الفصل. حيث ذكر نفس النصّ مع إضافات.

الرجل والمرأة بالفعل إذا نظرنا لكلّ منهما على حدة - كائنان غير كاملين لا يمكنهما أن يعكسا صورة الله في ملء (وتمام كماله) فإنه هو الكلّ في الكلّ (كلّ شيء في الكلّ) [٤٤].

من البديهيّ أنّ لكلّ رجل ولكلّ امرأة كائنا مستقطباً وهو ما يفسرّ بالطبع التوازن العددي المدهش بين الأجناس. إلا أن كلّ البشر لا يشعرون بالحاجة الماسّة والقهريّة للاتحاد بالكائن المستقطب لهم. فإنّ الذين يعيشون منهم لا ينفصلون أبداً عن شخصيّاتهم ولا يتكلفون عناء التفكير بشدّة - وهم يشكلون الغالبيّة العظمى من البشر - يشاركون في المجموع بكل حماس في الحياة الخاضعة لنظام المؤثرات "ا" ولا يشعرون حقا بالحاجة لهذا الاتحاد. فإن الكائن المستقطب بالنسبة لهم يقع على نفس مستوى الآخرين [٤٥]. ولا ترى فيه الشخصيّة أي شيء استثنائيّ (بالرغم من أنه بالفعل استثنائي) فإذا حدث عن طريق الصدفة أن عاشت هذه الشخصيّة (أي اختبرت وجرّبت) انطباعاً خارقاً للعادة فإنها تستشعر أنه شيء لا قياسيّ (ولا معياريّ أي شيء لا يتبع القاعدة المعمول بها) بل يثير الحرج والضيق. يتولد عن استنكار الشخصيّة (للكائن المستقطب الصحيح) مواقف تتسّم بصعوبات جمّة. يمكننا أن نذكر منها تلك الصعوبات الخاصّة بالأزواج التي تتكون تحت إمرة (وسيطرة) قانون العرض ويكون لكلّ من المشاركين فيها (أهداف) متناقضة يتوق لها. فترى الأول يتوق للمؤثرات "ا" والآخر يتوق للبحث عن الطريق - وكثيراً ما نجد في (نفس) الأساس الذي قامتْ عليه مثل هذه الاتحادات الخطأ المزدوج الذي ارتكبه كلّ من الشريكين في حكمه على الآخر، بالإضافة إلى تأثير وصمات الكرما البعيدة والحديثة في حالة الزواج الذي يتم مثلاً رغبة من الشريكيْن في الاستقرار (بلا حبٍ بينيهما) أو في حالة الزواج الذي تم عن شهوة جامحة بلا حب (أيضا). إنّ الوضع الأعقل (والأنبه) إذا حدث ذلك هو توحيد مجهودات المترابطين لفكّ الموقف بما يفي بمنفعتهما المتبادلة. فإنّ هذا الموقف إذا ترك لحاله سوف يزداد استفحالا. يجب أن يولى الأطفال النابعين من مثل هذه الاتحادات انتباها خاصّا جدّا. فإنهم يتعذّبون. يجب أن يعمل كلّ ما يمكن أن يعمل لمعالجة الأمر. لا يجب أن يغيب عن أنظارنا وذلك تطبيقا للقاعدة العامّة في هذه الحالات أنه إذا كان مسموحا للكائن البشريّ أن يقبل التضحية بنفسه فإنّه لا يحقّ له أن يقبل تضحيةً من الطرف الآخر.

يمكننا أن نقول في أيّة حالة مهما كانت أنّ ارتقاء بطل الفيلم بسرعة متزايدة يقرّبه من الكائن المستقطب الخاصّ به، ويبعد في نفس الوقت وبصيغة آليّة عن الفيلم الشخصيّات التي كانت قد تسربتْ إليه بمحض المصادفة.

-١٨-

يبدأ شعور الإنسان بالرغبة في الاتّحاد بالكائن المستقطب بعدها بالحاجة لذلك على أثر تكوّن المركز المغناطيسيّ ونموّه الذي يعمل بمثابة الدالة لازدياد تلك الحاجة. هذا هو السبب الذي يجعل تصوّر (حقيقة) الأندروچين بالنسبة لعامّة الناس كما قلنا ليس له سوى قيمة نظريّة محضة فقط أي قيمة أيّ أسطورة فقط. كذلك يمكننا أن ندرك الآن أن التوق المتّقد بالحيويّة للاندماج الكامل في الفلك الصغير وهو الطريق المباشر للاندماج الكامل أيضا في المطلق - هو ثمرة ثقافة أخلاقية عليا. إنّ الارتقاء الباطنيّ كما قد بيّنا ذلك مراراً وتكراراً مشروط عند البداية بالإفلاس والانهيار الأخلاقيّ. يجب بعد ذلك من أجل أن نحرز تقدّما أن نحدّد موضعنا بالضبط أي أن نرى ذواتنا بذواتنا. لقد قال

---

[٤٤] ١ إلى اهل كورنثوس، ١٥: ٢٨.

[٤٥] تحتمل الجملة الفرنسية sur le même plan que les autres عدّة ترجمات مختلفة.

القدّيس إسحق السوريّ: من توصّل إلى رؤية نفسه على ما هو عليه أفضل ممّن توصّل إلى رؤية الملائكة[٤٦].

إنّ ما أسميناه بالإفلاس يسمّيه التقليد "بالموت" الذي هو الموت داخل جسد حيّ. يجب أولاً أن نموت من أجل أن نقوم من بين الأموات. يقول يسوع: إن لم تمت حبّة القمح التي سقطت في الأرض، ظلّت لوحدها؛ ولكنها إن ماتت أتت بكثير من الثمار[٤٧]. ثمّ يضيف هذا التعليق: من أحب نفسه (الشخصيّة) فقدها؛ ومن مقت نفسه (هي الشخصيّة أيضا) في هذا العالم احتفظ بها على مدى الحياة الأبديّة[٤٨].

-١٩-

عندما يمسك الإنسان بالتدريج بمصيره بين يديه فهو يأخذ على عاتقه في نفس الوقت مسؤوليّة كلّ المشاركين في فيلمه.

لقد سبق أن قيل أنّه يجب عليه في البدء أن يعيد للفيلم معناه الأول ثمّ أن يدفع بتطوّره (تطوّر الفيلم) بحيث أن تمثّل "المسرحيّة" تمثيلا ملائما حتّى نهايتها المرتقبة. يجب على البطل في نفس الوقت الذي يظلّ يعمل فيه على نفسه أن يجاهد لخلق ظروف جديدة حوله تساعد على السير بالحوادث نحو الخلاصة (النهائيّة) التي كانت مطلوبة أصلا. يجب أن تكون مجهوداته الخارجيّة موجّهة بصفة خاصّة نحو خلق هذه الظروف وليس نحو البحث عن التأثير تأثيرا مباشرا على الأشخاص: فكثيرا ما قد يُظَنّ أن (مثل هذا التأثير) مناسبٌ (وسانحٌ) إلا أنّه يشكّل في الغالبيّة العظمى من الحالات خطأً بسبب خلق هذا التأثير لوصمات كارما جديدة تزيد من تعقيد الموقف بدلا من أن تعمل على فكّه. يجب على الباحث أن يكون حريصا جدّا متنبها لكل ما يدور حوله. ومع ذلك فإنّ الظروف الجديدة يجب أن تُخلقَ بشكل أن تساعد بفاعلية الأشخاص المعنيّة على العمل في الاتّجاه المرغوب فيه. إنّ الإنسان - ولنكرّرها مرّة أخرى - يجب أن يخدم لا أنْ يسعى إلى فرض نفسه. فالصبر والمثابرة والإيمان في أثناء هذا العمل فضائل ذات قيمة عمليّة كبيرة.

-٢٠-

إنّ الإنسان يجب أن يستخدم بجديّة كلّ قوّة الانتباه التي يمكنه أن يستخدمها لكي يمكنه أن يتعرّف على الكائن المستقطب الخاصّ به على كلّ المستويات التي يمكن لوعيه أن ينفذ إليها. فإنّ المقابلة تحدث بالفعل دائما - على أثر تشويه الفيلم - في ظروف وبطريقة غير منتظرة، وعامّة في لحظة وفي شكل لا يشبهان في شيء كلّ ما أمكنه أن يتخيّل.

إنّ القاعدة الجبريّة (في هذه الحالات) واضحة (وصريحة): لكي يتعرّف على الكائن المستقطب الخاصّ به، يجبَ على الإنسان أن يعرف نفسه. وهو أمر منطقيّ كما يبدو ذلك جليّا: لكي يتعرّف على الأنا الأخرى له، يجب على الإنسان أن يكون قد تعرّف قبل ذلك على الأنا الخاصّ به[٤٩].

---

[٤٦] الفيلوكاليا، القدّيس اسحق السوريّ، المواعظ.

[٤٧] يوحنا، ١٢: ٢٤ - متى، ١٠: ٣٩ - مرقص، ٨: ٣٥ - لوقا، ٩: ٢٤.

[٤٨] نفس المصادر.

[٤٩] إنّ كلمتي الأنا الأخرى للإنسان، وكلمة الأنا الخاصّة بالإنسان ليست ترجمة للكلمات الفرنسيّة المناظرة. بل هي ترجمة لكلمتين أو كلمة لاتينيّة درج استخدامها في الفرنسيّة بنفس صيغتها اللاتينيّة كما هي: ألا وهي alter ego - ego فالكائن المستقطب بالنسبة لأي أحد هو إبّيته الأخرى (المعرّب).

بذلك نجد أنفسنا قد عدنا مرّة أخرى إلى مشكلة البحث عن الطريق.

لا شكّ أنّ إنيّة الجسد تتوق كإنيّة الشخصيّة سواء بسواء إلى أن تجدا في كائن آخر تجاوبا كاملا. إلا أنّ الإنسان يستطيع فقط من خلال انطباقه انطباقا متزايدا على إنيّته الحقيقيّة أن يجذب ويقرب كالمغناطيس الاتحاد بكائنه المستقطب.

على الإنسان أن يرحل في طلب الكائن الذي لا كيان له بدونه بقلب ملئ بالإيمان شاحذا في داخله أسمى وأدق ملكات الانتباه الحدْسيّ ورافعا قدرته على التحليل النقدي إلى أعلى نقاط التيقظ. كذلك فإنّه - كشاعر الحبّ والفروسيّة في العصور الوسطى سيخوض من جديد مأثرة الحبّ العذريّ (البطولية) وبذلك يمكنه أن يأمل في العثور على سيّدة أفكاره من جديد وأن يتعرف عليها.

-٢١-

إنّ ما نشعر به من صعوبة في اكتشاف الكائن المستقطب الخاصّ بنا يترتّب على كوننا مشوّهين وعلى تشويهنا المستمرّ لفيلمنا بتحرّكاتنا الحرّة: هذان إذن هما أول نقطتين علينا أن نصوّبهما: أي أنّه يجب علينا تقويم تشويهنا الخاصّ كما يجب علينا التخلي تماما عن تحرّكاتنا الاندفاعيّة. هذا هو التفسير (الصحيح) للتنبيه المشدد بالكف عن التصرف مادمنا واقعون تحت تأثير مركز واحد فقط، إنّ ضرورة تعويض تشوّهاتنا تفرض علينا منطقيّا في الاستقبال كما في الإرسال أن نشغّل (في نفس الوقت) وبواسطة مجهوداتنا الواعية مركزينا الانفعاليّ والعقليّ في مواجهة كلّ المشاكل التي تعرض لنا.

إنّ تعقيد (بنيان) الكائن البشريّ يمكن أن يُقارن بتعقيد الأوركسترا كما يمكن مقارنة حياته بسيمفونيّة تشارك فيها كلّ من الآلات تبعا للنوتة المكتوبة لها (ليكون) المجموع متناسقا، على الأقل من وجهة المبدأ. يجب علينا إذن ونحن نعمل على ذواتنا أن نتصرّف كما يتصرّف قائد الأوركسترا أثناء البروفات لمقطعة موسيقيّة جديدة.

يمثّل ذلك كله العمل التحضيريّ. ولكن إذا تقابل كائنان مستقطبان، فبأيّ العلامات التي يمكن إدراكها إدراكا مباشرا يستطيع هؤلاء البشر الذين لا زالوا غير كاملين ولا زالت تشوّههم وصمات الكارما أن يتيقنوا - بكل موضوعيّة - إن الأمر لم يلتبس عليهم؟

هاك بعض المحكّات التي لا غنى عنها لكي يمكن اعتبار أيّ تعارف متبادل ذا قيمة موضوعيّة. إنّ إنيّة الشخصيّة وإنيّة الجسد تختلجان (وتتذبذبان) منذ أول مقابلة في حضور الكائن المستقطب اختلاجا لا يشبه أيّ شيء ممّا شعر به الإنسان قبل ذلك. والسبب في ذلك أنّ هاتين الإنيّتين توجدان حينذاك أمام حبّهما الأول الذي ظلّ مستمرّاً عبر القرون. إنّ الكائنين المستقطبين يعرفان بعضهما (تماما) وإن كان وعيهما بذلك ليس بالواضح؛ ويتمّ التعبير عن هذه المعرفة (المتبادلة) والقديمة بنفس قدمهما من خلال صوت وعيهما الباطن. فيخلق ذلك منذ لحظة التقائهما جوّا من الثقة والصراحة المطلقتين. إنه اختبار لا يمكن أن يخطئ: فإنّ كلاّ من الكائنين المستقطبين لا يكذب أبدا على الآخر. ولا حاجة لهما إلى الكذب فإنّ الاثنين معا داخليّا ليسا سوى كائن واحد، تطلق الإنيّة الحقيقيّة من أغور أعماقه (أي الكائن الواحد) نداءها وتؤكد بموافقتها. ستكوّن إذن ومنذ تلك اللحظة فصاعدا ستكوّن الصراحة المطلقة والتلقائيّة (بينهما) قاعدة علاقتهما. فيعطى ذلك لهذين الكائنين شعورا لا يمكن أن يتصوّر في أي ظرف كان بالحريّة في الوحدة: شعورا ينهى بلا عودة ذلك الانطباع بالعبوديّة وبالعزلة الذي نعيش فيه عادة.

ثمّ تأخذ بعد ذلك ذكريات غير واضحة عن الاختبارات السابقة تتلمّس طريقها إلى سطح وعى الصحو الخاصّ بهما.

سوف يكون القارئ قد فهم الآن أعمق معنى لتحريم الكذب على ذواتنا (أنفسنا) من يكذب على نفسه فقد كذب أيضا على الأنا الآخر له. فتنتهي بذلك المعجزة. كما يختفي الجانب الباهر الرائع في هذه المقابلة وراء ستار سوقيّ (دنيء) من الكذب الذي سرعان ما يتّخذ مظهر جدار يستحيل تخطيه. فتصبح العلاقات بالكائن المستقطب خلف ذلك الجدار لا تتميّز في شيء عن تلك العلاقات التي يمكن للرجل أن يقيمها مع النساء الأخريات: من زوجات أو عشيقات أو مغامرات (طارئة). وبذلك تكون التجربة قد فشلت من جديد مرّة أخرى.

هذه هي كيفيّة ولمية (لم) مرور الإنسان الخارجيّ أمام الكائن المستقطب الخاصّ به بدون أن يتعرّف عليه. لذلك فإنّ العمل التطبيقيّ فوق الطريق الباطنيّ يبدأ ويستمر أحياناً بالنضال ضدّ الكذب تجاه ذواتنا. إنّ النجاح في هذا المجال أمر لا غنى عنه (على الإطلاق). فما أهون الثمن الذي يجب دفعه - مهما يبدو باهظاً - للتوصّل لذلك.

-٢٢-

إذا كان (الكائنان المستقطبان) متفتّحين لكلّ ما هو صحيح، وإذا كان لقاؤهما قد جعل أوتارا - ظلّت صامتة في داخلهما إلى حين هذا اللقاء - تختلج اختلاجا متناسقا، فانّ الطريق بذلك يكون قد أصبح واضح المعالم أمامهما من أجل أن يعيدا بمجهوداتهما الواعية خلق الفلك الصغير الذي تفكك وانكسر في غابر الزمان. بذلك يجدان نفسهما قد تخطيا السلم كالسهم المارق ليريا فجأة أنّهما واقفان أمام العتبة الثانية.

يتخطى طالب العموديّة العتبة الأولى مدفوعا بشعور سلبيّ: النفور والرعب من الحياة داخل الأدغال والرغبة المتقدة في الإفلات منها. لتخطى العتبة الثانية يجب على الكائنين المستقطبين اللذين يتقدّمان لتخطيها أن يكونا حاملين لكلمة إيجابيّة تُطلب منهما في هذه اللحظة.

إنّ الطريق ينفتح أمام الذين يعلمون ما يريدون، وما يتوقون إليه فوق الطريق وخارج الطريق وسط الحياة الخارجيّة التي لن يمكن منذ تلك اللحظة فصاعدا أن تنفصل عن العمل الباطنيّ. فما أسعد الذين يستطيعون فيها أن يفيدوا (غيرهم). سوف ينفتح أمامهم الباب الذي يؤدّى إلى الحياة (الحقة) فيقرأوا على واجهة الجدار الذي يتخطونه العبارة الأسراريّة التالية:

إنّ العامل جدير بأجره[٥٠]

[٥٠] لوقا، ١٠: ٧.

خاتمة

لقد ظلّ الإنسان منذ ابعد العصور الغابرة يبحث عن حل مشكلة المعرفة المطلقة. إنّ هناك عبارةً تقليديّة من عبارات العارفين تقول: اسع وراء إدراك ذلك فإذا علمتَ ما هو ذلك، سوف تعرف كلّ شيء. ولقد كان الأولون يقولون لكل مبتدئ إن ما يلزم أن يعلمه لكي يستطيع أن يفهم كل شيء هو قدرٌ صغيرٌ جداً، إلاّ أن إدراك ذلك القدر الصغير يستلزم تعلّم الكثير. وبذلك كان مفهوم الغنوصيّة - على ذلك المستوى الفكري - يتمثل عند القدماء، لا في صورة مجرّد معرفة ما، بل في صورة معرفة تبعث الحياة في صاحبها وتسمو فوق العقل والإيمان.

إن الغنوصية[1] - أي المعرفة المعنية بتلك الكلمة - كانتْ تبدو حينئذ على شكل تلك الحكمة المخفية المحجّبة، تبعاً لنص القدّيس بولس كما صدّرنا به ذلك العمل الذي يهدف من خلال عرضه لشتى مظاهر تلك الحكمة، إلى إبراز الجانب المطلسم الذي يحتوى العنوان عليه.

أما باقي العنوان فإنه لا يتعلّق بفكرة الغنوصية في شكلها المجرّد، بل بتجليها في ذلك العالم، وبوجه الخصوص في أثناء الفترة الحرجة التي سبقت وتلّتْ حلول المسيح.

لقد كانت تلك المعرفة الربانية قد أذيعَتْ في مجرى دورة ألآب - على شكل أسرار هي أسرار الوعد التي وجدت كل تبرير لها في سرّ التحقيق الخاص بيسوع.

فاختفي - بحلول المسيح - وجوب الالتزام بالكتمان الذي أجبر العارفون عليه فيما قبل. فأذيعت حينئذٍ دفعةً كبيرة من الأفكار الغنوصية التي كانت قد ظلت محبوسة لذلك الحين. فلقد ظهرت إذ ذلك في عدد من جهات من العالم القديم وفي نفس الوقت عدّة تعاليم ونظرياتّ ونظمّ تقدم في آنٍ واحد على علمّ أسرار الوعد المتواتر وعلى سرّ يسوع الذي صدّع نظام العارفين القديم.

فأصبح من السهل التمييز بعد فترة وجيزة مرّت على امتزاج الأفكار ببعضها امتزاجاً واسع النطاق بين تيارين متفارقين تماماً وان كانا قد بدآ معاً من افتراض أساسي واحدٍ هو الإقرار بنقص عالم الظواهر.

فلقد فكّر بعض الغنوصيين في شرح ذلك النقص بإرجاعه إلى سقوط النور في غمرة المادة، كما أنهم جعلوا تلك الكارثة تحدث بعيداً عن تدخل الإله الأكمل الغير متجلٍّ، أو تحدث بواسطة خطأٍ ما، أو حتى عن نيةٍ الخالق السيئة.

وإننا لنجد دائما في أساس مثل هذه الغلطات خلطاً بين مختلف المستويات المعنية. فإن التفكير المنطقي يصف الألوهيّة بمواقف أو بأوهان، وفي أكثر الأحيان بدوافع بشريّة محضة. ويمكننا أن نتعرف في ذلك كله - بين شتّى الأسباب الأخرى - على طابع الفكر اليونانيّ الذي يميل إلى وصف الآلهة بالأوصاف البشريّة. ولكن الخبر السعيد الذي بشّر يسوع به يعكس ذلك المفهوم القديم إذ ينادى بسموّ ما هو بشريّ في الإنسان إلى مستوى الألوهيّة وذلك بواسطة الولادة الثانية التي هي باب ملكوت الله.

لقد انتهت هذه المنازعات الفكريّة بانتصار الأرثوذكسيّة. فحوربتْ الميول المتهرتقة التي كانتْ تظهر واحدةً بعد الأخرى، وهزمتْ كلها بواسطة ما قام به الرسل من أعمالٍ، وما تلاهم به في ذلك آباء الكنيسة الموحدة الذين علقوا جميعاً كل اهتمامهم بجعل عقيدة المسيح التي هي عقيدة الحب تنصع وتتألق في ملء حقيقتها.

---

[1] المعرفة الباطنيّة والعرفان والغنوصية كلها ترجمات لكلمة Gnôsis. (المعرّب)

وبذلك أمكن الاحتفاظ بالتقاليد الباطنية الخفية المحجّبة في نقاوتها الأولى الخالصة، وذلك بوجه الخصوص في أحضان الأرثوذكسيّة الشرقيّة، تماماً كما كان الرسل وتلاميذهم قد تناقلوها.

چنيف نوفمبر ١٩٥٨ - يونيو ١٩٥٩.

مركز الدراسات المسيحيّة الباطنيّة

لا مفرّ لنا من الاعتراف بأن روح الفلسفة الكارتيزية التي كانت قد هدمتْ في يوم ما صرح الفلسفة المدرسيّة، قد عَدَتْ اليوم في حكم الأشياء المُتعدّاة. فلقد تعدتها ضخامة النتائج التي حصلتْ العلوم الوضعيّة عليها بعد أن كانت استلهمت منها أولى دفعاتها فيما مضى. فتصلّبت مشدوهةً في تجمدها، أمام ذلك العالم الجديد الذي يشاد يوماً بعد يوم بلا انقطاع. إلاّ أن منطق التاريخ يتطلّب روحاً جديداً.

إنّ القائمين بمسؤولية مركز الدراسات المسيحيّة الباطنيّة لمقتنعون تماماً بأن العقل الخالص في تجريده البارد لن يكفي لوحده اليوم؛ كما أنهم مقتنعون أيضا بأن الذكاء البشرى لن يستطيع أن يتجلى بكل طاقته الخلاقة إلاّ إذا داخلته وأحيته في جميع نقاطه حرارة القلب، التي هي خميرة الثقافة الحقة.

وإنه لأمّر يواجهنا بمشاكل عديدة، ينتصبُ الإنسان وراءها جمعاء بملء هامته وعظمته.

إن العالم ليتوق إلى حلول إنسان جديد طيّب بقدر ما هو قويّ، يستطيع أن يحرّر البشريّة من الرعب وأن يقيم على الأرض نظاماً عادلاً متناسقاً، ويضع المعجزات الفنيّة كلها في خدمة المجتمع.

هذا هو الهدف الذي تتوق البشريّة جمعاء إليه، إن هي أقرّتْ بذلك أم لم تقرّ، على اختلاف الأجناس والطبقات والجنس والعقائد فيها. ولا نكون مجازفين إذا أكّدنا هنا أن الرغبة في بلوغ ذلك الهدف قد أخذت طابعاً جامعاً.

إلا أن العقيدة المعروفة الوحيدة التي تَتّصفُ بطابع الاكتمال - أي أنّها تشمل جهتي الحياة معاً الروحيّة والماديّة - والوحيدة التي كانت تهدف منذ بزوغها إلى الانتشار انتشاراً جامعاً، هي العقيدة المسيحية[1]. إن انتشار العقيدة المسيحيّة اليوم، قد أصبح واقعة تمتْ: فإنّ الإنجيل قد ترجم إلى حوالي ستمائة لغة كما أنه موجودٌ في كل مكان، وفي كل من أجزاء العالم الخمس.

ولقد اكتستْ الحضارة الأوربيّة هي أيضا - تابعة في ذلك لسير الإنجيل - بطابع جامع على المستوى الخاص بها. إلاّ أنها لا تدين بذلك الانتشار الجامع الذي لم يكن للعاملين الجغرافي والجنسي أي دور - إلى نفس ماهيتها الأوربية - بل يرجع ذلك إلى كونها انبعثت من الثقافة المسيحيّة كما إنها لازالت تضرب فيها بجذور عميقة، الأمر الذي كثيراً ما يغفل منه الناظرون.

ويليق بنا أن نضيف أنّ انتشار الإنجيل انتشاراً جامعاً كان يجب أن تصحبه - تبعاً للنبؤات القديمة عدّة مكتشفات أساسية على المستويين الماديّ والروحيّ، من شأنها أن تلقى الضوء على العقيدة الباطنيّة التي بشّر بها يسوع ورسله.

ولقد أثار بالفعل اكتشاف مخطوطات البحر الميت الشهيرة ضجة. ثم تلا ذلك في حوالي ١٩٤٥ العثور بالقرب من نجع حمادي في صعيد مصر على ثلاثة عشر مجلداً من البردي تحتوى في مجموعها على ما يقرب تسع وأربعين عملاً، كتبت جميعاً باللغة القبطيّة، ولم يسبق قبل ذلك نشر معظمها، ومنها إنجيل القدّيس توما الذي يجمع حوالي مائة وأربع عشر عبارة من عبارات يسوع ولعلنا - تبعاً للتقاليد التعليميّة المتواترة - نستطيع أن نتوقع الوقوف على مكتشفات أخرى خارقة تفوق ما سبقها.

تلك هي المعطيات، والهبات التي آلتْ إلى إنسان القرن العشرين. أما الباقي فإنه يعتمد على نفس جهوده الواعية. فان الأرض - إذا هو أخفي تلك الهبات فيها - سوف تحترق فتزول الأعمال التي تحتوى عليها بزوالها[2]. أما إذا هو بالعكس كرّس كل جهوده إلى استثمارها، فإن هناك حقبة جديدة

---

[1] متى، ٢٤: ١٤.

[2] رسالة بطرس الثانيّة، ٣: ١٠.

غامرة بالوعود سوف تنفرج أمام بشريّة تقودها طليعة من الرجال الجدد الكاملي التكوين، طالما تاقت إلى مجيئهم. ولن يفيد في شيء أن نسرّ هنا بما سوف تحتوى عليه تلك الحقبة المستقبلية - فإن الإنسان المعاصر لن يؤمن بذلك، تماماً كما أن إنسان العصور الوسطى لم يكن ليؤمن بحياتنا اليوم، لو كان أحدٌ قد وصفها له إذ ذاك.

***

إن مركز الدراسات المسيحيّة الباطنيّة قد أوجد على أساس تلك الرؤيا عن الحاضر والمستقبل. فتحدد الهدف المباشر للمركز في نص كالتالي:

- البند ٢ - إن المركز يهدف إلى المساهمة في البحوث المتعلقة بالتقاليد الباطنيّة المسيحيّة على جميع أشكالها، كما أنه يهدف إلى المشاركة في جميع الجهود التي تسعى إلى المقارنة بين المعرفة التقليديّة والمعرفة المكتسبة وذلك بوجه الخصوص في مجاليّ العلم والفن.

وإن المركز ليسعى - تحقيقاً لتلك الأهداف - إلى القيام بتنسيق دراسات منظمة وأخرى مؤقتة كما أنه يسعى إلى دعوة مدارس اكليريكيّة لدراسة المشاكل المتعلقة بالمعرفة الباطنيّة. وإنه ليهدف بالإضافة لما سبق:-

إلى خلق مكتبة متخصّصة.

إلى إصدار نشرة دوريّة تتعلق بنشاط المركز كما تنشر فيها مختارات من أعمال المساهمين فيها والطلبة، بالإضافة إلى المقالات والبلاغات الإخباريّة التي ترتبط بنشاط المركز.

إلى نشر الأعمال المبتكرة التي تتعلق بمجال المعرفة الباطنيّة أو بمجالات أخرى ترتبط بها، إما نشراً مباشراً أو بوساطة إحدى دور النشر المعروفة.

إلى جمع المعلومات الفنيّة اللازمة لإقامة معجم للمعارف الباطنيّة، على شرط ألا يعود ذلك المعجم بنفس الفائدة التي تعود بها معاجم الكتاب المقدّس الموجودة الآن أو لدوائر المعارف الخاصّة به. بل يكون اختصاصه تسهيل البحث الباطنيّ في مجال النصوص المقدسة ونصوص التقاليد التعليميّة المسيحيّة، بغض النظر عما إذا كانت تلك النصوص قانونية أو غير قانونية.

***

فهرس الكتاب

فهرست الكلمات الفرنسية وترجمتها إلى اللغة العربية - المعرّب	
'durcissement' de cerveau	"تحجّر" في المخ
'jungle'	"أدغال"
٤٨ groupes de lois	٤٨ مجموعة من القوانين
٩٨٧ petits mois	٩٨٧ إنيّة صغيرة
Abbé Prevoot	الآب بريفو
Accepter la primauté du Moi Réel	تقبل الإنيّة الحقيقية
accompli	المتحقق
Accomplir consciemment	يُنجز بوعيّ
Adam	آدم
affective	الوجدانية
agnostique	لا - أدريّة
Alexandre ١er	اسكندر الأول
Alter ego	الأنا الأخرى
Ame de notre âme	روح النفس
Ame de Soleil	روح الشمس
Ame-Personnalité	النفس - الشخصية
amorale	يلا أخلاق
Analogue à	القياس
Anthropoïde	يقترب من وجود الإنسان
Apprendre	نتلقن
assimiler	يستوعب
Attention en éveil	الانتباه المتيقظ
Attention subtile	انتباه مرهف
autojustification	التبرير الذاتي
Auto-tranquillisateur	التهدئة الذاتية، المهدئ الذاتي
Bavardage	الثرثرة
Bi-lateral	"ذو جانبين"
Blasphème contre le Saint-Esprit	التجديف بالروح القدس
But du manifestation	هدف التجلي
Caractère bipolaire de notre psychisme	طابع نفسيتنا المزدوج القطبية
Caractère destructeurs du Temps	الزمن الهدام
Caractère humain	الطبع البشري
Caractère inévitable de la Mort	حتمية الموت
caste	فئة

ce qui est ou n'est pas Moi	ما هو أنا وما ليس أنا
cellules de la vie organique sur la terre	خلايا الحياة العضوية على الأرض
centre de gravité de la Personnalité	مركز ثقل الشخصية
centre émotif inférieur	المركز الانفعالي السفلي
changeant	غير ثابتة
chemin resserré	المسلك الوعر
communion intérieure	اتحاد داخلي
compréhension de nous même	نتفهم أنفسنا
comprendre	فهم
condition indispensable	شرط لا غنى البتة عنه
conditions de la création du monde	شروط خليقة العالم
conflue	ينجرف
Connaissance de soi	معرفة ذواتنا
connais-toi toi-même	اعرف نفسك
conquérir le savoir	تغتصب المعرفة اغتصاباً
conscience du Moi de notre Personnalité	الوعي بانيّة شخصيتنا
Conscience humaine de veille	وعي الاستيقاظ في البشر
conscients	واعية
consécration	التكريس
Constatation extérieure	المشاهدة الخارجية
Constatation extérieure passive	المشاهدة الخارجية السلبية
Constatation extérieure positive	المشاهدة الخارجية الايجابية
Constatation par réflexion	المشاهدة بالانعكاس
Constatations intérieures	المشاهدة الداخلية
Constater passivement	المشاهدة السلبية
Contemplation	التأمل
Contenant	الحاوي
contenir	احتواء
Contexte organique	إطاره العضوي
corollaire	تترتب ترتباً طبيعياً
Corps physique	الجسد (الطبيعي) الفيزيائي
Corps vivant	جسم حيّ
Corrumpus	فسدة
Cosmos du Système	أفلاك النظام
Création de l'Univers	خلق الكون

Créer une Unité à partir du Zéro	خلق وحدة ابتداء من الصفر
croire	الاعتقاد
Croissance et développement	نمو وتطوّر
Culture ésotérique	ثقافة باطنيّة
Culture spécialisée	ثقافة تخصصية
Cycle du Lumière	دورة النور
D'être et de paraître	الكينونة و التظاهر بالكينونة، ومجرد مظهر الكينونة
D'inspiratrice	الملهمة
De parcelles de limaille	جزيئات البرادة
Déficience morale évidente	القصور الأخلاقي الواضح
Démonologie	علم الأرواح الشريرة
Des buts	الأهداف
Des chutes	السقطات
Des cycles	دورات
Des dons spirituels	الهبات الروحية
Des efforts conscients et créateurs	جهوداً واعية وخلاقة
Des erreurs de conception	تصوراتهم الخاطئة للأمور
Des faits	الوقائع
Des figures zoomorphiques	أشكال حيوانيّة مصوّرة
Des schémas	أشكال تخطيطيّة
Des techniques	التطبيقات الفنية (للعلوم)
Désert	"صحراء"
Deux étincelles divines	شرارتان إلهيتان
Deux êtres polaires	الكائنين المستقطبين
Deux fois né	مولودا مرتين
Deuxième marche	الدرجة الثانية من السلم
Développement des centres inférieurs	تطوّر المراكز السفلية
Développer la Personnalité	تطوير الشخصيّة
Développer nos centres inférieurs	تطوير مراكزنا السفلية
Dieu Créateur	الله الخالق
Dieu manifesté	الله المتجلي
Dieu résiste aux orgueilleuse	الله يصد المتكبرون
discernement	التمييز
Discernement et d'habileté	التمييز و التحايل

discerner	يميز
Divinité manifestée	الألوهية المتجلية
Divinité non manifestée	الألوهية اللا- متجلية
DO	نغمة دو
Doctrine d'Amour	عقيدة الحب
Don Quichotte	دون كيشوت
Du Moi et du Toi réels	الأنا والأنت الحقيقيين
Du savoir et du comprendre	علم وفهم
Du vide	الفجوة
Durée du Présent	امتداد الحاضر
Eau vive	ماء حيا
échelle	سلم
échelon	درج، درجة
Echelons du Cosmos	درجات (سلم الفلك
Ecrolement morale	الانهيار الأخلاقي
Effondrement moral	انهيار أخلاقيّ
éléments	عناصر
Emotif pur	الانفعالي – النقي
Engagé dans un sentier	السير فوق المسلك
Engendré et non crée	المولد الغير مخلوق
Engendré et non crée, consubstantiel au Père	المولد اللا مخلوق المتحد الجوهر مع الآب
enrichi	غنيّ
Enseigne	تعليمه
Entraînement physique	تدريباً فيزيائياً (جسدياً)
Epreuve de *Désir*	تجربة الرغبة
Esotériquement	باطنياً
Esotériquement évolués	ارتقوا باطنيا
Esprit cartésien	أذهاننا الديكارتية
Esprit critique	روح النقد
Eternel	سرمديّ
Eternité	الأبدية
Etincelle divine	شرارة إلهية
Etincelle du Fils	شرارة من الابن
Etincelle du Père	شرارة من الآب
Etre	الكائن
Etre	الكينونة، الوجود، الموجودية
Etre normal	كائن قياسيّ
Etre vivant	كائن حيّ

Etudes	دراسات
Eve	حوّاء
Evènement réel	الحدث الحقيقي
Existence factice	تواجد مفتعل
Existence prêtée	وجوداً معاراً
Existence réelle	تواجد حقيقيّ
Extase	الفناء
Factice	مفتعلة (زائفة)
Faculté créatrice	ملكة خلاقة
Faible, somnolent, pitoyable	وهينا وغافيا وجديرا بالشفقة
Faire	"يفعل"
Faire crédit à Dieu	ائتمان الله
faisceaux	الحِزَم
fantaisies	الخرافات الخياليّة
FAtum	المقدر
Fils de Dieu	ابن الله
Fin de l'évolution	نهاية الارتقاء
Fin du monde	نهاية العالم
For intérieur	وازع الضمير
Force créatrice d'Amour	قوة الحبّ الخلاقة
Forme hermétique	صيغة مطلسمة
gamme	مقام
Gammes accouplées	المقامات المزدوجة
Génération du courant de grâce	يولد تيار النعمة
grumeaux	حثر متكتلة
Guido d'Arezzo	جيدو دارزّو
Hâtez-vous lentement	التعجل رويداً
Homme ١	الإنسان ١
Homme ٢	الإنسان ٢
Homme ٣	الإنسان ٣
Homme ٤	الإنسان ٤، إنسانا من النوع ٤
Homme ٥	الإنسان ٥، إنسانا من النوع ٥
Homme ٦	الإنسان ٦
Homme ٧	الإنسان ٧
Homme d'action	إنسان دائب النشاط
Homme émotif	إنسان انفعاليّ
Homme intellectuel	إنسان عقلي
Homme intérieur	إنسانا داخليا
Hors du temps	خارج الزمان

Hypostase divine	أقنوم إلهي
Idée	فكرة تجريدية، الفكرة المجردة
Imagination féconde	مخيلة خصبة
imagine	التخيل
immuable	الغير قابل للتبدل
imperfection	عدم الكمال
Inertie de la matière	القصور الذاتي للمادة
Infiniment grand	لا ـ متناه في الكبر
Infinitésimale	قيمة متناهية الصغر، لا ـ متناه في الصغر
Instinctif pur	ألغرائزي – النقي
instinctive	الغرائزى
intellectualisée	العقلانية اللا أدرية
Intellectuel pur	العقلي – النقي
Introspectif	الاستبطاني
Jaillir l'esprit Créateur	تفجير الروح الخلاقة
JE SUIS	أنا موجود
Jeu du Malin	ألاعيب الماكر
Jugement de valeur	حكماً قيمياً
juste	بار
kaléidoscope	مشكال
L''évolution ésotérique	الارتقاء الباطني
L'abandon de la croyance en la Personnalité	التخلي عن الإيمان بالشخصية
L'Absolu ١	المطلق ١
L'Absolu non manifesté	المطلق الغير متجلي
L'Absolu qui crée l'Univers	المطلق خالق الكون
L'Absolue	المطلق
L'Absolue ٢	المطلق ٢
L'Absolue manifesté	المطلق المتجلي
L'Absolue non-manifesté	المطلق غير المتجلي
L'Accomplissement	التتميم، الإتمام
L'action de la gamme	فعل المقام (السباعي)
L'Aghiocosmos	الفلك المقدّس، الفلك الأقدس
L'Alpha et l'Omega	ألفا وأوميجا (الألف والياء)
L'Ame	الروح، النفس
L'Amour	الحبّ
L'amour charnel	الحبّ الجسدي
L'amour courtois	الحب العذريّ

L'amour platonique	الحب الأفلاطوني
L'Analogie	المماثلة القياسية
L'analyse critique	التحليل النقدي
L'Androgyne	الأندروجين
L'angle ésotérique	الزاوية الباطنية
L'Apocalypse	سفر الرؤيا
L'apparition et croissance	ظهور ونمو
L'Arbre de la connaissance du Bien et du Mal	شجرة معرفة الخير والشر
L'Arbre de vie	شجرة الحياة
L'Arche de Noé	سفينة نوح
L'arrière pensé	سوء النية الخفي
L'Art	الفن
L'art du raisonnement	فن الاستنباط الفكري
L'Asymétrie	الغير متناظر
L'Atmosphère	الجوّ
L'Attelage	عربة الخيل
L'Attention	الانتباه
L'eau morte	الماء الميّت
L'échelle des cosmos	سلم الأفلاك
L'éclaire sphérique	البرق الكروي
L'économie de l'Univers	اقتصاد الكون
L'écorce	القشرة
L'écorce de la Création	قشرة الخليقة
L'éducation supérieur	تربية متقدمة
L'église	الكنيسة
L'ego centrisme	مركزية ألذات
L'égoïsme	الأنانية
L'élément psychique	العنصر النفسي
L'élite	الطليعة
L'élite nouvelle	الطليعة الجديدة
L'empire de la loi générale	سلطان القانون العام
L'énergie	الطاقة
L'enfant	الطفل
L'enseignement ésotérique	التعليم الباطني
L'entraînement	ممارسة التمارين
L'entraînement physique	التدريب الطبيعي
L'Equilibre	التوازن
L'escalier	السلّم

L'ésotérisme	الباطنية
L'Espace	الفضاء
L'espérance	الرجاء
L'esprit cartésien	العقلية الديكارتيّة
L'esprit conservateur	روح (قوة) المحافظة
L'Esprit de Soleil	روح الشمس
L'esprit de suffisance	روح الامتلاء بالذات
L'essentiel	الأساسيّ
L'Esthétique	الاستيتيكا
L'état de Béatitude	حالة الفناء والسعادة الطوباوية
L'état embryonnaire	حالة جنينية
L'état normal	الوضع القياسي (المعياريّ)
L'état Psychique gazeux	الحالة النفسية الغازية
L'Eternité	الأبدية
L'éthique	الأخلاقيات
L'être	الكينونة، الوجود
L'être de la personne	وجود الإنسان
L'étude	الدراسة
L'étude de l'univers	دراسة الكون
L'étudiant de la science ésotérique	طالب العلم الباطنيّ
L'évangile	الإنجيل
L'évasion des cellules	إفلات الخلايا
L'évolution	الارتقاء
L'évolution du système des Cosmos	ارتقاء نظام الأفلاك
L'évolution générale	الارتقاء العام
L'exercice	التدريب
L'existence	التواجد
L'existence factice	وجود مفتعل
L'existence illusoire	الوجود الوهمي
L'exotérisme	المرحلة الخارجية
L'expérience	التجربة
L'hermétisme	قاعدة الاستغلاق
L'homme	الإنسان
L'homme – le *Microcosmos* -	الإنسان - الفلك الصغير -
L'homme ٥, ٦, ٧	الإنسان ٥، ٦، ٧
L'Homme Adamique	الإنسان الآدميّ
L'homme animal	الإنسان الحيوانيّ

L'homme dans l'Univers	الإنسان في الكون
L'homme extérieur	الإنسان الخارجيّ
L'homme extérieur	الإنسان الخارجي ضعيف
L'homme extérieur est avide et cruel	الإنسان الخارجي شرهاً قاسياً
L'homme extérieur est pitoyable	الإنسان الخارجي جدير بالشفقة
L'homme intérieur	الرجل الداخليّ
L'homme moderne	الإنسان المعاصر
L'homme nouveau	الإنسان الجديد
L'homme parfait	الإنسان الكامل
L'homme Personnalité	الإنسان الشخصية
L'homme primitif	الإنسان البدائي
L'homme spirituel	الإنسان الروحيّ
L'homo sapiens	الإنسان العارف
L'Humanité	البشرية
L'Humilité	التواضع
L'hypocrisie	النفاق
L'Idée de la Création	الفكرة المجردة للخليقة
L'idée de stabilité	فكرة الجمود
L'idée de Toi	فكرة الأنت
L'Illusion	الوهم
L'image de l'arbre	صورة الشجرة
L'imaginaire ressemble au réel	التخيّليّ يشبه للواقعيّ
L'Imagination Créatrice	المخيلة الخلاقة
L'Individualité	الفرديّة، الفردية الاتحادية
L'infini	اللا - متناهي
L'influence 'C'	تأثير "ج"
L'initiative personnelle	المبادرة الشخصية
L'instrument de destruction	أداة هدم
L'insuccès	الفشل
L'intellectuel	الإنسان العقلانيّ، الرجل العقلاني
L'intelligence charnelle	العقل الجسدي
L'intelligence charnelle	العقل الجسدي
L'intelligence de la Personnalité	عقل الشخصية
L'intensité de désire	شدة الرغبة
L'introspection	الاستبطان
L'intuition	الحدس

L'investigateur	الباحث
L'irréel	اللا حقيقي
L'Islam	الإسلام
L'Objectivité	الموضوعيّة
L'observateur	المراقب
L'observation	الرصد والمراقبة
L'observation intérieure	المراقبة الداخلية
L'octave	الطبقة الثمانية
L'octave latérale	الطبقة الثمانية الجانبيّة
L'octave latérale cosmique	السلم الثماني الجانبي الفلكي
L'octave musicale	الطبقة الثمانية الموسيقية
L'œuvre rédemptrice	العمل الفدائي
L'or pur	ذهباً خالصاً
L'organisme	الكيان الحيّ
L'organisme psychique	الجسد النفسي
L'organisme psychique	الكيان النفسي الحيّ
L'organisme psycho-physique de l'homme	الكيان النفسي – الطبيعي للإنسان
L'organisme universel	الكيان الحي الكوني
L'orgueil	الكبرياء
L'origine cosmique des guerres	السبب الفلكي الأعلى لقيام الحروب
L'Orthodoxie ésotérique	الأرثوذكسيّة الباطنية
L'un des sept Esprits de Dieu	واحدٌ من أرواح الله السبعة
L'unité	وحدة
L'unité de mesure du temps	وحدة قياس الزمن
L'unité du monde	وحدة العالم
L'Univers	الكون
L'Univers comme un être vivant	الكون كائن حيّ
L'Univers dans son ensemble	الكون الكلى
L'Univers phénoménal	الكون المظهريّ
La bonne foi	صادق النية
La brousse	الأحراش، الأدغال
La capacité d'absorption	الاستيعاب
La cellule	خليّة
La chute d'Adam	سقطة آدم
La chute d'Adam et d'Eve	سقوط آدم وحواء
La civilisation chrétienne	الحضارة المسيحية
La classe	الطبقة

La comédie de la vie	مهزلة الحياة
La compréhension	الفهم
La concentration	التركيز
La conception de la future Individualité	الحمل بالفردية المستقبلية
La condition sine qua non	الشرط الذي لا غنى البتة عنه
La Connaissance	المعرفة
La Connaissance Absolu	المعرفة المطلقة
La connaissance acquise	المعرفة المكتسبة
La Connaissance ésotérique	المعرفة الباطنية
La connaissance ésotérique traditionnelle	المعرفة الباطنية التقليدية
La connaissance purement intellectuelle	المعرفة العقلية المحضة
La connaissance traditionnelle	المعرفة التقليدية
La Conscience	الوعي
La Conscience Absolu	الوعي المطلق
La Conscience de l'Absolu	الوعي بالمطلق
La conscience de soi	الوعي بالذات
La Conscience de veille	وعي الصحو أو الاستيقاظ
La Conscience du Moi Réel	الوعي بالإنيّة الحقيقية
La conscience fractionnaire	كسور الوعي الجزئية
La conscience objectif du Moi	الوعي الموضوعي بالإنيّة
La consigne de silence	وجوب الالتزام بالكتمان
La constatation	المشاهدة، المعاينة الموضوعية
La Création de l'Univers	خليقة الكون
La Croire	التصديق
La croissance de la Personnalité	نمو الشخصية
La deuxième Mort	الميتة الثانية
La deuxième naissance	الولادة الثانية
La deuxième seuil	العتبة الثانية
La différentielle du présent	تفاضلية الحاضر
La divinité	الألوهيّة
La doctrine	المذهب
La Doctrine des Nombres	مذهب الأعداد
La Doctrine du Karma	مذهب الكرما
La Doctrine du Présent	مذهب الحاضر
La Doctrine ésotérique	المذهب الباطني
La Doctrine Orthodoxe	المذهب الأرثوذكسي

La domaine de l'ésotérisme	مجال الباطنية
La douceur	اللين
La faculté d'agir	ملكة التصرف
La faculté de mentir	ملكة الكذب
La faculté intellectuelle	مَلَكَة العقل
La faillite	الإفلاس
La faillite générale	الإفلاس العام
La faillite intérieur	الانهيار الداخلي، الإفلاس الداخليّ
La faillite morale	الإفلاس الأخلاقي
La fédération	التجمعات
La Femme- Sœur	المرأة - الأخت، الأنثى-الأخت
La fente	الشق
La fente du Présent individuel	شق الحاضر
La fermeté	الحَزم
La Foi, l'Espérance, l'Amour	الإيمان والرجاء والحبّ
La force active	القوة الايجابيّة
La force neutralisante	القوة المعادلة
La force passive	القوة السلبيّة
La formation de l'homme	تكوين الإنسان
La formation méthodique	التكوين المنظم المنهجيّ
La forme cyclique	حركة دوران حلزوني
La forme et le contenu	الشكل والمضمون
La gamme musicale	المقام الموسيقي
La Gnose	الغنوصيّة
La Grâce Divine	النعمة الإلهيّة
La Grande Confrérie Esotérique	الأخوية الباطنية الكبرى
La Grande Octave	الطبقة الثمانية الكبرى
La Grande Octave Cosmique	الطبقة الثمانية الكبرى الفلكيّة
La gymnastique mentale	الرياضة الذهنيّة
La haine	المقت الشديد
La hiérarchie céleste	الطبقات السماوية
La hiérarchie des lois	تدرّج القوانين
La jalousie	الغيرة
La journée perdu	اليوم الضائع
La lettre	حرفية النصوص
La liberté	الحرية
La limaille	البرادة
La loi artificielle	القانون الاصطناعي

La loi cosmique	القانون الفلكي
La Loi de l'Accident	قانون الحادث، قانون العَرَض
La Loi de l'exception	قانون الاستثناء
La Loi de sept	قانون سبعة
La Loi de Trois	قانون ثلاثة
La loi divine	القانون الإلهي
La loi du Hasard	قانون الصدفة
La loi ésotérique	القانون الباطني
La loi ésotérique	القانون الباطني
La Loi Générale	القانون العامّ
La loi karmique	قانون الكرما
La loi naturelle	القانون الطبيعي
La lune	القمر
La Macrocosmos	الفلك الأكبر
La maîtrise de la Personnalité	السيطرة على الشخصية
La maîtrise du corps	السيطرة على الجسد
La matière	المادّة
La mélancolie	الحزن
La mémoire	الذاكرة
La méthode	المنهج
La méthode négative	المنهج السلبي
La méthode positive	المنهج الإيجابي
La méthode psychologique	المنهج السيكولوجيّ
La mission de la Personnalité	مهمة الشخصية
La Moi	الإنيّة
La morale	الأخلاق
La Mort	الموت
La Mort astrale	الموت الكوكبيّ
La mort est une faillite	الموت إفلاس
La Mort mentale	الموت الذهنيّ
La naissance	الولادة
La Nature	الطبيعة
La nature de l'homme extérieur	طبيعة الإنسان الخارجي
La notion d'atome	مفهوم الذرّة
La notion d'ésotérisme	مفهوم الباطنية
La nourriture solide	الغذاء القويم
La nutrition de l'Univers dans son ensemble	تغذية الكون الكلىّ
La partie négative	الجزء السلبي

La partie positive	الجزء الإيجابي
La pensée	التفكير
La pensée fine et aiguë comme la point d'une épingle	الفكر دقيقا كسنّ الإبرة
La Pentecôte	العنصرة
La Personnalité	الشخصيّة
La Personnalité s'incliner et se soumettre	الشخصية: ترضخ وتخضع
La Personnalité se plier	الشخصية أن تُخضع نفسها
La Philocalie	الفيلوكاليا
La philosophie	الفلسفة
La philosophie ésotérique	الفلسفة الباطنية
La philosophie positive	الفلسفة الوضعية
La pluralité du moi	تعدد الإنيّة
La polarité fonctionnelle	القطبية الوظيفية
La porte étroite	الباب الضيق
La pose du sage	الوضع الجسدي للحكيم، وضع الحكيم
La pratique	الممارسة العملية
La pratique ésotérique	الدراسات الباطنيّة التطبيقيّة
La première étude du *Cosmos*	الدراسة الأولى للفلك
La présence	حالة من الحضور
La présence	الحضور، الحضرة
La présence d'un guide	وجود مرشد
La présent	الحاضر
La Proclamation	إعلان
La prudence et la circonspection	الحيطة واليقظة
La race	الجنس
La raison	الفكر السندى الاستنباطي، الاستدلال (والاستنتاج) القياسيّ المنطقيّ اللا-أدريّ
La raisonnement	قوّة الاستدلال
La Rayon de Création	شعاع الخليقة
La Réalité	الواقع
La recherche de la Voie	البحث عن الطريق
La Rédemption	الفداء
La reforme	الإصلاح
La Religion	الدين
La respiration	التنفس
La Résurrection Générale	القيامة العامة

La Révélation	المكاشفة
La Sagesse Divine	الحكمة الإلهيّة
La Sainte Trinité consubstantielle et indivisible	الثالوث القدوس المتحد الجوهر
La Science	العلم
La science ésotérique	العلم الباطني
La science positive	العلوم الوضعية
La soudure	الالتحام
La source même du péché	منبع الخطيئة
La stabilité dans la mouvement	الثبات على الحركة
La structure	البناء التركيبي
La structure atomique	البنيان الذرّي
La structure de l'Univers	تصميم الكون
La structure de notre Personnalité	تركيب شخصيتنا
La subconscience	الوعي الباطن
La subsistance	الغذاء
La substance	الجوهر
La symbole de la Personnalité	رمز الشخصية
La tare Karmique	أوصام الكرما
La technique	التطبيق الفني للعلوم
La terre	تراب الأرض
La Tradition	الباطنيّة المسيحيّة
La Tradition ésotérique	التقليد الباطني
La Tradition Esotérique Chrétienne	التقليد المسيحي الباطني
La Tradition orthodoxe	التقليد الأرثوذكسيّ، الباطنيّة الأرثوذكسيّة
La trahison	الخيانة
La transmutation	الانتقال
La Trinité	الثالوث الأقدس
La vérité	الحقيقة
La Vie	الحياة، الحياة الحقة
La vie animale	الحياة الحيوانية
La vie courante	الحياة المعتادة
La vie du Cosmos	حياة الفلك
La vie du l'Univers	حياة الكون
La vie émotive	الحياة الانفعالية
La vie extérieure est une brousse	الحياة الخارجيّة أحراش

La vie humaine	الحياة الإنسانية، الحياة البشرية
La vie intérieure de l'homme	حياة الإنسان الداخلية
La vie organique	الحياة العضويّة
La vie organique sur la terre	الحياة العضوية على الأرض
La vie planétaire	الحياة الكوكبيّة
La vie psychique	الحياة النفسية
La Vie réelle	الحياة الحقيقية
La vie végétale	الحياة النباتية
La Voie	الطريق
La Voie Lactée	المِجرة اللِبنية
La voie resserrée	الطريق الوعر
La voie spacieuse	الطريق الفسيح
La voix du Moi Réel	صوت الإِنيّة الحِقيقية
La volonté	الإرادة
La volonté créatrice de l'Absolu ٢	الإرادة الخلاقة للمِطلق ٢
La volonté de l'Absolu	إرادة المطلق
La volonté vraie	إرادة صحيحة
Largeur de la fente	اتساع الشق
Le bonheur	السعادة
Le bonheur bourgeois	السعادة البرجوازية
Le Bonne Nouvelle	الخِبر السِعيد
Le cage	القفص
Le calme intérieur	الهدؤ الداخلي
Le caractère	الطبع
Le centre	المركز
Le centre de gravité	مركز الثقل
Le centre émotif	المركز الانفعالي
Le centre émotif	المركز العاطفيّ
Le Centre Emotif Supérieur	المركز الانفعالي العلوي
Le centre ésotérique	المركز الباطنيّ
Le Centre Esotérique 'E'	المِركز البِاطنيّ "هـ"
Le centre intellectuel	المركز العقلي
Le Centre Intellectuel Supérieur	المركز العقلي العلوي
Le centre magnétique	المركز المغناطيسيّ
Le centre moteur	المركز الحركي
Le centre sexuel	المركز الجنسي
Le cercle se referme	الدائرة قد انغلقت من جديد

Le cerveau	المخ
Le champ magnétique	المجالات المغناطيسية
Le chemin	السبيل
Le chemin d'accès	سبيل التوصيل، السبيل الموصل
Le chevalier	الفارس
Le Christ	المسيح
Le ciel	"السماء"
Le cœur	القلب
Le combat invisible	الجهاد الغير مرئيّ
Le comprendre	ما هو مفهوم
Le contenue intérieure de l'homme	محتويات الإنسان الداخلية
Le corps	الجسد
Le corps astral	الجسد الشمسيّ ، الجسد ألنجميّ
Le corps de l'Univers	جسم الكون
Le corps physique	الجسد الطبيعيّ، الجسم الفيزيائي الطبيعي
Le corps psychique	الجسد النفسي
Le Cosmos	الفلك
Le courage	الشجاعة
Le courant émotif	التيار الانفعالي
Le courant instinctif-moteur	التيار الغرائزى-الحركيّ
Le courant intellectuel	التيار العقلي
Le Cycle du Saint-Esprit	دورة الروح القدس، عصر الروح القدس
Le dédoublement de la Personnalité	ازدواج في الشخصية
Le Désire	الرغبة
Le Destin	القدر
Le Deuterocosmos	الفلك الثاني
Le Deuxième Logos	اللوجوس الثاني
Le Diable	إبليس
Le disciple	التلميذ
Le fiancé	الخطيب
Le fidèle	المؤمن
Le film	الفيلم
Le film de la vie	فيلم الحياة
Le for intérieur	الضمير
Le fossé	الحفرة
Le fossé	الهوّة
Le frottement	الاحتكاك

Le gérant de notre corps	الوكيل المسئول عن جسدنا
Le gouffre	الهاوية
Le grand arbre	الشجرة الكبرى
Le grand cosmos symbolisant l'Univers	الفلك الأكبر ويرمز به للكون
Le Grande Cycle	الدورة الكبرى
Le juge	القاضي
Le levain des pharisiens	خميرة الفارسيين
Le Logos	اللوجوس
Le long chemin	المسلك الطويل
Le Macrocosmos	الإنسان الكبير
Le Macrocosmos	الفلك الأكبر أو الإنسان الأكبر
Le Megalocosmos	الفلك الكبير
Le mensonge	الكذب
Le mensonge intégral	الكذب المتكامل
Le mentir	الكذب
Le mesotérisme	المرحلة الوسطى
Le Micro-microcosmos	الفلك الأصغر
Le Moi de corps (physique)	إنيّة الجسد "الطبيعيّ"
Le Moi de la Personnalité	إنيّة الشخصيّة "النفسيّة"
Le Moi du corps	إنيّة الجسد
Le Moi physique	الإنيّة الطبيعية
Le moi provisoire de la Personnalité	إنيّة الشخصية المؤقتة
Le Moi psychique	الإنيّة النفسية
Le Moi Réel	الإنيّة الحقيقية
Le Moi Réel (spirituel)	الإنيّة الحقيقيّة (الروحية)
Le Moi universel	الأنا الكوني
Le Moi Universel	الإنيّة الكونية
Le Moi vrai	الإنيّة الصحيحة
Le monde chrétien	العالم المسيحيّ
Le monde émotif	العالم الانفعالي
Le monde ésotérique	العالم الباطني
Le monde phénoménal	عالم الظواهر، عالم الظاهريات
Le Monde Planétaire	العالم الكوكبي
Le Moyen Age	العصر الوسيط
Le mythe de l'Androgyne	أسطورة الأندروجين
Le néophyte	الطالب المستجد (حديث التنصّر)
Le Nirvana	النرفانا

Le nom	الاسم
Le paradis	الفردوس
Le parfait c'est l'Amour	الكامل هو الحِبّ
Le péché originel	الخطيئة الأصليّة
Le permanent	الدائم
Le petit cosmos symbolisant l'homme	الفلك الأصغر ويرمز به للإنسان
Le pierre	الحجر
Le plan des possibilités	مستوى الإمكانيات
Le plexus solaire	المجمع العصبي الشمسي
Le poids du *Karma*	ثقل الكرما
Le pouvoir	القدرة، المقدرة
Le Premier Idée	الفِكرة التِجريدية الأولى
Le premier seuil	العتبة الأولى
Le présent mental	الحاضر الذهني
Le Présent Réel	الحاضر الحِقيقي
Le Principe d'Equilibre	مبدأ التِوازن
Le Principe d'Imperfection	مبدأ النقص
Le principe de savoir	مبدأ التعلّم
Le principe du Karma	مبدأ "الكرما"
Le problème de l'Etre	مشكلة الكينونة، مشكلة الوجود
Le problème de la mort	مشكلة الموت
Le problème de vie	مشكلة الحياة
Le progrès	التقدم
Le progrès de la science et de la technique	تقدم العلم والتكنولوجي
Le Protocosmos	الفلك الأول
Le rapport de zéro à l'infini	علاقة الصفر باللانهائي
Le réalisateur	المُحقِق
Le Réel	الحِقيقيّ
Le regard mentale	نظره الذهني
Le régime de la Foi, de l'Espérance et de l'Amour	عهد الإيمان والرِجاء والحِب
Le régulateur	المُنظِم
Le replâtrage	الترميم، التلصيم
Le replâtrage intérieur	الترميم الداخلي
Le sacrifice divin	التضحية الإلهية
Le Saint-Esprit	الروح القِدس
Le Salut	الخِلاص

Le savant	العالِم
Le savoir	المعلومات، ما هو معلوم
Le schéma	الشكل، الشكل التخطيطي
Le schéma fondamental de la Création	الشكل التخطيطيّ التأسيسيّ للخِليقة
Le semblable par le semblable	المثل بالمثل
Le sentier	المسلك
Le Serpent	الثِعبان
Le serpent personnifie l'Illusion	الثعبان هو الوهم في شكل شخص
Le serpent rusé	الثعبان الخبيث
Le serpenteau	الثعبان الصغير
Le seuil du Moi Réel	عتبة الإنيّة الحِقيقيّة
Le sexe neutre	الجنس المحايد الخامل
Le soi	ألذات
Le Soleil	الشِمس
Le Soleil central	الشمس المركزية
Le sommeil mental	السبات الذهنيّ، النوم الذهنيّ
Le sommet de l'ésotérisme	قمة الباطنية
Le sommet-limit	القمّة و الحد العلوي
Le système des Cosmos	نظام الأفلاك
Le système solaire	النظام الشمسيّ
Le Temps	الزِمان، الزِمن
Le Tessaracosmos	الفِلك الرِابع
Le Toi universel	الأنِت الكوني
Le Toi Universel	أنت الكوني
Le trancon supérieur de la voie	المقطع العلوي من الطريق
Le travail ésotérique	العمل الباطني
Le Tritocosmos	الفِلك الثِالث
Le troisième grand principe de la manifestation	ثالث المبادئ الكبرى للتجلي
Le trou d'une aiguille	ثقب الإبرة
Le type émotif	النموذج الإنساني الانفعالي
Le type intellectuel	النموذج الإنساني العقلي
Le ' Monde'	"العالم"
Le Microcosmos et le Macrocosmos	الفِلك الصِغير والفِلك الأكبر
légion	فرقة
Les actes	الأفعال

Les êtres polaires	كائنين مستقطبين، الكائنات المستقطبة
Les études ésotériques	الدراسات الباطنية
Les événements	الحوادث
Les exercices de posture	التمرينات الوضعية
Les exercices ésotériques	التدريبات الباطنية، التمرينات الباطنيّة
Les exercices psychiques	التمرينات النفسية
Les facultés intellectuelles	الملكات العقلية، القدرات العقلية
Les fins ésotériques	الغايات الباطنية
Les flèches 'A'	الأسهم "ا"
Les fonctions instinctives	الوظائف الغرائزية
Les fonctions motrices	الوظائف الحركيّة
Les fonctions psychiques	الوظائف النفسية
Les forces créatrices	القوى الخلاقة
Les forces nerveuses	القوى العصبيّة
Les freins	"الفرامل"
Les gammes principales	المقامات الرئيسيّة
Les hommes intérieurs	الرجال الداخليين
Les icônes	الأيقونات
Les idées	الأفكار المجردة
Les idées constructives	الأفكار المجرّدة البنائة
Les idées créatrices	الأفكار المجرّدة الخلاقة
Les impressions	الانطباعات
Les Individualités	الفرديّات
Les influences 'B'	المؤثرات "ب"
Les influences 'B', 'C', 'D', 'E'	المؤثرات "ب" - "ج" - "د" - "هـ"
Les influences 'A'	المؤثرات "ا"
Les initiés	أهل العرفان، العارفون
Les injustes, les orgueilleux	الظلمة والمكابرون
Les instincts	الغرائز
Les justes	الأبرار
Les justes ne se trompent pas	أنّ الأبرار لا يُخطئونَ
Les lombes	الصلب
Les mensonges inutiles	الكذب الذي لا فائدة منه
Les Mesocosmos	الأفلاك الوسطى
Les messages	ارسالات
Les messages élémentaires	الرسائل البدائية
Les micro-organismes	الكائنات الميكروبيّة
Les miracles	عجائب

Les tampons	ماص (واقي) للصدمات
Les Temps modernes	الأزمنة الحديثة
Les tentations	التجارب
Les tons	نغمات
Les trois centres	المراكز الثلاثة
Les trois centres psychique	المراكز النفسية الثلاثة
Les trois conditions de base	الشروط الثلاثة الارتكازية
Les trois conditions préalables de la Manifestation	الشروط الثلاثة التي تسبق التجلي
Les trois courants de la vie	تيارات الحياة النفسية الثلاثة
Les trois forces de l'Absolu	قوى المطلق الثلاث
Les trois hypostases de la Trinité	أقانيم الثالوث الثلاثة
Les trois Moi de l'homme	إنيّات الإنسان الثلاث
Les trois principes de base	المبادئ القاعدية الثلاثة للحياة
Les trois seuils	العتبات الثلاث
Les types humains	النماذج الإنسانية
Les valeurs	القيم
Les valeurs morales	ا لقيم الأخلاقيّة
Les valeurs temporaire	قيم وقتية
Les vibrations internes	التذبذبات الداخلية
Les violents	المتعنفون
Les vivants	الأحياء
Les yeux de l'Ame	عيني الروح
Liberté dans l'unité	الحريّة في الوحدة
Lien permanent	رباط دائم
Limitation de Soi	تحديد الذات
lutter	نناضل
Maître de lui même	يتحكم في نفسه
Maître de soi même	متحكماً في نفسه
malades	مرضى
Marque de l'ère chrétienne	علامة العصر المسيحيّ
Matière et Esprit	المادّة والروح
Mène à la Vie	يقود إلى الحياة
Mensonge à soi -même	الكذب على النفس
Méthode positive des études ésotériques	المنهج الإيجابي للدراسات الباطنية
Méthodes types	نماذج منهجيّة
Micro-organismes	الكائنات الميكروسكوبية

Mise en œuvre de l'ésotérisme	وضع الباطنية موضع التطبيق
Mixtus Orbis	الفلك المختلط
Moi	أنا
Moi Absolu	أنا المطلق
Mono polaire	القطب الأوحد
Moteur pur	الحركي – النقي
Mystère d'Accomplissement	سِرّ الإتمام
Mystère de Réalisation	سرّ التحقيق
Mystères de Promesse	أسرار الوعد
Naître de niveau	يولد من جديد
Nature cosmique	طبيعة فلكيّة
Nature même de Fils	عين طبيعة الابن
nébuleuse	السديمية
négatives	السلبي
Nicodèmes	نيقوديموس
Niveau d'être	مستوى الكينونة
Niveau de conscience	مستوى الوعي
Niveau de notre être	مستوى وجودنا
Niveau supérieur	مستوى علويّ
Niveaux de l'être	مستويات للوجود
Niveaux supérieurs de la conscience	المستويات العلوية للوعي
Non manifestation	اللاـتجلي
Non moi	اللا – إنيّة
Non moi extérieur	اللا – إنيّة الخارجية
Non moi intérieur	اللا – إنيّة الداخلية
Non-confluence	اللا – انجراف
Non-considération	اللا - اعتبار
normalement	الوضع القياسي
Nos centres inférieurs	مراكزنا السفلية
Notre Ame	روحنا
Notre capacité de perception	سعة مداركنا
Notre contenue intérieure	محتوانا الداخلي
Notre corps	أجسادنا
Notre être	كينونتنا
Notre jugement	حُكمنا على الأمور
Notre mentalité	أذهاننا
Notre Moi	إنيّتنا
Notre Monde	عالمنا

Notre Rayon	شعاعنا
Notre vie intérieure	حياتنا الداخلية
nourrit	ينمي ويغذي
Noyau de l'Individualité	نواة الفردية
objectif	موضوعيّ
observé	"روقب"
Octave auxiliaire latérale	طبقة ثمانيّة جانبيّة مساعدة
Octave de régénération	طبقة ثمانيّة للتجدّد التطهرىّ
organe	عضوا
Organisme fin et complexe	الكيان الدقيق المعقد
Origen	اوريجين
Paix du Seigneur	سلام الرب
Paraboles	أمثال
paraître	نتظاهر
Parole vivante	كلمة حيّة
Participer utilement	مشاركة مفيدة
passarelle	معبرا
Pauvre en esprit	فقيرا بالروح
périssable	الزائل
Peur, faim et sexualité	الخوف والجوع والجنس
Physique	طبيعيّة
Platon	أفلاطون
Plèrome	"بليروم"
Point de vue ésotérique	وجهة النظر الباطنيّة
Polarisation universelle	الاستقطاب الكوني
Polarisées	مستقطبان
Porte de Royaume de Dieu	باب ملكوت الله
Positives	الإيجابي
Posture correcte	وضع جسدي صحيح
poursuivre	المواظبة
Pré Création	ما قبل الخليقة
Prêché l'Amour	بشر بالحبّ
Prédispositions innées	استعدادات نولد بها
présence	حضرة
Présence en soi	حضرة في حدّ ذاتها، الحضرة في ذاتها، الحضور في حد ذاته
Prêt de vie	دين الحياة
prêtées	مقروضة
Princes de l'Air	أمراء الهواء

Principe cyclique	المبدأ الدوري
Principe d'asymétrie	مبدأ عدم التناظر
Principe d'imperfection	مبدأ عدم الكمال
Principe dynamique	المبدأ الديناميكي
Principe neutralisant	المبدأ التعادلي
Principe statique	المبدأ الاستاتيكي
programme	برنامج
Propre ego	الأنا الخاص به
Psychique	نفسية
Psycho-physiques	النفسيّة – الفيزيائيّة
Quantité infiniment grande	كميّة متناهية الكبر
Quantité infinitismale	كمية متناهية الصغر
Quatre niveaux de l'être	أربعة مستويات للكينونة
Qui labourent le Champ du Seigneur	الذين يحرثون حقل الربّ
Raccourci	درب مختصر
raffinement	إرهاف
rationaliser	الفكر السندى
Rationalisme agnostique	العقلانية المؤمنة باللا أدرية
Rationalisme intellectualisé	العقل اللا - أدري
rationnelle	استنباطيه
rationnelles	العقلانيّة الاستدلالية
Rééducation de notre intelligence	تربية عقلياتنا
Reéstimation des valeurs	إعادة تقدير للقيَم
Regina Astris	ملكة النجوم
Remporter une victoire sur lui même	يحوز نصرا على نفسه
replâtrage	الترميم
répliques	استجابات
Ressemblance	شبهه
Rétablir l'équilibre entre Science et Conscience	إعادة التوازن المفقود بين المعرفة والوعيّ
Révèle	كوشف
Révolution intérieure	ثورة داخلية
Riche	غنياً
roc	صخرة
Roman libre	الحب الحر
Roman unique	الحب الأوحد

S’endort	يستسلم للنعاس
S’engager sur la voie ésotérique	يشرع في السير فوق الطريق الباطنيّ
S’identifie avec sa Personnalité	انطباق الإنسان على شخصيّته
S’identifier	انطباقه
S’incliner devant le Moi Réel	ترضخ للإنيّة الحقيقيّة
Sa nature orgueilleuse	طبيعتها المتكابرة
Sa resemblance	شكيلته
sacramentale	الأسرارية
Sacrifice de Dieu	تضحية من الله
Sagesse Divine mystérieuse et caché	الحكمة الإلهية السريّة المحجوبة
Sagesse humain	الحكمة البشرية
Saint Isaac le Syrien	القديس اسحاق السوري
Saint Paul	القديس بولس
Saint Théophane l’ermite	الأسقف ثيوفان الناسك
Savoir	عرف، علم، يتسنى علمه
Savoir acquis	المعلوم المكتسب
Savoir faire	علم وفهم فن الإنجاز، فن الإنجاز، فن الإنجاز بمهارة، فن أو مهارة-الإنجاز، المهارة في فن الإنجاز
Savoir humain	العلم البشريّ
Savoir supérieur	العلم العلويّ
Se connaître	معرفة أنفسنا
Se mentir	الكذب على نفسه
Se taire	نمتنع عن الكلام
Se voir	رؤية نفسه
Se voir soi-même	نرى ذواتنا بذواتنا
Sens de la Création	معنى الخليقة
Sensibilisation intérieur	الحساسيّة الداخلية
Sentir de soi-même	نحس بأنفسنا
Sept cosmos	سبع أفلاك
Sept ordres de cosmos	سبع رتب مدّرجة للفلك
Ses recherches ésotériques	أبحاثه الباطنيّة
Simple information	الاستعلامات
Sine qua non	لا غنى البتة عنه، لا يتم بدونه شيء
Sine qua non condition	الشرط الذي لا غنى عنه
SOL	نغمة صول
Son alter ego	إنيّته الأخرى
Son développement ésotérique	تطوره الباطنيّ

Son être	كينونته، موجوديته
Son Moi	إنيّته
Son monde intérieur	عالمه الداخليّ
Son nouveau nom	اسمه الجديد
Son propre Lumière	نوره الذاتيّ
Source unique de salut	نبع الخلاص الأوحد
Sous développés	ناقصة التطور
Sous forme systématique	عرضا مسلسلا منظماً
Souvenance de la Mort	استذكار الموت
Statisme universel	الثبات الكونيّ
Structure du centre intellectuel inférieur	بنيان عقليتنا
Sublimation du sexe	تسامي الجنس
Sur efforts	جهود فائقة
Sur le sentier	فوق المسلك
Systèmes d'astres	المجموعات النجميّة
Table rase	الصفحة البيضاء
Tant pis pour les faits	"ما كنّا لنأبه بالوقائع"
Techniques ésotériques	الوسائل الفنية الباطنية
tempérament	مزاج
terme	حلول الأجل
Tous les mondes	كل العوالم
tout est en Lui, par Lui et vers Lui	كل شيء في محيطه هو، كما أنه به هو، وإليه هو
Tradition mystiques	التقاليد الروحانيّة
Tradition orale	تقليد شفهيّ
Trait principal de la Personnalité	السمة الرئيسية للشخصية
Transfigurer la Personnalité	تغيير وجه الشخصية
Transformation	تحوّل
Transformation de l'être même	تحوّل في نفس كينونته
transmutation	تحوّل الجوهر
travail	عمل
Travaux ésotériques	الممارسات العملية الباطنية
Trios mois	ثلاث إنيّات
Trois états	ثلاث حالات
Trois principes fondamentaux de la création	المبادئ الثلاثة الأساسيّة للخليقة
Trois seuils	ثلاث عتبات

Troisième Seuil	العتبة الثالثة
Trouver un chemin d'accès	نجد سبيلا موصّلا
type	نموذج
Un cycle complet de vie	دورة حياة متكاملة
Un foetus	جنينا
Un monde artificiel illusoire	عالم مصطنع وهميّ
Un rayon de création	شعاعا واحداً من الخليقة
Une catastrophe telle que le Déluge	كارثة ضخمة كالطوفان
Une gamme	مقام (سباعي)
Une gamme ascendante	مقام تصاعديّ
Une gamme descendante	مقام انخفاضيّ، تنازليّ
Une nouvelle terre	أرض جديدة
Une spirale	شكل الحلزون
Une stabilité dans la mouvement	ثبات في الحركة
Une technique d'exercices	برنامجا فنيا كاملا
Vaincre le mort	الانتصار على الموت
Véhicule	حامل
veiller	التيقظ
Veille-sommeille	صحوة - الذي هو نوم
veillez	تيقظوا
Victoire sur le Diable	الانتصار على إبليس
vieillissement	الشيخوخة
voler	السرقة
Volonté de l'Absolu	إرادة المطلق

فهرس محتويات الكتاب

VULLIAUD, Paul. *La Kabbale juive.* Histoire et doctrine. Paris, Impr. spéc. de libr. Emile Nourry, 1923. 2 vol.

VULLIAUD, Paul. *Siphra di Tzeniutha II.* F° 176b 179a. Comprend deux versions. Paris, Emile Nourry, coll. *Textes fondamentaux de la Kabbale,* n° 1, 1930.

WEINFURTER, Karel. *Man's highest Purpose.* The lost word regained. Translated by Prof. Arnold Capleton and Charles Unger. London, Rider and Co., Paternoster House, Paternoster Row, s. d.

THE ZOHAR. Translated by Harry Sperling and Maurice Simon. Introduction by Dr. J. Abelson. London and Bournemouth, Soncino Press, 1949.

BIBLIOGRAPHIE

THEOPHANE L'ERMITE. (ФЕОФАН ЗАТВОРНИК). *Lettres de la vie chrétienne.* (Письма о христианской жизни). Moscou, C. St.-P., 1908. 4ᵉ éd.

THEOPHANE L'ERMITE. (ФЕОФАН ЗАТВОРНИК). *Lettres sur la vie spirituelle.* (Письма о духовной жизни). Moscou, C. St.-P., 1892, 2ᵉ éd.

THEOPHANE L'ERMITE (ФЕОФАН ЗАТВОРНИК). *Psaume XXXIII.* (Псалом Тридцать Третий). Commentaires. Moscou. C. St.-P., 1900.

THEOPHANE L'ERMITE. (ФЕОФАН ЗАТВОРНИК). *Psaume CXVIII.* (Псалом Сто-Осмнадцатый). Commentaires. Moscou, C. St.-P., 1891. 2ᵉ éd.

THEOPHANE L'ERMITE. ((ФЕОФАН ЗАТВОРНИК). Trois sermons : *aux outragés, aux outrageants et aux affligés.* (Три слова обидимым, обидящим и скорбящим). Moscou, C. St.-P., 1903. 4ᵉ éd.

THOMAS A-KEMPIS. (ФОМА КЕМПИЙСКИЙ). *L'Imitation du Christ.* (Подражание Христу). Moscou, C. St.-P., s. d.

TOURGUENEFF, Ivan S. *Poèmes en prose.* Première traduction intégrale publiée dans l'ordre du manuscrit original autographe, avec des notes par Charles Salomon. Gap, Impr. Louis Jean, 1931.

TROIS FORMES D'ATTENTION ET DE PRIERE. (О ТРЕХ ОБРАЗАХ ВНИМАНИЯ И МОЛИТВЫ). Extrait des sermons de Siméon le Nouveau Théologien. Moscou, C. St.-P., 1901.

TROITZKY, S. V. (ТРОИЦКИЙ, С. В.). *Des noms de Dieu.* (Об Именах Божиих и Имябожниках). St.-Pétersbourg, Ed. du Saint-Synode, 1914.

UNSEEN WARFARE. Being the *Spiritual combat* and *Path to Paradise* of Lorenzo Scupoli as edited by Nicodemus of the Holy Mountain and revised by Theophane the Recluse. Translated into English from Theophan's Russian text by E. Kadloubovsky and G. E. H. Palmer, with an Introduction by H. A. Hodges, M. A.; D. Phil. Prof. of Philosophy in the University of Reading. London, Faber and Faber Ltd., 1952.

VALENTIN. *Homélies.* Citées par Clément d'Alexandrie dans les *Stromates* IV, 13, p. 89. Paris, Ed. du Cerf, coll. *Sources chrétiennes*, 1951-1954.

VELITCHKOVSKY, Païssy. Bienheureux staretz, ascète et archimandrite. (ВЕЛИЧКОВСКИЙ, Паисий). *De la prière intérieure en esprit.* (Об умной или внутренней молитве). Moscou, C. St.-P., 1902. 3ᵉ éd.

LA VIE DES SAINTS (Paterik) QUI PARVINRENT A LA GLORIFICATION SUR LE SAINT MONT-ATHOS. (АФОНСКИЙ ПАТЕРИК или ЖИЗНЕОПИСАНИЕ СВЯТЫХ НА СВЯТОЙ ГОРЕ АФОНСКОЙ ПРОСИЯВШИХ). Description de plus de cent ascètes des temps anciens et du Moyen-Age. Moscou, C. St.-P., 1897. En 2 part. 7ᵉ éd.

LA VIE DU BIENHEUREUX ATHANASE D'ATHOS. (ЖИТИЕ ПРЕПОДОБНОГО АФАНАСИЯ АФОНСКОГО). Fondateur de la vie monastique du Mont-Athos. Moscou, C. St.-P., 1908. 8ᵉ éd.

LA VIE ET LE MARTYR DE L'APOTRE SAINT THOMAS. (ЖИТИЕ И СТРАДАНИЯ СВ. АПОСТОЛА ФОМЫ). Moscou, C. St.-P., 1902. 10ᵉ éd.

LA VIE ET LES MIRACLES DE SAINT SERGE DE RADONEGE. (ЖИТИЕ И ЧУДЕСА ПРЕПОДОБНОГО СЕРГИЯ РАДОНЕЖСКОГО). Moscou, C. St.-P., 1897.

SAINT JEAN CLIMAQUE. (СВ. ИОАНН ЛЕСТВИЧНИК). *Echelle du ciel* (Climax). (Лествица Небесная). Moscou, C. St.-P., s. d.

SAINT MAXIME LE CONFESSEUR. *Centuries sur la charité.* Introduction et trad. de Joseph Pegon, S. J. Paris, Ed. du Cerf, coll. *Sources chrétiennes*, 1943.

SCHOLEM, Gershom G. *Major Trends in Jewish Mysticism.* New York, Schocken, 1954. 3rd rev. ed.

SCHOLEM, Gershom G. *Zohar — The Book of Splendor.* Selection by Gershom Scholem. New York, Schocken, 1949.

SCHUON, Frithjof. *L'œil du cœur.* Paris, Gallimard, coll. *Tradition*, 1950.

SCHUON, Frithjof. *Sentiers de gnose.* Paris, La Colombe, 1957.

SCHWALLER DE LUBICZ, R. A. *Le temple de l'homme.* Paris, Ed. Caractères, 1957.

SEROUYA, Henri. *La Kabbale.* Ses origines, sa psychologie mystique, sa métaphysique. Paris, Grasset, 1947.

LES SIGNES DE L'AVENEMENT DE L'ANTECHRIST. (ЗНАМЕНИЯ ПРИШЕСТВИЯ АНТИХРИСТА). D'après les Saintes Ecritures, avec commentaires des Saints Pères et Docteurs de l'Eglise : Jean Chrysostome, André de Césarée, Jean de Damas, Ephrème le Syrien, Théodorite et autres. Moscou, C. St.-P., 1902. 4ᵉ éd.

SNEGUIREFF, I. M. (СНЕГИРЕВ, И. М.). *Les fêtes populaires russes et les cérémonies coutumières.* (Русские простонародные праздники и суеверные обряды). Moscou, Presses Universitaires, 1837-1839. 2 vol.

SRESNEVSKY, I. I. (СРЕЗНЕВСКИЙ, И. И.). *De l'adoration du soleil chez les Slaves anciens.* (Об обожании Солнца у древних Славян). Dans le journal du Ministère de l'instruction publique II, St.-Pétersbourg, 1848.

LES « STARETZ » PERE PAISSY VELITCHKOVSKY ET PERE MACAIRE DE L'ERMITAGE OPTYNA et leur activité ascétique et littéraire. (СТАРЦЫ О. ПАИСИЙ ВЕЛИЧКОВСКИЙ И О. МАКАРИЙ ОПТИНСКИЙ и их литературно-аскетическая деятельность). Moscou, C. St.-P., 1908.

TEILHARD DE CHARDIN. *Œuvres :*
— Le phénomène humain,
— L'apparition de l'homme,
— La vision du passé,
— Le milieu divin,
— L'avenir de l'homme.
Paris, Ed. du Seuil, 1957-1959.

THEOPHANE L'ERMITE. (ФЕОФАН ЗАТВОРНИК). *Comment vivre ?* (Как жить?). Conseils raisonnés de l'Evêque Théophane l'Ermite. Moscou, C. St.-P., 1909. 3ᵉ éd.

THEOPHANE L'ERMITE. (ФЕОФАН ЗАТВОРНИК). *Commentaires sur les épîtres de l'Apôtre Saint Paul.* (Толкование посланий Св. Апостола Павла). Romains; I. Corinthiens; II. Corinthiens; Galates; Ephésiens; Colossiens et Philémon; Philippiens et Thessaloniciens; I. et II; Tite et Timothée, I et II. Moscou, C. St.-P., 1890-1895. 8 fasc.

THEOPHANE L'ERMITE. (ФЕОФАН ЗАТВОРНИК). *De l'épître de l'Apôtre Saint Paul aux Hébreux.* (О послании Св. Апостола Павла к Евреям). Introduction et début du travail trouvés après la mort de l'Evêque. Moscou, C. St.-P., 1896.

BIBLIOGRAPHIE

PISTIS SOPHIA. Opus gnosticum. Valentino Adiudicatum e condice Manuscripto coptico londinensi. Descriptit et latine vertit M. G. Schwartze. Editit J. H. Petermann. Berolini, in Fred Duemmleri Libraria, 1851.

PISTIS SOPHIA. Leipzig, Ed. Carl Schmidt, 1925.

PLATON. *Œuvres complètes*. Traduction nouvelle et notes par Léon Robin avec la collaboration de M. J. Moreau. Paris, NRF, Bibliothèque de la Pléiade, Librairie Gallimard, 1950.

PLOTIN. *Ennéades*. Texte établi et traduit par Emile Bréhier. Paris, Ed. Les Belles-Lettres, 1954. 7 vol.

POLIVKA, Jirt. *Les nombres 9 et 3 × 9 dans les contes slaves de l'Est*. Dans la Revue des Etudes slaves, t. VII, fasc. 3 et 4, p. 217-223, Paris, 1927.

LA PRIERE AU TRES DOUX SEIGNEUR JESUS — AU MOMENT DE LA SEPARATION DE L'AME DU CORPS. (МОЛЕНИЕ СЛАДЧАЙШЕМУ ГОСПОДУ ИИСУСУ, ПРИ ИСХОДЕ ДУШИ ИЗ ТЕЛА). Moscou, C. St.-P., 1912. 12ᵉ éd.

PUECH, Henri-Charles. *La gnose et le temps*. Dans *Eranos Jahrbuch*, t. XX, Zürich, Rascher Verlag, 1952. p. 57-113.

PUECH, Henri-Charles. *Le manichéisme, son fondateur, sa doctrine*. Paris, Musée Guimet, *Bibliothèque de diffusion*, t. LVI, 1949.

PUECH, Henri-Charles. *Où en est le problème du gnosticisme ?* Dans Revue de l'Université de Bruxelles, t. XXXIX, p. 137-158 et 295-314, Bruxelles, 1934-1935.

DE LA RAISON ET DU COURAGE (*De la vanité mondaine et de l'insouciance*) (О РАЗУМЕ И МУЖЕСТВЕ, О житейской суете и беспечалии). Moscou, C. St.-P., 1903. 3ᵉ éd. (De la tradition du Mont-Athos).

RECUEIL DES LETTRES DE L'EVEQUE THEOPHANE L'ERMITE. (СОБРАНИЕ ПИСЕМ СВЯТИТЕЛЯ ФЕОФАНА). Moscou, C. St.-P., 1898-1901. 8 fasc.

RECIT D'UN PELERIN RUSSE. Trad. du russe par Jean Gauvin (Laloi). Neuchâtel, La Baconnière, 1948.

LES REGLEMENTS DES TEMPS ANCIENS POUR LES ASCETES PRATIQUANTS. (ДРЕВНИЕ ИНОЧЕСКИЕ УСТАВЫ). De Pakhomii le Grand, de Basile le Grand, du Bienheureux Jean Cassian, du Bienheureux Bénédicte, recueillis par l'Evêque Théophane l'Ermite. Moscou, C. St.-P., 1892.

REITZENSTEIN, Richard. *Poïmandres*. Studien zur grieschisch-aegyptischen und fruechristlichen Literatur. Leipzig, 1904.

REITZENSTEIN, Richard. *Die hellenistischen Mysterien Religionen, ihre Grundgedanken und Wirkungen*. Leipzig und Berlin, Teubner, 1927. 3 Aufl.

SAINT ANDRE, Archevêque de Césarée. (СВ. АНДРЕЙ, Архиепископ Кесарийский). *Exégèses sur l'Apocalypse*. (Толкование на Апокалипсис). Moscou, C. St.-P., 1897. 4ᵉ éd.

SAINT IRENEE, Evêque de Lyon. *Contre les Hérésies*. Mise en lumière et réfutation de la prétendue 'Connaissance'. Texte latin, fragments grecs. Introduction, traduction et notes de F. Sagnard. Edition critique. Paris, Ed. du Cerf, coll. *Sources chrétiennes*, 1952.

SAINT ISAAC LE SYRIEN. (СВ. ИСААК СИРИЯНИН. Творения). *Œuvres*. Moscou, C. St.-P., s. d.

OUSPENSKY, Pierre. *The Psychology of man's possible evolution.* New York, Knopf, 1945.

OUSPENSKY, Pierre. *The Fourth Way. A record of talks and answers to questions based on the teaching of G. I. Gurdjieff.* New York, Knopf, 1959.

PAULY, Jean de. *Sepher Ha-Zohar. Le livre de la Splendeur.* Doctrine ésotérique des Israélites. Paris, Emile Lafuma-Giraud, 1909-1911. 6 vol.

PETREMENT, Simone. *Le dualisme chez Platon, les Gnostiques et les Manichéens.* Paris, Presses Univ. de France, 1947.

PHILOCALIE, Tome I. (ДОБРОТОЛЮБИЕ, том 1-й). Trad. sous réd. et avec introduction de l'Evêque Théophane l'Ermite. Ce volume comprend les œuvres de : Antoine le Grand; Macaire le Grand; l'Abbé Isaïe l'Ermite; Marc l'Ascète et l'Abbé Evarghios. Moscou, C. St.-P., 1905. 4e éd.

PHILOCALIE, Tome II. (ДОБРОТОЛЮБИЕ, том 2-й). Trad. sous réd. de l'Evêque Théophane l'Ermite. Ce volume comprend les œuvres de : Jean-Cassian le Romain; Issichiï, presbytre de Jérusalem; Nile de Sinaï; Ephrème le Syrien; Jean Climaque; Barsonouthée et Jean; l'Abbé Dorothée et Isaac le Syrien. Moscou, C. St.-P., 1895. 2e éd.

PHILOCALIE, Tome III. (ДОБРОТОЛЮБИЕ, том 3-й). Trad. sous réd. de l'Evêque Théophane l'Ermite. Ce volume comprend les œuvres de : Diadoque; Jean de Carpathe; l'Abbé Zocime; Maxime le Confesseur; Thalassie; Théodore; Philothée de Sinaï; Elie le presbytre, puis le récit concernant l'Abbé Philimone. Moscou, C. St.-P., 1900. 2e éd.

PHILOCALIE, Tome IV. (ДОБРОТОЛЮБИЕ, том 4-й). Trad. sous réd. et avec introduction de l'Evêque Théophane l'Ermite. Ce volume comprend les extraits de tous les enseignements connus, tant imprimés que manuscrits du père vénérable, porteur de Dieu, Théodore Stoudite. Moscou, C. St.-P., 1901. 2e éd.

PHILOCALIE, Tome V. (ДОБРОТОЛЮБИЕ, том 5-й). Trad. sous réd. de l'Evêque Théophane l'Ermite. Ce volume comprend les œuvres de : Saint-Siméon le Nouveau Théologien; Staretz Siméon; très vénéré Nicétas Stifate; Théolypte, métropolite de la Philadelphie; Grégoire le Sinaïte; Nicéphore l'Ermite; Grégoire Palamas; Patriarche Calliste et son co-ascète Ignace Xanthopoulos; Calliste le Tilikoude; Siméon, Archevêque de Salonique, et autres. Moscou, St.-P., 1900. 2e éd.

PHILOCALIE, Index. (ДОБРОТОЛЮБИЕ, Указатель). Moscou, C. St.-P., 1900.

PHILOKALIA (*Early Fathers from the...*) together with some writings of St. Abba Dorotheus, St. Isaac of Syria and St. Gregory Palamas. Selected and translated from the Russian text 'Dobrotolubiye' by E. Kadloubovsky and G. E. H. Palmer. London, Palmer and Palmer Ltd., 1954.

PHILOKALIA (*Writings from the... on prayer of the heart*). Translated from the Russian text 'Dobrotolubiye' by E. Kadloubovsky and G. E. H. Palmer. London, Faber and Faber Ltd., 1957. 3rd rev. ed.

PETITE PHILOCALIE DE LA PRIERE DU CŒUR. Traduite et présentée par Jean Gouillard. Paris, Cahiers du Sud, coll. *Documents spirituels,* 1953.

PHILOTEE, moine. (ФИЛОФЕЙ, Старец). *Epitre.* (Послание Государю Царю и Вел. Князю Василию 3-у) dans *Pravoslavny Sobessednik* (Православный Собеседник). Revue orthodoxe, n° 1, St.-Pétersbourg, 1863.

BIBLIOGRAPHIE

MOURAVIEFF, Boris. *Des croyances slaves pré-chrétiennes.* Revue Synthèses, n° 161, Bruxelles, 1959.

NELLI, René. *Ecritures cathares.* Comprenant :
- La Cène secrète,
- Le Livre des deux Principes,
- Le Rituel latin et le Rituel Occitan.

Textes précathares et cathares présentés, traduits et commentés avec une introduction sur les origines et l'esprit du catharisme, par René Nelli. Paris, Denoël, coll. *La Tour Saint-Jacques,* 1959.

NICODEME AGHYORITE. *La Croix-symbole protecteur de l'Univers tout entier.* (НИКОДИМ СВЯТОГОРЕЦ. **Крест — Хранитель всея Вселенной).** Exégèse sur le canon de l'Exaltation de la Sainte-Croix vivifiante de Notre-Seigneur (14 septembre). Trad. du grec par le Prof. I. N. Korssounsky. Moscou, C. St.-P., 1899.

NICODEME AGHYORITE. *Le Combat invisible.* (НИКОДИМ СВЯТОГОРЕЦ. **Невидимая Брань).** Trad. du grec par l'Evêque Théophane l'Ermite. Moscou, C. St.-P., 1904. 4ᵉ éd.

NICOLL, Maurice. *The New Man.* New York, Hermitage House, 1951.

ORAGE, A. R. *The Active Mind.* New York, Hermitage House, 1954.

ORIGENE. *Commentaires inédits des Psaumes.* Etude sur les textes d'Origène contenus dans le manuscrit Vindobonensis 8, par René Cadiou. Paris, Protat Frères, coll. d'études anciennes publiées sous le patronage de l'Association Guillaume Budé. 1936.

ORIGENE. *Extraits des Livres I et II du Contre Celse.* (Papyrus n° 88.747 du Musée du Caire). Ed. et introduction, notes de Jean Scherer. Le Caire, Imprimerie de l'Institut français d'Archéologie orientale, 1956.

ORIGENE. *Homélies sur le Cantique des Cantiques.* Introd., trad. et notes de Dom O. Rousseau. Paris, Ed. du Cerf, coll. *Sources chrétiennes,* 1954.

ORIGENE. *Homélies sur l'Exode.* Trad. de P. Fortier. Introd. et notes de Henri de Lubac. Paris, Ed. du Cerf, coll. *Sources chrétiennes,* 1947.

ORIGENE. *Homélies sur la Genèse.* Trad. et notes de Louis Doutreleau, introd. de Henri de Lubac. Paris, Ed. du Cerf, coll. *Sources chrétiennes,* 1944.

ORIGENE. *Homélies sur les nombres.* Introduction et traduction de André Méhat. Paris, Ed. du Cerf, coll. *Sources chrétiennes,* 1951.

ORIGENE. *De Principiis.* Tome V du *Corpus* comprenant les œuvres d'ensemble d'Origène. Berlin, Koetschau, s. d.

ORIGEN'S TREATISE ON PRAYER. Translation and notes with an account of the practice and doctrine of prayer from New Testament times to Origen, by Eric George Jay. London, S.P.C.K., 1954.

ORIGENE. *Entretien avec Héraclide et les Evêques ses collègues sur le Père, le Fils et l'âme.* Texte grec, préf., introduction et trad. par Jean Scherer. Le Caire, Institut français d'Archéologie orientale, 1949.

OUSPENSKY, Pierre. (УСПЕНСКИЙ, П. Д.). *Le Cercle intérieur.* **(Внутренний Круг).** St.-Pétersbourg, 1913.

OUSPENSKY, Pierre. *Fragments d'un enseignement inconnu.* Trad. de l'anglais par Philippe Lavastine. Paris, Stock, 1950.

JUNG, C. G. *L'homme à la découverte de son âme.* Trad. et préface de R. Cahen-Salabelle. Genève, Ed. du Mont-Blanc, coll. *Action et Pensée,* 1946.

JUNG, C. G. *Métamorphoses de l'âme et ses symboles.* Trad. et préface de Y. Le Lay. Genève, Goerg et Co., 1953.

JUNG, C. G. *Types psychologiques.* Trad. et préface de Y. Le Lay. Publication en français sous la direction du Dr. R. Cahen. Genève, Goerg et Co., 1958.

KERENYI, Charles. *La religion antique.* Trad. de Y. Le Lay. Genève, Goerg et Co., coll. *Analyse et synthèse,* sous la direction du Dr. Cahen-Salabelle, 1957.

LANZA DEL VASTO. *Commentaire de l'Evangile.* Préface de l'abbé A. Vaton. Paris, Denoël, 1951.

LEGENDES CONCERNANT LE SAINT-MONT ATHOS. (СКАЗАНИЯ О СВ. ГОРЕ АФОНСКОЙ). Explication du terme « saint » ainsi que de l'autre attribut : « l'apanage de la Mère de Dieu ». Extrait d'un manuscrit du XV[e] siècle de la Bibliothèque de la Laure de la Sainte-Trinité-Saint-Serge, attribué à Stéphane, ascète du Mont-Athos. Moscou, C. St.-P., 1897. 5[e] éd.

LEGENDES CONCERNANT LA VIE SUR LA TERRE DE LA SAINTE VIERGE. (СКАЗАНИЯ О ЗЕМНОЙ ЖИЗНИ ПРЕСВЯТОЙ БОГОРОДИЦЫ). Moscou, C. St.-P., 1904. 8[e] éd.

LOISELEUR, J. *La doctrine secrète des Templiers.* Orléans, 1872.

MATTER. *Histoire critique du gnosticisme.* Son influence sur les sectes religieuses et philosophiques des six premiers siècles de l'ère chrétienne. Paris, Leuvrault, 1928. 3 tomes en 2 vol.

LE MENOLOGE. (ЧЕТЬИ МИНЕИ В ПОУЧЕНИЯХ НА КАЖДЫЙ ДЕНЬ ГОДА). Lecture pour chaque jour de l'année. En 4 vol. recueillis par l'Archiprêtre Victor Gourielf.
— Tome I — septembre, octobre, novembre,
— Tome II — décembre, janvier, février,
— Tome III — mars, avril, mai,
— Tome IV — juin, juillet, août.
Moscou, C. St.-P., 1896.

MONT-ATHOS. (СВЯТАЯ ГОРА АФОН). *Histoire du Couvent de Saint André.* **(История Андреевского Скита).** Moscou, C. St.-P., s. d.

MONT-ATHOS. (СВЯТАЯ ГОРА АФОН). *Porte des Cieux.* Apanage de la Très-Sainte Vierge sur terre — le Saint Mont-Athos. **(Врата Небесная — Удел Пресвятыя Богородицы на земле — Святая Гора Афон).** Paris, 1958.

MOURAVIEFF, André. *Questions religieuses d'Orient et d'Occident.* St.-Pétersbourg, 1858-1859.

MOURAVIEFF, Boris. *L'histoire a-t-elle un sens ?* Revue suisse d'Histoire, t. IV, fasc. 4, Zürich, 1954.

MOURAVIEFF, Boris. *Liberté. Egalité. Fraternité.* Revue Synthèses, n° 129, Bruxelles, 1957.

MOURAVIEFF, Boris. *Le problème de l'autorité super-étatique.* Neuchâtel-Paris, La Baconnière, 1950.

MOURAVIEFF, Boris. *Ouspensky, Gurdjieff et les Fragments d'un enseignement inconnu.* Revue Synthèses, n° 138, Bruxelles, 1957.

BIBLIOGRAPHIE

FREUD, Sigmund. *The basic writings of...* Psychopathology of everyday life. The interpretation of dreams. The contribution to the theory of sex. Wit and its relation to the unconscious. Totem and taboo. The history of the psychoanalytic movement. Translated and edited, with an introduction by Dr. A. A. Brill. Index. New York, The Modern Library, Cop. 1938.

GUENON, René. *Aperçu sur l'ésotérisme chrétien*. Paris, Ed. Traditionnelles, 1954.

GUENON, René. *Les états multiples de l'Etre*. Paris, Ed. Vega, coll. *L'Anneau d'Or*, 1947.

HARNACK, Adolphe von. *History of Dogma*. Transl. from German by Niel Buchanan. London, Williams and Norgate, 1897-1899. 2nd ed. 7 vol.

HERMES TRISMEGISTE (CORPUS HERMETICUM). Texte établi par A. D. Nock et traduit par A. J. Festugière. Paris, Ed. Les Belles-Lettres, 1945. 4 vol.

HIPPOLYTE DE ROME. *Philosophoumena* ou *Réfutation de toutes les hérésies*. Première trad. française avec introd. et notes par A. Siouville. Paris, Rieder, 1928. 2 vol.

HISTOIRE EVANGELIQUE DU FILS DE DIEU — INCARNE POUR NOTRE SALUT (ЕВАНГЕЛЬСКАЯ ИСТОРИЯ О БОГЕ-СЫНЕ ВОПЛОТИВШЕМСЯ НАШЕГО РАДИ СПАСЕНИЯ). Histoire exposée dans l'ordre consécutif par les paroles des saints Evangélistes, par l'Evêque Théophane l'Ermite, avec une préface aux lecteurs par lui-même. Moscou, C. St.-P., 1895. 2e éd.

HISTOIRE GENERALE DES RELIGIONS. Publiée sous la direction de M. Gorce et R. Mortier.
— I. Introduction générale, les primitifs, l'Ancien Orient, les Indo-Européens.
— II. La Grèce, Rome.
— III. Les Indo-Iraniens, le judaïsme, les origines chrétiennes, les christianismes orientaux.
Paris, Quillet, 1944-1948. 2 vol.

HUTIN, Serge. *Les gnostiques*. Paris, Presses Univ. de France, coll. *Que sais-je ?* n° 808, 1959.

HUTIN, Serge. *Les sociétés secrètes*. Paris, Presses Univ. de France, coll. *Que sais-je ?*, n° 515, 1952.

JASPERS, Karl. *Origine et sens de l'histoire*. Trad. de l'allemand par Hélène Naef, avec la collaboration de Wolfgang Achterberg. Paris, Plon, 1954.

JOUR DE RESURRECTION ! (ВОСКРЕСЕНИЯ ДЕНЬ!). D'après plusieurs sources, notamment de l'Evêque Théophane l'Ermite. Moscou, C. St.-P., 1904. 2e éd.

JOSEPHE FLAVIUS. *Œuvres complètes*. Trad. en français sous la direction de Théodore Reinach :
— *Antiquités judaïques* (I- V)
— Dito (VI- X)
— Dito (XI- XV)
— Dito (XVI-XXII)
— *Guerre des Juifs* (I- III)
— Dito (IV- VII)
— Fasc. I — *De l'ancienneté du peuple juif*, trad. par Léon Blum. Publié par la Société des études juives. Paris, E. Leroux, 1900-1904. 5 vol. + 1 fasc.

GNÔSIS

BURROWS, Miller. *Les manuscrits de la Mer Morte*. Traduit de l'américain par M. Glotz et M. T. Franck. Paris, Robert Laffont, 1957. 2 vol.

LA CEREMONIE DE RENONCEMENT A SATAN ET D'UNION AVEC LE CHRIST. Dans l'ordre de la Catéchèse. (ОБРЯД ОТРЕЧЕНИЯ ОТ САТАНЫ И СОЧЕТАНИЯ ХРИСТУ — в чине оглашения). Moscou, C. St.-P., 1907.

CLEMENT D'ALEXANDRIE. *Extraits de Théodote*. Texte grec, introd., trad. et notes par François M. Sagnard. Paris, Ed. du Cerf (série non chrétienne), 1948. (Thèse de lettres).

CLEMENT D'ALEXANDRIE. *Les Stromates*. Introd. de Claude Mondésert, trad. et notes de Marcel Carter. Paris, Ed. du Cerf, coll. *Sources chrétiennes*, 1951-1954. 2 vol.

DAY, Langston and WARR, George de la. *New Worlds Beyond the Atom*. London, V. Stuart, 1956.

DELCOURT, Marie. *Hermaphrodite*. Mythes et rites de la Bisexualité dans l'Antiquité classique. Paris, Presses Univ. de France, 1958.

DEMETRIUS (Archevêque de Chersonèse Taurique). *Les fleurs du jardin*. (ЦВЕТЫ ИЗ САДА Димитрия, Архиепископа Херсонского). Moscou, C. St.-P., 1889-1890. 7 fasc.

DENYS L'AREOPAGITE. *La hiérarchie céleste*. Introduction par René Roques. Etude et texte critique par Günter Heil. Trad. et notes par Maurice de Gandillac. Paris, Ed. du Cerf, coll. *Sources chrétiennes*, 1958.

DIADOQUE DE PHOTICE. *Cent chapitres sur la perfection spirituelle*. Paris, Ed. du Cerf, coll. *Sources chrétiennes*, 1943.

DORESSE, Jean. *Un rituel magique gnostique*. Paris, Ed. H. Roudil, Revue de la Tour Saint-Jacques, n[os] 11-12, juillet-décembre 1957.

DORESSE, Jean. *L'Empire du Prêtre Jean*. Paris, Plon, 1957.

DOSTOIEWSKY, F. *Œuvres complètes*. St.-Pétersbourg, Imprimerie Pantéleff, 1906. 9 vol. ДОСТОЕВСКИЙ, Ф. М., **Полное собрание сочинений**.

DRAGUET, R. *Les pères du désert*. Paris, Plon, 1942.

ECKHART (Maître). *Œuvres de Maître Eckhart. Sermons-Traités*. Trad. de Paul Petit. Paris, Gallimard, 1942.

EPIPHANE. *Epiphanii contra Haereses*. Basileae, 1562.

EUSEBE DE CESAREE. *Histoire ecclésiastique*. Texte grec, traduction et annotations par Gustave Badry, correspondant de l'Institut. T. I — Livres I-IV; T. II — Livres V-VII. Paris, Ed. du Cerf, coll. *Sources chrétiennes*, 1952-1955. 2 vol.

FABRE D'OLIVET, Antoine. *La vraie maçonnerie et la céleste culture*. Texte inédit avec introd. et notes critiques par Léon Cellier. Paris, Presses Univ. de France, 1952.

FABRE D'OLIVET, Antoine. *Pythagore. Les vers dorés. Discours*. Traduit par F. d'O. Paris, 1813.

FEDOROV, Nicolas Fed. *Philosophie de la cause commune*. (ФЕДОРОВ, Николай Фед., **Философия Общего Дела**). Articles, pensées et lettres. Ed. sous la réd. de V. A. Kojévnikov et N. A. Peterson. Moscou, Verny, 1906-1913. 2 vol.

FESTUGIERE, A. J. *La révélation d'Hermès Trismégiste*. Paris, J. Gabalda, 1949-1954. 4 vol.

BIBLIOGRAPHIE

IV.

DIVERS

AFANASSIEFF, A. N. (АФАНАСЬЕВ, А. Н.). *Les représentations poétiques de la nature chez les Slaves* (Поэтические воззрения Славян на природу). Moscou, Ed. K. Soldatenkov, 1865-1869. 3 vol.

AHIKAR LE SYRIEN. (*Histoire et sagesse d'*). Trad. François Nau. Paris, Letouzey et Ané, 1906.

ALLENDY, Dr. R. *Le symbolisme des nombres : Essai d'Arithmosophie*. Paris, Chacornac, 1948.

LES ASCETES CONTEMPORAINS DU SAINT-MONT ATHOS (АФОНСКИЕ СОВРЕМЕННЫЕ ПОДВИЖНИКИ). Moines-ascètes : Nicodème, Païssy, Gabriel, Néophyte et Anthème face à la gloire de Dieu. Moscou, C. St.-P., 1904. 10ᵉ éd.

AUDET, Jean-Paul. *La Didachè — Instructions des Apôtres*. Paris, J. Gabalda, 1958.

LA BEAUTE DES MATINES DE PAQUES (КРАСОТА ПАСХАЛЬНОГО БОГОСЛУЖЕНИЯ). Homélie pendant les vêpres le dimanche de Pâques. Moscou, C. St.-P., 1912.

BLANC DE SAINT-BONNET, Antoine. *De l'unité spirituelle ou de la société et de son but au-delà du temps*. Paris, Langlois et Leclerc, 1845. 3 vol.

BOEHME, Jacob. *Le chemin pour aller à Christ*. Du vieux Seidenbourg, nommé communément Theo-Philosophe Teutonique. Trad. de l'allemand. Berlin, Impr. Gottard Schleichtiger, 1722.
Comprend neuf petits traités réduits en huit :
— De la vraie repentance,
— De la sainte prière,
— De la vraie équanimité, dit l'abandon,
— De la régénération,
— Dialogue de la vie supersensuelle,
— De la contemplation divine,
— Entretien d'une âme illuminée avec une autre âme qui n'est pas illuminée,
— Des quatre complexions.

BORISKOVSKY, P. I. *Le passé le plus reculé de l'humanité*. (Борисковский, П.И. Древнейшее прошлое человечества). Moscou, Ed. de l'Académie des Sciences, 1957.

BOUCHER, Jules (J. B.). *La symbolique maçonnique* ou l'Art Royal remis en lumière et restitué selon les règles de la symbolique ésotérique et traditionnelle. Paris, Dervy, coll. *Histoire et Tradition*, 1953.

BREHIER, E. *Les idées philosophiques et religieuses de Philon d'Alexandrie*. Paris, Vrin, 1950.

BROWN, Allan R. *Paul the Sower*. A study of the purpose and meaning of the Epistle to the Romans. Introduction by Herbert Parrish D. D. New York, Fleming H. Revell Co., 1932.

BURCKHARDT, Titus. *Principes et méthodes de l'Art sacré*. Lyon, Derain, coll. *Les trois lotus*, publiée sous la direction de H. et J. Herbert, 1958.

GNÔSIS

L'EVANGILE SELON THOMAS. Texte copte établi et traduit par A. Guillaumont, H.-C. Puech, G. Quispel, W. Till et † Yassan 'Abd Al Masih. Paris, Presses Universitaires de France, 1959.

EVANGELIUM VERITATIS. Codex Jung, édité par Michel Malinine, Henri-Charles Puech, Gilles Quispel. Zürich, Rascher Verlag, 1956.

UN LOGION DE JESUS SUR BANDELETTE FUNERAIRE. Par Henri-Charles Puech. Paris, Bulletin de la Sté. Ernest Renan, n° 3, 1954.

UNE COLLECTION DE PAROLES DE JESUS RECEMMENT RETROUVEES. Paris, Comptes-rendus de l'Académie des inscriptions, 1958.

DORESSE, Jean *Introduction aux écrits gnostiques coptes découverts à Khénoboskion.* (Tome I des *Livres secrets des Gnostiques d'Egypte*). Paris, Plon, 1958.

ACTES DE PAUL et ses lettres apocryphes. Introd., textes, trad. et commentaires par Léon Vouaux. Paris, Letouzey et Ané, 1913.

ACTES DE PIERRE. Introd., textes, trad. et commentaires par Léon Vouaux. Paris, Letouzey et Ané, 1922.

FRAGMENTS RETROUVES DE L'APOCALYPSE D'ALLOGENE. Par Henri-Charles Puech. Dans Mélanges, s. l., Franz Cumont, 1936.

THE APOCALYPSE OF BARUCH. By R. H. Charles. London, Macmillan, 1918.

L'APOCALYPSE ARABE DE DANIEL. Paris, Leroux, 1904.

THE APOCALYPSE OF EZRA (II Ezra III - XIV). Translated and annoted by G. H. Box. London, Soc. for promoting Christian knowledge, 1917.

ADAM AND EVE (*The book of...*) also called: the *Conflict of Adam and Eve with Satan.* A book of the early Eastern Church by the Rev. S. C. Malan. London, Williams and Norgate, 1882.

THE ASCENSION OF ISAIAH. Transl. from the Ethiopic version which together with the New greek Testament, the latin versions and the latin translation of the slavonic is here published in full, by R. H. Charles. London, A. Black, 1900.

EPITRE DE BARNABE. Texte grec, trad. française, introduction et index par H. Hemmer, G. Oger et A. Lorent. Paris, Auguste Picard, coll. *Les Pères apostoliques*, 1926. 2° éd.

LES ODES DE SALOMON. Une œuvre chrétienne des environs de l'an 100-120. Trad. de J. Labourt et P. Batiffol. Paris, J. Gabalda, 1911.

THE PSALMS OF SOLOMON. Ed. by Henry Barclay Swete. Cambridge, The Univ. Press, 1899.

THE TESTAMENT OF ABRAHAM. By W. E. Barnes. Cambridge, The Univ. Press, 1892.

THE TESTAMENT OF SOLOMON. Ed. by Chester Charlton McCown. Leipzig, J. C. Hinrichs, 1922.

BIBLIOGRAPHIE

Isidore Singer Ph. D. projector and managing editor, assisted by American and foreign boards of consulting editors. New York and London, Funk and Wagnalls Co., 1901-1916. 12 vol.

THE UNIVERSAL JEWISH ENCYCLOPAEDIA. An authoritative and popular presentation of Jews and Judaism since the earliest times. Ed. by Isaac Landman. New York, Universal Jewish Encyclopaedia Co. Inc., 1948. 10 vol.
Supplement. A reading guide and index. Comp. by Simon Cohen. New York, Universal Jewish Encyclopaedia Co. Inc., 1948.

ENCYCLOPAEDIA OF RELIGION AND ETHICS. Ed. by James Hastings... with the assistance of John A. Selbie... and other scholars. Edinburgh, T. and T. Clark. New York, C. Scribner's Sons, 1908-1926. 13 vol.

III.

APOCRYPHES

APOCRYPHES (*Dictionnaire des*). Collection de tous les livres apocryphes relatifs à l'Ancien ou au Nouveau Testament. Paris, Migné, 1856. 2 vol.

APOCRYPHES DE L'ANCIEN TESTAMENT. Documents pour l'étude de la Bible publiés sous la direction de François Martin. Paris, Letouzey et Ané, 1906.

LES APOCRYPHES ETHIOPIENS. Trad. française de René Basset. Paris, Librairie de l'Art indépendant, 1893-1895. 10 vol.

QUATRIEME LIVRE DES MACHABEES. Introduction et notes par André Dupont-Sommer. Paris, H. Champion, 1939. (Bibl. de l'Ecole des Hautes études scient., histor. et philol.).

LES EVANGILES APOCRYPHES. D'après l'édition de J. C. Thilo, par Gustave Brunet. Suivis d'une notice sur les principaux livres apocryphes de l'Ancien Testament. Paris, Franck, 1848.

LES APOCRYPHES DU NOUVEAU TESTAMENT. Publiés sous la direction de J. Bousquet et B. Amman : documents pour servir à l'étude des origines chrétiennes. Paris, 1910-1922. 3 vol.

THE APOCRYPHAL NEW TESTAMENT. Translated by M. R. James. Oxford, At the Clarendon Press, 1955.

EVANGILES APOCRYPHES. Par Ch. Michel, Paris, Picard, 1924.

LA BIBLE APOCRYPHE — EVANGILES APOCRYPHES. Par F. Amiot. Paris, Librairie Arthème Fayard, coll. *Textes pour l'histoire sacrée*, choisis et présentés par Daniel Rops, 1952.

DOCTRINE DES XII APOTRES (Didachè). Texte grec, trad. française. Introduction et index. par H. Hemmer, G. Oger et A. Lorent. Paris, Auguste Picard, coll. *Les Pères apostoliques*, 1926. 2ᵉ éd.

PROTEVANGILE DE JACQUES. Et ses remaniements latins. *Pseudo Matthieu. Nativité de Marie*. Introduction. Textes, traduction et commentaires par Elime Amman. Paris, Letouzey et Ané, 1910.

L'EVANGILE DE PIERRE. Par Léon Vaganay. Paris, J. Gabalda, 1930.

L'EVANGILE SELON THOMAS, ou *les Paroles secrètes de Jésus*. (Tome II des *Livres secrets des Gnostiques d'Egypte*). Par Jean Doresse. Paris, Plon, 1959.

LE SAINT EVANGILE DE N. S. JESUS-CHRIST ET LES ACTES DES APOTRES. Marseille, Ed. de Saint-Jérôme, 1931.

LE NOUVEAU TESTAMENT ET LES PSAUMES. Traduction par Louis Segond. Nouvelle édition. Paris, 1932.

EVANGILE DE JEAN. Chap. I-XIV — Papyrus Bodmer, II. Bibl. bodmeriana, 5. Publié par le Prof. Victor Martin. Genève, 1956.

II.

CONCORDANCES, DICTIONNAIRES, ENCYCLOPEDIES

CONCORDANCE DES SAINTES ECRITURES. Précédée des analyses chronologiques de l'Ancien et Nouveau Testament. Paris, L. D. Delay, 1844.

CONCORDANCE DES SAINTES ECRITURES. D'après les versions Segond et synodale. Société biblique auxiliaire du Canton de Vaud. Genève-Paris, Lausanne, Maison de la Bible, 1954.

DICTIONNAIRE DES ANTIQUITES GRECQUES ET ROMAINES. Fondé par Ch. Daremberg et Edm. Soglio. Paris, Hachette, 1877-1912. 5 tomes en 9 vol.

DICTIONNAIRE DE LA BIBLE. Publié par F. Vigoureux, prêtre de Saint-Sulpice, avec le concours d'un grand nombre de collaborateurs. A.-Z. Paris, Letouzey et Ané, 1895-1912. 5 vol.

THE NEW CATHOLIC DICTIONARY. A complete work of reference of every subject in the life, belief; tradition, rites, symbolism, devotions, history... of the Church... comp. and ed. under the direction of Conde B. Pallen (and) John J. Wynne... under the auspices of the editors of the Catholic Encyclopaedia. New York, The Universal Knowledge Foundation, 1929.

DICTIONNAIRE DE THEOLOGIE CATHOLIQUE. Fondé par A. Vacant. Paris, Letouzey et Ané, 1903-1950. 15 tomes en 17 vol.

VOCABULAIRE TECHNIQUE ET CRITIQUE DE LA PHILOSOPHIE. Par André Lalande, Membre de l'Institut. Paris, Presses Universitaires de France, 1956. 7e éd.

VOCABULAIRE DE LA PSYCHOLOGIE. Publié avec la collaboration de l'Association des travailleurs scientifiques. Par Henri Piéron, Prof. au Collège de France, Dir. de l'Institut de psychologie de l'Université de Paris. Paris, Presses Universitaires de France, 1951.

THE CATHOLIC ENCYCLOPAEDIA. An international work of reference on the constitution, doctrine, discipline and history of the Catholic Church. Ed. by Charles Herbermann and others. London, Caxton Pub. Co. 1907-1912. 15 vol. Supplementary volume containing revisions of the articles on canon law according to the code of canon law of Pius X. prom. by Pope Benedict XV. By Andrew A. Macerlean. New York, The Encyclopaedia Press, 1918.

ENCICLOPEDIA CATTOLICA. Direttore Mons. Pio Paschini, Rettore magnifico del Pontificio atenco lateranense. Citta del Vaticano, Ente per l'Enciclopedia cattolica e per il libro cattolico, 1948.

THE JEWISH ENCYCLOPAEDIA. A descriptive record of the history, religion, literature and customs of the Jewish people from the earliest times to the present day, prepared under the direction... of Cyrus Adler... (and others),

BIBLIOGRAPHIE

préparée avec la collaboration

du

Docteur ALBERT-JEAN LUCAS

Une bibliographie sur l'ensemble des sujets traités dans *Gnôsis* pourrait être considérablement étendue. Les publications mentionnées ci-après ont pour seul but de permettre au lecteur, s'il le désire, d'étudier d'une manière plus approfondie divers éléments formant le contexte du présent ouvrage. Cette étude faciliterait la compréhension des thèses qui y sont exposées.

Légende : C. St.-P. — Edition du Couvent de Saint-Pantéleimon du Mont-Athos. Pour les titres en russe, on a utilisé l'orthographe moderne.

I.

BIBLE : ANCIEN ET NOUVEAU TESTAMENT

LA PREMIERE PARTIE DU NOUVEAU TESTAMENT, en *françays*, nouvellement reveu et corrigé, traduction par Le Fèvre. Lyon, Nicolas Petit, 1540.

LA BIBLE. *Qui est toute la Sainte-Ecriture du Vieil et Nouveau Testament.* La Rochelle, de l'Imprimerie de H. Hauttin par Corneille Hertmann, 1616.

BIBLE ou les LIVRES DES SAINTES ECRITURES DE L'ANCIEN ET DU NOUVEAU TESTAMENT. Texte slavon. (БИБЛИЯ сиречь КНИГИ СВЯЩЕННОГО ПИСАНИЯ ВЕТХОГО И НОВОГО ЗАВЕТА. (Славянский текст).
Texte revu, corrigé et publié sur l'ordre de l'Impératrice Elisabeth Ire. Moscou, Imprimerie d'Etat, 1762.

LA SAINTE BIBLE, contenant :
— le texte sacré de la Vulgate,
— la traduction française du R. P. de Carrières,
— la Concordance des Livres saints,
— les commentaires de Ménochus,
— des préfaces et des notes historiques et théologiques.
Par Mgr. Drioux, 12e éd. Paris, Berche et Tralin, 1900. 8 vol.

LA SAINTE BIBLE. Traduite en français sous la direction de l'Ecole biblique de Jérusalem. Paris. Ed. du Cerf, 1956.

NOVUM TESTAMENTUM *graece et latine. Textum graecum recensuit, latinum ex Vulgata. Tertia editio critica recognita.* Par Frédéric Brandscheid. Fribourg. Tome I — 1901; Tome II — 1907.

BORIS MOURAVIEFF

GNÔSIS

ÉTUDE ET COMMENTAIRES

SUR LA

TRADITION ÉSOTÉRIQUE

DE L'ORTHODOXIE ORIENTALE

TOME PREMIER

(CYCLE EXOTÉRIQUE)

Schémas exécutés par Michel Droin

A LA BACONNIERE

المرحلة الخارجية - المرحلة الوسطى - المرحلة الداخلية "الباطنية"

صممت خطة هذا المؤلف تبعا لطبيعة التعليم الباطنيّ ، في ثلاثة مجلدات ، مثل التدرج المطبق في التعليم الوضعي في العالم.

الدرجة الأولى ، الدورة الخارجيّة مطابقة للتعليم الابتدائي، وهدفه أن يزود التلميذ بأداة العمل .

الدرجة الثانية - المرحلة الوسطى - ("المعرفة الباطنية المجلد الثاني" لم يترجم إلى العربية) ، مطابقة للتعليم الثانوي ، وهدفها أن تمد التلميذ - الذي استوعب الدورة الخارجيّة - بالحد الأدنى من العناصر التي إذا استوعبت بدورها، يمكن أن تعطيه أساس قاعدة للتطور اللاحق لثقافته العامة الباطنيّة .

الدورة الوسطى مقادة بطريقة أن تعطي للتلميذ الوسائل اللازمة للتعمق في المادّة المدرسّة ، وهو ما سوف يسمح له بمواصلة الأبحاث في مجال العلم الباطنيّ المحض ، مثل أي فرع من فروع العلم الوضعي المعروفة لديه.

هذا المستوى مطابق لتتويج الدراسات الثانوية (البكالوريا، النضوج) ويفتح الطريق إلى التعليم العالي، وهي مرحلة تستلزم مشاركة فعاله من التلميذ .

الدرجة الثالثة ، الدورة الباطنيّة بمعناها الحقيقي ("المعرفة الباطنيّة المجلد الثالث" لم يترجم إلى العربية) مطابق بدقة للتعليم الوضعي العالي .

وهذا الأخير متخصص دائما؛ كما هو الحال بالنسبة للباطنية . ومثلما في العلم الوضعي تتضمن الغنوصيّة عدة قطاعات، الفروع المختلفة للمعرفة .

في الفترة الانتقالية التي نحن بصددها اليوم بين دورة الابن التي توشك على الانتهاء، ودورة الروح القدس التي تقترب - يُوّجه التعليم الباطنيّ العالي نحو الاحتياجات العاجلة والضرورية للقضية . إلا أن استعداد التلميذ، بالنسبة للمادة الباطنية ، لا تقاس فقط عن طريق المعرفة الكتبية . بمعنى آخر إن المعلومات بدون علم وفن الإنجاز بمهارة غير كافية. خصوصا لو أخذنا في اعتبارنا احتياجات العصر . أما بالنسبة للتلميذ الآن - وأكثر من أي وقت مضى - لا يمكنه أن يتقدم بدون أن يخدم القضية بكفاءة عن طريق مشاركة شخصية في نجاح الانتقال .


Bibliotheca Alexandrina
0421373